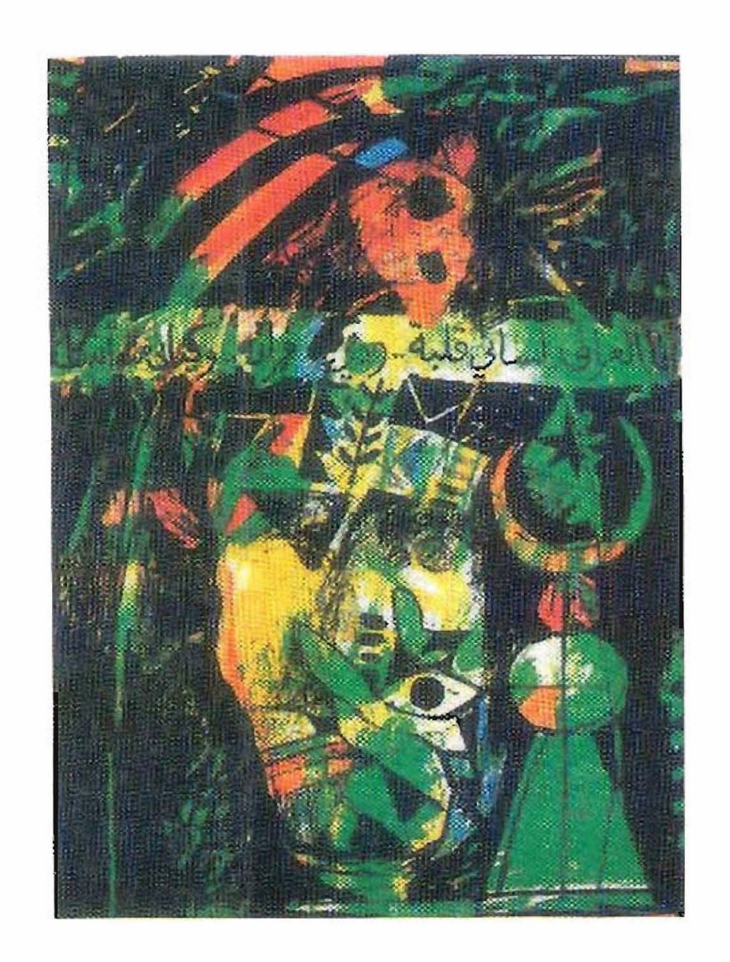
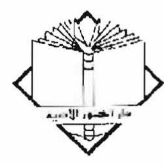
عبد الحسين شعبان

الجواهري

جدل الشعر والحياة





الجواهري في سطور

* ولد في مدينة النجف الاشرف عام ١٩٠٠ م. (وهناك روايات أخرى تقول بأنه ولد عام ١٨٩٧ أو ١٩٠٣) وتحدّر من أسرة عريقة في العلم والأدب.
* درس في بدايات شبابه النحو والبلاغة والفقه، لكنه إختار الشعر منذ سن مبكرة وبدأ النشر منذ مطلع العام ١٩٢١.
* عمل في التشريفات الملكية في البلاط برفقة الملك فيصل الاول ١٩٢٧ - ١٩٣٠ ، ثم استقال ليصدر صحيفة "الفرات" وبعد إغلاقها عمل معلما في عدد من المدارس الابتدائية في العراق
* أصدر ديوانه الاول "ديوان بين الشعر والعاطفة" عام ١٩٢٨ وديوانه الثاني "ديوان الجواهري" عام ١٩٣٥.
* أصدر عددا من الصحف كانت "الرأي العام" الاكثر شهرة والاكثر معمّرة . ومن الصحف التي أصدرها "الانقلاب" و"الثبات" و"الجهاد" و"الاوقات البغدادية" و"الدستور" و"صدى الدستور" و"الجديد" و"العصور".
* دخل المجلس النيابي "مرشحا" عن لواء (محافظة) كربلا في خريف عام ١٩٤٧ ، واستقال منه بعد أسابيع احتجاجا على معاهدة بورتسموث وإثر اندلاع وثبة كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ ، التي استشهد فيها شقيقه "جعفر"
* انتخب رئيسا لاتحاد الادباء العراقيين ونقابة الصحفيين العراقيين لاول مرة بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨.
* أقام في براغ سبع سنوات من عام ١٩٦١ الى اواخر العام ١٩٦٨ ، ثم عاد الى منفاه في اواخر السبعينات واستقر في اوائل الثمانينات في دمشق.
* صدرت الى طبعة بغداد ، طبعتان حديثتان لدواوينه، الاولى عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق عام ١٩٧٩ والثانية عن "دار العودة" في بيروت عام ١٩٨٢
* الموسوعة البريطانية خصّت الجواهري شاعر العرب الأكبر باعتباره واحداً من المشاهير في العالم.

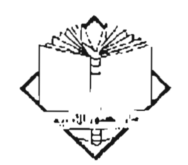
الجـــواهـــــري

جدل الشعر والحياة

عبد الحسين شعبان

الجواهري

جدل الشعر والحياة



الجواهري /جدل الشعر والحياة

الدكتور عبد الحسين شعبان

الطبعة الاولى ١٩٩٧

دار الكنوز الادبية

ص . ب ٧٢٢٦ ـ ١١ هـ ٦٥٣٥١٤

بيروت ـ لبنان



الاهـداء

"الكنز لا يكون صديقا على الدوام، ولكن الصديق يكون كنزا في كل الأحوال"

مثل روسي

إلى رمز صداقاتي أهدي هذا الكتاب في زمن عزّ فيه الأصدقاء وشحّ فيه الوفاء..!

بغتة داهمني ذلك الحلم الغامض، الشديد الاخضرار، بقوته السحرية في ذلك المساء الخريفي الشفيف وفي تلك المدينة الأليفة، فوجدني أحمل قلبي وأنا في لجّة الابحار.. لم يكن لي من معين سوى البحر، الصديق العتيق الذي ضمّ حكايات عشقي وأسراري وهواجسي... إليه أعود كلّما انتابني دوّار البر أو غافلتني وحشة السكون!

ع.ش

المقدمة

بقلم: الدكتور عبد اللطيف اطيمش*

الاقتراب من الجواهري يوشك أن يكون مغامرة يصعب التكهن بنتائجها، ليس فقط على المستوى الشعري والإبداع الأدبي، بصفته عالماً شعرياً خاصاً متشابكاً عصفت به أحداث مضطربة، ولكن أيضاً على المستوى الشخصي لكينونة الجواهري وطبيعته البالغة الحساسية. أن تقترب من هذا الشاعر الغريب، عليك أن تعد العدة لنفسك، لا من ناحية الإحاطة بشعره ودراسة تطور مراحل إبداعه فحسب، بل من ناحية طبيعة مزاجه وفهم نفسيته كذلك. ولكن هل هناك من يفهم نفسية الجواهري؟

يقول الجواهري عن نفسه: "في داخلي كثير من العناصر المتفجرة، اعتزازي بكرامتي، الثقة بالنفس، والتي تصل حد الغرور أحياناً، كل هذه دمرت جزءاً من حياتي.."[1]

---

* شاعر وأديب عراقي حائز على درجة الدكتوراه من جامعة لندن (قسم الدراسات الشرقية والافريقية) له آثار مطبوعة منها كلمات طية (شعر) ومدن وقصائد (شعر) وجمرة على حافة القلب (شعر) وملامح من الشعر الانجليزي (ترجمة عن الانجليزية).

(1) من حوار للدكتور عبد الحسين شعبان مع الجواهري.

هذه النفس المتفجرة المضطربة، ليس سهلاً أن تواجهها، ولا هيناً أن تتعرف إليها وتكتب عنها. غير أن هذه النفس المتفجرة ذاتها، هي التي صنعت من الجواهري شاعراً لا يضاهى.

من هنا، كان الدارسون والأدباء وكتاب السّير الأدبية الذين يحاولون الاقتراب من الجواهري أو الكتابة عنه، يشعرون دائماً بالحيرة والارتباك: كيف يقتحمون عالمه المتشابك العاصف، وكيف يدلفون إلى غابات شعره الكثيفة التي اختلط فيها الخاص والعام وتنازعتها السياسة والنضال والحب ومقارعة الطغاة! فهو كما قال عنه د. عبدالحسين شعبان: "مسحور بفوضى خاصة، لم يألفها أدباء جيله، وله في الوقت نفسه سحر دائم.."[٢].

أما على مستوى لقائه الشخصي.. فإن الجواهري، إلى جانب هيبته التي تدهمك منذ اللحظة الاولى وتربكك، شخص عصبي المزاج سريع التأثر. فحماسيته وحذره الغريزي وتقلب مزاجه، جعلته شخصاً بعيد المنال، ليس سهلاً أن تحظى بصداقته، لأنه لا يهب صداقته لأيٍّ أحد، ولا يمنح ودّه للغرباء. وهو لا يألف الناس بسهولة. ولكنه ما أن ترتاح نفسه إلى إنسان ويطمئن إلى مشاعره، حتى يمنحه كل رعاية وود، ويغدق عليه من كرمه ووجدانه. فالجواهري كريم بطبعه، يقدر الصداقة ولا ينسى الجميل. فكرم محيطه وأصالة ارومته العائلية غرست في نفسه أجمل الشمائل وأغناها.

وبهذا الصدد، فأنا مازلت أحمل بعض الذكريات الطيبة عن الجواهري، أيام حالفتني الظروف في أن أتعرف عليه للمرة الأولى عام ١٩٦٠ في اتحاد الأدباء العراقيين، حين قدمني إليه الشاعر الراحل بلند الحيدري للتوقيع على بطاقة عضويتي في الاتحاد يوم كان الجواهري رئيساً له في بداية تأسيسه، ولن أنسى ترحيبه بي وتشجيعه إياي، كما تهيأ لي أن ألمس بنفسي ذلك، تلك

---

[٢] يراجع د. شعبان في هذا الكتاب.

الخصال الكريمة لديه، مثلما لمسها كل من حالفه الحظ في التعرف إليه وحضور مجلسه. فأنا أذكر زياراتنا المتعددة إليه في داره ببغداد، أواخر السبعينات، بصحبة كل من الشاعر علي الحلي والقاص الروائي عبد الله نيازي، وأذكر كم كان سخياً ومضيافاً، بشوشاً متواضعاً يقدم لنا الشراب بيده، يغمرنا بظرفه وأحاديثه حول الأدب والشعر طيلة سهرتنا التي كانت تمتد لساعة متأخرة من الليل. وكنت ألمس ذات المشاعر حين كنت ألتقي الجواهري في الجزائر ونستمع إلى أشعاره.

وأن تعيش في زمان الجواهري، فهذا قدر سعيد، أما أن تراه عن قرب وتجالسه وتتحدث إليه، فهو شرف وامتياز كبير.

هكذا.. إذن، صعوبة الوصول إلى هذا الشاعر الصعب، أو التفكير في مشروع الكتابة عنه. والدكتور عبد الحسين شعبان على صواب حين يقول: "لقد بات البحث في شعر الجواهري وأدبه من الأمور المعقدة، نظراً لغنى التجربة وتنوعها، وتعدد صورها الفنية.."[٣]

هذه الشخصية الكبيرة المتناقضة حد التصادم والتطرف، التي تحدت الحكام والملوك، الطامحة إلى المجد، المحرضة والمقبلة على الحياة والمستعدة أبداً إلى رفضها والزهد فيها في أية لحظة كبرياء وانفة، هذه الشخصية كيف يصل إليها الدارس، وكيف يتعامل معها، وكيف يؤلف بين متناقضاتها، ليخرج منها في النهاية سفراً أدبياً يرسم صورة واضحة وحقيقية لهذا الشاعر الغريب الشامخ. حتى انه يصح القول ان تاريخ الشعر العربي عبر عصوره المختلفة، ومنذ المتنبي لم يشهد حياة عاصفة لشاعر، شائكة، غريبة الأطوار، تواقة للمعارك والصدامات، زاخرة بالأضداد، كحياة الجواهري.

---

(٣) المصدر نفسه.

ألم يقل هو عن نفسه: "أنا بطبعي حاد، متوتر ومتأزم، وهو ماينعكس على حالتي في رد الفعل، أحياناً يلتقي توتري الشخصي مع التوتر السياسي.."[٤]

وكما كان المتنبي يشعر بتفكك عصره وانهياره، وفساد مجتمعه، حين نذر نفسه وشعره لاصلاح المجتمع وإعادة التوازن إلى قاعدته، مندفعاً بإحساسه الباكر بموهبته وفرادته وسط أمة ضائعة مضيعة، فقال بإعتداد صارخ:

"أنــا في أمـــةٍ تداركهــا الله غريـــبٌ، كصـــالحٍ في ثمـــودِ"

نجد الجواهري، وكأنه يصبو إلى ذات الحلم، منذ أن بدأ، بغرور واضح، يوقع قصائده الاولى بـ"نابغة النجف"، يسعى إلى تغيير المجتمع، فبدأ، شأن كل مصلح، بتغيير نفسه أولاً، فغير لباسه، وخلع عمامته، وغير بيئته ومدينته، وخرج على السائد في المجتمع، منطلقاً نحو آفاق أرحب، مبشراً بـ"مفاتيح مستقبل زاهر" للناس، في عهد جديد، تظلل فيه العدالة الاجتماعية كل بيت، ويعيد للأمة ماضيها الزاهر ومجدها الآفل.

وهكذا، أصبح شعر الجواهري، كما المتنبي، تصويراً حياً للبطولة العربية، وتجسيداً للقيم النبيلة، ودعوة لاستعادة العنفوان العربي المفقود. فقد أدرك الجواهري، إذن، أن شعره يمكن أن يكون سلاحاً أو وسيلة تغيير، يصلح من حال هذه الأمة المفككة ويعيد لها توازنها ووجهها الوضيء، بعد أن وصلت إلى حالة مزرية، وصفها هو بقوله:

يسطو على صَنمٍ بها صَنمُ ويغارُ من عَلَمٍ بها عَلَمُ

من جانب آخر، كان شعر الجواهري، على مدى يزيد على نصف قرن من التاريخ المضطرب للعراق الحديث، يمثل، بصورة خاصة جزءاً مهماً من حياة الشعب العراقي، بكافة فئاته وطوائفه، فهو شاهد في كل حدث اجتماعي أو سياسي، وماثل في كل تغيير وزاري، ومؤرخ لتوقيع كل معاهدة

---

[٤] من حوار الدكتور شعبان مع الجواهري.

سياسية جائرة، ثار ضدها الشعب العراقي وقاومها. وهو، بكلمة أخرى تصوير حي لأحاسيس الشعب، وتعبير عن آرائه ونبضات وجدانه وتطلعاته نحو المستقبل. وقد لخص الجواهري نفسه كل هذا، حين قال:

أنا العراقُ، لساني صوتهُ، ودمي فراتُه، وفؤادي منهُ أشطار

وكان الشعب العراقي، كلما ادلهمت بوجهه الخطوب، واشتدت به الأزمات، يستمد العزيمة من شعر الجواهري، ويجد في قصائده الأمل المشرق الذي يشيع التفاؤل في النفوس، ويمد الشباب بالقوة وحب الحياة والوقوف بوجه الظلم والطغيان. فكم من مرة، وقف الجواهري في الساحات العامة، داعياً الجماهير للثبات والتماسك، مبشراً بالخلاص القريب:

فتماسكوا، فقدْ قريبٌ فجرهُ منكم، وكل مؤجّلٍ لَقريبُ

ولهذا، كان على دارسي شعر الجواهري وحياته، أن يدركوا أنهم أمام حالة خاصة، لابد من التعامل معها بحذر شديد. فهذا الشاعر، بعبقريته الشعرية الاستثنائية وظروف عصره، وحضوره الشخصي وحياته الحافلة، أشبه بظاهرة نادرة من الظواهر الكونية التي قد لا تتكرر إلا بعد مئات السنين. فبعد مرور أكثر من ألف عام على ظهور المتنبي، كظاهرة فريدة، "ملأت الدنيا وشغلت الناس"، لم نلاحظ تكرر هذه الظاهرة إلا بظهور الجواهري في عصرنا الراهن، وكأنه يذكرنا بامتداده الطبيعي والتاريخي مع أصالة المدرسة الشعرية في العصر العباسي. فهو آخر سلسلة من شعرنا العربي الكلاسيكي بكل جماله وفخامة لغته.

وقد كان الدكتور طه حسين مدركاً لهذه الحقيقة، حين وصف الجواهري بقوله: "انه البقية الباقية من التراث الأدبي العربي الصحيح.."

وإذا كان العراق قد أنجب، منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة في أوائل العشرينات من هذا القرن، شعراء الرعيل الأول الكبار كالرصافي والزهاوي

والكاظمي والشبيبي والشرقي والصافي النجفي والعمري والأخرس والبصير، والذين كانوا أقرب إلى تيار المدرسة الاحيائية في الشعر والمجددين في أساليبها. كما أنجب أيضاً، لاحقاً، كوكبة من شعراء الحداثة الرواد المبدعين، كالسياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري، إلا أن الجواهري يظل وحده مدرسة خاصة متميزة الملامح، لا يمكن إدراجها ضمن أي تصنيف مرحلي، أو تقسيم تاريخي تقليدي.

وشعر الجواهري بقيمه الجمالية العالية، يمثل سمو الروح وصفاءها مع جذوة الأمل المتجدد بوجه اليأس، وتفشي القيم المنهارة، وفساد الضمير. وقد عبر الشاعر عبد الوهاب البياتي عن هذه الحقيقة حين خاطب الجواهري في ذكرى عيد ميلاده، بقوله:

شعرك كان الزادَ والماءَ في	عراقنا الطاعن في الحبس
تعاقبَ الطغاةَ في نفيهِ	بين الغد المجهول والأمس
ماذا أسميك، وأنت المدى	وطائرُ العاصفةِ القدسي؟

إن الجواهري، حقاً "طائر العاصفة" هو الطائر المتحدي المصفق أبداً بجناحيه العملاقين، وسط اللهيب العاصف، وحياة الجواهري كلها ليست إلا عاصفة ملتهبة متواصلة لا تعرف الهدوء وانه كان دائماً في موقف التحدي. وعنصر التحدي هو طاقة الجواهري المثلى المخزونة في داخله والمحركة لمجال إبداعه. فهو يكتب أروع قصائده حين يكون متحدياً. فعناصر التحدي لديه هي النار التي تشتعل بها قوافيه، وتضيء دواخله، وتجعله يقف، لا كشاعر واثق، شامخ فحسب، بل كفارس أيضاً... يقارع وسط المعارك.

من هنا، كان أساس الاقتراب من شخصية الجواهري ودراسته، يعتمد، كما ذكرت، على ركيزتين اثنتين: اولاهما الاحاطة بتفاصيل حياة الجواهري ومتابعة شعره، وثانيتهما صداقته وكسب ثقته. ولذا نستطيع أن نقول ان الدكتور عبد

الحسين شعبان هو أحد الأدباء القلائل الذين نجحوا في اختراق الأسوار العالية، ليصلوا إلى الجواهري، ويكتشفوا عالمه الغامض الآسر، ليستخرجوا مادة غنية ونادرة لهذا الكتاب المميز. فهو من الصفوة القليلة التي استأثرت بثقة الجواهري وتقديره، ففتح لهم قلبه بمحبة، وكشف لهم عن مكنونات أسراره ومشاعره. فقد ربطت بينهما صداقة طويلة امتدت إلى مايزيد عن ربع قرن من الزمان، بدأت في النجف الأشرف (مسقط رأسيهما) وتطورت في بغداد، ثم عبر المنافي، بعد ذلك، في براغ، ودمشق وعواصم أخرى.

كما صادف أن تهيأت عوامل أخرى وطدت هذه الصلة الفكرية، فتطورت إلى صحبة أدبية، لم تزدها السنون إلا ثقة وإعجاباً ومحبة.

ولعل أهمها ان د. شعبان ينحدر من عائلة دينية عريقة ذات علم وأدب، عرفت، منذ زمن بعيد، بصلاتها الحميمة، وارتباطاتها الوثيقة مع عائلة آل الجواهري المعروفة ذات التاريخ الديني والأدبي في النجف. وقد ساعدت هذه الوشائج المشتركة على إحاطة المؤلف بالخلفية الاجتماعية والنفسية لطبيعة البيئة التي تربى فيها الشاعر وتعرفه على الأجواء الفكرية والدينية التي فتح الجواهري عليها عينيه ورضع منها منذ طفولته الاولى، والتي كونت، بعد ذلك، تركيبته البايولوجية، وبلورت مزاجه الخاص، وحددت ملامح شخصيته العامة. فهذه كلها، إذن، هيأت الأجواء للمؤلف لأن يقترب من عالم الجواهري (وخاصة عبر الحوارات العديدة التي أجراها معه) حيث البوح الشاعري والأسرار الشفيفة النائمة في الأعماق، والذكريات البعيدة الغائمة التي قلما يكشف عنها الشاعر لأحد. فالجواهري عصي، صعب القياد، وكما قلت، لا يمنح أسراره، وثقته بسهولة، بالرغم من دماثته وطبيعته الودودة بحكم نشأته العائلية. ولكن المؤلف تمكن، بحذق، كيف يستدرج الشاعر ليتحدث بإفاضة، ويخرجه من توجسه وحذره اللذين صارا جزءاً من غريزته نتيجة الأيام والمحن التي عاشها، بالرغم من عفويته التي تغلبه أحياناً، فيقع في الغفلة،

إذ يمنح ثقته لمن لا يستحقها، حين لا يحصد غير البلاء، فيندم على ما صنع، ويحس انه وقع في الخطأ ذاته الذي طالما شكا منه أبو العلاء المعري:

وأعجبُ مني، كيف أخطىء دائما ... على أنني من أعرف الناس

أقول، ان تلك الثقة والصداقة الشخصية بين المؤلف والشاعر الكبير، كانت هي المفتاح الرئيسي للوصول إلى خزائن نفس الجواهري العامرة بالخصوصيات الخبيئة، ومكنونات السنين العصيبة، الطافحة بذكريات الأحداث المتلاطمة التي عاشها عبر تاريخ العراق السياسي، والتي شاءت الأقدار أن تضعه ـ كشاعر أمة ـ في قلب العاصفة وفي صميم الأحداث.

فانطلقت نفس الجواهري تتحدث على سجيتها، منسابة بهدوء، تسرد الذكريات التي طواها الزمن، فتعيدها حية بشخوصها وتواريخها وأماكنها، تستعرض الأحداث وتعلق عليها، محللة نتائجها بالنقد واستخلاص العبر، تسعفه بذلك ذاكرة لم تزل صافية متوهجة، رغم تقدم العمر وتقادم العهود.

والدكتور شعبان، عرف بدراساته الأدبية والفكرية وبحوثه الثقافية ذات النزعة التحديدية والانسانية، فهو باحث أكاديمي متخصص، وحقوقي بارز تميز بآرائه النقدية الجادة التي ظهرت في العديد من مؤلفاته المنشورة.

فحين درس، في هذا الكتاب، شعر الجواهري، لم يقصر اهتمامه فقط على الناحية التأثيرية أو الانطباعية، أو تذوق العنصر الوجداني الخالص، ولكنه عني كذلك بالجوانب الموضوعية التطبيقية، حين ربط شعره بأحداث التاريخ. فالجواهري شاهد على التاريخ، وشعره يمثل تاريخ العراق الحديث منذ بداية تأسيسه، بحيث أصبحت كل قضية تؤرخ لحدث واقعي معين من تاريخ الشعب العراقي، ولاسيما الجانب السياسي منه. حتى اننا نستطيع القول ان من يريد دراسة تاريخ العراق المعاصر، عليه أن يبدأ بدراسة شعر الجواهري أولاً.

ولعل من أبرز مزايا هذا الكتاب الممتع، أن المؤلف خرج في تأليفه عن الطرق التقليدية المتبعة في كتابة الدراسات الأدبية والسير الذاتية التي اعتادت

أن تتبع منهجاً معيناً من مناهج البحث العلمي، أو تلزم نفسها بنظرية مدرسة معينة إزاء كتابة حياة المشاهير أو سير ابطال التاريخ وإنما تخطاها إلى فضاء أرحب، يتسع لرحابة شعر الجواهري وحياته العريضة التي لم تعرف منهجا محددا و لم تحدها حدود فترك البحث يسلك مجراه الطبيعي في تدفق الأحداث وتحرك أجواء الشعر وانسيابه بتلقائية مع جريان نهر الذكريات في ذاكرة الشاعر الكبير فاستقام الكتاب، وكأنه ليس نوعا من كتب "الاوتو بايوغرافي"، وإنما هو فصول رواية شائقة، تتعدد فيها المشاهد وتتصارع داخلها الأحداث الدرامية عبر حركة دائبة للشخوص والأبطال.

من مزايا هذا الكتاب أيضاً، انه ينصف الجواهري من زمنه وناسه، ويضع الحقائق واضحة أمام القارىء، بموضوعية تزيل كثيراً من الشوائب والملابسات التي حاول حساد الشاعر وأعداؤه أن يلصقوها به. فقد ظلم الجواهري كثيراً من قبل الساسة والحكام، وأصابه الحيف والغبن من شتى العهود والحكومات، بسبب مواقفه الجريئة المشرفة ووقوفه إلى جانب شعبه في كل معاركه النضالية، كما ظلم أيضاً من قبل المقربين إليه، من فئات سياسية أفنى عمره معها، وحسب عليها وكان يفترض بها أن تقف إلى جانبه في الأزمات، فوقفت إلى جانب أعدائه. كما امتد الظلم والتنكر ليأتي من بعض أصدقائه من أدعياء الأدب فأساؤوا فهمه، ولم ينصفوه، بل شهروا اقلامهم ـ تحت ضغوط معينة وأهواء مادية ـ لمهاجمته والنيل منه. فهذا الكتاب ينصف الجواهري من خلال الحقائق الموضوعية التي طرحها بدقة وعناية.

لقد كتب هذا الكتاب السسيوثقافي بأسلوب مشرق ولغة شفافة، مع تحليل عميق للأحداث والشخصيات التي عاصر المؤلف بعضاً منها معايشة أو متابعة، مما يعطي القارىء متعة جمالية فريدة إلى جانب غزارة المعلومات التاريخية والأدبية. وبالرغم من أن كتباً عديدة ودراسات جمة قد كتبت عن الجواهري وشعره، تناولته عبر زوايا مختلفة من مراحل حياته، ولكنها قلما عنيت بالجانب التوثيقي والتاريخي للأحداث والشخصيات المهمة الفاعلة في

الحياة السياسية والحزبية في العراق، مثلما عني بها هذا الكتاب. فقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في الرجوع إلى مصادر الأحداث إلى الكتب والمراجع التاريخية، للتأكد من توثيق كل حادثة أو شخصية أدبية أو سياسية والرجوع إليها في مضامينها المعروفة. فهو أحياناً لا يكتفي، بما يرويه الجواهري من سرد يعتمد على الذاكرة المثقلة لوقائع أو ملابسات اجتماعية أو سياسية بعيدة، أو حتى أسماء لشخصيات يرد ذكرها في سياق الذكريات، بل يبادر إلى التعريف بها وتسليط الضوء عليها في متن الكتاب أو حواشيه، توخياً للأمانة التاريخية وإشباعاً لنهم القارىء وفضوله في مواكبة الحدث التاريخي. إن غنى المادة وجدّتها، (فبعضها لم يعرف من قبل ولم ينشر في كتاب حول خصوصيات الجواهري) ناهيكم عن متابعة مسارات الجواهري المتنوعة من خلال النص الشعري جعلت من هذا الكتاب، ليس فقط كتاباً أدبياً شاملاً حول شعر الجواهري وحياته، وإنما جعلته كذلك مصدراً تاريخياً لا غنى عنه لدراسة تاريخ العراق من خلال هذا الشاعر العظيم.

اني أحيي الدكتور شعبان على إنجاز هذا العمل الكبير، واني لعلى ثقة من أن القراء سيقرأون من خلاله شاعرنا الكبير بعيون جديدة، ويكتشفون فيه عالماً جديداً ساحراً لا يحتله بجدارة إلا الجواهري الخالد.

عبد اللطيف اطيمش

لندن - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٦

تمهيد

المتتبع لحياة الجواهري، يشعر وكأنه يتحرك في منطقة شائكة، وعلى ارض مزدحمة بالشعر والهمّ العام، وكأنهما متلازمين لا ينفصمان. وسرعان مايدرك من القراءات الأولى، أنه ليس أمام شاعر فحسب، بل هو أمام "حالة شعر" بكل معنى الكلمة.. بطقوسها وفضاءاتها وعبق شذاها، حتى تكاد القصيدة تسيح، طازجة شهية، فتدلك على مملكة الشعر أو صومعة الشاعر، حيث يمارس عملية الخلق، بجو أقرب إلى التبجيل والاحتفاء وبمعاناة فائقة، فتأتي شفيفة ومعافاة، تدخل القلب وتحتل مكانها في العقل.

من نبرته الاولى يُعرف الشاعر، فما بالك ونحن أمام واحة شعرية تحفل بكل الألوان والأصناف ولكل المناسبات، قوامها نحو عشرين الف بيت، متوزعة على أكثر من سبعة عقود ونصف من الإبداع. فوراء كل شيء يقف الشعر شاخصاً، بأدواته المطواعة التي يستخدمها الشاعر بدقة وانسيابية وخلف لحته الجميلة ووجهه الحاد الملامح، المتغضن بأنفاس الشعر، وأصابعه الممدودة يستحضر عملاق الشعر في داخله، لينطلق مثل شلال هادر، ثم ليسير بعذوبة دجلة والفرات، راسماً أو معيداً رسم حياتنا لا بصورتها المتخيلة أو وهمها فحسب، بل بتفاصيلها وشخوصها وألوانها، مع نكهة حب ومذاق تحدٍ، كانا السمة الأبرز لشاعرنا الكبير. هو الجواهري، بتناقضه المحبب وجمعه الأضداد بهرمونية وتناسق باهر، بصعوده ونزوله، بجوانبه المشرقة والمضيئة، ونقاط ضعفه الانسانية، في شبابه وشيخوخته، أردت أن

أقدمه للقراء، ليس ببحث أكـاديمي تقليدي، بـل من خـلال شعره وجوانـب مـن حياته، على لسانه تارة وبالتتبع لحياته وشعره تارة أخرى. وكنـت حريصاً علـى أن أقدم رؤيـتي الشـخصية لـ"أبي فرات"، كيف كنت أتخيلها في الطفولـة وكيـف تشكلت ملامحه في فتوتي وشبابي وتمَ ارتبط اسمه، وفيما بعد خلال الصداقة المديـدة التي ربطتني به، محاولاً تسليط الضوء على بعض الجوانب اليومية الاعتيادية، الانسانية من حياته وبعـض مواقفـه. ومستكملاً ذلـك بحوارات كثيرة ومختلفـة، كنـت قـد أجريتها معه في فترات متفاوتة، ومن خلال صحبة طويلة.

لم يرغب الجواهري بالجلوس على مقاعد مطلية بالذهب، و لم يختزهـا أو يفكر بها يوماً، لأن خياره، بل هاجسه الأول، ذهناً ومزاحاً وفناً، كان الجلوس على قمـة الشعر، إذ هو الأكثر استحقاقاً، حين يُكنّى بشاعر العرب الأكبر، بل هو حامل لواء الشعر الكلاسيكي "المعاصر" والماسك بحلقته الذهبية بجدارة، ليس أقل منهـا جـدارة أن يدرك القائمون على "جائزة نوبل" حقيقة الشعر في حياة العرب، وحقيقة شـاعر كـالجواهري، ورغـم أنـه عربـي العقـل والهـوى والمشـاعر، إلا أنـه خـارج حـدود التصنيـف التقليديـة الوطنيـة والقوميـة، لكونـه شـاعراً تجاوز زمانـه ومكانـه بنزعتـه الانسانية وإبداعه المتميز.

وحسبي هنا أن أردد ماقاله الشاعر الكبير عمر الخيام:

"إلاهي قلْ لي من خلا مـن خطيئـة وكيف ترى عاش البريء من الذنب

إذا كنتَ تجزي الذنب منـي بمثلـهِ فما الفـرق مـابيني وبينـك يـاربّي"

عبد الحسين شعبان

كنغستون ـ لندن

٢٩ ـ ١٠ ـ ١٩٩٦

هـ- انظر: رباعيات الخيام ـ ترجمة الشاعر أحمد الصافي النجفي، دمشق ١٩٣٣

الفصل الأول

الذاكرة تتشكل: قصيدة وصورة

كان اسم الجواهري، منذ طفولتي، يملأ الأجواء، حتى أني كنت أتخيله، وأنا ذاهب إلى مدرستي الابتدائية "السلام" في محلة العمارة، بالنجف الأشرف[1] ماراً في الذهاب والإياب أحياناً، أمام مدرسة الجواهري الدينية الشهيرة، التي مضى على تأسيسها أكثر من مئتي عام، حيث كان راعي الأسرة الجواهرية وباني مجدها الأول، الشيخ محمد حسن، صاحب كتاب "جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام" قد ذاع صيته العلمي وشاع إسمه في ذلك الزمان. وغدا كتابه مرجعاً رئيسياً للمنهج الدراسي، في جامعة النجف الفقهية، التي شُيّدَ صرحها منذ نحو

---

(1) النجف، هي المدينة التي تقع على طرف الصحراء بالقرب من نهر الفرات المار بالكوفة. وتسمى في أحيان كثيرة، بالنجف الأشرف، تأكيداً على قدسيتها ومن أسمائها الأكثر شهرة: الغري ووادي السلام والمشهد أي مشهداً لملتقى الأطراف من حضر وبدو، قبائل وواقدين، ملل ونحل، ويقال عن النجفي أحياناً أنه: "المشهدي" ومن أسمائها أيضاً النجف السعيد وتكنّى بخدّ العذراء.

وفي كتاب "تاج العروس" ورد اسم النجف، باعتبارها مسنّاه بظاهر الكوفة، تمنع ماء السيل أن يعلو منازلها ومقابرها. ويذهب العلامة الدكتور مصطفى جواد، إلى القول، أن النجف: أرض عالية معلومة تصدّ الماء الذي ينحّفها (يحيطها) أيام السيول. ويصفها ياقوت الحموي في "معجم البلدان" بأنها: أعدل أرض ا لله هواءً وأصحّها مزاجاً وماءً. وذكرها ابن جُبير أيضاً.

وورد في تاريخ الطبري: ان النعمان بن المنذر جلس في قصره "الخورنق" المطل على النجف (في الحيرة) فأعجبه مارأى من البساتين والنخيل والأنهار. والواقع فإن النجف كانت الحد الفاصل للصحراء أو البادية الشاسعة الممتدة إلى المملكة العربية السعودية.

ألف عام، حيث ينبغي على المتطلع، لنيل درجة الاجتهاد في علوم الفقه واللغة، أن يكون ملّماً بكتاب صاحب "الجواهر" الجد الأقدم للشاعر. والكتاب عبارة عن موسوعة للدورة الفقهية الاستدلالية الكاملة وتتألف من عشرين ألف صفحة وضعها المرجع الديني الأعلى في مطلع القرن الثالث عشر الهجري أي النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد توفي جد الشاعر عام ١٨٥٠ وظل قبره مميزاً في النجف بقبته الزرقاء كعلامة بارزة في المحلّة. وتضم الأبواب الزرق في النجف مقابر العوائل الثلاث الشهيرة وهم السادة آل بحر العلوم وآل الجواهري ومسجدهما، وجامع آل كاشف الغطاء[٢]

وإذا كان الجواهري، قد أخذ من أسرته الشهرة الأولى، وهو يخطو أولى خطواته في سلّم المجد، فإنه أعطى للأسرة إسمه، الذي طغى فيما بعد على مشاهيرها.

* الجواهري في بيتنا!

كانت قصائد الجواهري ودواوينه، تزيّن مكتبة العائلة، حيث كان أعمامي، من مريديه والمتغنين بشعره وتحوي مكتبة الاخوال الكثير من القصاصات والصحف التي تتابع أخباره ونشاطاته الإبداعية مثلما كانت دواوينه تتصدرها، وكانوا مع بقية من مثقفين وأدباء، لا ينفكّون يتجادلون بما نظمه الجواهري وما كتبه!.

هكذا نشأ الجواهري، معنا في المنزل، إذا جاز التعبير، أو بالأحرى، نشأنا ونحن نتطلع إليه. فمدرسة الجواهري للعلوم الدينية والفقهية، كانت قريبة من دارنا في "عگد السلام" وآل الجواهري، يتوزعون بالقرب من بيوتنا المتراصة

---

[٢] تعتبر النجف رابع المدن الإسلامية المقدسة، بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، فإضافة إلى احتضانها قبر "الإمام علي بن أبي طالب" هي موطن الأولياء ودار هجرة الأنبياء وبها منزل النبي إبراهيم الخليل ودفن فيها النبي هود والنبي صالح. وتضاهي جامعتها التاريخية، جامعات الزيتونة والأزهر والقرويين، وتعتبر امتداداً لمدرسة الكوفة الشهيرة، وقد بلغت أوجها أيام الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، المتوفي عام ٤٦٠ هجرية. قارن: محمد مهدي الجواهري "ذكرياتي جزءان، ج١، ط١، دار الرافدين، دمشق، ١٩٨٨، ص٢٢٤

والمتكاتفة والملتفة، حول صحن الإمام علي ومرقده الذي تعلوه القبة الذهبية المتوهجة، والباعثة على الجلال والهيبة.

في تلك البيئة النجفية ولأسرة عربية، تهتم كباقي الأسر الكبيرة في النجف، بالشعر والأدب والمجالس الحسينية، إضافة إلى مكانتها الدينية، ولدتُ وترعرعتُ لتغدو تلك الروافد الروحية إحدى أهم ركائز حياتي المستقبلية.

وكان الشعر بخاصة والأدب بعامة، يشكلان الأساس، الذي لا غنى عنه في المجالس والمناسبات الأدبية والدينية والاجتماعية، التي هي أقرب إلى الأندية الثقافية والفكرية، تطورت على مر العصور. فقول الشعر في النجف — وكما تعارف عليه الناس – طبيعي، بمعنى آخر، انه غير مصطنع أو يهدف إلى الكسب، أي إنه وجداني (ضميري) نابع من الشعور وليس أمراً تعليمياً.

يقول الجواهري ان الظاهرتين الدينية والأدبية كانتا تلتقيان وتصب كل منهما في مجرى الأخرى، وذلك بحكم فصاحة القرآن الكريم وبلاغته دينياً. أما أدبياً، فمن منطلق الكتب الأدبية مثل نهج البلاغة وأمالي القالي والمرتضى وكتاب الأغاني للأصفهاني وما ترك الجاحظ من روائع وما خلف الشعراء من تحف ونوادر... ثم كتب النحو والبيان وبما فيها من تقويم الكلمة والبحث عن أسرار بلاغتها.

وكانت المعارك الأدبية والثقافية في ليالي الجمعة أو أيام الأربعاء (اماسي الأربعاء) قد حظيت بشهرة كبيرة، كما يورد الشيخ جعفر باقر محبوبة في كتابه "ماضي النجف وحاضرها" حيث كان الشعر متعة تلك المجالس الأثيرة، تجري فيه المطاردات الشعرية وفي المقدمة منها مسابقات "التقفية" الصعبة، حيث يقرأ المتسامرون هذا البيت وذاك ويتركون للآخرين إستنباط القافية[٣]

---

[٣] قارن الجواهري "ذكرياتي" ج١، مصدر سابق، ص ٦٥ - ٧٠ كذلك انظر: جعفر باقر محبوبة "ماضي النجف وحاضرها"، ثلاثة أجزاء، دار الأضواء، ط٢، بيروت، ١٩٨٦ علماً بأن الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٥٨.

وإذا كان الشعر علامة فارقة للنجف، فإن جو المدينة كان عاطراً بالعلم والمعرفة والفقه واللغة أيضاً.

ويمكن القول، أنه لا يمكن التعرف على هوّية أي مجتمع أو أمة دون التعرف على فنونها وآدابها وبالأخص شعرها ولا يمكن التعرف على الفنون والآداب ناهيكم عن الشعر، ما لم يتم التعرف على بيئتها الاولى، إذ هي سلسلة متواصلة متماسكة حتى وإن بدت بعيدة وواهنة. فهل نستطيع أن نفهم وبالتالي نلمّ بالأدب الانكليزي والشعر منه بخاصة دون أن نعرف مدى ارتباطه بالبحر والقرصنة والتجارة وتعلقه بالرموز والتأثيرات الدينية والفولكلورية والتجارية والاجتماعية والبيئية وغيرها؟ هكذا أيضاً لا يمكن الإلمام بالشعر العربي القديم مالم نفهم الصحراء وطبيعتها والقيم الاجتماعية السائدة والتي مايزال تأثير بعضها موجوداً حتى الآن.. رغم انتشار قيم الحضارة والمدنية وثورة التكنولوجيا والاتصالات.

وقد وصف الأديب اللبناني أمين الريحاني، النجف باعتبارها "أعظم مدينة في العالم" لا في زخارفها أو جمال قصورها، بل في رجالها!![4].

* فتوة وإرهاص!

دخل الجواهري ذاكرتي الطفولية الأولى مصحوباً بالإيمان حد القدسية، والافتتان

---

[4] حينما زار أمين الريحاني النجف عام ١٩٢٢ كتب الجواهري قصيدته النونية، التي يحييه فيها ومطلعها:

أرض العراق سعت لها لبنان ... فتصافح الانجيل والقرآن

ولكن أمين الريحاني إنحاز إلى ساطع الحصري في الخلاف مع الجواهري بسبب الفتنة الطائفية وشوّه في كتابه الموسوم "قلب العراق" صورة ذلك الخلاف، فانتهز الجواهري قدومه إلى العراق لتغطية أخبار انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦، حيث نشر مقالة مدوية بعنوان "جاسوس في أوتيل تايكرس بالاس" فما كان منه إلا أن يطوي أوراقه ويرزم حقائبه ويرحل.
انظر تفاصيل هذه الحادثة في كتاب الجواهري "ذكرياتي" مصدر سابق، ص ٣٢٨ - ٣٤٠ وما رواه المؤلف في حواراته.

حد الوله، وبقصائد نارية، زادت جذوة الفتوة اشتعالاً. وكان هذا يكبر معي بمرور الأيام، خصوصاً التأثر بقدرته العالية في التعبير عن أحاسيس وإرهاصات، كان هو وحده خير من يستطيع ويُحسن التعبير عنها، حتى ليقودنا إلى طريق مليئة بالمفاجآت والأحلام، مفضية إلى عوالم أخرى موشاة بالذهب تارة، وبالألغام تارة أخرى، بروعة وإبداع بالغين، وأخيراً تصويره لعنصر التحدي والإقدام الذي امتاز به الجواهري على نحو لا يضاهيه فيه أحد، وقصيدته العمودية التجديدية، ذات البناء اللغوي الخاص والايقاع الموسيقي المتميز والمعاني الانسانية التي تنضح بها، وكأنها تريد أن تحلّق بك في أجواء علوية سامية، في حين تتجذر في الأرض وتمد عروقها عميقاً في التربة العراقية، شامخة مثل نخيل العراق، مشرئبة نحو أفق واسع مديد، يتجاوز فضاء العراق نحو أمة العرب جميعاً، حاملة معها صدق المشاعر الانسانية الشفيفة.

لم تكتمل صورة الجواهري في مخيلتي الصغيرة، لكنها أخذت تحفر مكانها في الذاكرة لتستقر تدريجياً، متنقلة من المخيلة إلى الواقع.

كانت أجنحة الروح تخفق معه حين يقول قصيدة التحدي ذات الألق الخاص والتأثير المتميز المرصع بصور لاهبة شديدة الإيحاء كثيرة التموجات خصبة الأحاسيس مشحونة بمعاني الحياة المملوءة بالتقلب والتعرج والتناقض!.

لازمتني تلك الصحبة على امتداد تلك السنوات، فقد كنت وما أزال أجد في الجواهري معيناً لا ينضب لينبوع الشعر، المندفع بغزارة والملون بكل ألوان الحياة، فكنت ألتجئ إليه في الحزن والفرح، في الهم والكدر، مثلما في الانشراح والانبساط، في لحظات الضعف، وعند الشعور بالقوة، في الانكسار والخيبة، وفي الشموخ والاعتداد.. باختصار في حلو الحياة ومرِّها، كنت أجد الجواهري خير مَنْ يهديني أو يرشدني، فطريق الشعر وإن كان يرميك في أتونه أحياناً وفي محرقة قصائده، لكنه في الوقت نفسه يجعلك تشعر بالدفء، مُوقداً في روحك التأمل وربما الحكمة أحياناً، ناقلاً إياك من عالم سفلي إلى عالم علوي، حتى ليكاد

يطهرك مما علق بك من أدران أو يمنحك قدرة أكبر على تذوق الجمال والإحساس بقيمة الحياة وعمل الخير.

الذاكرة الأولى بدأت تختزن بقصائد وأبيات لها دلالات ومعان مرتبطة مع تلك الأيام، وبأسماء وبطولات وصور وتشكيلات كانت تؤلف المشهد الأكثر حضوراً في الصراع. وينبع بعضها من إشكاليات الجواهري ذاته، إذ باستطاعته تحويل أية مناسبة، إلى فرصة لتقريع الحكام، بل جرهم على المكشوف إلى حلبة الصراع ليعلن تحديه المباشر.

إن هذه القدرة العجيبة على التحدي، كانت السمة الأكثر تميزاً في شخصية الجواهري وشعره، وكانت الجانب الأكثر تأثيراً في الشباب التواق إلى التغيير والتجديد. وتكاد قصيدة مثل "هاشم الوتري"[*] تعبّر عن مرحلة كاملة، حيث يقول في مطلعها:

إيه "عميد الدارِ" شكوى صاحبٍ   طفحتْ لواعجُهُ فناجى صاحبا

ثم يرد الجواهري على السياسة السائدة ذات المكر الخاص فيقول:

حشدوا عليَّ المغريات مسيلةً   صغراً لُعابُ الأرذلين رغائبا

بالكأس يقرعها نديم مالئاً   بالوعد منها الحافتين وقاطبا

وبتلكم الخلواتِ تمسخُ عندها   تلُعُ الرقابِ من الضباء ثعالبا

وبأن أروح ضحىً "وزيراً" مثلما   أصبحتُ عن أمرٍ بليل "نائبا"

ظناً بأن يدي تمدُّ لتشتري   سقط المتاعِ، وأن ابيعَ مواهبا

ويهاجم الجواهري ويتحدى:

أنا حتفهم ألج البيوت عليهمُ   أغري الوليدَ بشتمهم والحاجبا

خسئوا: فلم تزلِ الرجولةُ حُرةً   تأبى لها غير الأماثِلِ خاطبا

أعرفتَ مملكةً يُباحُ "شهيدُها"   للخائنينَ الخادمينَ أجانبا؟

---

[*] ألقيت القصيدة في حزيران (يونيو) ١٩٤٩ في احتفال أقيم تكريماً للدكتور هاشم الوتري عميد الكلية الطبية العراقية، الذي تم اختياره عضو شرف في الجمعية الطبية البريطانية.

مســـتأجَرينَ يخرِّبــــون ديــــارهُمْ ويكـــافئون علـــى الخــراب رواتبــا

متنمِّريـــــن يُنصِّبــــون صدورهـــــم مثـــلَ الســـباعِ ضـــراوةً وتكالُبــا

حتـى إذا جـدّت وغـى وتضرّمـت نـــارٌ تلـــفُّ أبـــاعداً وأقاربــــا

لزمـوا "جحورهُـمُ" وطـار حليمُهـمْ ذعـــراً وبُدّلـــت الأُســـود أرانبـــا

وفي قصيدة "تنويمة الجياع"، يعرض الجواهري، الاستلاب الطبقي بطريقة ساخرة:

نـــامي جيــاعَ الشـــعب نــــامي حرســـــتكِ آلهـــــة الطعـــــامِ

وفي قصيدته إلى الشعب المصري وطه حسين، يستحضر الجواهري التاريخ ليتحدى:

يـا "مصـر" تسـتبقُ الدهـور وتعـثرُ والنيـــل يزخَـــر والمســـلّة تزهـــرُ

وبنـــوكِ والتـــأريخ في قصبيهمـــا يتســـابقانِ فيُصهـــرون ويُصهـــرُ

إلى أن يقول:

يا "مصرُ مصـر الشـعبِ: لا غاياتـه تفنـــى، ولا خطواتـــــه تتقهقـــر

بـاقٍ وكـــلُّ معمّـــر فـــإلى مـــدىً عـــال، وكـــل منيعـــة تتدهـــور

جبروتـه الأعلـــى، فـــلا "نيرونـــه" شـــيء، ولا "فرعونـــه" المتجـــبر

ثم يخاطب طه حسين شاكياً فيقول:

"وطـه" ونـور الفكـر أوفـى حُرمـة والمجـد أوفـرُ، والمكانـــة أوقـــر

سبعون مـن سُوح الجهـادِ قضيتهـا للخـــير تعمـــل جـــاهدا وتفكـــر

أشـكو إليـك، لأن مثلـك عـارفٌ مثلـــي، وليـــس لأنـــك المســـتوزَر

ركضـت بـي الخمسـونَ لاحلباتهـا توقـــي العِثـــارَ ولا العِنـــانُ يُقهَّـــر

وتنـاهبت شـعري بمحـض غُبارهـا فبياضُـــــه بســــواده يتنــــدَّر[٦]

---

[٦] ألقيت هذه القصيدة في الاحتفال الذي أقامه الدكتور طه حسين، على شرف الوفود المشاركة في المؤتمر الثقافي الذي نظمته جامعة الدول العربية.

وفي قصيدته إلى عبد الحميد كرامي التي ألقاها في بيروت عام ١٩٥٠، يتجلى تحدي الجواهري فيقول في مطلعها:

باقٍ – وأعمار الطغاة قصارُ — من سفر مجدك عاطر موّار(٧)

أما في قصيدته المعنونة "في مؤتمر المحامين" التي ألقاها في الاحتفال الذي أقامته نقابة المحامين العراقيين، في بغداد يوم ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١، فلا يكتفي الجواهري بنقد الحكام فحسب، بل ويدعو للثورة عليهم وتمجيد الشهادة، مؤشراً إليهم بإصبع الاتهام فيقول:(٨)

وقد نشرت القصيدة في ٢٢ شباط "فبراير" عام ١٩٥٢ في صحيفة "الأوقات" البغدادية، وإشارة "السبعون" هي عمر طه حسين آنذاك، أما "الخمسون" فهي عمر الشاعر الجواهري آنذاك أيضاً.

(٧) كان وقع القصيدة بليغاً في لبنان على المستوى الشعبي وفي الأوساط الصحافية والثقافية، لكن الحكومة تضايقت منها، وبعد يومين من إلقاء القصيدة استقالت وزارة رياض الصلح ثم شكل حسين العويني، وزارة جديدة كانت باكورة أعمالها طرد الجواهري من لبنان، علماً بأن كلاً من الرئيس السابق واللاحق للوزارة، كانا من أعضاء لجنة التأبين التي تولت دعوة الشاعر.

(٨) الجدير ذكره إن الحكومة العراقية أقامت الدعوى على الجواهري، وعلى المحامي عبد الرزاق الشيخلي المدير المسؤول لصحيفة "الجبهة الشعبية" التي نشرت القصيدة. وظلت الدعوى تنام وتستيقظ كما يقال، حتى ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢، حيث تم الافراج عن الشاعر والمدير المسؤول بعد أن تم تحكيم ثلاثة شعراء عراقيين، لتفسير القصيدة التي قيل إن فيها تعريضا بالملك فيصل الثاني ورهطه، خلال زيارة لبعض المسؤولين إلى لندن ووجود الملك الشاب للدراسة هناك، وهي تقاليد افتقرت إليها الدولة العراقية فيما بعد والتي اتسمت بالشمولية وانفلات العنف وتصفية الخصوم ومحاولة إلغائهم وبالتدخل المباشر في شؤون القضاء الذي فقد الحد الأدنى من استقلاليته و لم يعد سوى أداة بيد السلطة التنفيذية (الحكومة)، كما اتسمت بقدر أقل من التضامن المهني والثقافي، وفي أحيان كثيرة تم غضّ الطرف عن تجاوزات وانتهاكات ومصادرات فكرية، بل عن حياة مثقف أو كاتب أو فنان أو صاحب رأي، طالما إن الأمر ينال "الخصوم" أو لا يتعرض إلى الجهة السياسية التي يعتبرها هذا المثقف أو ذاك مرجعيته "السياسية"، حتى أصبح جندرمة خاصة للثقافة وانكشارية متميزة للفكر وعسس على الرأي وشرطة على التفكير والإعتقاد، وامتدت هذه الظاهرة لتطبع الحياة الثقافية والفكرية في العراق حيث ازدادت شمولاً واتساعاً في السنوات الأخيرة لتصبح نهجاً سياسياً "ثابتاً" يميز الدولة العراقية ذات النظام الشمولي "التوتاليتاري" الاستبدادي.

والشيء بالشيء يُذكر كما يقال حيث يروي جبرا ابراهيم جبرا عن مرحلة اوائل الخمسينات:

سلام على حاقدٍ ثائرٍ ... على لاحبٍ من دم سائرِ
يَخُبُّ ويعلمُ أنَ الطريـ ... ـق لابُدَّ مفضٍ إلى آخرِ

ويواصل:

سلامٌ على جاعلين الحتو ... فِ جسراً إلى الموكب العابرِ
سلامٌ على مثقلٍ بالحديد ... ويشمخ كالقائد الظافرِ
كأنَّ القيود على معصَميه ... مفاتيح مستقبلٍ زاهرِ

ويستمر في التصعيد والتحدي:

أقول: وقد لاح نُحولُ البلاء ... يُفرجُ عن شدقِهِ الكاشرِ
وخفَّتْ "للندن" تلك اللصو ... صُ تلبسُ ثوب الدجى العاكر
تحوك برغم أنوفِ البلاد ... نسيج الهلاك لها الدامرِ
إلى كم تُداري شيوخُ العراق ... وأقطاب محموره الدائرِ

كانت اوائل الخمسينات ببغداد عند الادباء الشباب "عصر الوجودية" الذهبي كيفما كان فهمهم لها.. متمثلة في كتابات سارتر وكامو . وقد راق لمعظمهم أن يفهموها على انها بوهيمية جديدة وكانت للبعض تعني "الالتزام" حسبما أراد اليسار يومذاك ان يفهم الالتزام. وكان هناك منطق نقيض بالضبط الذي يعتبرها نوعا من العدمية التي تتيح للفرد تجاوز القيم كلها والفلسفات السياسية كلها من "مدن قتلها السأم" او بعبارة كامو مدن التهمها المينوتور. في تلك الفترة صدرت "قصائد عارية" بمجموعة الشاعر حسين مردان .وبكبرياء الشاعر الملعون وتحدّيه على حد تعبير جبرا قال "رضعت الفجور من ثدي أمي.." مما عرضه للاعتقال ومن ثم للمحاكمة بتهمة "الاباحية" على ديوانه الذي رسم غلافه الشهير الفنان "جواد سليم" كما رسم غلاف بمجموعة الشاعر بلندر الحيدري الثانية "اغاني المدينة الميتة" بعد بمجموعته الاولى "خفقة الطين" الاّ أن القاضي كان أكثر ذكاءً من الذين اعتقلوه وأكثر تعاطفاً مع الشعر والشعراء فطلب شهادة الجواهري في ديوان حسين مردان... ولم يتردد الجواهري في تزكية الديوان: أدباً يستحق صاحبه الاعجاب لا القذف به في السجن. وتلك احدى سمات استقلال القضاء وقوة مؤسسات المجتمع المدني وتقاليده السليمة وهي تعكس في الوقت نفسه التضامن المهني بين الادباء والكتاب، تلك القيم التي تراجعت على نحو مريع.

انظر: جبرا ابراهيم جبرا، شارع الاميرات، فصول من سيرة ذاتية، بيروت، ج٢، ط١، ١٩٩٤، ص ١٢٤ ـ ١٢٥

عُجــــولاً تَربَّــــــى لمُســـــتعمرٍ   ويُلعــــن في عجلــــه "الســــامري"؟

أما في قصيدة "يـاأم عـوف" فيتوقـف الجواهـري أمـام الزمـن، في مناجـاة رقيقة ومنطقية للأشياء، بعد مالاقى كرماً وسخاءً وحسن ضيافة، من إعرابية نزل ضيفاً عليها، وهـو في طريقـه إلى مدينـة (علـي الغربـي) في لـواء العمـارة (محافظة ميسان) حيث يقول فيها:

يــاأمْ عــــوف عجيبــات لياليـنــا   يُدنـين أهواءَنـا القصــوى ويُقصينـا

في كـل يـوم بـلا وعـــي ولا ســبب   يُنـزلنَ ناسـا علــى حكـم ويعلينـا

وكـانت قصيـدة "خلّفـت غاشـية الخنـوع"، الـتي ألقاهـا في دمشـق، إثـر مصرع عدنان المالكي، رسالة تحدٍّ للحكومة العراقية:

خلفــتُ غاشــية الخنــوع ورائـــي   وأتيــتُ أقبــسُ جمـــرة الشـــهداء

* صور من فرز الألوان:

إذا كانت الصورة الاولى التي بدأت تتشـكل مـع مـرور الأيـام، مـأخوذة بطابع الإعجاب والتحدّي، فإن الصورة أخذت تفرز ألوانها، مع بداية الوعـي بالحياة وتمييزي للأشياء، وقد اصبحت قصائد الجواهري، علامـات مضيئـة في الطريق الذي تلمسته لاحقاً.

إن الشعر هو عالم الجواهري وجدل حياته وهو عالم صاخب، متمرد، طموح، مليء بالتناقض، حاد المنعطفات بالصعود والنزول على حد تعبيره. وعالم الجواهـري عليٌّ ولا يعرف التخفي ولا يمارس العمل السـري، فهـو مكشـوف للجمهـور، بـل ملاحق منه أيضاً وواقع تحت بجهره: شخصيته، معاركه، صوره، إنفعالاتـه، غضبـه، ظروف إبداعـه، تـأثره بـالمحيط وتأثيره فيه خصوصـاً محيطه العربـي والاسـلامي. فللجواهري صداقاته وخصوماته وأعداؤه، تراه يثور أحياناً لأبسط الأشياء كما هـي في الظاهر، لكن ثمـة أموراً كثيرة تعتمل في نفسه لتختمـر بعدهـا ظـروف ولادة القصيدة، لتأتي حارة، طازجة، مفاجأة بل مدهشة.

ويرقُّ الجواهري ويتألق بل يرقص مثل طير يخفق بجناحيه، حين "يصفو مثل ندى على وردة الصباح" على حد تعبير الروائي العراقي الراحل غائب طعمة فرمان[9] وديعاً مثل طفل بريء، يضحك من القلب وهو يردد بتحبب وجمالية قصيدة المتنبي:

بكلٍ تداوينا فلم يشفِ مابنا   على إن قرب الدار خير من البعدِ
على إن قربَ الدار ليس بنافعٍ   إذا كان من تهواه ليس بذي ودِّ

ورغم أن الجواهري عاش في الغربة نحو ثلاثة عقود ونصف، إلا أن البيئة الخارجية (الأجنبية) لم تؤثر فيه كثيراً، ربما بسبب اكتفائه الذاتي أو مخزونه التأريخي وتعلقه الشديد بالتراث وقد يعود إلى انه عاش في الغربة وهو في الستين من عمره حيث لم تتح له الظروف إتقان لغة أجنبية (أوربية) مع انه عايش الحياة الأدبية والثقافية في أوربا وفي تشيكوسلوفاكيا بالتحديد، مُطّلعاً على مسرحها وأدبها وشعرها وحضارتها وطبيعتها، إلا أنه ظل مشدوداً إلى تلك الجذور، بل مستغرقاً بالبيئة الاولى، ومتحرقاً إليها مملوءاً بالحيرة والشك والاسئلة والضعف الانساني الباهر، موظفاً كل ذلك في إبداعه وكأنه يعيش في صميم الوطن، رغم أنه كان مغترباً وهو في وطنه، رحالة يجوب الحواضر والبوادي والأرياف، متنقلاً من مدينة إلى مدينة ومن حي إلى حي ومن دار إلى دار، لا تعرفُ روحه الاستقرار و لم يعرف الاستكانة..

والمتتبع لسيرة الجواهري يلاحظ أنه تنقل إلى أكثر من عشرين منزلاً خلال خمسة عشر عاماً في النجف وبغداد والكاظمية والأعظمية والحلة والناصرية والبصرة[10].

---

(9) انظر: غائب طعمة فرمان، مقالته بعنوان "شاعر الظمأ والتحدي" مجلة الثقافة الجديدة، العدد ٢١٠، حزيران (يونيو) ١٩٨٩

(10) انظر: حديث خاص مع المؤلف، كذلك قارن: الجواهري "ذكرياتي"، مصدر سابق ص٣٥٨.

* محظورات أبي:

إن عملية إسترجاع هادئة ومتأملة لحضور الجواهري، تمنحنا مؤشراً للحياة السياسية والاجتماعية العراقية والعربية. ورغم مضايقات الحكم الملكي، فقد ظل الجواهري "نجماً ساطعاً" "ملءَ العيون" لم يستطع أحد تغييبه، مع ان بعض دواوينه كانت تشكل مستمسكات ثبوتية لـ"جرم" لم يرتكب!، إلا إن هامش الحرية النسبية وقتئذ، أتاح للجواهري، إصدار أكثر من صحيفة، رغم احتجابها عن الصدور مرات عديدة، وتغيير أسمائها مرات أخرى، ونشر قصائده وطبع دواوينه، وهو ماأصبح محروماً منه بالكامل في أوقات لاحقة، مع استثناءات قليلة.

في تلك الفترة، أذكر أن ثلاثة محظورات عكّرت صفو العائلة، وكدرت مزاجها، فيوم اختفى عمّي شوقي (قبل اعتقاله) في أعقاب انتفاضة عام ١٩٥٦، إبان العدوان الثلاثي الانكلو ـ فرنسي الاسرائيلي عل الشقيقة مصر وانتصاراً لها وتضامناً معها، إحتار والدي الحاج عزيز شعبان، بتلك المحظورات، لأن كلاً منها كانت مصدر تهمة حسب اعتقاده، فما بالك إذا وجدت مجتمعة.

المحظورات الثلاثة هي النظارة السوداء التي اكتشفها والدي مخبأة في غرفة عمّي شوقي مع حاجياته وأوراقه الخاصة. وكانت هذه دليلاً مقنعاً على المشاركة في التظاهرات. والثانية كانت الكوفية البيضاء (الغُترة في العامية العراقية) التي كان يلبسها الشيوعيون مع النظارة السوداء، لاخفاء معالمهم عن شرطة التحقيقات الجنائية، التي كانت تترصد المتظاهرين لتشخيصهم من قبل "الشرطة السرية" كما كانت تُدعى. وكانت النظارة السوداء مع الكوفية البيضاء دليلاً لا يخطىء خصوصاً إذا تم كبسهما في دور "المشبوهين" أما الثالثة فكانت "القصيدة الحمراء" وأعني بها قصيدة "عالم الغد" للجواهري، التي كان الشيوعيون يتغنون بها، وكانت هذه بمثابة

بطاقة انتساب "أولية" للحزب الشيوعي، حيث وضع والدي يده على عشرات من النسخ في غرفة عمي البعيدة عن جناح الضيوف، الذي كنا نطلق عليه اسم "البرّاني" في اللهجة العراقية والنجفية بشكل خاص (يقابله استخدام الديوانية في جنوب العراق وبلدان الخليج العربي).

أخذ والدي يُداري حيرته وقلقه بتقديم التبريرات التالية: فالنظارة السوداء قال انه سيبرر استخدامها في فصل الصيف الحار، وفي فترة الظهيرة حيث الشمس المحرقة. أما الكوفية البيضاء بدلاً من الكشيدة (وهي عبارة عن فينة حمراء أي طربوش أحمر ملفوفة من وسطها حتى حافتها السفلى برباط أصفر اللون). التي كان مايزال يرتديها على طريقة الأجداد، فيما اقترحت والدتي استخدام الكوفية كصرّة لحفظ الملابس (بُقجة بالعامية العراقية) وتوضع في الخزانة مع الملابس والحاجيات الأخرى.

وازداد قلق والدي بخصوص "القصيدة الحمراء" فلم يشأ إتلاف النسخ التي عثر عليها وهي تعود لشيخ الشعراء على حد تعبيره، وقال: انني سآخذها معي إلى المحل وأضعها بين الأقمشة بعيداً عن الأعين، حيث كان يعمل تاجراً لبيع الأقمشة، وكان هذا اقتراح عمي ضياء أيضاً، الذي كان شديد الاعجاب بالجواهري ورغم انه لم يُعلّق على المقترحات الأخرى، كما لم يبدُ عليه القلق والحيرة التي انتابت الآخرين لكنه قد يكون أكثرهم احتراساً وإن كان أكثر تماسكاً ورباطة جأش. ثم اقترح والدي إخفاء القصيدة الحمراء ومعها بضع قصائد أخرى في السرداب (القبو) في مكان موحش يصعب الوصول إليه.

وحسم الوالد الأمر بقراءة آية قرآنية وأخذ يردد لثلاث مرات "بسم الله الرحمن الرحيم: وجعلنا بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون!... صدق الله العظيم" ثم قرأ "آية الكرسي" وقال لنترك أمرنا إلى الله،

وعلى طريقته "شيريد بصير خلّي يصير" أي "ليكن مايكون" مضيفاً "الله يعمي أبصار الظالمين".

وبدّدت حيرة الوالد وتردده زيارة رجال الأمن "التحقيقات الجنائية" وكبسهم المنزل في اليوم التالي. وكانت العادة المتبعة "قانوناً" اصطحاب مختار المحلّة معهم، لكن الحاج كاظم الشكري، مختار محلّة العمارة في النجف، رفض مرافقتهم لاعتبارات اجتماعية وصداقية، فأجبروا حلاق المحلة "رسول المزيّن" في سوق العمارة على مرافقتهم أثناء كبسهم المنزل، لكنهم مع وجود "المحرمات" الثلاثة: النظارة السوداء والكوفية البيضاء والقصيدة الحمراء، لم يعثروا على أي "دليل جرمي" أو "مستمسك ثبوتي".

ظل قلق القصيدة الحمراء ونظرة الاعجاب والتقدير للجواهري هاجساً يراودني بين الحين والآخر، وكلما اختلطت علي الأمور أو تشوشت الرؤيا أو بعدت المسافات، أو اتسعت الهوة بين الواقع والحلم أو استشرى اليأس والقنوط، أهرع إلى "ارتكابات" القصيدة، مستحضرا الصلة المعقدة وغير العقلانية بين المثقف ورجل الشرطة، والعلاقة بين الثقافة والقانون وبينها وبين السياسة، حتى أجد نفسي وجهاً لوجه أمام تلك الفترة، وبمواجهة الجواهري وهو يقول قصيدة التحدي.

* الجواهري ومعركة الضد:

لقد استُخدم الجواهري في معركة "الضد" على حد تعبير الكاتب حسن العلوي، حين تصدرت الكتابات المعادية له، الصفحات الاولى لصحف الجانب الآخر. وحاولت سلطة الثورة فيما بعد إرغامه على الرحيل إلى المنفى، بعد أن أساءت إليه بشخص زعيمها عبد الكريم قاسم. وفي عام ١٩٦٣ وبعد مقتل عبد الكريم قاسم ظل الجواهري في المنفى. ومن المفارقات إن سلطة الانقلاب، أصدرت قراراً بمنع تداول دواوينه. يقول حسن العلوي:

"ومن المصادفات أن يكون عملي آنذاك في جريدة صوت الجماهير، التي احتلت (مطابع الرابطة) المشغولة آنذاك، بإصدار طبعة كاملة لشعر الجواهري،

كنت أرى أجزاء منها، تحت أقدام العاملين في الجريدة، وقد صـدر قـرار بمنـع تداولها وكنت أشعر لحظتها إن إحدى المقدسات تداس تحت الأقدام.."

ويشير العلوي الى ان ذلك كان البذرة الاولى، لفكرة إصدار كتـاب عـن الجواهري، التي أنجزها عام ١٩٦٧، لكنه اصطدم باستمرار، بمنع تـداول أي مطبوع للجواهري أو عنه، حتى دخل ثانية دوامة "الاعلام الرسمـي" بعـد ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨، فلـم يعـد توقيـت الكتـاب مناسـباً، فتجـددت الفكـرة، حسبما يروي في عام ١٩٧٩، والجواهري يدلف نحو الثمانين، حتى التقيـا في الشام في مطلع الثمانينات، حيث يقيمان، فدخلت الفكرة حيز التنفيذ.

بودي أن أنوّه في هذا التمهيد، إلى ان الاستاذ حسن العلوي، لم يكتفِ بإصدار كتابه الأول عن الجواهري، في عام ١٩٨٦، والموسوم "الجواهري ديوان العصر" بل عاد وأصدر كتابه الثاني في أواخر عام ١٩٩٥، مستكملاً رؤيته عن الجواهري[11].

لقد أصدر الرئيـس عبـد السـلام محمـد عـارف، قـراراً بعـد انقـلاب ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣ يقضي بحجز الأملاك المنقولة وغير المنقولـة للجواهـري، إضافـة إلى منع تداول دواوينه وما كتب عنه. و لم تكن أملاك الجواهـري، سـوى قطعـة أرض، حصل عليها من نقابة الصحفيين، التي كـان نقيـاً لهـا، مثـل غـيره مـن الصحفيين. وتنفيذاً لهذا القرار: داهمـت ثلّة من الشرطة أحجار الجواهري، التي كان يعدّها لبنـاء بيته، ووضعت عليها إشارة الحجز. وفي الواقع فإن حمولة شاحنة من طـابوق البنـاء المرمي على قطعة الأرض التي حصل عليها وتركها نحو المنفى، ظلـت تحـت الحجـز حتى عـام ١٩٦٨. وتعكـس هـذه الحادثـة بدلالاتهـا موقـف سلطات الاسـتبداد

---

(١١) والكتاب ماثل للطبع، لفت انتباهي الصديق العزيز د. علي كريم، إلى كتاب جديد صدر للأستاذ حسن العلوي، وقام مشكوراً بإرسـال نسـخته الشـخصية إليّ مـن هولنـدا للاسـتفادة منها. والكتاب بعنوان "الجواهري رؤية غير سياسية". وقد صدر في زحلة (لبنان) أواخر العـام ١٩٩٥ عن دار "ميسوبوتوميا للأبحاث والدراسات" أما الكتاب الأول فكـان قـد صـدر عـن وزارة الثقافة السورية عام ١٩٨٦.

والأنظمة الشمولية إزاء الثقافة والمثقفين، وهو ماطاف على سطح الحياة السياسية العراقية على نحو فظ وصارخ منذ انتكاسة ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ وتصاعد حتى بلغ أقصاه في الربع الأخير من القرن الحالي، وبخاصة خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية وحرب الخليج الثانية وما بعدها[١٢]

وقد عاني المثقف العراقي من القمع بركنيه الايديولوجي والبوليسي، أي كان عليه إما قبول فكر السلطة والجماعة السائدة، باعتباره الفكر الوحيد، المقبول، الممكن والمسموح به..، واما التعرض للقمع والارهاب والعزل ومحاولات الضغط الفكري، والابتزاز السياسي. وإذا كانت جمهرة واسعة من المثقفين قد رفضت تطويع أداتها الابداعية لخدمة الحكام والطغاة والقادة، وتزيين صور الأنظمة السياسية القائمة والسكوت على انتهاكات وتجاوزات وقعت على زملائهم، فإن بعضهم لعب دور المهرج في تدبيج المدائح وإيجاد الذرائع لتبرير تلك الوحشية، التي طبعت ومازال ساحة الثقافة العراقية الرسمية والسائدة.

وعاني كثير من المثقفين العرب والعراقيين، من اختلال المعادلة بين السياسي والثقافي وكانوا ضحايا القمع الفكري والبوليسي تماماً مثلما عاني قبلهم مشاهير المثقفين والمفكرين على الصعيد العالمي كالمفكر المجري لوكاش والمفكر الايطالي تولياتي والمفكر الفرنسي غارودي والروائي الروسي مكسيم غوركي والمسرحي الألماني بريخت والشاعر الفرنسي اراغون وكذلك شاعر العرب الأكبر الجواهري[١٣]

---

(١٢) حديث خاص مع المؤلف حول ملابسات حجز الاموال المنقولة وغير المنقولة للجواهري. كذلك قارن: حسن العلوي ـ الجواهري: رؤية غير سياسية، مصدر سابق، ص٦٢ وكذلك ص ١٣١ ١٣٢

(١٣) انظر مقابلة وحواراً واسعاً أجراه معنا هاني الريس لصحيفة أنوال المغربية (الاسبوعية) العددان الصادران في ١١ و١٨ آب (أغسطس) ١٩٩٠.

وتوجد أمثلة صارخة على القمع الفكري والسياسي الذي تعرض له المثقفون في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية سابقاً وكذلك ماسمي بأنظمة التحرر الوطني، التي حاكت النماذج السائدة في الأنظمة الاشتراكية، بتقليد ممسوخ لتجارب فاشلة. وبالطبع فإن البعض تدثر بالصمت أو مات حزيناً ومكسوراً أو عاش في المنافي وتعرض للتنكيل، ذلك أن المثقف يحدد الصور المتناقضة في الظاهرة الواحدة مستخدماً وعيه للنقد والرفض والدعوة للتغيير والحلم بمجتمع جديد، وبذلك يتعرض إلى مقص الرقيب أو يكون السجن بانتظاره وإن اختار المنفى، سيكون وراؤه كاتم الصوت أو المحاربة بلقمة العيش أو يختار العزلة، وإن مكث في الوطن، سيطويه النسيان أو يعمل تحت "المراقبة" أو يفارق الحياة هماً وكمداً أو بالتصفية، وهو ماجرى للعديد من المثقفين العراقيين في السنوات العشرين الأخيرة في الداخل والخارج(١٤)

---

(١٤) أصدر مجلس قيادة الثورة في العراق قراراً تحت رقم ٥٠٤ في ١٩٨٠/٤/٨، شرّع بموجبه القانون رقم ٧٠، الموسوم بـ"قانون الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في القطر العراقي" وذلك بهدف تقنين الحياة الثقافية، وتكريس ثقافة الصوت الواحد واحتواء المثقفين في بوتقة واحدة جديدة، بعيداً عن التلاوين والتنوع والتعددية الفكرية والثقافية والقومية وغيرها، وتعامل مع المثقفين كفصيل عسكري، يتلقى الأوامر ويؤدي التحية ويروّج لما يصدر من السلطات. ويشبه القانون المذكور من وجوه كثيرة، قانون انشاء المجلس الثقافي للرايخ الألماني، تحت إشراف غوبلز وزير الدعاية النازي، وذلك في ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣ وجاء في الأسباب الموجبة لقانون "الرايخ" " رغبة في اتباع سياسة ثقافية ألمانية، يصبح من الضروري، جمع الفنانين، ذوي الطاقات الخلاقة في جميع الميادين، في منظمة واحدة تعمل تحت رقابة الرايخ" وكان صدام حسين منذ أن اعتلى المنصب الأول في الحزب والدولة، كما يحلو له أن يردد، في تموز (يوليو) ١٩٧٩ بعد تنحية الرئيس البكر، قد أطبق كلياً على ماتبقى من الهوامش الثقافية، كاتحاد الأدباء ونقابة الصحفيين ونقابة الفنانين وغيرها، حتى ان قائمة الكتب الممنوعة في العراق، شملت كتاباً وصحفيين وأدباء من الأحياء والأموات، داخل العراق وخارجه، عراقيين وعرباً وأجانب، فلا عجب بعد ذلك، أن يتولى عدي نجل الرئيس صدام حسين، منصب نقيب الصحفيين ورئاسة التجمع الثقافي في العراق، إضافة إلى مناصبه الأخرى.
انظر: بحثنا "الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق: قانون ممسخ وهياكل فارغة" مجلة الحرية (الفلسطينية)، ١٩٨٤/٨/٢٦. كذلك المحاضرة التي ألقاها المؤلف في مؤتمر برلين لرابطة

ماكنا نقرأه أو نردده عن الجواهري، في المجالس الخاصة، همساً وتلميحاً، سمعته لأول مرة، يصدح من دار الإذاعة العراقية، بعد ١٤ تموز (يوليو) عام ١٩٥٨، وإعلان الجمهورية، في قصيدته "النونية"، التي يحيّ فيها الثورة، ويقول في مطلعها:

سدِّدْ خَطاي لكي أقول فأحسنا فلقد أتيتَ بما يَدلُّ عن الثنا

إلى أن يقول:

جيش العراق ولم أزل بك مؤمنا وبأنك الأملُ المرجّى والمنى

*** تكريم وسبع عجاف!**

شعرت مع بدايات الوعي والخطوات الأولى نحو الاهتمامات الأدبية والسياسية، بأن الثورة، في أهم ركن من أركانها الثقافية ردّت الاعتبار، أو لنقل بشكل أدق، كرمت المبدعين والمثقفين، وفي الطليعة منهم الجواهري شاعر العرب الأكبر، كما صار يكنّى. وما كنت أدري ان هذه المقدمات التي حسبنا فيها أملاً لحياة جديدة، رغم مارافقها من عنف غير مبرر وغير مشروع ستنتهي إلى فواجع جديدة، ربما أشد فظاظة، بحيث يضطر المبدع الكبير والرمز العراقي والعربي، الجواهري، إلى الرحيل بعد أن تم وضع القيد في يديه في مديرية الأمن العامة عام ١٩٦١ وتلك إحدى المفارقات الخطيرة والمؤشرات الدالة على وصول الأوضاع إلى القاع تماماً.

انتقل الجواهري إلى منفاه الأول في براغ، بسبع عجاف على حد تعبيره، زادتها الأيام مرارة وقسوة.

الكتّاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين، (رابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين ـ لاحقاً) في دار الثقافات العالمية، تموز (يوليو) ١٩٩٠ والموسومة بـ"جدلية الثقافة والوعي".

وكذلك مقالة المؤلف المنشورة في صحيفة "الحياة" اللندنية والموسومة بـ"الرأي الآخر وجدار القمع العدد الصادر في ٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٩٢.

هكذا عاد الجواهري إلى دائرة المنع والعزل في العـراق. فلـم يكـن سـاطع الحصري وحده من فتـح النـار علـى الجواهـري محـاولاً نـزع انتمائـه العروبـي والتشكيك بمواطنيتـه وطـرده مـن الوظيفـة، بـل يتدخـل رأس الدولـة (رئيـس الوزراء) هذه المرة عبد الكريم قاسم "الزعيم الأوحد" ليحاول إذلاله وإهانتـه، ليس هذا فحسب، بل إن الانقـلاب الدمـوي الـذي حـدث بعـد ذلـك علـى الزعيم عبد الكريم قاسم، أدخـل الشـاعر وشعره في دائـرة الممنوعـات بقـرار أصدره رئيس الجمهورية عبد السلام عارف باسم السلطة الجديدة.

ورغم وجوده في المنفى، فإن شبح الشاعر كـان يجول في أروقـة الدولـة، ويتوزّع طيفه على أزقة وحارات بغـداد والمـدن العراقيـة، مثلمـا في السـجون والمعتقلات، وفي سوح الأدب والثقافة، ورغم تكرر زياراتـه إلى بغـداد ٦٨ ـ ١٩٧٩، إلا أن تلك الزيـارات لم تُنْهِ منفـاه، حتـى استقر في المنفـى بصـورة نهائية منذ عام ١٩٧٩ ولغاية الآن.

وقد حاولت سلطات بغداد في مرّات عديدة، استمالته وتوجيه الدعـوات المتواصلة إليه، لحضور مهرجان المربد الشعري أو في مناسبات مختلفة[١٥] إلا أنه لم يستجب وكان يعتذر في كل مرة، مع ان تلك الدعـوات كـانت تأتيـه مـن أعلى المراجع، مستغلة بعض الظروف المحيطة به كوفاة زوجته وشريكة حياتـه

---

(١٥) لم يعد خافياً ان تلك المحاولات والدعـوات اللحوحـة ماجـاءت حبـاً ولا تقديـراً للشـاعر وشعره، بل رغبة في المتاجرة باسمه والاستفادة من مكانته أمام الشعراء والأدباء العـرب، الذيـن كانت السلطة تولهيـم اهتمامـاً أكـثر مـن الجواهـري نفسـه، لاعتبـارات مصلحيـة وانتهازيـة، خصوصاً بعد أن تعرض هؤلاء الأدباء إلى المزيد من حمـلات النقـد والتـأنيب لـتزكيتهم نظامـاً موغلاً في وحشيته محاربا أدباءه ومثقفيه، الذين ملأوا بقاع الدنيا فراراً من الاضطهاد وحفاظـاً على حياتهم. ويدرك الكثير من المثقفين العرب معنى السؤال عن صديق لهم في بغـداد، يكـون قد غاب و لم يعد له اي ذكر. ولذلك فإن حضور الجواهري لو حصل كان سيخفف من نشاز حضورهم!

"أمونة" في لندن عام ١٩٩٣[١٦] ، لكنه اعتذر هذه المرة أيضاً مستنداً إلى وصية لزوجته، بأن تدفن في الشام، بالقرب من مرقد السيدة زينب، وبجوار أخته السيدة نبيهة، المدفونة مع ابنها لواء في الشام أيضاً، حيث أرسل الجثمان إلى الشام بمبادرة سورية وإرسال طائرة خاصة وإجراء تشييع رسمي. وقام الرئيس حافظ الأسد بزيارة له في بيته (بمنطقة الروضة بالشام) لتقديم التعازي إليه.

* جنسية أم وسام!؟

لقد قدمت الحكومة العراقية الكثير من "المغريات" للجواهري وقامت شخصيات مسؤولة، بمحاولات "للتملّق" و"الاسترضاء" مباشرة أو غير مباشرة، وأجرت اتصالات هاتفية وبوساطات عربية، لكي يعود الجواهري إلى العراق، لكنه ظل يعيش في المنفى، ويغنّي بطريقته الخاصة. ومع ذلك ففي عام ١٩٩٥، وقع المحظور كما يقال، فقد تجرأ بعض "المتثاقفين"، بالدعوة إلى إسقاط الحقوق المدنية عن الجواهري، إثر مشاركته في مهرجان الجنادرية الثقافي في المملكة العربية السعودية، الذي يُقام سنوياً. وشملت الدعوة الشاعر عبد الوهاب البياتي بطريقة لا تخلو من الفجاجة، فحسب بل تتسم بالهمجية، وبغض النظر عن الموقف من المشاركة أو عدمها، فإن القصد من تلك الدعوات كان النيل من الجواهري شخصياً والإساءة إليه. إذ لا يُعقل أن تصدر مثل هذه الدعوة، بدون توجيه أو إيحاء رسمي، من نظام شمولي استبدادي، يستحوذ على الاعلام وينتقي كل كلماته بل يحسبها بدقة كبيرة،

---

[١٦] صادف حين كنت عنده مواسياً إياه بوفاة زوجته في شقته بلندن، أن تلقى عدة مكالمات هاتفية من سفراء عراقيين وعرب لنقل جثمان الكريمة (أم نجاح) لتدفن في بغداد. وهي محاولة أخرى من السلطة للتقرب من شاعرنا ومد الجسور معه، وقد لمست الألم المضاعف والحزن العميق لدى الجواهري وهو يرى أن "الموت" و"الموتى" أصبحت مادة للمتاجرة ووسيلة للتزلف السياسي!.

وقد أثار ذلك الإجراء، استياءً وسخطاً عراقياً وعربياً واسعاً، شمل الصحافة والمثقفين ومنظمات حقوق الانسان وغيرها. وكان حفل التكريم الذي أقيم للجواهري بدمشق في حزيران (يونيو) ١٩٩٥ وتسليمه وسام الاستحقاق السوري، رداً مناسباً على محاولات الإساءة المتعمدة للشاعر الكبير. في حين تحولت المقالة التي كتبها نوري نجم المرسومي، وكيل وزير الاعلام العراقي، في الصحافة الرسمية العراقية، إلى فضيحة ثقافية وليبرز السؤال الماثل: كيف يتم التعامل إذن مع المواطن العراقي في الداخل، إذا كان التعامل مع شاعر كبير كالجواهري مثلاً وهو في الخارج يتم بهذه الطريقة؟ ورغم انه لم يصدر قرار رسمي، بإسقاط الجنسية أو الحرمان من الحقوق المدنية، إلا ان الحملة العربية التي شارك فيها مثقفون كبار، ظلت متواصلة على مدى أسابيع عدة، تعبيراً عن مكانة الشاعر وسخطاً على إجراءات الحكومة العراقية، المنافية لحقوق الانسان والمناوئة للثقافة والمثقفين. إذ كتب الصحفي محمد هشام، في "الأهالي" المصرية "ليس ماحدث غريباً.. حتى وإن غضب آراغون من سيادة صيادي العصافير، بل وحتى إذا اجتزىء مالك حداد، على القول بأن الهجوم على جماعة عصاة أمر أقل خطورة واقل مغزى من الهجوم على جوقة منشدين..." ويمضي إلى القول: لكن ثمة سؤالاً يظل مع ذلك ملحاً:

من مَلّك الحاكم الوطن، حتى يكون بوسعه أن يسلبه ممن يشاء ووقتما يشاء؟ ما الفرق بين الذين يسلبون الآن من الجواهري والبياتي والبزّاز وطنهم، ومن سلبوا منذ زمن وطن محمود درويش وغسان كنفاني ومعين بسيسو؟ وهل رطانة السارقين بنفس لغة المسروقين تعفيهم من إثم السرقة أو تميّزهم عن سواهم من السارقين؟ ويختم.. "ليس غريباً ماحدث، لكنه مؤلم وكريه وفاضح أيضاً".

ودعا الشاعر الراحل بلند الحيدري في تصريح إلى هيئة الإذاعة البريطانية في لندن المثقفين العرب إلى التعبير بشتى الوسائل عن احتجاجهم على القرار المتعسف للسلطة العراقية وقال أتمنى أن تخرج مظاهرة في القاهرة يتقدمها

الروائي الكبير نجيب محفوظ، فهذا ماكان يفعله سارتر وغيره من المثقفين في سائر أنحاء العالم.

وقالت الأديبة المصرية فريدة النقاش، انها تلقت نبأ الدعوة إلى حرمان الجواهري والبياتي من حقوقهما المدنية، بالسكوت، لكي لا تصبّ انتقاداتها الجذرية للنظام العراقي، في عدائه للحريات العامة، في خانة القهر الدولي بل والحصار العربي للشعب العراقي الذي يدفع الثمن بينما يرتع الطغاة في سفههم، لكنها عادت لتوضح الموقف الملتبس والحساس لتحسم الموقف وتقرر عدم الصمت إزاء أي عدوان على الحريات العامة أو تهديد لها. واتخذ المفكر اسماعيل صبري عبد الله، مثل هذا الموقف، في عموده الذي يكتبه في الأهالي "ألفاظ ومعان" الذي يطلق عليه "الشاعر الفحل"، داعياً إلى التضامن معه وإلى احتفاء العرب بالنوابغ المعاصرين من أمتنا(١٧)

ومن الجدير بالذكر إن السلطة العراقية لم ترد رسمياً أو تنفي مثل هذه الدعوات، بل غضّت النظر عنها داخلياً، لكنها أوعزت، بسبب حملة التضامن العربية، إلى الرد عبر سفيرها في عمان نوري الويس، الذي طالبه البياتي بوثيقة رسمية تؤكد عدم نية الحكومة العراقية الاقدام على مثل هذه الخطوة، في حين قال نديم أحمد الياسين، سفير الحكومة العراقية في المغرب في معرض النفي أن "شاعريتهما (اي الجواهري والبياتي) لن تشفع لهما..." بل ان الجواهري قد بلغ من العمر عتيا ولن يفقه مايدور حوله.." وتمثل هذه اللهجة نفي حكام بغداد على لسان سفيريهما في عمّان والمغرب خير نيتهم الإقدام على قرار يقضي بسحب الحقوق المدنية، وبذلك يصحّ المثل العربي "عذر أقبح من ذنب"!!

---

(١٧) انظر مقالة محمد هشام، "الأهالي" القاهرية، ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٩٥ وتصريح الراحل بلند الحيدري إلى هيئة الاذاعة البريطانية ٦ نيسان (ابريل) ١٩٩٥ وفريدة النقاش، "الأهالي" القاهرية في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٩٥.

تجاهل الجواهري تلك الحملة ورفض الانخراط فيها، أو الاستجابة إلى ذلك الاستفزاز، فقال في أول تعليق له إلى صحيفة "الشرق الأوسط": "انهم ليسوا أهلاً للمنازلة، انهم يكشفون عن جهالتهم وضحالتهم. انهم الساقطون..."

ومن الجدير بالإشارة تعليق الجواهري على دعواتهم وإلحاحهم بالعودة، قال في تصريحه المذكور "كنت أخشى أوسمتهم وهباتهم، رغم إن قلبي كان ولا يزال مع الشعب العراقي وهو في محنته ومجاعته وعذاباته".

وبودي أن أشير إلى أن حرمان، اي إنسان من جنسيته وحقوقه المدنية، يعد انتهاكاً سافراً لحقوق الانسان، التي يكفلها الاعلان العالمي لحقوق الانسان، الصادر في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، والعهدان الدوليان لعام ١٩٦٦، الصادران من الأمم المتحدة، خصوصاً العهد الدولي حول "الحقوق المدنية والسياسية"، حيث تنص المادة ١٥ من "الاعلان العالمي" على أن يكون "لكل فرد حق التمتع بجنسية ما" و"انه لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفاً"

وتكفل المادة ١٨ و١٩، حق كل إنسان في حرية التفكير والضمير والدين والحق في حرية الرأي والتعبير، ونصت المادة ١٢ من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية على ان "لكل فرد حرية مغادرة أي قطر بما في ذلك بلاده..." و"لا يجوز حرمان أحد بشكل تعسفي من حق الدخول إلى بلاده" وتحرم المادة ٢٦ أي تمييز يتعرض له الانسان بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غيره[١٨]

---

[١٨] انظر: الاعلان العالمي لحقوق الانسان الصادر عام ١٩٤٨ والعهدين الدوليين حول الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعام ١٩٦٦، جنيف، وثائق الأمم المتحدة.

ومن المعروف ان الحكومة العراقية وقعت على الاعلان العالمي في عام ١٩٧١ وكذلك على العهدين الدوليين حول الحقوق المدنية والسياسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

* شاب في الستين:

بكت عيون الوطن، حين غادر الجواهري العراق في صيف عام ١٩٦١، بعد أن سُدّت أمامه السبل، فانتهز دعوته لحضور حفل تكريم الشاعر اللبناني الأخطل الصغير، في بيروت، لمغادرة العراق. وكان قد وصله تحذير نقلته له ممثلية جمهورية المانيا الديمقراطية في بغداد لما كان يُبيّت له. فغادر العراق واستقر في براغ ضيفاً على اتحاد الادباء التشيكوسلوفاكيين. وما أن تلقفت الغربة الجواهري واحتضنته حتى شهدت المنافي في عام ١٩٦٣، وما تلاه هجرة مبدعين عراقيين آخرين، مثل الشاعر الراحل بلند الحيدري والشاعر عبد الوهاب البياتي والعالم الراحل عبد الجبار عبد الله والشاعر سعدي يوسف والشاعر مظفر النواب والروائي الراحل غائب طعمة فرمان، والفنان محمود صبري وعشرات غيرهم.

ومنذ عام ٧٩ ـ ١٩٨٠ غادر العراق المئات من المبدعين العراقيين، وشملت القائمة بعد حرب الخليج الثانية مئات آخرين من الصحفيين والكتّاب والفنانين الذين تركوا الوطن بعدما التهمت العتمة أطراف النهار المتبقي.

يقول الجواهري في قصيدة الأخطل الصغير (بشارة الخوري):

لبنان يا خمري وطيبي ... هلا لمست حطام كوبي

ثم يواصل حلم الشباب وهو على مفرق الستين وكأنه يستذكر قصيدته "زحلة ـ وادي العرائش" أو "شاغور حمّانا" أو "بنت بيروت" أو ذكرياته على أرصفة العاصفة وشوارعها وأزقتها ومصايف لبنان الجميلة:

نزق الشباب عبدته ... وبرئتُ من حِلم المشيب

يـــــامن يقـــــايضني صـــــدى الهمســـــات والســـــحر المريـــــب
وترصّـــــدُ الأقمـــــار كـــــابن أبـــــي ربيعـــــة في المغيـــــب
والكـــاعبُ الحســـناء تســـترني بمفضلهـــــا القشـــــيبِ

ثم يشكو (بشارة) ما لاقاه من الحكومة العراقية:

أبشـــــارةً وبأيّمـــــا شـــكوى أهـــزك يـــا حبيـــبي
شـــكوى القريـــب إلى القريـــب أم الغريـــب إلى الغريـــبِ؟
هـــل صـــك سمعـــكَ انـــني مـــن رافـــديَّ بـــلا نصيـــبِ
في كربـــةٍ وأنـــا الفتـــى الـــ ممـــراح فـــرّاج الكـــروب
أنـــا "عـــروة الـــوردي" رمـــ ـــز مـــروءة العـــرب العريـــبِ
وزعـــت جســـمي في الجســـوم ومهجـــتي بـــين القلـــوبِ

لقد ضاع حلم "الثورة" التي طالما حلم بها الجواهري وتنبأ بها ووعد بها في قصائده، منذ أن تنكر قادتها للحكم البرلماني الدستوري، ومنذ أن أصبح هاجس الحفاظ على المواقع في السلطة، هو الذي يبرر ممارسة كل شيء، خصوصاً وانها شهدت منذ الأيام الاولى صراعاً خفياً وعلنياً فيما بعد، بين قائديها، الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف، فأدارا ظهريهما عن إجراء انتخابات حرة، وإنهاء فترة الانتقال "التي طال أمدها" وانفلات دورة العنف بصورة لم يألفها المجتمع العراقي في العهد الملكي السابق سواء على النطاق الرسمي أو الشعبي، ومحاولات تصفية المعارضة، وإرهاب الرأي الآخر، فكرياً وسياسياً، بحجة "حماية الثورة" و"صيانة الجمهورية" من الاعداء والرجعيين، حيث هيمن العسكر على الحياة السياسية، وبدأت تتقلص تدريجياً، مؤسسات المجتمع المدني، ويضمحل دورها، وانحدر الحكم الى مهاوي الديكتاتورية الفردية السافرة، منقلباً على حلفائه والمدافعين عنه،

واستمر هذا الوضع الذي مانزال نعيشه منذ نحو أربعة عقود من الزمان، ولكن على نحو سافر وصارخ(١٩)

وحين تستبدل القصيدة، بالخوذة العسكرية، والريشة بالسكين، والقلم بالمسدس، والفنان بالمهرج، فنحن نكون أمام وضع هو غاية في الشذوذ، بل هو أقرب إلى الأتباع منه إلى الإبداع، فأي عذاب يذوقه المثقف الحر، واي حصار يتعرض له، حين يضطر شاعر كبير، مثل الشيخ الجليل، الجواهري، للعيش في المنفى، أكثر من ثلث عمره البيولوجي وما يقارب نصف عمره الابداعي.

---

(١٩) انقسمت الحركة الوطنية في العراق بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨، إلى معسكرين. الأول: معسكر الزعيم عبد الكريم قاسم ومعه الشيوعيون والحركة الكردية وبعض الوطنيين والديمقراطيين، إلى حد ما، والثاني: معسكر العقيد عبد السلام عارف ومعه القوميون والبعثيون والمناهضون لقاسم والشيوعية. وكانت لعبة الشعارات هي السائدة، "فالمعسكر الأول" رفع شعار الاتحاد الفيدرالي والصداقة السوفييتية، ليقطع الطريق على "المعسكر الثاني" الذي رفع شعار الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة والتعكز على شعبية عبد الناصر، والوحدة في مواجهة قاسم و"الاتجاهات القطرية" وفي حين استحوذ الشيوعيون على الشارع والتنظيمات المهنية والنقابات، كان الاتجاه الآخر يُخطط للاستحواذ على السلطة بكاملها وقد سهّل ذلك الصراع، الطريق للسير باتجاه الديكتاتورية العسكرية الفردية، التي تنكرت لمبادىء الثورة والحياة البرلمانية الدستورية وسيادة القانون والعدالة، التي وعدت بها الشعب. وفي تلك الفترة الجنونية من تأريخ الصراع السياسي في العراق، لم يفكر أحد بعقلانية (وربما مازال البعض على سالف عهده لغاية الآن)، بحلول سلمية للصراع (باستثناء بعض الديمقراطيين أمثال كامل الجادرجي وعبد الفتاح ابراهيم وغيرهما الذين قدموا نصائح وتحذيرات مبكرة وجريئة) بل كانت الجوانب العاطفية والذاتية هي الطاغية، في ظل إنخفاض مستوى نضج قادة الحركة السياسية، ورفض الحوار وتقديم التنازلات المتبادلة.
وقد دفعت الأخطاء المشتركة للأحزاب والقوى الوطنية، مع اختلاف درجة المسؤولية، وفداحة الانتهاكات والارتكابات، التي شملتها كلها دون استثناء، ناهيكم عن شمولها الشعب العراقي بجميع تياراته الفكرية واتجاهاته السياسية وإنحداراته القومية، دفعت تلك الأخطاء، أزمة الحكم إلى التعمق، مما زاد من افتراقها عن مبادىء الحكم الديمقراطي وحق المشاركة السياسية، بل ان قاعدة المشاركة قد ضاقت أكثر من السابق وشددت نزعات احتكار العمل السياسي التي بلغت أوجها بعد ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨، ومعها تعززت إجراءات العسف والاستبداد، حتى شملت قيادات وكوادر في الحزب الحاكم ذاته.

*** الجواهري في مدرستنا!**

بعد أسابيع من ثورة ١٤ تموز (يوليـو) ١٩٥٨، جـاء مـدرس مـادة اللغـة العربية السيد جواد كاظم الرفيعي في "متوسطة الخورنق" وهو يحمـل صحيفـة "البلاد" أو "صوت الأحرار"،(لا أذكر بالضبط) ليقرأ علينا قصيدة الجواهـري "جيش العراق" ويطلب منا أن نُعرب الأبيـات، الـتي كـان يقرأهـا علـى مهـل وبدقة مصحوبة بنبرة محببة. ثم كلّفنـا بحفـظ ستة أبيـات مـن القصيـدة علـى الأقل. وبذلك دخل الجواهري، حياتنا المدرسية، وليس العائلية فحسب، مثلما شغل حياتنا السياسية والثقافية بكل معانيها. وبالمناسبة فـإن الأستاذ الرفيعـي، اعتقل معنا بعد أربع سنوات ونصف، في موقف "خان الهنود" الشـهير (الـذي كان المبنى الحكومي في النجف) قبل نقلنا إلى المعتقل (تحت الأرض) وكنا مع محبين آخرين لشعر الجواهـري نتبـادل الأحـاديث ونجـري مطـاردات شـعرية، حيـث كان قسم غير قليل من المعتقلين ممـن يحفظـون شـعر الجواهـري، الـذي كان يخرجنا من عتمة السجن ووحشته إلى آفاق شاسعة وعالم فسيح.

المدرسة التي كانت تستقبل قصائد الجواهري وتفتـح نوافذهـا للجديـد أخـذت تشجع المواهب الشابة الواعدة فتشكلت الفرق الموسيقية وأخرى للانشـاد والتمثيـل وكانت أيام الاثنين من كل أسبوع، مناسبة يتبـارى بهـا "الواعـدون الجـدد" فتلقـى الكلمات والخطب وتقرأ الأشعار (في الساعة الأخيرة قبل نهاية الدوام).

وفي مدرسة الخورنق بالذات، حيث عاد بعض المفصولين إلى الدراسة بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) وكانوا أكبر سناً منا مثل محمد موسى (الذي قُتل تحـت التعذيب عام ١٩٦٣) وزهير شكر وغيرهما، جـرى تنظيـم لقـاءات أسـبوعية ذات طابع ثقافي ولأهداف سياسية. وأتذكر من أوائل الذين تم تقديمهم وربمـا "اكتشافهم" إلى تلك اللقاءات كان الشاعر عبد الأمير الحصيري (الـذي كـان طالباً معنا في المرحلة المتوسطة) وبـدأ الحصـيري خطواتـه الاولى بقـراءة بعـض قصائد الجواهري في الاجتماعات العامة "بلثغته المعروفة" ثم بدأ ينظـم بعـض القصائد ونشرت له بعض الصحف مقطوعات منها.

كان الحصيري شاباً خجولاً، متفوقاً في الدراسة، لكن هاجس الشعر كان يسكنه، فترك دراسته بعد أن ضاقت به المدينة.. أتذكره بسترته الطويلة وقلقه وبدواوين الشعر والكتب التي كان يحملها وبديوان المتنبي الذي كان يتأبطه بل لا يكاد يفارقه بدلاً من كتب الدرس التي كان يضجر منها. لقد سئم العيش في ذلك "الجو الكئيب" فودّع زملاءه منتقلاً إلى بغداد "الجنة التي كان يحلم بها" وفي بغداد ظل الحصيري حيث كنت التقيه طوال الستينات، ينتقل من مقهى إلى أخرى فيبدأ نهاره "بالبرلمان" أو "البلدية" لينتقل إلى "عارف آغا" وأحياناً إلى "شط العرب" ومن حانة إلى أخرى يتذوق خمور "آسيا" و"كاردينيا" و"الجندول" و"سرجون" وغيرها، حيث كان "زبوناً" دائماً هناك!

كانت قصائد الحصيري تحذو حذو شيوخ الشعر في مدينته وبخاصة الجواهري "رمزه الكبير" وقد إلتهم نهر دجلة الكثير من قصائده، حينما كان ثملاً يترنح في الكثير من الأحيان، وضاع قسم منها وهو في تنقل دائم بين غرف الحيدرخانة وأزقتها، حيث وافته المنية في أواسط عام ١٩٧٨ هناك وحيداً ومنكفئاً على ذاته حد الاختناق.

الجواهري الكبير في إحدى تجلياته وأنا أتسامر معه، أبدى حسرة لفقدانه، فقد كان يتوسم فيه شاعراً مهماً منذ اواخر الخمسينات أو ربما منذ أوائل الستينات. وعند عودة الجواهري من منفاه الأول في أواخر الستينات روى لي كيف اقتحم الحصيري خلوته ذات يوم، لكنه عامله برقة، وظل على هذه الشاكلة رغم انفلاتاته غير المحسوبة.

كتب الشاعر الحصيري الكثير لكن الذي ظل أو حفظ من شعره كان قليلاً. وقد أعجبني ملفاً عنه نشرته "مجلة الأقلام" البغدادية قبل سنوات، ساهم به الشاعر عبد الرحمن طهمازي، الذي كنت ألتقيه معه في أواخر الستينات. أما الشاعر شاكر السماوي فقد كان كثير اللقاءات به منذ أواخر الستينات وخلال سنوات السبعينات وبخاصة في مقهى "عارف آغا" وكذلك الصيدلي عزيز حسون عذاب والكاتب عزيز السيد جاسم ووليد جمعة وآخرين.

عند عودتي الاولى إلى بغداد من الدراسة في الخارج، التقيته عدة مرات، وكنت قد أدركت أي عذاب تركته السنين عليه فضلاً عن الحرمان المزمن والوحدة الدائمة... واي قلب رقيق كان يملك هذا الانسان، الذي كان الشعر عالمه الوحيد، لا يعرف المرأة أو المال او السفر (باستثناء سفرة فاشلة إلى الكويت) أو الحمّام. ولا يعرف كيف يتصرف إزاء الكثير من الأشياء، خصوصاً بدون الخمرة التي كانت سميره الوحيد في عالمه الموحش والبارد وتشرده وحزنه المرير.

ومن مفارقات الحصيري أن التقيته مرة وإذ به يرتدي بدلة وربطة عنق وعلى غير العادة حليقاً ونظيفاً.. فحيّاني مبتسماً مستبقاً سؤالي عن "السر" في هذا التبدل المفاجيء، بالقول أن الحكاية باختصار ان السيد وزير الاعلام "صلاح عمر العلي" استدعاني وأحرجني بتعييني بوظيفة استشارية في الوزارة براتب قدره ثمانون ديناراً (كي لا تذهبوا بالتفسيرات!!)، ولكن بعد اسابيع صادفته وقد عاد إلى هيئته القديمة فبادرني بالقول "عادت حليمة إلى عادتها القديمة"

أنـــا الالـــه وندمـــاني ملائكـــة	والحانةَ الكون والجلاس من خَلقوا
أنا الشريد!! لماذا الناس تذعر من	وجهي وتهرب من قدامي الطرقُ
وكنـــتُ افـــزعُ للحانـــات تشـــربني	واليوم لـو لمحـت عيـنيَّ تختنـق
قـد بـتُّ أمضـغ أمراقـي وأوردتـــي	وأرتوي من جراحـاتي وأنسحق[٢٠]

وقول الحصيري في قصيدة بغداد:

بغـــداد قلـــبي في يديـــك فعذبـــي	إن شئت أو إن شئت شلّ العـاطبِ
أما صببـت سـعير عتـبي لم اكـن	لسـوى تضـاريم الفـؤاد اعـاتب
وأنـا ابنـك المغـوار مسـقط دجلـة	ذا القلب والسعف الاهاب الشاجب
بـالرغم مـن ان الغـري بـاضلعي	لهبٌ ولي حتـــى ربـاه حبـائبِ

(٢٠) انظر ديوان الشاعر عبد الأمير الحصيري: شمس وريح، إعداد عزيز السيد جاسم، بغداد، ١٩٨٦.

الفصل الثاني

شاعر ودولة

*سلطة المثقف وسلطة الحاكم!

أصبح اسم الجواهري مثيراً إلى حد كبير. فالتناقض واضح بين سلطته الثقافية التي لا نزاع عليها، وبين موقف السلطة السياسية منه. ففي حين كانت ساطة الجواهري الثقافية تتعزز، كانت المسافة تتباعد بينه وبين السلطة السياسية، التي ظل بعيداً عنها رغم حلمه "بالثورة" بل ان التناقض بينه وبينها كان يتعمق باستمرار. وحصل الصدام والاحتكاك، عندما كتب مقالته الشهيرة في صحيفة "الرأي العام"، التي كان يصدرها آنذاك! "ماذا يجري في الميمونة"؟ فانفجر في وجهه الزعيم عبد الكريم قاسم، أثناء مقابلة خاصة له باسم اتحاد الأدباء العراقيين الذي كان الجواهري يترأسه. و"الميمونة" قرية في جنوب العراق تعرضت لهجوم قام به جهاز الأمن، مما دفع الجواهري للاحتجاج والاستنكار، وهو تعبير عن أحاسيس شاعر إنساني مرهف إزاء ماكان يحدث، خصوصاً الانفصام بين أفكار الثورة المنشودة وممارساتها الارهابية، العنيفة، التي أخذت بالاتساع(٢١) .

---

(٢١) انظر مقالتنا: من حوارات مع الجواهري بعنوان: محمد مهدي الجواهري يقول: قصيدة التحدي ويمشي ويقول قصيدة الحب ويبقى! صحيفة الحياة، العددان الصادران في ٣١/٥ و١/٦/١٩٩٦. وسنتطرق بالتفصيل إلى قصة المماحكة بين الزعيم عبد الكريم قاسم والشاعر الجواهري، في مواقع أخرى من هذا الكتاب (قسم الحوارات).

يمكن القول إن سلطة المثقف هي ثقافته والثقافة معرفة، وهو مايطلق عليه فرنسيس بيكون "المعرفة: قوة" "Knowledge is Power" بمعنى سلطة، وهو ماحاول الجواهري أن يواجه به السلطة السياسية.

أما عناصر هذه السلطة، فهي مايمكن تحديدها بالعلم والتجربة الذاتية للمبدع، بما فيها من خيال (فنتازيا)، إضافة إلى الارادة والوجدان والضمير، وهذه السلطة لا تسود بالقمع أو المال، بل تتعزز وتغتني في ظل سيادة الديمقراطية والتعددية، اللتين هما الضمان لتطورها.

لسلطة المثقف حرمة مثلما للمعرفة، وهي حرمة لدى صاحبها أولاً، ومن لا يحترم وسيلته الإبداعية، لا يحترم حرمته، ولهذا فإن نكوص المثقف عن سلطته، أي تنازله عنها يعني عدم احترام ثقافته وبالتالي التفريط بمعرفته(٢٢)

كنت كلما مررت في شارع الرشيد قرب حافظ القاضي، تستوقفني صورة الجواهري، وهي تزين واجهة ستوديو المصور المعروف الفنان "أرشاك" فقد انتشرت صوره على نطاق واسع مما كان يثير حفيظة المسؤولين. وبقدر ماكان اسم الجواهري مثيراً، فهو إشكالي أيضاً.

وبتقديري ان الرمز يثير إشكاليات عديدة، ويكون مصدراً للصراع في زمانه أو حتى بعد ذلك الزمان، نظراً لموهبته الهائلة وقدرته في إثارة أسئلة ليس بالإمكان الإجابة عنها، في الحال، وإلى تفرّده وخصوصيته وعنصر الجدّة لديه، خصوصاً إذا ماحاول صدم ماهو سائد أو الإتيان بما ليس مألوفاً.

هكذا كان شكسبير وغوته وتولستوي وبتهوفن ودستويفسكي مثلما هو المتنبي والمعري والبحتري. وظل تشايكوفسكي وشارلي شابلن وجمال الدين

---

(٢٢) يقول الاستاذ حسن العلوي، إذا كان عبد الكريم قاسم زعيم السلطة السياسية، فالجواهري، زعيم السلطة الثقافية في العراق، فهو رئيس اتحاد الأدباء ونقيب الصحفيين العراقيين. انظر كتاب: حسن العلوي، الجواهري: ديوان العصر، مصدر سابق.

الأفغاني والفردوسي وطه حسين وبريخت وانشتاين ومدام كوزي وكافكا واليوت وبيكاسو وسارتر وناظم حكمت وماركيز ونيرودا، مثيرين للجدل، كشخصيات إشكالية. وهكذا هو الجواهري، فاسم عائلته وتاريخه وعنصر التحدي في شخصه، وتناقضاته ومدرسته الشعرية ومحاولاته التجديدية في القصيدة العمودية، ومنزلته الثقافية الإبداعية، قد أكسبته صفة الرمز، وأثارت في الوقت نفسه خصومات كبيرة ضده. فقد شغل بعد الثورة منصب نقيب الصحفيين ورئيس اتحاد الأدباء، إضافة إلى إعادة إصداره صحيفة "الرأي العام" وكان قبلها نائباً في المجلس النيابي (البرلمان) وقبل ذلك وفي أواخر العشرينات عمل في البلاط الملكي، الذي كان جسراً للوصول إلى الوزارة، حيث كان مقرّباً من الملك فيصل الأول، وهي "علاقة فريدة من نوعها بين الشعر والبروتوكول" أو بين شاعر وملك.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن الملك فيصل الأول وقف إلى جانبه يوم استعرت "الحملة الطائفية العنصرية" ضده في عام ١٩٢٧ وفيما بعد "الحملة الرجعية" إثر تبنيه مواقف تقدمية مبكّرة بخصوص تعليم المرأة وافتتاح مدرسة البنات في النجف. وكان أن احتدمت المعركة عندما كتب قصيدته "الرجعيون" المنشورة في ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٢٩ التي يقول فيها:

ستبقى طويلاً هذه الأزماتُ	إذا لم تقصّر عمرها الصدماتُ
غداً يمنعُ الفتيان أن يتعلموا	كما اليوم ظلماً تمنع الفتياتُ
تحكم باسم الدين كل مذمّمٍ	ومرتكبٍ حفت به الشبهات
وما الدين إلا آلةٌ يشهرونها	إلى غرضٍ يقضونه وأداة

وكذلك بسبب قصائده الغزلية كقصيدة "جربيني" و"النزعة أو ليلة من ليالي الشباب" و"عريانة" و"بديعة" و"ليلة معها" التي كانت تعتبر شديدة الجرأة وخارجة على عصرها، بل أنها حتى بمعايير هذه الأيام ورغم الانفتاح

والاتصال بالحضارة الغربية، تعتبر مغامرة كبرى، فما بالك بتلك الفترة التي اعتبرت فيها محاولة لتهديم ماهو سائد من قيم ومفاهيم ومحرمات "Taboo" إذ كان مجرد البحث بمثل هذه المواضيع يعتبر تحدياً سافراً، فإن الجواهري الخارج لتوّه من بيئة النجف المحافظة والمغلقة والمعمم وابن العائلة الدينية، والمشدود بأكثر من آصرة وآصرة إلى تقاليد مجتمعة، لكنه المنتفض عليها والمغترب في داخله والرافض لحياته المنسية، والمتطلع إلى حياة متحركة، لا يقتحم الميدان حسب، بل يطلب المنازلة بكل ماتحمله من روح للتحدي:

لقد نشر الجواهري قصيدة "جربيني" التي أثارت ضجة كبرى وهو مايزال في البلاط وذلك بتاريخ ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٩ والتي يقول فيها:

جربيني من قبل أن تزدريني — وإذا ماذممتني فاهجريني
ويقيناً ستندمين على أنكِ — من قبلُ كنت لم تعرفيني

ثم يقول:

إسمحي لي بقبلة تملكيني — ودعي لي الخيار في التعيين
قربيني من اللذاذة ألمسها — أريني بداعة التكوين
"إلطميني" إذا مجنتُ فعمداً — أتحرّى المجون كي تلطميني
ماأشدّ احتياجه الشاعر الحسـ — ـاس يوما لساعة من جنون

وبعد أقل من شهر واصل الجواهري نشر قصائده الغزلية غير المألوفة والتي أثارت ضجة كبرى خصوصاً وانه كان موظفاً في التشريفات الملكية في البلاط وبمعية الملك فيصل الأول. ففي ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) نشر قصيدته المثيرة: "النزغة أو ليلة من ليالي الشباب" وذلك بعد قصيدة الرجعيون وجربيني، التي تعتبر هي الأخرى احراجاً للملك فيصل الأول ولحاشية البلاط الملكي. وإذا كان الشعر يتخطى البروتوكول فإن البروتوكول وخصوصاً في تلكم السنوات، كان له اعتباراته التي لا تتناسب مع ارهاصات شاعر

كالجواهري، ومع ذلك فقد كان الملك فيصل الأول، يقدر موقع الشاعر في سلسلة البروتوكول لاعتبارات عديدة ولضرورات كثيرة، لعل أهمها هو كسر حلقة العزل السياسي والطائفي أو التخفيف من حدّتها، التي أريد لها أن تحكم قبضتها على الشاعر، حيث وقف الملك إلى جانب الشاعر ضد محاولات النيل منه تحت ذرائع وحجج غير صحيحة. يقول في قصيدته النزعة:

كم نفوس شريفة حساسه سحقوهن عن طريق الخساسة
وطباعٍ رقيقة قابلتهن الليالي بغلظة وشراسة

* * *

لك في هذه الحياة نصيب أغنميه انتهازة وافتراسه
فالليالي بلهاءُ فيها لمن يُحسن ابساسة لها، إسلاسه

إلى أن يقول متحدياً ومستنفراً، بل مستعدياً كرد فعل ضد الحملة التي طالته بسبب قصيدة "الرجعيون"!

قال لي صاحبي الظريف وفي الكف إرتعاشٌ وفي اللسان إنحباسه
أين غادرت "عِمّة" واحتفاظاً قلتُ: اني طرحتها في الكناسه
وتلاقى الصدران واصطكت الأفخاذ حتى لم تبقَ إلا لماسه
حركوا ساكناً فهب رفيقي لامساً باليدين منها لباسه
ثم نادى مُعربداً ليحيّ ! الله مغناك وليُدِم أعراسه

وبعد خروجه من البلاط الملكي، كان أكثر حرية في التعبير عمّا يختلج بنفسه. فنشر قصيدة عريانة (١٩٣٢) يقول فيها:

أنت تدرين أنني ذو لُبانه الهوى يستثيرُ فيّ المجانهْ
وقوافي مثل حُسنك لما تتعرّين حرة عُريانه
وإذا الحب ثار فيّ فلا تمنعُ أيُّ احتشامة ثورانه
ولماذا تهيّجين من الشاعر أغفى احساسه بركانه

عَرَفتُ كيف تبرزين إلى الجمـ ـهور فيه لتخبلي أذهانه

ضيقت مُلتقى نهودك والكشـ ـحين منه وشمرت أردانه

وأشارت إلى اللعوبين بالأسـ ـباب منا بوردة مُزدانه

ليت شعري ماالسّر في أن بدت للـ ـعين جهرا أعضاؤك الحسّانه

واختفى عضوك الذي مازه اللـ ـهُ على كل ماالديك وزانه

الذي نال حُظوةَ حُرم الانسان منها وخصّت الإنسانه

وتمنى على الطبيعة تشكلاً هو من خير مايكون فكانه

ومحلاً خصباً فحلّ بوادٍ أنبت الله حوله ريحانه

ثم نشر بعدها (١٩٣٢) قصيدة عن الراقصة الحلبية السورية بديعة عطش، التي كانت تعمل في "قهوة عزاوي" بالقرب من سوق الهرج ببغداد، وكان من أشهر ملاهي العاصمة آنذاك.

يقول في مطلعها:

هزي بنصفك واتركي نصفا لا تحذري لقوامك القصفا

وفي قصيدة "ليلة معها" التي نظمها عام ١٩٣٤ يقول الجواهري:

لا أكذبنك انني بشر جسمُ المساوىء آثِمٌ أشِرُ

ليواصل وكأنه يدخل معركة:

يدها بناصيتي ومحزَمُها بيدي فمنتصر ومندحرُ

فلئن غلبت فخير متسدٍ للشاعر الاعكانُ والسُّرر

ولئن غلِبتُ فغالبي مَلَك زاهٍ به المغلوب يفتخرُ

ولم يكتف الجواهري بذلك، بل اقتحم الحياة الاجتماعية السائدة بجرأة عجيبة، مهاجماً في دائرة مازال الكثيرون، يحجمون عن الاقتراب منها.

فإضافة إلى قصائده الغزلية، فإن قصيدة "إفروديت"، التي نظم منها ست قطع في العام ١٩٣٢ ونشرها في صحيفة "الأهالي"، ثم استكملها بثلاث قطع، ونشرها في صحيفة "الرأي العام" سنة ١٩٤٦، وهي مستوحاة من قصة

الكاتب الفرنسي "بيير لويس" تمثل نوعاً آخر من الأدب، مثلما هي قصائده الغزلية في الأربعينات، "إلى انيتا" أو قصيدته إلى "بائعة السمك" في براغ في الستينات، أو "لمي لهاتيك لما" ذات الصورة المتميزة في السبعينات.

لُمّي لهاتَيكِ لَمّا　　　وقرّبي الشفتين

لُمّاً على جمرتين

بالموت ملمومتين

ياحلوة المشربين　　　من أين كان.. وأين

من صنع كذب ومَينِ

سمّوهم زهرتين

لَمي لهاتيك لما　　　وقربي الشفتين

بابين للجنتين

والموت مابين بين

ياحلوة المشربين　　　من أين كان.. وأين

بلّي بذاك "اللُسين"

فما تغشّته حُمى

كسن رمح رُديني

لم يُروَ إلا ليظما

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أن مايميز الشاعر بشكل عام، هو إمساكه بتقنية الكتابة بلغة عصره، التي تختلف بين زمن وآخر، ورغم اننا نستمتع بغزليات جميل بثينة مثلاً، إلا انها لم تعد تلبي جو عواطف هذه الأيام، ولو انك قدمتها إلى حبيبتك على انها صورة صادقة لما تشعر به تجاهها، فقد تعرض عنك أو لا تستجيب بالشكل الذي تتوقعه، فلكل عصر لغته ولكل جيل تأثراته. ورغم ان

الجواهري تمسك بالشكل الكلاسيكي للقصيدة إلا انه لوّنه بحداثة الفكرة ومفردات العصر، بما جعل قصيدته تحتفظ بشكلها التقليدي وبفكرتها الجديدة.

واللافت إن الأدب العربي يعتبر من أغنى الاداب العالمية في أحاديث الغزل ومواضيع الجنس، ابتداءً من معلقة امرىء القيس:

"قفا نبكي من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل"

مروراً بعمر بن أبي ربيعة وشعراء المجون وفي مقدمتهم أبو نواس.

ويعتبر كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني وكتاب "الحيوان" للجاحظ نوعاً من أنواع أدب الغزل والجنس، إضافة إلى كتاب "الف ليلة وليلة" الذي لا يمكن الحديث عن الجنس، بما فيه الأدب الجنسي المكشوف والغزل الفاضح، دون تناوله أو ذكره، إلى جانب مجلدات ومخطوطات كثيرة تدور حول هذه المواضيع.

* بين التراث والحداثة:

هكذا بدأت صورة الجواهري تكتمل في ذهني وتقترب من الواقع، فقد نزع العمامة منذ زمن طويل، وتخطى الحدود، متقدماً زمانه، متحدياً من الطراز الأول، يختار خصومه بدقة، ويحدد المعركة بنفسه. استطاع أن يواصل لغة البحتري والمتنبي، ذات المسحة التراثية الجزلة، بفكرة الحداثة والمعاصرة والتطلع إلى الجديد، بل تقريب مفاهيم العصر الحديث بلغة عربية فصيحة ذات معان ودلالات، ليست بعيدة عن الثقافة العربية ـ الاسلامية. ويذهب الأستاذ عبد الغني الخليلي إلى أن الكثير من الأدباء حاربوا الجمود الفكري والتزمّت المقيت والقيم والعادات البالية، التي سادت مجتمعهم وحالت دون تقدمه وان الكثير من "أعضاء الرابطة الأدبية في النجف" كانوا من المتنورين الذين مالوا إلى التجديد. أذكر منهم إضافة إلى الجواهري الذي سبقهم، محمد علي اليعقوبي وصالح الجعفري ومحمود الحبوبي ومرتضى فرج الله وعبد المنعم الفرطوسي ومحمد جمال الهاشمي وعلي الصغير ومحمد حسن الصوري

وعبد الرزاق محي الدين ومحمد علي البلاغي. وفي سنوات لاحقة محمد بحر العلوم ومصطفى جمال الدين وغيرهما(٢٣).

ورغم ان الجواهري حفظ ديوان أبي العلاء المعري وكان معجباً به، لكنه كان ميّالاً للبحتري بمضامين جديدة وصور وأبعاد عصرية، كما فعل المفكر طه حسين حينما زاوج بين لغة أبي العلاء المعرّي بالمصطلحات الحديثة مستعيناً بثقافة السوربون الفرنسية. ان الجواهري يطل علينا بلغة تفتح التاريخ لتستشرف المستقبل بعيداً وهو يتطلع نحو الحداثة رغم إرثه من الثقافة العربية - الإسلامية، بامتداد وأصول تعود إلى المدرسة العباسية حيث يستمر التعليم في النجف على الطريقة العباسية في زمن المأمون و"دار الحكمة" التي لاتزال تروي عروقنا، ففي اللغة والنحو ظلت طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي وبحوره الشعرية هي السائدة، وفي الفلسفة استمرت المدرسة النجفية، على طريقة ابن سينا. وفي التاريخ، فإن طريقة المسعودي هي المفضلة، أما في الشعر فإن المتنبي والبحتري والشريف الرضي كانوا الأكثر حضوراً (٢٤).

لقد وظف الجواهري كل ذلك المخزون الثقافي والموروث الأدبي بفكرة تجديدية ملونة بالحداثة ومستجيبة لروح العصر رغم احتفاظها بشكلها التاريخي.

ولعل من نافلة القول الاشارة إلى انه كلما تعددت التقنيات التعبيرية في لغة ما دلّت على ديناميكيتها ومخاضاتها وعلى قدرتها في التفاعل والأخذ والعطاء واستشراف فضاءات أخرى والعكس صحيح أيضاً، ففرض تقنية واحدة استبداد يؤدي إلى ضمور وانزواء فكريين يقودان إلى اختناق مكرب للمجتمع حتى ولو كان ذلك المجتمع مُرفّهاً اقتصادياً، فالصوت الواحد واللون الواحد والقصيدة الواحدة والذوق الواحد والزعيم الواحد، كلها من صفات

---

(٢٣) قارن: عبد الغني الخليلي، سلاماً ياغريب. دار المنفى، السويد، ١٩٩٦، ص ٢٨ - ٢٩.
(٢٤) راجع: حسن العلوي "الجواهري: رؤية غير "سياسية" - مصدر سابق - ص٦٨.

الأنظمة الشمولية "التوتاليتارية" التي لا تؤمن بالتعددية وحق الاختلاف وتنوع الآراء.

وفي حين كان الجواهري يحظى بالترحيب المنقطع النظير أينما ذهب وحيثما حل، وكانت المشاعر الجياشة والعفوية تعبيراً عن عطف خاص على الشاعر وتقديراً لتبلوره كرمز عراقي للثقافة والإبداع (٢٥) كان "معسكر" الخصوم يتمادى في التعريض بالجواهري ومهاجمته شخصياً مما زاده مكانة وارتفاع شأن، فوق ماهو عليه، من علو مقام وارتفاع منزلة، حتى ان الزعيم عبد الكريم قاسم، في محاولة منه لمراعاة المزاج الشعبي، وفي قراءة ذكية له، وبخاصة في الأيام الأولى للثورة، وقبل أن يركبه الغرور، زار منزل الجواهري، وهو المنزل الوحيد، الذي زاره بعد الثورة مباشرة، لكن علاقة الشاعر بالجنرال أخذت بالفتور، مما اضطره، بعد ذلك، إلى مغادرة الوطن والاغتراب.

وقد تلمس حكام ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨ بحسّهم الأمني، وليس "الثقافي" أهمية عودة الشاعر الكبير الجواهري، فوجهوا دعوتهم إليه للعودة، بعد وصولهم إلى السلطة مباشرة، وأعقبوها بدعوات واتصالات أخرى حتى عاد الجواهري، ولكنهم فوجئوا بالاستقبال الشعبي المهيب، في مطار المثنى رغم وصول طائرته في وقت متأخر ليلاً. إذ كان قد تسرب نبأ وصول الجواهري إلى بغداد، في حين كانوا يريدون أن يوظّفوا عودته لأغراضهم الخاصة وذلك في محاولة منهم الظهور بحلّة جديدة والتملق إلى المثقفين.

---

(٢٥) كتب صباح المندلاوي عموداً في صحيفة "الوركاء" الصادرة في دمشق بعنوان "كيف قضى الجواهري ليلة رأس السنة ١٩٩٥" تطرق فيه إلى حفاوة الشارع الدمشقي بالجواهري، عندما زارا عيادة الطبيب، وبعدها توجها للجلوس في مقهى فندق الشام". وكنت نفسي أشعر بالإحراج كلما رافقت الجواهري في أمسية أو فعالية أو مطعم، وأشعر بلهفة الناس للسلام عليه أو أخذ صور تذكارية معه أو إسماعه جزيل الكلام والاحترام. وإذا كان ذلك تعبيراً عن حب الناس ومشاعرهم إزاء الشاعر والمبدع خصوصاً بشهرة الجواهري، ومكانته، إلا أنه قد يسبب له ولأمثاله إحراجاً وضيقاً باقتحام حياته الشخصية وخصوصياته ولكن ذلك على أي حال ضريبة الشهرة..

* وجهاً لوجه:

كانت العلاقة الاولى، قد نشأت بين الجواهري وبيني من بعيد، حيث كنت أتابع كل شأن عام له. وكنا نجتمع في بيوت الأقرباء والأصدقاء، للاستماع إلى قصائده أو تلقّف أخباره.

وكانت صحيفة "الراي العام"، التي يصدرها الجواهري، مصدر إعجاب كبير مثل "اتحاد الشعب"

وكانت المرة الأولى التي أشاهد فيها الجواهري وجهاً لوجه، في الاحتفال الذي انعقد في ساحة الكشافة ببغداد كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩، بمناسبة الذكرى الحادية عشرة لوثبة كانون ١٩٤٨، حين اعتلى المنصة، لينشد في الجموع المحتشدة، بدعوة من جبهة الاتحاد الوطني، وكان حاضراً حينها بعض رجال الثورة، المهداوي وماجد محمد أمين ووصفي طاهر(٢٦).

هكذا نشأت العلاقة مع الجواهري، بصمت ومتابعة وشغف. وكم كان الحزن عميقاً، عندما سمعنا نبأ سفره إلى الخارج، وقبلها تعرضه للمضايقة ومحاولات الاساءة؟. وكم كنا ننتظر أخباره، التي كانت تصل إلينا مع "بريد الغربة" ومن إذاعة

(٢٦) كان اجتماع ساحة الكشافة، آخر اجتماع أو فعالية جماهيرية، لجبهة الاتحاد الوطني، التي تأسست في ٧ آذار (مارس) ١٩٥٧، والتي بدأ لاحقاً الاحتراب بين أطرافها وبخاصة الحزب الشيوعي من جهة وحزب البعث والاستقلال من جهة أخرى، ووصل الأمر إلى حد التصفيات الجسدية، بعد الائتلاف الذي كان ثمرته ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٨. وكان المتحدثون في الاحتفال: عبد القادر اسماعيل (الحزب الشيوعي) وعبد الستار الدوري (حزب البعث) وزكي جميل حافظ (حزب الاستقلال) أما (الحزب الوطني الديمقراطي) فقد تحدث عنه عبد الله عباس. وتحدث ابراهيم أحمد من الحزب الديمقراطي الكردي (البارتي) الذي لم يكن عضواً في الجبهة. وكان عريف الحفل جلال الطالباني. وقد حدثني الاستاذ عبد الستار الدوري بأن حمزة سلمان (الحزب الشيوعي) طلب موافقة الأطراف المنظمة للاحتفال، لالقاء الجواهري قصيدة بالمناسبة، إذ أن إسمه، لم يكن قد أدرج على قائمة المتحدثين. ومن الجدير بالذكر إن الاجتماع توصل إلى صيغة عامة حول نقطة الخلاف الجوهرية: الوحدة الفورية أم الاتحاد الفيدرالي؟ ومفادها: تعزيز الارتباط مع الجمهورية العربية المتحدة، بأوثق الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية. ويبدو ان هذه الصيغة التوفيقية كانت تخفي النار تحت الرماد، فسرعان ماانفجر الصراع بعد أيام، حيث استقال الوزراء القوميون في ٦ شباط (فبراير) ١٩٥٩ في حين هيمن على الشارع طغيان "الشعارات اليسارية" وملاحقة حلفاء الأمس الذين انسحبوا إلى الخلف، لينظموا الهجوم ويضعوا خطط الوثوب على السلطة والانتقام، مستخدمين كل الأساليب لتحقيق هدفهم.

"بيكي ايران"، وفيما بعد "إذاعة صوت الشعب العراقي" حين كان رئيساً للجنة الدفاع عن الشعب العراقي، بعد انقلاب ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣(٢٧).

ولم يكن اضطرار الجواهري لمغادرة العراق سوى إيذاناً بتدهور الأوضاع للدرجة لم يعد معها البقاء ممكناً فضمّت السجون شخصيات بارزة وقعّتْ على نداء للسلم في كردستان ومئات بل الآف من الوطنيين من شتى الاتجاهات والانتماءات. وكانت ذروة التراجع انذاك وبداية فصل مأساوي جديد أشد قتامة حين حصل انقلاب ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣ ، حيث اضطرت للمغادرة أعداد أخرى من المثقفين والمبدعين، وضمت السجون نخبة لامعة منهم، أضيفت إلى أعداد سابقة، وقتل تحت التعذيب: عدنان البراك، ومحمد حسين أبو العيس وعبد الجبار وهبي (أبو سعيد) وعبد الرحيم شريف، وعدد آخر من المثقفين، إضافة إلى أعداد كبيرة من السياسيين والعسكريين.

* النهر الثالث:

رغم هول ماجرى في العراق آنذاك، لكن نبرة الأمل، دفعت بالبعض إلى القول، أن ليل الكارثة الطويل والخسائر الكبيرة، لا يمكنه القضاء على النهرين، دجلة والفرات والنهر الثالث "الجواهري" الغزير، نظراً للمكانة العميقة، التي يحتلها الجواهري، الذي كان شعره عنواناً للشموخ ورمزاً لاجتياز المحنة.

في تلك السنوات اشتهرت قصيدة الجواهري، "يادجلة الخير"، التي نظمها شتاء ١٩٦٢، والتي يقول فيها:

حييت سفحك عن بعد فحييني ... يادجلة الخير ياأم البساتين

---

(٢٧) كان من أبرز قادة لجنة الدفاع عن الشعب العراقي: الدكتور فيصل السامر والدكتورة نزيهة الدليمي وعزيز الحاج وذو النون أيوب واللواء هاشم عبد الجبار ومحمود صبري ويتزعمها الجواهري. واتخذت من براغ مقراً رئيسياً لها. وكان من أبرز فعاليات اللجنة تنظيم لقاء مع الفيلسوف البريطاني وداعية السلام "برتراند رسل" حيث كان يرافقه ويعمل بمعيته الشاب "خالد أحمد زكي" الذي عاد إلى العراق فيما بعد وقتل في عمليات الكفاح المسلح في الأهوار عام ١٩٦٨.

حييت سفحك ضمآناً ألوذ به ... لوذ الحمائم بين الماء والطين
يادجلة الخير يانبعاً أفارقه ... على الكراهة بين الحين والحين
إني وردت عيون الماء صافية ... نبعاً فنبعاً فما كانت لترويني
يادجلة الخير قد هانت مطامحنا ... حتى لادنى طماح غير مضمون
لعل يوماً عصوفاً جازماً عرماً ... آتٍ فترضيك عقباه وترضيني..

لكن ذلك اليوم لم يأت كما أراده الجواهري، بل ازدادت الأيام حلكة وعتمة، وخيم على العراق ليل طويل زاد على ثلاثة عقود من الزمان.

ولعل رجاء الجواهري، هو رجاء العراقيين حالياً، الذين يعانون من الحصار الدولي الجائر المستمر منذ ست سنوات ومن نظام شمولي استبدادي منذ عام ١٩٦٨، فضلاً عن غياب الحياة البرلمانية ـ الدستورية وانقطاع خط التطور التدريجي، وبالتالي فإن البلاد تُحكم منذ نحو أربعة عقود بالقوانين الاستثنائية وأنظمة الطوارئ وبدساتير مؤقتة وبتقليص هامش الحريات وبالتجاوز المستمر على حقوق الانسان.

كما اشتهرت في تلك الفترة قصيدة "أبا زيدون" المهداة إلى الراحل عبد اللطيف الشواف، والتي يقول فيها:

أبا زيدون ما أحلى ... معانيك وما أطرى
لقد أوحشتنا بَعد ... ك لولا نعمة الذكرى
أبا زيدون والدنيا ... يمازج حلوها المرا

وكذلك قصيدته النونية (٨٤ بيتاً) المرسلة إلى الشاعر الراحل محمد صالح بحر العلوم، الذي كان نزيل السجن آنذاك:

ياأبا ناظم وسجنك سجني ... وأنا منك مثلما أنت مني[٢٨]

---

(٢٨) كان الشاعر محمد صالح بحر العلوم يومها نزيل سجن نقرة السلمان الصحراوي، الذي ضم الآلاف من اليساريين والشيوعيين منذ أواخر الأربعينات. وقد نظمت القصيدة في أوائل عام ١٩٦٥، وألقاها الشاعر في احتفال في براغ بمناسبة ذكرى وثبة كانون ١٩٤٨ في ١٩٦٥/١٢/٢٧ ونشرت في ديوان "بريد الغربة"

* كردستان:

وقد تلاقفت الأيدي قصيدته الشهيرة والموسومة "كردستان" وبخاصة بين الأكراد واليساريين والديمقراطيين. وقد ألقاها في اجتماع لجمعية الطلبة الأكراد، في مدينة ميونيخ الألمانية، صيف ١٩٦٤، حيث كانت الحملة العسكرية ضد الشعب الكردي قد تجددت منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٣ يقول الجواهري:

قلبي لكردستان يُهدى والفمُ ولقد يجودُ بأصغريه المعدمُ

وقد أهدى الجواهري أثمن مالدى المرء.. إلى كردستان (القلب واللسان) ثم يقول في وصف الملا مصطفى البارزاني، زعيم الحركة الكردية:

باسم "الامين" المصطفى من أمةٍ بحياته عند التخاصم تقسم

ستری الكُماةَ المعلمينَ تحلّقوا فذا تهيبةُ الكمُّى المُعلم

صُلب الملامح تتقي نظراته شهبُ النسور ويدرّيها الضيغم

يابن الشمال وليس تبرحُ كربةٌ بالبشر تؤذن عندما تتأزم

وتناقض الأشياء سر وجودها وبخيرها وبشرّها تتحكم

يقدم الجواهري نفسه في هذه القصيدة، ضمن الجدل الهيغلي والماركسي وبشكل عفوي ودون تكلّف أو قصد الذي يتحدث فيه عن قانون وحدة وصراع الأضداد وقانون نفي النفي وقانون التراكم الكمي يؤدي إلى التغيير النوعي، وذلك بقفزة: التناقض في الأشياء (سر الوجود) جامعاً الخير والشر ثم يلمح الجواهري لدور قاسم ويواصل صعوده، مقارنة لما حدث من تدهور للأوضاع السياسية في العراق، فيقول:

ياموطن الأبطال بَثٌ مؤلمٌ والذّ أطراف الحديث المؤلمُ

ولقد يلذك من شكاة أن ترى فيها الضمير بنفسه يتكلم

أنا مثل دأبك في كفاحك محربٌ شاكي العزيمة أعزلٌ متقحّم

ستون راحت في النفوس تقسّم تُعطي عطاء الأكرمين وتحرم

آبـي الهضيمــة اســتباح هضيمـتي ... فيمـا اسـتباحك أحمـــق متجــرم

ألـوى بمـن عنـدي، وعنـدي صفـوة ... هـي مـن أبيـه، ومـن ذويـه أكـرم

ورمـى بهـم خلـف الحـدود كـأنهم ... بُـردٌ إلى الأمصـار عجلـى تـرزم [٢٩]

وأشـاع لحمـــي للذئــاب ولحمهــم ... حمـى لحومــا بالنتانـــة تزخـــم

كمـا اشـتهرت قصيدتـه المرسـلة إلى أمـين الأعـور، الصحفـي اليســاري اللبناني، والمحرر في صحيفة "الأخبار" و"النداء"، وفيمـا بعـد صحيفـة "المحـرر" الناصرية، رداً على مقالة ورسـالة كتبهـا إليـه. وكـانت صحيفـة "النـداء" قـد كتبت مقالة بعـد أيـام مـن انقـلاب ٨ شـباط (فـبراير) ١٩٦٣ بعنـوان "لقـد سلمت دجلة والفرات، إذ سلمت ياأبا فرات"

وتعرّض الجواهري في قصيدته المرسلة إلى أمين الأعور للسـلطة الانقلابيـة الجديدة ورئيسها عارف والموسومة بـ"أمين لا تغضب" بالقول:

"أمـين" خلّـــي الـــدم يـــنزف دمــاً ... ودعْ ضرامــاً ينبثـــق عـــن ضـــرام

يـــاعبد حـــرب وعـــدوّ الســـــلام ... يـاخزي مـن صلّـى وزكّـى وصـام

يـــاابن الخنـــا ان دمـــاء الكـــرام ... نــارٌ تلظّـــى في عـــروق اللئـــام

وفي التصدي للموجة الارهابية التي كانت تحظى بدعـم القـاهرة آنـذاك التي باركت ماكان يجري في العراق يقول:

وبــــارك الفرعــــون في مصــــره ... بــين الغوانـــي وكـــؤوس المـــدام [٣٠]

---

(٢٩) بُرُدٌ (جمع بريد).

(٣٠) لكن الجواهري عاد ونظم مرثية رقيقة ورائعة بحق الزعيم العربي الراحل جمال عبد الناصر تأكيداً لغلبة عاطفته الوطنية والقومية الجياشة على خلافاته السياسية حيث يصف عبـد النـاصر "بالنسر المحلق" الذي لا تحصي وثباته قياساً بعثراته، فالجد لا يعصم الرجـال مـن الأخطـاء فمـا بالك بالعظماء. ويقول مخاطبا مصر:

وَقَـبي ثقيـل الظـلّ كنـت فلـم أُطَـقْ ... أفمـا أَطَقْـتِ ــ فديتــك ــ الثقـلاءَ

وسيجد القارىء إشارة إلى هذه القصيدة في رثاء عبد الناصر، في مكان آخر من هذا الكتاب.

ويذهب الأستاذ حسن العلوي، إلى أن الجواهري، أفرغ كل ما في قاموسه من النقد السياسي، على نظام شبه إقطاعي، فيه شعرة ليبرالية، مودعاً آماله في خزانة المستقبل، لم يكن يتوقع قيام نظام أشد بطشاً وإرهاباً وقدرة على التخريب. ويعتقد العلوي، ان ذلك هو السبب، في إخفاق الجواهري، في كتابة قصيدة ضد عبد السلام عارف وتطور مدرسته الحاكمة، إلى مرحلتها الفاشية حالياً. ولا أدري ماالذي يقصده بكلمة إخفاق؟ فإذا كانت قصيدته إلى أمين الأعور ليست بمستوى قصائد مثل طرطرا وأبو التمن والوترَي، الهجائية الشديدة والفنية البليغة وذات التحدي المباشر، فإن الأمر صحيح وربما يعود إلى احتدام الصراع آنذاك، وإلى كونه داخل حلبته. أما قصيدته المكتوبة إلى أمين الأعور، من براغ، وبعد سنوات من الغربة، وبعيداً عما يجري داخل العراق، فقد جاءت "باردة" فنياً مثل برودة حياة الغربة عموماً؟ رغم هجائها السياسي الحاد، في حين كان الجواهري عندما يقول قصيدة التحدي يكون في أتون المعركة فتخرج قصائده "حمماً" و"قذائف" بعيدة المدى لتاقى على الخصم وبوجهه. وقد يعود الأمر للجو السياسي، الملتبس والمتناقضات الدولية، وانعكاساتها على الصراع الداخلي في العراق، ومنها التأثير السوفيتي الايديولوجي واطروحاته حول "الطريق اللارأسمالي" و"الديمقراطيين الثوريين" وغيرها وهو ماعبّر عنه الجواهري في وقت لاحق(٣١) . ومع ذلك فإن قصيدة الجواهري إلى أمين الأعور، بغض النظر عن مستواها الفني، فقد لقيت ترحيباً شعبياً في وسط اليسار واستنسخت وطبعت بمئات بل آلاف النسخ في العراق، وتلك إحدى مفارقات العمل السياسي والثقافي في العراق، حين تشتهر قصيدة لاعتبارات لا علاقة لها بعنصر الجمال والفن، بل لاعتبارات احتدام الصراع السياسي وتغلّبه على الهم الثقافي أو الجمالي!

---

(٣١) تحدث الجواهري في لقاء خاص مع المؤلف عن مشكلات "لجنة الدفاع عن الشعب العراقي" التي كان يترأسها خصوصاً محاولات الاتجاه السياسي السائد إملاء توجهاته عليها بعد تغيير نهجه الذي عُرف باسم "خط آب" للمهادنة مع سلطة عارف.

* نوع آخر من التحدي:

إن قاموس الجواهري السبعيني أو الثمانيني، شمل قصائد من نوع آخر للتحدي والكبرياء والاعتداد بالنفس، ومحاولات انتقاد الزيف والخداع. فمثلاً قصيدة: "أزح عن صدرك الزبدا"، التي ألقاها لأول مرة في "جمعية الرابطة الأدبية" في النجف، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ وذلك بعد حصوله على جائزة "لوتس" نموذج آخر للتحدي. وقد نشرتها مجلة الديار اللبنانية في صورتها الاخيرة في آذار (مارس) ١٩٦٧ ويصفها الجواهري بأنها من أعزّ قصائده وأحبها إلى نفسه. يقول في مطلعها:

أزح عن صدرك الزَّبدا ودعه يبث ما وجدا

وخل حطام موجدة تناثر فوقه قِصدا

ويواصل التصعيد:

أزح عن صدرك الزبدا وقل تُعدِ العصورُ صدى

أأنت تخاف من أحدٍ أأنت مصانع أحدا

أتخشى الناس أشجعهم يخافك مغضباً حَرِدا

ولا يعلوك خيرُهُم ولستَ بخيرهم أبدا

تركت وراءك الدنيا وزخرفها وما وَعَدا

وما منْتك مثقلةٌ بما يرضيك أن تلدا

ورُحتَ وأنت ذو سعةٍ تجبعُ الأهلَ والوَلَدا

ويعرض الجواهري بوضوح وصراحة بعضاً من جوانب شخصيته بتلقائيتها وعفويتها، بعناصر القوة الكبيرة وبنقاط الضعف الإنسانية، في حين يحاول الكثيرون تلميع شخصياتهم وادعاء ماليس لهم وتصنّع الفضيلة. ولعل خير من يعبر عن الجواهري، هو أدبه وشعره، فهو ليس بحاجة إلى أقنعة، انه

يجمع بجوار متناقض ولكن محبب الأضداد، بطريقة ديالكتيكية باستعارة التعبير الماركسي، رغم انها حالة عفوية لا تنشد الاستحضار الفلسفي.

يقول الجواهري:

ولم أر في الضدائد من نقيض	إلى ضد نقيض من ضريب

فليس للجواهري أسرار لم يكشفها هو بنفسه على الملأ، ليضع نفسه تحت الأضواء بل تحت المجهر أحياناً، وفي ذلك شجاعة فائقة بل نادرة. فلنتخذ من النص الشعري أداتنا في التقييم. يقول الجواهري:

عجيبٌ أمرك الرجرا	ج لا جنفاً ولا صددا
تضيقُ بعيشةٍ رغدٍ	وتهوى العيشة الرغدا
وترفض منة رفهاً	وتبغضُ بُلغة صردا
وتخشى الزُّهد تعشُقه	وتعشقُ كل من زهدا
ولا تقوى مصامدةً	وتعبدُ كلَّ من صمدا

قد تذكرنا هذه المقطوعة بمقولة جلال الدين الرومي، ليس من باب الاسقاط الفلسفي أيضاً وإنما ضمن قانون وحدة الاضداد وصراعها "في أشد الأحقاد ثمة نكهة حب، وفي اسلم المبادىء ثمة نكهة حرب، وفي أقدس المشاعر وأطهرها ثمة نكهة مجون وشهوة"

ففي حين يُطلب من الجواهري أو المثقف بشكل عام أن يكون معصوماً، بدون أخطاء، وبدون عثرات أو نواقص، متحدياً، وثّاباً ، مقداماً، يُترك أحياناً ليلاقي مصيره ويتدبر أمور حياته بما فيها ظروف عيشه، وهي أمور يغلب عليها الولاء السياسي، قبل كل اعتبار، في السلطة وخارجها أحياناً، في الحكم أو في احزاب وقوى المعارضة. وهي مهمة قاسية ان يكون الشاعر زاهداً، صامداً، شجاعاً، وهو لا يملك شروى نقير، من أمور حياته والويل له إن أخطأ أو حاد أو سها أو إلتبست عليه الأمور أو اختلطت عليه الصور والألوان وسبحان من لا يخطىء.

وهنا أشير إلى أن الجواهري الشاعر كان في كل كبوة أو عثرة، أشد المحاسبين للجواهري الإنسان. ففي قصيدة "غاشية الخنوع" كان الجواهري يعيد تقييم المرحلة التي سبقتها، والتي يقول عنها: لم أغتصب ضميري سوى مرة واحدة، والمقصود بها قصيدة التتويج. تلك التي كتبها يوم اعتلاء الملك فيصل الثاني عرش العراق عام ١٩٥٣، والتي مطلعها:

تـه ياربيع بعطرك الزاهي الندي	وبصنوك الثـاني ربيـع المولـد

ولكنه كتب بعدها رائعة "كفارة وندم".

ففي قصيدة غاشية الخنوع يقول الجواهري:

حاسـبت نفسـي والأنـاة تردهـا	في معـرض التصريـح لا الايمـاء
بيني لعنت فلست منك وقـد مشى	فيك الخمول ولست من خلصائي
مـاذا يميزك والسكوت قسـيمة	عـن خـانع ومهـادن ومُرائـي
مـاأنت اذ لا تصدعـين فواحشـاً	إلا كراضيـةٍ عـن الفحشـاء

ولست أجد محاسبة عسيرة للذات ونقداً عنيفاً للنفس مثل تلك الأبيات. فهناك من يريد من الجواهري أو المبدع عموماً أن يعلو على البشر فخط حياته ينبغي أن يكون مستقيماً بلا اعوجاج أو تعرج، وتلك قضية مناقضة لطبيعة الانسان في حين نرى أن الجواهري جمع "جدلية جميلة" وترابطاً عضوياً بين "المجد والخطأ" في قصيدته المهداة إلى عبد الناصر(٣٢) والتي يقول في مطلعها:

أكـبَرتُ يومـك ان يكـون رثـاء	الخـالدون عهدتهـم أحيـاء
لا يعصم المجـد الرجـال، وانمـا	كـان العظيـم المجـد والأخطـاء
تحصـى عليـه العاثرات، وحسـبه	ماكـان مـن وثباتـه الإحصـاء

(٣٢) حسن العلوي، "الجواهري - رؤية غير سياسية" - مصدر سابق - ص(١١٤).
راجع نص القصيدة التي ألقاها الجواهري في القاهرة في إحتفال بالذكرى الاولى لوفاة الرئيس جمال عبدالناصر ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠. كتاب "الجواهري في العيون من أشعاره" ، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٦، ص ٥٥٦ - ٥٦٠.

لا تزال مواقف الشعراء والكتّاب والمثقفين بشكل عام تثير إشكاليات كثيرة من حيث تبدل آرائهم ومواقفهم مع مرور الزمان وتغير الأحداث. فالمثقفون، وهذا ربما من سوء حظهم، غالباً ماتلوّن أفكارهم وأعمالهم على الورق وتكون في متناول الجميع، مما يجعلهم عرضة للنقد والمساءلة أو التجريح أحياناً، مع انها قيلت في ظروف خاصة، أو في زمن مختلف وكما قيل "تغير الأحكام بتبدل الأزمان" في حين أن الغالبية العظمى من البشر قد تغير أفكارها ومواقفها بين اللحظة والأخرى من دون أية مساءلة وأحياناً لأسباب تتعلق بالمصالح الذاتية. فالذي قيل قبل لحظات يصبح في طي الماضي وهذه طبيعة البشر، على مر العهود والأزمان.

وقد أجاب محمود درويش في مقابلة خاصة له عن سبب تناقضه وتبديل مواقفه بقوله: ان الحياة متغيرة ومتناقضة ولا تطلب مني أن أبقى أسير مواقف عفا عليها الزمان. الطبيعة متناقضة فيها الليل والنهار والظلام والضوء، ولكن بين المتناقضات يوجد انسجام ما، وتناسق.

وحسب قناعتي فإن الحياة "حركية" وفيها الكثير من المفارقات وردود الأفعال والمواقف، التي سرعان ما"تبرد" بعد حين أو تتغير الظروف أو تتبدل القناعات بما توفره الحياة ذاتها من معطيات تتطلب اتخاذ مواقف جديدة قد تكون مناقضة لمواقف سابقة، وهذه سنّة الحياة. المتحجرون وحدهم هم الذين لا يتغيرون ولا يتناقضون!! (٣٣)

وفي سياق نقده الساخر، للزيف، قال قصيدته "إلى محمد علي كلاي" التي تعكس حال المثقفين والمبدعين العرب وبتهكم أو استفزاز يكتب عن "لكمة" تجلب الملايين، بينما يعاني مبدعون وفنانون آخرون من شظف العيش:

شسْعٌ لنعلك كل موهبة وفداءُ "زنديك" كل موهوب

---

(٣٣) يقول جبران خليل جبران ماذا أقول في المقعدين الذين يكرهون الراقصين؟ إنكم تستطيعون أن تخمدوا صوت الطبل، وتحلوا أوتار القيثارة، ولكن مَن من أبناء الانسان يستطيع أن يمنع قُبّرة السماء عن الغناء!!

وصـــدى لهـــاثِك كـــل مُبتكـــر   مـــن كـــلّ مســـموع ومكتـــوب
ماالشـــعر؟ مـــاالآداب؟ ومـــا بـــدعٌ   للفكـــر؟.. مـــا ومضـــاتُ أســـلوب؟
شســـعُ لنعلـــك كـــل قافيـــة   ذوّت بتشـــريقٍ وتغريـــب(٣٤)

وفي قصيدة "المتنبي"، التي ألقاهـا في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ يصوّر الجواهري شموخ المتنبي وكأنه يتحدث عن نفسه:

تحـدى المـوت واختـزل الزمانـا   فتـى لـوّى مـن الزمـن العنانـا
فتـى خـبّط الدنـا والنـاس طُـرّاً   وآلى أن يكونهمـــا فكانـــا...

* حسب الثمانين!

تمثّل قصيدته ياابن الثمانين، التي نشرها في صحيفة "الشرق الأوسط" في عددها الصادر في ١٩٨٢/٢/١٩ قمة الاعتداد والرفعة حين يقول:

حسبُ "الثمانين" من فخرٍ، ومن جذَلِ   غِشـيانُها بجنـان يـافعٍ، خَضِـلِ
يا "ابن الثمانين" كم عولجتَ من غصَصٍ   بالمغريـات فلـم تشـرقْ، ولم تَمَـلِ
كم هزّ دوحَـكَ مـن "قـزم" يطاولُـه   فلـم ينلْـهُ ولم تقصـر، ولم يَطُـلِ
وكم سعت "إمّعاتٌ" أن يكـون لهـا   ماثار حولك من لغوٍ، ومن جَـدَلِ

إلى أن يقول:

يا "صاحبي" وحتوفُ القـوم طوعُ يـدي   وكم أتنتهم "رياح المـوت" مـن قِبلـي
أجـل يراعـك في آجـالهم مِزقـاً   فليس عنـدك بعد اليوم من أجـلِ
واضرب بهم أسوأ "الأمثـال" سـائرة   حتـى تثلّم فيهـم مضـرب المَثَـلِ!

---

(٣٤) أتذكر تلك القصيدة، التي سمعتها لأول مرة من الجواهري مباشرة في بيت المرحوم موسى أسد الكريم (ابو عمران) الذي عبثت به الأقدار، فتعرض إلى الملاحقة والسجن (في العراق وإيران) فبعد ان كان ملحقاً صحفياً في بيروت وملحقاً ثقافياً في براغ، ضاقت به السبل حيث فصل من وظيفته وانطبق عليه المثل العربي "عزيز قوم ذل" ويعتبر أبو عمران احدى الشخصيات القليلة التي كانت تلمّ بالجواهري وبشعره.

وقد راح الجواهري في قصائد الثمانينات، لا ينتقد الحكام فحسب، بل يلوم المحكومين أيضاً، الذين لا يتمردون ولا يثورون، في حين يُطلب منه تقدم الصفوف. وفي قصيدته إلى الدكتور صابر فلحوط، نقيب الصحفيين السوريين ومدير الوكالة العربية السورية للأنباء (سانا)، التي نشرتها مجلة "المجلة" الصادرة في لندن كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨، يوجه نقداً شديداً للأوضاع السائدة في العالم العربي(٣٥) فيقول في مطلع القصيدة:

أابا مُهنّد والجراح فمُ	وعلى الشفاه من الجراح دم

إلى أن يقول بحرقة منتقداً الأوضاع العربية المزرية، التي جلبت النكبات والهزائم القومية:

أفأمةٌ هذي التي هَزُلت	وتناثرتَ فكأنها أمم
يسطو على صَنم بها صنمٌ	ويغارُ من عَلَمٍ بها عَلم
ويساومونَ على شعوبهم	أعدى الخصوم كأنهم حَكَم
أمشَردون وأرضهُم ذهبٌ	ومجوعون ونبتها عَمِم
آفألف مليونٍ وقبلتهم	بيد اليهود الصُفر تقتسم

ثم يصعد الجواهري ازدراءه فيقول:

أابا مهند شر من حكموا	ماكان لولا ذلّ من حكِموا
ماذا على الراعي إذا اغتصبتْ	عَنزٌ ولم تتمرد الغنم
ياأيها "الطاعون" حَلّ بنا	وبمثلِ وجهكِ تكشفَ الغمَم

ويواصل هذا النهج في قصيدته المهداة إلى الدكتور صلاح خالص، والتي نشرت للمرة الأولى، في كتاب "الجواهري في العيون من أشعاره" والقصيدة نظمها في براغ بتاريخ ٣٠/١٢/١٩٨٤:

---

(٣٥) كان الجواهري قد كتب القصيدة إلى صديقه الدكتور الشاعر صابر فلحوط، رداً على قصيدة كان قد ارسلها له إلى براغ ومطلعها:

ابا الفرات تحيتي ألم	حيث الحناجر كالجراح دمُ

أأخـي "ابـا سـعد" ومـن قبـلِ ... أهـدي سـتقبس جمرتـي قبسـا
يـاصفو اخـوان الصفـا إذا ... مـاجفّ نبـع مـروءة وجسـا

إلى أن يقول:

عـوت "الذئـاب" علـيّ نـاهزة ... فرصـاً تثـير الذئـب مفترسـاً
ينهشـن مـن لحمـي وكـل دم ... فيـه لخـير النـاس قـد حُبِسـا

* "ماذا أغنّي"؟

في قصيدته التي أرسلها إلى الاستاذ جلال الطالباني زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني في ١٠/١٢/١٩٨٠ يرد الشاعر على صديقه، الذي سبق وأن حاول استثارته محفزاً إياه على مواصلة التغنّي بالشعر، يقول في مطلعها(٣٦) :

شوق "جلال" كشوق العين للوسن ... كشوق ناء غريـب الـدار للوطـن

ثم يخاطبه منتقداً حالة الوهن والضعف، التي وصلت إليها الحركة الوطنية، فيقول:

ماذا أغني، وبي جمر على شفتي ... ومـن أغـني؟ ومـا مـن معشـر إذنِ
لم يبق في "الحي" من يحمي ظعينتـهُ ... ولا على الـدار مـن يرمـي عـن السـكنَ
مـن ذا أغـني اشـتاتا موزعـة ... علـى التمـزق والثـارات والإحـن
أم صـابرين علـى ضيـم ومسـكنة ... صبر الحمار على مرأى من الأتـنِ
أم "الطلائـع" مزعومـين شـفهم ... وجـد التجـار بسـوق الربـح والغـبن
أم "الربيـط" كعـير الحـي في وتـدٍ ... مـن المهانـة لا يرضـى لمتهـن؟

وبحرقة وألم يواصل انتقاده:

وقلت لي أن "ناساً" شفهم نغمـي ... بمـن يمنـون في السـراء والحـزن
فهـل ترانـي "مزمـاراً" يثـار بـه ... لهو الخلائف من أعقاب "ذي يزن"

(٣٦) نشرت القصيدة للمرة الأولى في كتاب "الجواهري في العيون من أشعاره" ــ دار طلاس (دمشق ١٩٨٦).

فمن يطح منهم في غير معترك ... فلا سقت قبره صبابة المزن

ومن يعش لينـاغي سمعةُ نغمٌ ... فليصغ سمعا إلى مستنقع نتن

نقّ "الضفادع" يغنيه ويؤنسه ... وانه عن هتاف الثائرين غني

وسار الجواهري، على هذا، المنوال في قصيدته، التي نظمها في حزيران (يونيو) ١٩٨٥ بعنوان "برئت من الزحوف" والتي نشرت لأول مرة في كتاب "الجواهري في العيون من أشعاره":

وسائلةٍ ألنت تُسبُّ جهراً ... ألست مَحَجّ شبان وشيبِ

ألست خليفة الأدب المصفى ... ألست منارة البلد السليب

أيسرح شاتموك بلا حسيب ... وتسمع من هناك بلا نسيب

أو في قصيدته "بغداد"، التي نشرت للمرة الاولى عام ١٩٨٦ في كتاب "الجواهري في العيون من أشعاره" والتي يقول في مطلعها:

لا در درك من ربوع ديار ... قرب المزار بها كبعد مزار

بابن المقفع وابن قدوسٍ ... وبالحلاج والموحى له بشارَ

وبمالىء الدنيا وشاغل اهلها ... وبأيما فلك لها دوار

بابي "محسدَ" وهي تقطّع صلبه ... لم يدر عارَ مثل هذا العار

ديست رؤوس الخيرين وعطرت ... أقدام فجار بها أشرار[٢٧]

---

(٢٧) تعرّض الجواهري إلى حملة انتقادات خفية وعلنية من بعض المنتفعين والموالين والممالئين للسلطة الحاكمة في العراق، الذين لم تهزهم مأساة حقوق الانسان المستمرة في العراق وأعمال الملاحقة والتعذيب والاعدام وحملة التهجير التي شملت أكثر من ٣٠٠ ألف مواطن عراقي، بحجة التبعية الايرانية المزعومة، والتي طالت عائلة الجواهري ذاته حيث هجرت الحكومة عددا من أقربائه وفيما بعد حملة "الأنفال" سيئة الصيت وقصف مدينة حلبجة بالسلاح الكيماوي. وقد عبّر القاص ذو النون أيوب في رسالة إلى عزيز الحاج بتاريخ ١٩٨٥/١/١٨ أرسلها من فيينا إلى باريس عن مضمون الحملة ضدّ الجواهري منتقدا موقفه بخصوص الحرب العراقية ـ الإيرانية التي سبق وأن أفصح الجواهري عن توجهاته إزاء الصراع السياسي في العراق من خلال قصائد الثمانينات التي أشرنا إليها.

يقول ذو النون أيوب "... أما الجواهري، فمع ماتردد من اعجابي به في مذكراتي، فاني آخذ عليه ضحالة تفكيره وتقلبه، وأشنع مافعل هو السكوت أثناء تعرض العراق للخطر، وسوف لا أغفرها له حتى لو هجاني...". انظر عزيز الحاج ـ أبو هريرة الموصلي ـ ذو النون أيوب، دار رياض الريس، لندن ١٩٩٠ ذيول ص١٠٦.

* **الجواهري والخليلي:**

في أواسط الستينات، وعندما كنت طالباً في جامعة بغداد، أتابع بعض الأخبار الخاصة عن الجواهري، من خلال الخال الجليل وصديقنا العزيز عبد الغني الخليلي، وأحياناً عبر صادق القاموسي والشيخ صالح الجعفري والشيخ عبد الزهرة عاتي، لكن الخليلي كان الوحيد، من بينهم، على صلة مباشرة بالجواهري، وهي صلة تاريخية عريقة، رغم انفراط عقدها في مراحل لاحقة. وأتذكر مرة أني التقيت في شارع البنوك (مدخل شارع السموأل)، في بغداد، بالأستاذ الخليلي، فدعاني إلى زيارته في البنك العربي اللبناني، الذي كان معاوناً لمديره، وهناك فتح درج مكتبه بالمفتاح، وأطلعني على قصيدة الجواهري، المهداة إليه، والتي أرسلها من براغ، مع رسالة خاصة ومملحة. وهي بعنوان: "ابا الفرسان" وهي مقطوعة صغيرة تتألف من ١٢ بيتاً يقول في مطلعها:

أبا الفرسان انك في ضميري ... وذاك أعز دار للحبيب[٣٨]

وظل الخليلي يحتفظ بمسودات نادرة للجواهري، ضمها بصندوق خشبي عتيق طالما حدثني عنه، وبخاصة خلال زيارتي إلى ستوكهولم عام ١٩٩٠ حيث استضافني في بيته. واحتوى الصندوق كما يذكر الخليلي على صور لرسائل أيضاً كان قد أرسلها الجواهري من براغ في الستينات أو عندما كان

وفي رسالة إخرى ١٩٨٥/٢/٤ يذكر ذو النون أيوب بل يحرض ضد الأدباء الذين لم يتخذوا موقفاً مقارباً من الموقف الرسمي، بل يتهمهم فيقول "أما شاعرنا (...) وأمثاله فخونة للوطن والأدب والفكر والانسانية. لقد أكرمته الجمهورية إكراماً، لم ينله أحد من الشعراء والأدباء، فبنت له داراً، ثم منح قطعة أرض... ومنح تقاعداً هو أكثر من تقاعدي لخدمة جاوزت ٣٣ سنة في الوظيفة. وأنت ترى ماأعاني من إيصال تقاعدي إليّ. و لم يخطر ببالي أن أتخلى عن الانتصار لوطني في مثل هذه الحرب الظالمة..." (المصدر السابق، ص١٠٧).

(٣٨) نشرت المقطوعة في المجلد الرابع من ديوان الجواهري، الصادر عن دار العودة في بيروت. وكانت مؤرخة في ١٩٦٨/٨/٢٤

في سورية عام ١٩٥٧ وعلى قصاصات لشفاعات كان قد كتبها لمساعدة بعض الناس(٣٩) .

وعند زيارتي الاولى إلى براغ عام ١٩٦٩ في طريقي إلى مدينة كراكوف (بولونيا) لحضور المؤتمر التحضيري للاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد لينين، زرت مقهى "سلوفانسكي دوم" الذي كان الجواهري يومه كل يوم تقريباً، والتقيت به هناك. وكنت قد قرأت قصيدته الشهيرة المرسلة إلى الفريق الركن صالح مهدي عماش (وزير الداخلية آنذاك)، والتي نشرتها الصحف العراقية. وقد اشتهرت القصيدة، التي كانت بعنوان "من مشارف سلوفانسكي دوم"، باسم "الميني جوب" وقد نشرت كاملة في صحيفة "النور" في ١١ أيار (مايو) ١٩٦٩ بعنوان "رسالة مملحة"

وكان الجواهري قد بدأ كتابة القصيدة على قصاصة ورق لفاتورة حساب صغيرة، صباح أحد الأيام في براغ، ثم اكتملت القصيدة في عصر ذلك اليوم، حتى أرسلت بالبريد المسجل إلى الفريق عمّاش.

يقول الجواهري في مطلعها:

وفى لها نَذراً فوافى	وسعى لها سبْعاً وطافا

ثم يقول:

نَبئتُ إنك توسع الـ	أزياء عَتاً واعتسافا
تقفو خطى المتأنقا	ت كسالك الأثر اقتيافا
وتقيس بالأفتار أر	دية بحجة أن تنافى
ماذا تَنافي؟ بل وما	ذا ثَمَّ من خَلَقٍ يُنافى؟

ويخاطب عماش محاججاً ومحتجاً:

---

(٣٩) قارن: عبد الغني الخليلي - سلاماً ياغريب، مصدر سابق، ص٣٤.

أتـــرى العفـــاف مقـــاس أقـــ   مشـــة؟ ظلمــت اذن عفافـــا
هـــو في الضمـــائر لا تخـــا   ط ولا تقـــصُّ، ولا تكـــافى
مـــن لم يخـــف عُقبـــى الضميـــ   ـــر فمـــن سـواه لـــن يخافـــا(٤٠)

ولعل قصيدته (أرح ركابك)، التي ألقاها في الحفل التكريمي الـذي أقامتـه له وزارة الاعلام مساء يوم الجمعة ٣ كـانون الثاني (ينـاير) ١٩٦٩ أي بعـد قدومه بأيام، في كازينو صدر القناة، كانت الأكثر شهرة فضجَّ العراق مع ابي فرات يومها بتلك القصيدة:

ارح ركـابك مـــن ايـــن ومـــن عـــثرِ   كفاك جيـلانِ محمـولا علـى خطـرِ
كفـاك موحِشُ دربٍ رُحـتَ تقطعُـهُ   كـأنّ مغـبرّه ليـــلٌ بـــلا ســـحَرِ
ويـا أخـا الطـير في وِرْدٍ وفي صـدَرٍ   في كـلّ يـوم لـه عُـشٌ علـى شـجرِ
عُريـانَ يحمـل منقـارا وأجنحـــةً   أخـفُّ مـــالمّ مـــن زادٍ أخـــو ســفرِ

---

(٤٠) لجأت السلطات العراقية عام ١٩٦٩ تحت ذريعة الحفاظ على الأخـلاق ومنـع التبرج إلى طلاء سيقان الفتيات بالصبغ وقص شعر الرجال. وهي واحدة من ملهاة السلطة العراقية، الـتي بدأت منذ ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨ لإشغال الشارع العراقي تارة بهذه الحجة وأخرى بقصـة إعدام الجواسيس في ساحة التحرير، بالطريقة البشـعة الـتي تمـت فيهـا وبالمحاكمـات الصورية، وثالثة بحكايـة عدنـان القيسـي (بطـل المصارعـة) ورابعـة بقضيـة سـيناريو الرعــب "أبـو طـبر" وخامسـة بحادث الحنطة المسمومة وسادسـة بمشكلة "مرض الأغنـام" وذلـك قبـل مـرض جنـون البقر (البريطاني) وسابعة بمسرحية "الجيب العميل" إثر فشل الحركة الكردية بعد اتفاق ٦ آذار (مارس) ١٩٧٥ وثامنة بتراجيديا التهجير وتاسعة بعمليات "التبعيـث" سيئة الصيـت والشـعار الشهير الذي كان يعني: كل مواطن بعثي وإن لم ينتمِ... والـتي تبعتهـا حملـة انتزاع الـبراءات الجديدة بموجب المادة ٢٠٠ من قانون العقوبـات البغـدادي والـتي يصـل حكمهـا إلى الاعـدام وذلك طبقا لتعهدات كانت تنتزع من المواطنـين في محلات العمـل والسـكن، وكلهـا كـانت تمهيدا لعملية التدمير الشاملة التي مرت بمرحلتين: الاولى في الحرب العراقية ـ الايرانيـة، والثانيـة عند غزو الكويت والاصرار على الدخول بحرب محسومة النتائج سلفا وما تبعها من اشـكالات وتدهور على جميع الأصعدة، سواء عند قمع الانتفاضة في آذار (مـارس) ١٩٩١ أو باسـتمرار الحصار الدولي وعمليات التجويع ضد الشعب العراقي.

وافتتح الاحتفال بقصيدة لوزير الداخلية صالح مهدي عمّاش على وزن هذه القصيدة، التي يقول فيها:

أرحْ ركابكَ من أينٍ ومن عَثرٍ   هيهاتُ مالكَ بعدَ اليوم من سفرِ

وكان الجواهري قد أُحيط في بداية عودته برعاية خاصة من عماش ووزير الاعلام عبد الله سلوم السامرائي والشاعر شاذل طاقة والصحفي حسن العلوي وآخرين ممن كانوا يتصدرون الواجهة الثقافية الرسمية، ثم خصص له (مجلس قيادة الثورة) راتباً تقاعدياً، وذلك بمرسوم جمهوري رغبة من الحكم الجديد في الظهور بمظهر لائق على الصعيد الثقافي والسياسي، الداخلي والعربي، قبل أن يكشر عن أنيابه ويبدأ بمحاربة المثقفين والقوى السياسية.

وخلال تلك الفترة اشتهرت في بغداد قصيدة الجواهري "بريد الغربة" التي نظمها عام ١٩٦٥ والتي يقول فيها:

لقد أسرى بي الأجلُ   وطول مسيرة مللُ
وطول مسيرة من دو   ن غاي مطمح خجلُ

إلى أن يقول:

سلاماً كله قبلٌ   كأن صميمها شُعَلُ
وشوقاً من غريب الدا   رِ أعْيَتْ دونَهُ السُبُل

كما اشتهرت قصيدة "بائعة السمك" التي نظمها عام ١٩٦٥ والتي يصف فيها الفاتنة الجميلة، التي تبيع السمك في إحد محلات براغ، حيث يقول في مطلعها:

وذاتَ غداةٍ وقد أوجفتْ   بنا شهوةُ الجائعِ الحائرِ
دلفنا لـ"حانوت" سمّاكةٍ   نُزوِّدُ بالسمك "الكابري"
فلاحت لنا حلوةُ المجتلى   تلفّتُ كالرشأ النافر
تشد الحزام على بانةٍ   وتفتر عن قمر زاهر

مـن "الجيـك" حسـبكَ مـن فتنـة   تضيـق بهـا رُقيـةُ السـاحر

قد تمثل هذه القصيدة صوراً ذهنية جمعها الشاعر فسيفسائياً من بطون الكتب التاريخية، فالعلاقة قد لا تصح لبائعة سمك جيكية، بل هي أقرب إلى غزالة نافرة، وصياد يتحين الفرص وهي أبعد ماتكون عن علاقة بين بائع وزبون، فالجواهري استبدل الصحراء ذات المسافات الشاسعة بالحانوت "دلفنا لحانوت سمّاكة" بما يوحي به الأفق البعيد. أما كلمة "لاحت" فهي تدل بلاغياً على ظهور شيء بعيد ينتظره الراوية (الصياد) بترقب وكلمتا (تلفّتَ) و(النافر) تدلان على الخوف والحذر وهما صفتان أساسيتان في كل غزالة برية لا تستطيع الدفاع عن نفسها إلا بسرعتها وهروبها، فالصور التي رسمها الجواهري مستحضراً التاريخ بضبية بدوية نافرة (الرشأ النافر) أقرب من بائعة سمك في حانوت في براغ خاضعة لشروط عمل لها علاقة بالزمان والمكان.

وكانت قصيدة "مرحباً أيها الأرق" التي نشرت فيما بعد بديوان خاص بعنوان "ايها الأرق" في عام ١٩٧١ قد ذاع صيتها وانتشرت بشكل واسع:

مرحبـاً ياايهـا الأرقُ   فرشـت أنسـاً لـك الحـدَقُ
لـك مـن عيـنيَّ منطلـقٌ   اذ عيـونُ النـاس تنطبـقُ
أنـا عنـدي مـن الأسـى جبـلٌ   يتمشـى معـي وينتقـل
أنـا عنـدي وان خبـا أمـلٌ   جـذوةٌ في الفـؤاد تشـتعل

وكانت رائعة "يانديمي"، وماتزال، تجسد رؤية جدلية للشاعر وتناقضاً للنفس البشرية:

يـانديمي: نفسـي جُـذاذاتُ طِـرسِ   عَريـتْ فوقهـا بطُهـرٍ ورجـسِ
مـن مَراقـي نُعمـى وهُـوّات بـؤسِ   مـن أشـمِ ومـن أخـسِ أخـسِ
كـذبَ البُحـتري إذ قـال أمـس: "صنتُ نفسـي عمـا يدنـس نفسـي"
دنـس النفـسِ حُلـةٌ مـن دِمقـسِ   لـن تُغطـى ـ ولـو بمليـون عُـرسِ

* براغ:

في منفاي الاضطراري الأول، (١٩٧٠) كانت براغ المحطة الاولى التي أستقر فيها. وربطتني بالجواهري علاقة حميمة، بدأت تتعمق وتنتقل من العلاقة العامة، إلى العلاقة الخاصة، أي من الفعاليات والأنشطة التي كنا نقيمها، وكان الجواهري صداحاً فيها، إلى المجالسة في المقاهي والزيارات إلى بيته في ضاحية بترشيني ـ فيترنيك، الجميلة، الواقعة في منطقة براغ ـ ٦

وكنا نجلس أحياناً في مطعم قرب بيته نحتسي (البيرة) يدعى "مطعم كوزموز" وغالباً مايكون معنا المرحوم موسى أسد الكريم "أبو عمران" الذي كان واحداً من أهم الشخصيات المهتمة بالجواهري، ومن الذين يحفظون شعره، ويقرأونه بغنائية لذيذة، وبصوت جهوري مهيب. وفي وقت لاحق، كان وجود المرحوم "شمران الياسري" (أبو كاطع) في أواسط السبعينات، مصدراً جديداً لتنوع الجلسات والأحاديث. وقد عاش أبو كاطع في بيت الجواهري، لبضعة أسابيع عندما كان الجواهري مسافراً، يقضي وقتاً للراحة في أثينا، والتي كتب فيها قصيدته الرائعة "سجا البحر" أو ذكريات من أثينا ونشرتها صحيفة "الجمهورية" (البغدادية) في ٢٧ آب (أغسطس) ١٩٧٧.

سجا البحرُ وانداحَتْ ضفافٌ ندية ولوّح رضراض الحصى والجنادل

وفي بيت الجواهري، كتب أبو كاطع، قصته مرزوكه (الكلبة التي شنقت نفسها) كما استوحى قصته، "بائع عرق السوس"، من لوحة معلقة في بيت الجواهري.

ثم انتقل أبو كاطع للسكن معي، حتى غادرت إلى بغداد. وقد نعى الجواهري صديقه موسى أسد الكريم يوم توفى، في براغ (أواسط الثمانينات) بما يستحقه.. وبكلمة مؤثرة على قبره في مقبرة "أولشاني" (براغ) قال: انه من القلة التي تملك مفاتيح الحرف العربي، في إشارة، إلى كفاءته وقابليته

الثقافية النادرة، حيث كنا نطلق عليه اسم "دائرة المعارف العراقية"، وهو ماظل يكرره باستمرار في جلساته.

وقد تأثر الجواهري كثيراً لوفاة شمران الياسري (أبو كاطع) قبل الأوان، كما أفاد لي، وذلك حين وصله خبر وفاته ١٧ آب (أغسطس) ١٩٨١ حيث توفي في براغ ودفن في بيروت بمقبرة الشهداء الفلسطينيين. وكان يؤكد انه وصل إلى مرحلة النضج وامتلك أدواته الفنية، على نحو دقيق وماهر. وترك أبو كاطع تراثاً زاخراً ورحل وهو في أوج عطائه، من المقالة الصحفية الساخرة، إلى الرواية: الرباعية وقضية حمزة الخلف، إضافة إلى انه كان يعد قاموساً شعبياً (للمصطلحات العامية). ورغم مضي ١٥ عاماً على وفاته، لم يطلق سراح أوراقه الخاصة ومخطوطاته(٤١)

خلال تعرفي ولقاءاتي المتواصلة بالجواهري، والتي امتدت على ربع قرن، من بغداد، إلى براغ إلى دمشق إلى لندن، كنت شديد التعلق به، وكنت أقضي معه وفي مجالسته ومصاحبته ساعات طويلة، خصوصاً بعد أن عاش في دمشق ولا يزال هناك (أطال الله في عمره) وكان كثير من الأسئلة يعصف بذهني: كيف تسنّى لرجل قادم من النجف (المحافظة) أن يعبر كل هذه الحدود، والحواجز والمحرمات، والممنوعات، ليبلغ مابلغه من حرية وتقدم، بل ليكون رائداً فيها، داعية أول لنبذ التقاليد البالية والعصبيات والشعوذات والقبلية والعشائرية والشوفينية والطائفية. ماهو سر قوته؟ ماهي مصادر ثقافته؟ ماهي أهم ينابيعه الفكرية والروحية؟ كيف اختار التحدي عنواناً، وكيف استطاع مواصلة هذا التحدي، كل هذا العمر؟

---

(٤١) انظر: محاضرتنا في لندن بتاريخ ١٧ آب (أغسطس) ١٩٩٦ بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لوفاته وكذلك المقابلة الاذاعية معنا (إذاعة سبيكتروم) في لندن بتاريخ ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦ حول أبو كاطع: حياته وأدبه وكذلك محاضرتنا بدعوة من البيت العراقي في كوبنهاغن وكذلك النادي المندائي في لوند (السويد) تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٦

كيف استلهم قصيدة الصراع واستشرف البعد العربي والمأساة الفلسطينية وكيف تجسدت "سواستبول" في مخيلته... عشرات الأسئلة كانت تتقافز في ذهني، وتغريني لاستكمال حوارات معه وتدوين وجهات نظره وتسجيل بعض ذكرياته، كي أضمها إلى السياق، الذي كنت أتخيله لشاعر نهل من الثقافة العربية ـ الاسلامية بل غاص فيها، حتى اكتشف ما في القاع من درر ومحّار وأحجار كريمة، متحصناً بالفلسفة، مزاوجاً ذلك بفكرة الحداثة. فالشاعر هو حالة انفعال دائم وتوتر مستمر، بل مخاض عسير تُولد بعده القصيدة جميلة معافاة، فما بالك إذا كان هذا الشاعر هو الجواهري الشديد الانفعال والقلق والتوتر، والكثير التوق والانفتاح على المغاير، وكأنه في حالة تناقض وتجاذب ضمن سوية ذوقية وأخلاقية واجتماعية، فرغم تمسكه بالجذور واعتصامه بحبلها المتين، فإنه رفض القيم والمفاهيم السائدة وبخاصة الزائفة منها والعتيقة والبالية.

* حسين مروّة:

في دمشق تنوعت الجلسات الأدبية، فإضافة إلى الأدباء صابر فلحوط والروائي حنا مينه، صادف أن كنا مدعوين في بيت الجواهري ومعنا المرحوم الشيخ الجليل حسين مروّه، الذي اغتيل في بيروت(٤٢) حيث فاجأني بالسؤال:

---

(٤٢) ثمة رصاصات جاهلة صُوِّبت بعناية ودقة لتستقر في رأس الشهيد العلامة والمفكر حسين مروة وذلك في شباط (فبراير) ١٩٨٧ وقد وقف المفكر مهدي عامل (الدكتور حسن حمدان) الذي استشهد بعد ثلاثة اشهر من اغتيال مروة، ليودع زميله في مقام السيدة زينب (ع) وسط حفل مُهيب وحشد كبير من المثقفين وليعلن نداءً لوحدة المثقفين ضد الجهلة والتخلف "... أتينا لنشهد أنك وحّدتنا ضد غدر القتلة فلنشكرك فقد ايقظت في وجدان المثقفين حقيقة أنهم، جميعهم مستهدفون لأنهم مثقفون، فمن طبيعة الظلامية أن تقتل إيمان الانسان بالانسان فالثقافة، كل ثقافة خطر عليها..."

النص مقتطف من كلمة للمؤلف منشورة في صحيفة "المنبر" التي كان يشرف عليها في بيروت، العدد (١)، حزيران (يونيو) ١٩٨٧.

منذ متى لم تأكل "مذهب الجلب" أي الكلب (والكلمة بالعاميّة العراقية) وهي تسمية شعبية لأكلة كان الكثير من الفقراء والكادحين في النجف يتناولونها، حيث كان مروّة يومها يعيش في النجف، ويدرس العلوم الفقهية إبان العشرينات، والأكلة تلك عبارة عن (رز أو مايطلق عليه بالعاميّة العراقية "تمّن" مع الماش والدبس) وكانت تلك الوجبة تؤكل في النجف، ذات المناخ شبه الصحراوي، خصوصاً خلال فصل الصيف الحار. مما تسبّب تداعيات، جعلت العامة، يطلقون عليها هذا الاسم. لكن الجواهري، الذي بدا متألقاً وفرحاً في تلك الجلسة، أصيب بوعكة صحية على نحو مفاجيء، منعته من مواصلتها، فغادرنا ملحّاً على استكمالها، في حين تم نقله إلى مستشفى "الشامي" في وقت لاحق.

وبودي أن أشير إلى أن الدكتور حسين مروّة، الذي عُرف بنزعته اليسارية البارزة وبمحاولته الجادة لقراءة الفلسفة العربية ـ الاسلامية من زاوية التفسير المادي للتأريخ، كان قد درس في مدرسة الخليلي الدينية في النجف، إضافة إلى صديقه الأديب محمد شرارة، قرابة أربعة عشر عاماً وكذلك في مدرسة البادكوبية وتجمّع حوله كما يذكر الراحل الدكتور مصطفى جمال الدين، عدد من الطلبة ممن تأثروا به، كما انه مارس التعليم وزاول الصحافة طيلة عقد من الزمان قبل أن يعود إلى بلده لبنان(٤٣)

---

(٤٣) ضمّت النجف في جامعتها الدينية نحو أربعين مدرسة آنذاك، وهي بمثابة أقسام داخلية كما نصطلح عليه في الجامعات الحديثة. وكانت الدروس والمحاضرات تلقى عادةً في الجوامع والمساجد مثل "جامع الهندي" و"مسجد الترك" و"جامع الطوسي" و"مسجد الخضراء" إضافة إلى الصحن الشريف. وكانت المدارس تلك تحوي غرفا لسكنى الطلبة الوافدين. وتضم كل مدرسة بين عشرين إلى أربعين غرفة. ومن أشهر تلك المدارس "مدرسة اليزدي" و"مدرسة الآخوند" و"مدرسة الشيرباني" و"مدرسة الخليلي" و"مدرسة كاشف الغطاء" و"مدرسة الجواهري" وغيرها.

انظر: الدكتور مصطفى جمال الدين ـ الديوان، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٥ ـ ٢٦

يقول حسين مروّة عن ذكرياته العزيزة وتجربة حياته الغنية وتحوله الفكري بعد أن تعرف على "ماركس" في النجف، الذي دخل حياته منذ ذلك الحين "في أواخر الثلاثينات بدأت أدخل المرحلة الدراسية النهائية في النجف، وفي الوقت ذاته كنت أكتب اسبوعياً لمجلة "الهاتف" (لصاحبها القاص والكاتب المعروف جعفر الخليلي) مقالة أو قصة..." وكذلك في صحيفة "الرأي العام" التي كان يصدرها الجواهري، الذي ربطته به علاقة صداقة مديدة. ويضيف حسين مروّة "وكان هذا الحضور الأدبي والفكري الأسبوعي يوسع أفق علاقاتي الأدبية والفكرية إلى أبعد من النجف... لأن "الهاتف" كانت مجلة المثقفين العراقيين. وفي هذا الأفق نفسه انعقدت صلتي بـ"الشيخ" الشيوعي حسين محمد الشبيبي... وبانعقاد هذه الصلة دخلت صميم العلاقة الصحيحة، أي العلمية مع ماركس (الماركسي)."(٤٤)

لقد كان الشيخ حسين مروّة وهو مايزال يرتدي العمامة ويعيش في النجف مهتماً بحركة التجديد الفكري وبالتحرر الاجتماعي ولذلك لم يجد ضيراً من إبداء إعجابه بقصيدة الجواهري "جربيني" التي احتوت صوراً شعرية جريئة وغير تقليدية، رغم ان التزمت على حد تعبير الأديب عبد الغني الخليلي شن عليها حرباً. وقد كتب مروّه مقالة في مجلة "الحضارة" التي كان يصدرها في النجف الشيخ محمد حسن الصوري، متناولاً فيها بالشرح والتفسير قصيدة الجواهري الغزلية تلك(٤٥) .

---

(٤٤) نشر حسين مروّة مقالة في مجلة "الهاتف" بعد انتهاء دراسته في النجف (١٩٣٨) بعنوان "أنا وعمامتي" تحدث فيها عن ذلك الصراع الطويل والمرهق والممتع بين حلم الطفولة الذاهب وعلاقته ونوازعه ورواسبه وبين المشروع المعرفي غير المحدود، الذي جعله حسب قوله البديل عن ذلك الحلم.

(٤٥) انظر: عبد الغني الخليلي - سلاماً ياغريب، مصدر سابق - ص ٢٠ - ٢١.

ومن الجدير بالاشارة أن أذكر انه كان يتردد على منزل الجواهري في دمشق في أواسط الثمانينات عدد من المثقفين والسياسيين بينهم: عامر عبد الله وفخري كريم وعبد الرزاق الصافي وحسن العلوي والدكتور فاضل الانصاري وعلي السنجاري والمرحوم الدكتور عبد اللطيف الراوي والراحل الشاعر مصطفى جمال الدين وآخرون. وعندما كان الزعيمان الكرديان، جلال الطالباني ومسعود البرازاني، في زيارة إلى دمشق، كان ضمن برنامجهما زيارة (أبي فرات) والاستماع إليه، وغالباً ماكان يتألق بحضورهما.

*** هو بريء:**

وفي السنوات الأخيرة لازمه، إضافة إلى ولده الدكتور كفاح وابنته الدكتورة خيال، أقرباؤه (صادق وجمال الجواهري) وأحياناً في براغ أو دمشق كان بمصاحبته رواء الحصّاني (ابن السيد جواد الحصّاني والسيدة نبيهة الجواهري والدته، وهي أخت الجواهري، التي كان يودّها كثيراً، وبكاها عندما توفيت ودفنت بالشام). كما كان يعتني به ابنه نجاح الجواهري ويزوره باستمرار الدكتور رجاء الحصاني ابن اخته وفي الفترة الأخيرة، وقف على رعايته، الفنان المسرحي صباح المندلاوي، زوج ابنته د. خيال، خصوصاً بعد رحيل زوجته وشريكة حياته أمّونه "أم نجاح" في لندن ١٩٩٢ وكان غيابها قد ترك أثراً كبيراً في حياته، حيث صاحبته في رحلة العمر، في الشباب والكهولة والشيخوخة وتحملت الكثير.. الكثير من أجله. وقد سبق للجواهري أن خصها بقصيدة في السبعينات عنوانها "حبيبتي" التي يقول في مطلعها:

حبيبتي منذ كان الحب في سحَرِ حُلوَ النسائم حتى عَقّهُ الشّفقُ

ياحلوة المجتلى والنفسُ غائمةٌ والأمر مختلط والجو مختنق

خلال سنوات الشام، كانت اللعبة المحببة على نفس الجواهري هي لعبة "الكاغد" على حد تعبيره، وهي تعني الورق (Playing card)، التي كان يفضل منها (الكونكان - ٥١) حيث كنا نشاركه اللعب معه عائلياً ونزولاً عند رغبته، ومعنا في الكثير من الأحيان د. فاضل الأنصاري وزوجته الكريمة. وكان الجواهري يبتهج كثيراً، بفوزه ببضعة قروش، محاولاً المزاح مع الخاسرين، مظهراً براعته في اللعب، واصفاً من يقابله باللعب بـ"الأعجمي" وهو تعبير يطلقه العراقيون، على من لا يتقن فنون اللعب أو إتمام عمل على نحو جيد ورصين. وفي حالة خسارة الجواهري يبدأ بالتكدر، وهو تكدر يضفي على الجلسة حلاوة من مذاق آخر، خصوصاً عندما يقرّع مقابله بالقول "حظلك عدل". وهو تعبير عراقي آخر يعني أن الحظ قد حالفك وان "الجواكر" - (جمع جوكر - ورقة الحظ) قد نامت عندك. وهو بذلك يشبه فلاديمير ايليج لينين، الذي كان يبدو مبتهجاً ومرحاً كثيراً حين يفوز على مقابله مكسيم غوركي في لعبة الشطرنج، بينما يتكدر مزاجه عند الخسارة. وكان الجواهري شغوفاً بتلك اللعبة وخصوصاً مع المقربين (من أهل بيته ومن الأصدقاء) فما كان هؤلاء يجتازون عتبة بيته، حتى يبادرهم بالقول "حضّروا البطانية" والبطانية هي الغطاء الصوفي الخفيف، يقوم مقام (اللحاف) عند اعتدال الجو. وكان يريد بها أن تحل محل البساط الأخضر، الذي يُفرش عادة عند موائد اللعب في (الكازينوهات)... وعبارة (حضروا البطانية) تجلّت في الرغبة بالتسلية البريئة لدى الجواهري، خصوصاً بعد ضعف بصره، واضطراره إلى إجراء عملية جراحية في عينيه بباريس في النصف الأول من الثمانينات، وكأنما أراد بذلك، أن يشغل نفسه، وهو شاغل الدنيا، عن فراغ سبّبه ابتعاده عن القراءة، ومن يدري، فربما أراد أن يرحم قليلاً من كان يقرأ له نصوصاً من الأدب والشعر والتاريخ والسياسة والاجتماع. ظل الجواهري يشرب ويدخن باعتدال كل هذا العمر، وفي كل مرة كان يُقبل على مشروب جديد

فتارة يختار الفودكا ويستمر عليها ويستمتع بها ويتحدث عن مزاياها، وأحياناً يتناول ظهراً قدحاً من الكونياك الفرنسي (نابوليون) وفي بعض الأحيان يفضل الارميني المعروف باسم "أرارات" وبشكل عام فإن الويسكي كان سيد المشروبات لديه وخصوصاً البلاك ليبل (Black Label). وكان يشرب الويسكي مع الصودة وقليل من الثلج. وفي دمشق لم تكن محلات بيع الصودة منتشرة فكان إذا دعي الجواهري إلى وليمة، حمل سائقه بضع قناني من الصودة تحسباً لعدم توفرها عند مضيفه.

وفي عام ١٩٨٤ دعوته مرة إلى بيتي في دمشق مع زوجته "أم نجاح" وأخته أم كاظم (السيدة نبيهة) وولدها لواء، إضافة إلى أقربائه الآخرين، وبحضور الأستاذ داود التلحمي رئيس تحرير مجلة "الحرية" الفلسطينية والمثقف العراقي طارق الدليمي والشاعر الشعبي جمعة الحلفي والفنان والموسيقي سامي كمال، وكانت جلسة رائعة، قرأ فيها الجواهري بعضاً من أشعاره واستمعنا إلى غناء سامي كمال الذي شاركه جمعة الحلفي وزوجته سهيلة. ومن الطريف أن أذكر اني حاولت أو اوفر الصوده لشرابه، لكني لم أفلح واعتبرت ذلك نقصاً لم يكن بوسعي تلافيه، فإذا بأبي فرات يدخل وهو يضحك ويسألني "مالكيت صودة مو" باللهجة العراقية: أي انك لم تجد صودة أليس كذلك..؟ وكان قد جلبها معه لمعرفته بعدم توفرها لديّ!!.

الفصل الثالث

في حضرة الشعر:

فضاءات وبحور!

* العيون:

خلال اللقاءات والعلاقات الطويلة والمتنوعة، فكّرت أكثر من مرة في أن أدوّن بعض حوارات وحكايات وآراء للجواهري، وابتدأت معه فعلاً، حين استقر في دمشق، في أوائل الثمانينات وتلكم مسؤولية بقدر ماهي رغبة شخصية. واحتفظت بجزء من تلك الذكريات والقصاصات، حتى ذهبت إلى كردستان، في مهمة اعلامية وسياسية، مع الأنصار "البيشمركة"، عام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ وعند عودتي وتماثلي للشفاء، إثر علاج تلقيته في دمشق وموسكو واستكملته في براغ وصوفيا، بدأت المشوار معه مرة أخرى. وسجلت له أشرطة صوتية (كاسيت) في أواسط عام ١٩٨٥ وخلال الحوار، لمعت فكرة، عبّر عنها الجواهري، بحاجة الجيل الجديد، من الشباب العربي والجامعي بخاصة، وكل متذوقي الأدب والشعر منهم بعامة، إلى المجموعة الشعرية الكاملة. ومن بين هذا السبب أو ذاك، كما يقول الجواهري، انبثقت فكرة خاطفة، سرعان ماتحولت إلى حيز التنفيذ، وهي أن يكون في متناول الجميع، "مجموعة واحدة"، تضم في دُفّتيها "العيون المختارة"... يستريح فيها الحاصل عليها... إلى صميم الواحة الأكثر اخضراراً والاغزر ينابيع، وذلك بطبعة غير

تجارية، لتصل إلى أيدي القراء وخصوصاً ذوي الكفاف، فمن يتعذر عليهم الحصول، على المجموعات الكاملة بأجزائها التي تراوحت بين السبعة أجزاء (طبعة وزارة الاعلام في بغداد) والخمسة أجزاء (طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية) وشرعت باختيار مقطوعات من شعر الجواهري، وقمت بتصنيفها حسب السنوات. وقد قسمت المجموعة، إلى عشريات سبع، واخترت افضل القصائد وأحسن مافيها من أبيات، محافظاً على روح القصيدة ومناسبة نظمها، وأطلقت عليها اسم "الجواهري في العيون من أشعاره" وقد وجدت صعوبة بالغة في عملي "الانتقائي" إذا جاز التعبير، خصوصاً واني كنت أشعر، وكأني أقوم باقتطاع أجزاء من سبيكة ذهبية مشغولة بإحكام ومنقوشة بدقة أقرب إلى الحياكة، وضمت هذه الطبعة قصائد جديدة، لم تضمها أية طبعة أخرى من الطبعات السابقة، وتمت الإشارة إليها في كلمة التقديم، وجاءت بعض المقطوعات غير الطويلة كاملة، كما ان بعض القصائد كان من المتعذر اقتطاعها، لتماسك أطرافها ولأهمية مواضيعها.

وقمت في الوقت ذاته بجهد توثيقي، بمراجعة المقدمة التي أعدتها اللجنة المشرفة على المجموعة الكاملة لطبعة وزارة الاعلام العراقية في بغداد، لجعلها صالحة للطبعة الجديدة، التي اختلفت ظروف طبعها، عن سابقاتها، مع بعض الاضافات والتنقيحات والتعديلات الضرورية.

وأعدت نشر مقدمة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية، المستقاة من ديوان الجواهري (الاجزاء الكاملة) الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في سوريا. وهي عبارة عن كلمة ألقتها الدكتورة العطار، في حفلة تكريمية للجواهري في سينما الحمراء بدمشق في أواخر عام ١٩٧٨.(١٦) كما تم إعادة نشر مقطوعة الجواهري النثرية التاريخية "على قارعة الطريق"

---

(١٦) ألقت الدكتورة نجاح العطار محاضرة بعنوان "وقفة مع الجواهري" في النادي العربي بدمشق في شباط (فبراير) ١٩٨٤.

وكتب الجواهري الكبير مقدمة وضّح فيها أسباب إصدار هذه المختارات، كما خصص صفحة للحديث عن الجهد، الذي بُذل في سبيل إنجازها (منشورة في مكان آخر). في الواقع، فإن كل ماأنجزته من اختيار، لتلك العيون، أو ضم هذه اللقطة، إلى جانب تلك، والإشراف على طبعها وتصحيحها، كان بالاتفاق معه، حرصاً على أن تأتي بأجمل الثمار، وبخاصة تحقيق الهدف الذي حدده الجواهري لنشرها. وكان حريصاً على متابعة التفاصيل، حتى صدر الكتاب في دمشق، عام ١٩٨٦، عن دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بـ ٧٠٠ صفحة(٤٧)

* العلوي وديوان العصر:

وعندما هممت بإعداد حواراتي الخاصة، كان الاستاذ حسن العلوي، قد شرع في إنجاز كتابه عن الجواهري "الجواهري ديوان العصر"، والذي يعتبر بحق واحداً من أهم الدراسات التفصيلية التي صدرت عن الجواهري، خصوصاً وان الاستاذ العلوي يمتاز بإسلوب رشيق ولغة جميلة تجمع بين الصحافة والأدب، وبقدرة متميزة على التفكير المستقل والتحليل والاستنباط والمقارنة، والحقيقة فإن الكاتب والصحفي حسن العلوي، أعطى نكهة خاصة جديدة لقراءة شعر الجواهري من وجهة نظر باحث متخصص، وهنا تكمن الأهمية الاستثنائية المضافة للبحث، بغض النظر عن بعض نقاط الخلاف معه أو عدم الاتفاق مع بعض استنتاجاته.

وإذا كان كتاب العلوي استفزازاً "لمعسكر الجواهري" الذي سكت حين وضعت كتب وأبحاث ونشرت مقالات تصب جميعها في دائرة العداء الصريح للجواهري، فإن دائرة المثقفين التقدميين، كما ندعوهم، إلى جانب رجال

---

(٤٧) يُذكر، ان شريط فيديو، قد صدر بالعنوان ذاته، فيما بعد في عام ١٩٩٤، من طبع وتوزيع مؤسسة بابل (بابليون) التي يديرها الاستاذ رواء الجصّاني في براغ.

التراث الحريصين على الارث العريق للثقافة العربية وآدابهـا الأصيلـة لم تظهـر خطوطاً دفاعية عن رجل عاش حياته الشعرية والسياسـية مدافعاً عنهـم وعـن حقوق الشعب العراقـي وحريتـه فـاكتوى بسعير الأحـداث الطاحنـة وعـاش عذابها في بلاده المكروبة(٤٨)

ولم ينتج "معسكر" الجواهري، ماأنتجه "معسـكر" خصومـه ومنهـم كـان بالأمس الأستاذ حسن العلوي، رغم انه كان من محبي شعره والمعجبين بـه، إلا أن انتماءه السياسي جعله، ينحاز إلى "معسكر الخصوم" بـدلاً مـن "معسـكر" الجواهري نفسه. وهنا الفـرق دائمـاً بين انحيـازات السياسـة وألاعيبهـا وبين هموم الثقافة وارهاصاتها.

ومع ذلك فقد تغلب في نهاية المطـاف هـاجس الثقافـة، فانحسـر الانتمـاء السياسي الضيق الذي لا يرى حتى نور الشعر والثقافـة لـدى الطـرف الآخـر فحظيت المكتبة العربية خلال العقد والنصف الماضي، بإضافات جديدة وقيمّـة للعلـوي وبمحـاولات تقديـم اسـتنتاجات وإجـراء مراجعـات بعيـداً عـن الايديولوجيا المسبقة والافكار الجاهزة، التي كانت سمة تطبـع المرحلـة السـابقة للتيـارات والاتجاهـات الفكريـة والسياسـية المختلفـة خـلال الحـرب البـاردة والصراع الايديولوجي المحتدم.

ورغـم أنـي لا أميـل إلى اسـتخدام مصطلـح "معسـكر" إذ أن حـدوده أصبحت غير واضحة من الناحية العلمية، فضلاً عن تماهيه الأدبي والثقافي، إلا أنه لضرورات التمييز أفضـل استخدام الانتمـاء أو الاتجـاه السياسـي. وبهـذه

(٤٨) يشير الكاتـب حسن العلوي إلى ان الجواهري عاش حياته مهاجماً واضعـاً رجليـه في سعير العذاب، ماطاً شفتيه إذا رأى عفر الجباه متكالبين على الحياة.

راجع الخاتمة المؤثرة التي كتبها العلوي لكتابه "الجواهري: ديوان العصر" والـتي أسماهـا "خلـف الأوراق"، فباستثناء مقدمة علي جواد الطاهر لم يدوّن مهدي المخزومي أو صـلاح خـالص أو نقّاد آخرون من الاتجاه الأقرب إلى الجواهري، كتباً أو أبحاثاً عن الجواهري. ص٣٦٨.

المناسبة أود أن ألفت نظر القارىء إلى الظاهرة التي رصدها الاستاذ حسن العلوي، والتي تنسحب أيضاً على الشاعر المبدع والمجدد في القصيدة "الشعبية" المكتوبة بالعامية العراقية، مظفر النواب، حيث ان الكتاب الوحيد الذي صدر عنه كان للأستاذ باقر ياسين، و لم يكن ياسين من الاتجاه السياسي الذي يمثله النواب(٩) إضافة إلى دراسة مطبوعة (محدودة الانتشار) ولكنها مهمة للدكتور هاشم العقابي في لندن، وهو الآخر لم يكن في الاتجاه السياسي، الذي كان يمثله النواب. فهل ثمة مصالحة ثقافية بعد احتراب سياسي لم يكن له مبرر، أم ثمة عنصر جذب ديالكتيكي لوحدة وصراع الاضداد، باستعارة مجازية للمفهوم الماركسي، أم ثمة رؤية أوسع لقضية الثقافة، التي لا تُحصر باتجاه سياسي أو فكري، أو نظام حكم أو معارضة، انها مفهوم أشمل يتعلق بالجمال والاحساس والتذوق وبالتالي التعبير عن حاجة حقيقية.

ومع ذلك فإن هذا التقدير ليس وحيد الجانب، فقد سبق للباحث التراثي المبدع الاستاذ هادي العلوي أن اشرف على إصدار مجموعة دراسات عن الجواهري في عام ١٩٦٩، ساهم فيها الروائي جبرا ابراهيم جبرا والكاتب ابراهيم السامرائي والكاتب داود سلوم والكاتب سليم طه التكريتي، والشاعر فوزي كريم، إضافة إلى الباحث هادي العلوي.

كما ان الأستاذ عبد الكريم الدجيلي أصدر كتابه الأول عن الجواهري "الجواهري شاعر العربية" في عام ١٩٧١ وقد اثار الكتاب في حينه دهشة الأوساط الأدبية والثقافية في العراق، بل زوبعة من النقد، لما عُرف عن الدجيلي، كونه صديقاً حميماً للجواهري، وأحد رواته الأساسيين، وإذا به يحاول أن يدوّن "عثرات" الجواهري، بلغة أقرب إلى الانتقام، منها إلى الموضوعية، ناهيك عن عدم التزام معايير البحث العلمي، فضلاً عن انها خلت

(٩) انظر باقر ياسين ـ مظفر النواب: حياته وشعره، مطبعة دار الحياة، دمشق، ١٩٨٨.

من "المودة" المعهودة، التي كانت تشكل نسيج علاقته بالشاعر، مما دفع الكاتب حسن العلوي للقول، ان الدجيلي جعل "الجواهري ضحيته، فذبحه من الوريد إلى الوريد". ويضيف في كتابه الثاني (الجواهري – رؤية غير سياسية)(٥٠) "انه كان يعبر عن حالة الخوف المشوب بالانانية فظهر في كثير من الفصول، ليس بشخصية الراوي والمؤرخ والأديب، بقدر ماكان يمثل شخصية من يتعقب خطوات صاحبه، ويضع عثرته تحت المجهر" والسبب في ذلك هو رغبة الدجيلي في تفادي ظهوره بمظهر المنحاز لصديقه ممالأةً لأهواء طائفية بغيضة واعتبارات سياسية متخلفة تميزت بها السلطة على نحو خاص.

وكتب الاستاذ هادي العلوي دراسة أخرى، عن الجواهري(٥١) وهو من "معسكر" الجواهري، باستعارة المصطلح.

وأود أن أشير إلى أن "معسكر" العلوي (الاخوين حسن وهادي) أو الدجيلي أو السامرائي أو جبرا أو سليم طه التكريتي أو سلوم أو فوزي كريم أو المخزومي أو علي جواد الطاهر أو غيرهم، هو "معسكر" الشعر، ولنستبدل مرة أخرى، كلمة "معسكر" ذات الوقع العسكري الثقيل، بكلمة: واحة الشعر، أو بستان الأدب، أو حقل الإبداع، فهي الأقرب عندي للتعبير. باختصار محبي الأدب والثقافة والإبداع بتعبير آخر!!

إن كتاب حسن العلوي الثاني، هو استكمال وإضافة إلى كتابه الأول. وكتب العلوي الاهداء "إلى العلامة الاجتماعي الراحل الدكتور علي الوردي، صفحات من الجواهري". ومن القضايا الجديدة، التي تناولها، علاقة الجواهري بالنساء والضفادع

---

(٥٠) انظر: حسن العلوي ـ الجواهري ـ رؤية غير سياسية ـ مصدر سابق ـ ص٥٠.

(٥١) بمناسبة بلوغ الجواهري التسعين: عن ذلك الصاعد في دروب القرن العشرين، مجلة "الهدف" الفلسطينية في عددها الصادر في ١٩٩٠/٣/٢٥. وكتب الاستاذ هادي العلوي دراسة أخرى في مجلة البديل (اواسط الثمانينات) التي كانت تصدرها "رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين" حالياً رابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين.

بعنوان "نساء وضفادع ـ فحل الشعراء أم فحل النساء" وذهب العلوي الى القول: "و لم أعرف امرأة كانت معجبة بشعره على كثرة من سألت من النساء الجميلات خلال أربعين عاماً" وهو ماأخالفه فيه، ذلك أن حياة الجواهري، وحتى الآن كانت تزخر بالنساء، المتحلقات حوله، سواء في بغداد أو المربد في البصرة أو في براغ أو دمشق. كما أضاف العلوي إشارات جديدة عن الأصدقاء والخصوم، والعلاقة بين الجواهري والتويجري، وزياراته إلى السعودية، ونبوءات المستقبل والموت.

ومن الجدير بالذكر، ونحن بصدد الحوارات أن أشير إلى أن الاستاذ حسن العلوي كان قد دوّن في متن كتابه الأول "الجواهري ـ ديوان العصر" وفي العديد من هوامشه (المصادر) ماوفرته التسجيلات من مادة حية، وهي في الواقع جزء من الحوارات التي اقتبس منها بأمانة علمية مشهودة، معززاً مصادره الأخرى ومعرفته ولقاءاته المباشرة والطويلة مع الجواهري. لكن تلك "التسجيلات"مع حوارات وقصاصات سبقتها ولحقتها، لم تر النور لظروف قاهرة، عمدت أن أؤجل نشرها في كتاب خاص، وفيما بعد أن أعيد صياغتها، لعدم الرغبة في التقاطع، خصوصاً وأن بعضها متداخل.. إلى جانب ضيق الوقت وعدم التفرغ ومشاغل الرحيل إلى براغ ومنها إلى لندن. وفي براغ ولندن، ومن ثم في دمشق أيضاً خلال زياراتي أضفت الكثير إليها، ودونت أحاديث وحوارات جديدة، لتؤلف الجزء المستكمل من هذا الكتاب.

كنت أكتشف في كل لقاء مع الجواهري شيئاً جديداً وسراً مغايراً. وفي كل مرة أعيد قراءة شعر الجواهري، اكتشف أشياء كثيرة جديدة، حتى وان كنت قد قرأت القصيدة من قبل مرات عدة وهكذا كنت أطّلع باستمرار، على معلومة ثرية لديه، أو دلالة جديدة في المعاني والإيماءات البلاغية أضيفها إلى خزيني، الذي بدأ يكبر، ومرة بعد أخرى أشعر أن الوقت قد حان، لكي أضع هذه الحوارات أو جزءاً منها أمام القارىء، بإضافة شيء جدير به، مختلف ومتميز، عما جاء في المقابلات واللقاءات الصحفية، التي سبق للجواهري أن أجراها على امتداد عمره

المديد وحياته الأدبية الحافلة(٥٢) وقد حاولت أن أركز على بعض القضايا التي لم يتناولها الجواهري سابقاً أو لم يتوقف عندها طويلاً.

* كيمياء الشعر!

يستفز الجواهري القارىء ويستحثه على الانغمار والمشاركة معه في عملية خلق وبناء القصيدة وتركيبها، وفي عملية التفاعل مع الأحداث والقضايا لدرجة أن القارىء والمستمع (المتلقي) لا يمكنه الفكاك، بل سرعان مايؤخذ بالتدريج أو على نحو خاطف، ليدخل مختبر الجواهري وينشَدَّ إلى تفاصيله، وليرى كيف يستحضر القصيدة مثل مايستحضر الكيميائي الدواء! أو كيف يستنطق الحرف مثلما يفعل غوّاص ماهر في اصطياد اللآلىء والمحار من أعماق البحر.

وإذا جاز لي القول ان "المختبرية" هي سمة الشاعر الكبير، مهما امتلك من قدرات إبداعية ولغوية وكيفما كانت تقنياته وأدواته الشعرية، سواء كان شعره عمودياً أم من الحداثة الشعرية، فالروح المختبرية، التي أنجبت أنشودة مطر السياب هي التي جمعت بين الأوزان لتوليد موسيقى ذات إيقاعات جديدة. ولم تأتِ تلك الخلطات لدى الشاعر بدر شاكر السياب عفوياً وإنما كان يتأبط كتاب "العروض من جهة ويحاول التجريب من جهة ثانية. وبفضل هذه الروح المختبرية والتجديدية الحقة ولد نمط إيقاع جديد مايزال جلّ الشعراء منذ الخمسينات وحتى الآن يقتدون نموذجه ونموذج رواد الحداثة الشعرية الأوائل كالسياب والبياتي ونازك الملائكة وبلند الحيدري من الجيل الأول وأحمد عبد المعطي حجازي وأدونيس وسعدي

---

(٥٢) حين نشرت حلقتين من حوارات مع الجواهري في صحيفة "الحياة" (مصدر سابق) هاتفني الصديق الشاعر الراحل بلند الحيدري، مبدياً إعجابه وتشجيعه. وهنا انتهزت الفرصة فطلبت منه أن يقرأ المخطوطة بعد اكتمالها ويقوم هو بتقديمها إلى القراء العرب، فرحّب بذلك بأدبه الجم وكياسته المعهودة وتواضعه المشهود قائلاً: "هذا يشرفني" واتفقنا على التفاصيل، لكن المرض قد داهمه بعد أيام فدخل المستشفى لاجراء عملية قسطرة قلبية، صاحبتها مضاعفات سريعة، لم تمهله طويلاً، فرحل ركن هام من أركان التجديد الشعري في العراق والوطن العربي وخسرت الثقافة رائداً من روّادها.

يوسف ومحمود درويش ومحمد بنيس وصلاح عبد الصبور وشوقي بغدادي وعلي الجندي وممدوح عدوان وغيرهم من الذين تبعوهم.

الشعر عند الجواهري كالمدينة والقصائد كالبيوت، ورغم التواصل الحضاري في المدن والبيوت، فإن لكل مدينة خصوصيتها وشخصيتها وتفردها ونمط حياتها ومزاجها. ولكل بيت حرمته وخباياه وفسيفساءه والوانه ورائحته ونساءه وبخوره وعطره. والشعر عند الجواهري، كالنهر والقصيدة مثل النساء بجدائل أو بدونها، تستحم في نهر الجواهري، متشابهة أو مختلفة، مثل الشواطيء والجزر ومياه السواحل، لكل قصيدة مذاقها وجمالها وطعمها مثلما لكل بحر سفنه ومراسيه ونكهته!

وقصيدة الجواهري، رغم كلاسيكيتها، إلا انها ليست من ذلك النوع المفخّم، المتصعّر، التخديري، الذي يصل إلى نوع من الادمان، على تعاطي نوع من العقاقير أو المخدرات. انها شامخة دون تعالٍ وأبيّة دون تعجرف، سلسة ومطواعة ومتدفقة، لكنها جديرة بالتأمل لا تمنح نفسها بسهولة أو قد يصح القول انها من "السهل الممتنع" فحين تقرأ القصيدة تشعر ان حرارتها بدأت تنتقل إليك أو انك في أتونها بل انها لا تستدير لتتركاك وحدك، بعد أن أوقعتك في شباكها. انها تظل عالقة بذهنك وتسمع موسيقاها شجية ملء أذنيك. ومع ذلك فانها تحتاج إلى جهد ومعرفة وقدرة على الاحاطة بجوانبها ورغم انها تمتد إلى أعماق التاريخ، فهي تطل بطلعة بهية تتناسب وظروف الحاضر، بل تنعجن معه بشكل يؤهلها للعيش في كنفه ولا تبدو غريبة وان كانت تتصل بالماضي السحيق.

والجواهري كما يقول صلاح عبد الصبور يمثل المرحلة الذهبية الأخيرة في الشعر العمودي الكلاسيكي. وقد سبق لسعدي يوسف أن قال انه الحلقة الذهبية في سلسلة الشعر العمودي وهو الرأي الذي قال به عبد الوهاب البياتي أيضاً(٥٣).

---

(٥٣) يقول الشاعر عبد الوهاب البياتي "بالنسبة لي أعتبر الجواهري فاتحة الشعراء العموديين... أقرأه بشغفٍ منذ بداياته إلى نهاياته..." انظر: عبد الوهاب البياتي ـ ماذا يبقى بعد الطوفان ـ اعداد عدنان الصائغ ومحمد تركي النصار، نادي الكتاب العربي، لندن، ١٩٩٦، ص٢٤٦.

* **فضاءات وبحور:**

إن شعور الجواهري بأن بيئته البطيئة، المسترخية، بحاجة إلى نقلة نوعية، تغيير جذري، عملية "تنوير" كي تستنهض وتقاوم، جعله لا يذعن للقارئ، بل كان على الدوام يريد أن يصدمه كي يفيق ويرى معه مايرغب أن يشاهد: عوالم وبحور وفضاءات أخرى، أي عملية تبصير وتنوير وأحياناً أقرب إلى الاستفزاز، لهذا فهو يتخطى الحدود ويتجاوز الممنوعات ويتمرد على الواقع ويدعو الجمهور كي يحذو حذوه في عملية إبداع وخلق تغدو كلّية، لتصبح مثل الضرورة، الحرية، الحاجة. فمن يصدق أن الجواهري في العشرينات، وهو في البلاط الملكي يقول:

أنا ضد الجمهور في العيش والتفكير، طرّاً وضده في الدين(٥١)

وإذا كان الجواهري ظاهرة أدبية متميزة، ذات أبعاد فكرية تنويرية فهي تحمل في طياتها الكثير من التناقض، المقترن بالاصالة والتفرد.

وفي كل تحولاته، صعوده ونزوله يتركنا الجواهري، مع أشياء وافرة للاسترجاع الفلسفي والنفسي.

ويقودنا للبحث في أدق التفاصيل، فيغوص في أعماق الذاكرة والوجدان في محاولة لتبديد النسيان، وهو الأمر المحبب لمن يرغب التوغل في عمق المشكلة الانسانية وسبر أغوارها.

---

(٥١) أعتقد أن الجواهري يقصد أنه ضد بعض التفسيرات للدين، التي حاولت أن تستغله لتعطيل طاقات المجتمع ومنع إنطلاقته ولحاقه بركب المجتمعات المتقدمة. وكان الكثير من قصائده يفيض بالايحاءات والمثل الانسانية التي تشكل جوهر الدين، كما هي قصيدته عن "الحسين" (ع) وغيرها. وقد فسّر الجواهري في وقت لاحق موقفه للمؤلف مثلما دار في حوار بينه وبين الملك فيصل الأول بالقول: نمط الحياة عندي كما أتصور وأتخيل غير ماعندهم من أنماط وبنفس المستوى "بصدد التفكير" بل "وبواو العطف" أيضاً، فلست أنا ممن لا يملكون فكرة أو تفكراً ولكنني خلافهم في نمط التفكير والتفكّر و(الدين) مقرون بواو العطف أيضاً، فحاشاي أن أمسّ جوهر الدين، ولكن الدين المتلاعب به والمزوّر عليه والمحرف عنه.
قارن أيضاً: الجواهري "ذكرياتي"، ج١، مصدر سابق، ص٢١٦.

* جواهريات العربية!

لقد بات البحث في شعر الجواهري وأدبه، من الأمور المعقدة نظراً لغنى التجربة وتنوعها وتعدد صورها الفنية. فهو يمسك بالريشة، ليرسم باللغة، أجمل الألحان، وتكاد موسيقاه تعزف بانفعالات القصيدة وانتقالاتها وذبذباتها الداخلية، وتتوزع في دروب الفن، خصوصاً وانه يتقن حرفة الشاعر ويتطلع نحو الشفق، مبحراً ضد التيار ومعه أحياناً، متمكناً من أدواته، مطوّعاً اللغة لتستجيب لجمالية القصيدة، حتى بلغت اللغة على يده مستوىً وبعداً راقيين، مرهفة، مشذّبة، مصقولة وبالغة الدلالات والتحديد، وذات إيقاع درامي جديد وخاص، وانعكاس ميثولوجي في أحيان غير قليلة، حتى كأنك تعيد اكتشافها على نحو لم يكن مألوفاً عند الكثيرين، بمن فيهم أولئك الذين يملكون ثروة لغوية كبيرة.

ويعود مثل هذا الأسلوب الشعري، الجمالي الأخاذ إلى قدرة الجواهري على استنطاق مكنونات اللغة العربية وتفجير ينابيعها بناءً وتركيباً، على نحو يمكن القول معه إنها من "جواهريات العربية" القابلة للرفد والتجديد وكذلك بطبيعة الموضوعات التي عالجها الجواهري بجميع المستويات الوطنية الداخلية والقومية العربية والإنسانية الكونية. وشاعرنا الجواهري بحكم كونه "حالة شعر" فناً ومزاجاً، لا يكتفي بالذاكرة فحسب، بل تشكل التجربة أحد أركان انتاجه الإبداعي. والمبدع الكبير بشكل عام هو أقرب إلى دودة قز تنسج أنواع الحرير الفاخر، بخلق وإبداع باهرين، في حين يتحول بعض الشعراء إلى بائعي سجاد مهما بلغت درجة نفاسته لا يصل إلى منزلة الخلق وصيرورة البناء وتصبح عندهم الذاكرة أهم من التجربة والعادة أهم من المعايشة، وهما ألد أعداء الموهبة وأخطرها على الشاعر.

* جدليات الضد:

تظهر الأبعاد الرمزية في شعر الجواهري على نحو شديد في جدليات الضد وديالكتيك التناقض في المكان والزمان، في التنويع والتوحيد بشكل ديناميكي حي، وليس من قبيل المتناقضات المتجاورة فحسب، بقدر ماهو تعبير عن هواجس الجواهري وقلقه ورؤيته الشاملة للأشياء والظواهر في إطار نظام فلسفي كامل وتصوير للضعف الانساني الممزوج بظاهرة القوة، للجمال والقبح، للخير والشر، للحزن والفرح. وهنا يمكن الاشارة إلى "كالكامش" البطل الاسطوري بقوة العضلات وضعفه الانساني وإلى بطل شكسبير في الملك (لير) وإلى الأبله في رواية دستويفسكي وإلى "حب الحياة بحب الموت يغريني" للجواهري التي تصور التناقض والضعف الانساني في آن واحد، أما عن الأبعاد الرمزية للشاعر فالرمز يوسع المفاهيم بما يضفي عليها من ألوان وأشكال، فالشجرة أو الحمامة قد تصبح عشرين شجرة أو عشرين حمامة بما يستطيع الرسام أو الشاعر أن يضفي عليها من ألوان (أوراق الشجرة وثمارها مثلما هي ريش الحمامة وألوانها) فالبحر لن يصبح بحراً حتى لو كررت كلمة ماء بعدد أمواجه، لكن الشاعر بهواجسه عن العطش والملح، عن البوصلة والنجوم، عن اللآلىء والمحار والكواسج وسمك القرش يستطيع أن يصوّر لك بحراً أوسع من أية خريطة، يقربك أو يبعدك عنه وقد لا ينطبق هذا على الجواهري إلا ان بعض أبياته قد نحت منحىً ذا بعد رمزي أحياناً، أما جمع المتناقضات فهي السمة المميزة لشعره.

يــامديمي: وصــبّ لي قدحـــا ألِــسُ الحـــزن فيـــه والفرحـــا

وهكذا جمع الحزن والفرح في كأس واحدة، تلك التي يريدها من النديم، وهو جدل الحياة المقترن بجدل الموت:

واركـــبُ الهـــول في ريعـان مأمنـةٍ حب الحياة بحـب المـوت يغريـني

وفي ذلك إبراز لعنصر الإرادة الانسانية الهادفة والطامحة إلى حب الحياة مع مايخالجها من تحديات للموت واستعداد للاقتحام. وبقدر عشق الجواهري للحياة وتعلقه بها وبكل جنونها، يبدي الاستعداد لاغراء التحدي، للموت في سبيل الحياة. ولنقتبس مرة أخرى هذه المقطوعة الشديدة البلاغة والتأثير والبعد الفلسفي لتأكيد الفكرة التي ذهبنا إليها، وذلك حين يقول:

أزح عن صدرك الزبدا ... ودعه يبث ماوجدا

أأنت تخافُ من أحدٍ ... أأنتَ مصانعٌ أحدا

أتخشى الناسُ أشجعهم ... يخافك مغضباً حردا

ولا يعلوك خيرهمُ ... ولست بخيرهم أبدا

ورغم الحزن الكلاسيكي، "الحسيني" ببعده الملحمي إذا جاز التعبير، فالجواهري يمتلك قدرة عجيبة على تذوق مباهج الحياة في جميع مساحاتها التخيلية منها والواقعية.

* شيطان الشعر!

كان هناك من يريد أن يبقى الجواهري حبيس العشيرة، يعتمر العمامة ويقرأ الفقه وينتظم في حلقات الدرس "التقليدية" مع الجماعة، وبهذا المعنى يظل أسيراً للتقاليد وقوتها التي تفرض نفسها في مدينة كانت تحفل بالكثير من العصبيات والقبليات والحروب والمعارك الأهلية والمحلية التي تنخرها. فإضافة إلى المعارك بين محلاتها الأربع: العمارة والحويش والبراق والمشراق، كانت ثمة معارك طاحنة شهدتها المدينة بين "الشمرت" و"الزقرت"، إضافة إلى تحالفات واصطفافات تتوزع عليها أجنحة المدينة منذ عهد العثمانيين وفي اعوام الاحتلال والانتداب البريطاني، خصوصاً المواقع المهمة لرجال الدين والتجار ووجوه وأعيان المدينة.

لكن الجواهري رفض العيش في "السبات" أو على "المؤجل" كما يقال. وأراد أن يعيش الحاضر الماثل، وفي كل لحظة لم يقبل العيش على ضفة

الصحراء، بروحه النضرة الخضراء وألوان مشاعره الجياشة وقدرته العالية على الاندهاش بالجديد والادهاش في الحين ذاته. انه مسحور بفوضى خاصة، لم يألفها أبناء جيله، وله في الوقت نفسه سحر دائم، فبقدر رفضه البيئة المغلقة والتقاليد القديمة، فإنه ينتمي إلى المدينة بكل ماتعني الكلمة من معنى،... إلى تراثها الثقافي والأدبي وتاريخها العريق ومدارسها ودواوينها وإلى كل مايشدّ الانسان من قيم متوارثة ومثل عليا. ويحق للمدينة (النجف) أن تفتخر به كواحد من أبرز رجالها العظام.

لقد رفض الجواهري القيم الملتبسة، الزائفة، الباعثة على الاستكانة، في مجتمع تتجاور فيه، بل وتتداخل حد التشابك البداوة من جهة وتتجاذبه الحضارة من الجهة الثانية على حد تعبير المبدع الكبير الراحل علي الوردي في تحليله الاجتماعي للمجتمع العراقي والشخصية العراقية، اقتفاءً لأثر ابن خلدون ونظريته الاجتماعية حول "الصراع بين البداوة والحضارة": التي قام الوردي بتجديدها وتطويرها وتقديمها بما يتناسب مع مفاهيم النصف الثاني من القرن العشرين. وحيث الاختلاط بالزوار والقادمين والتأثر والتفاعل معهم، فقد كان الجواهري من القلائل الذين يتابعون مايكتب في الشرق العربي، بما فيها حركة التجديد في الفكر خصوصاً وانها تخطو خطواتها الاولى في العالم العربي عبر كتابات جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وسلامة موسى وآخرين.

* الحبوبي:

شهد العراق حركة أدبية مبكرة، ساهم فيها محمد سعيد الحبوبي، الشاعر ورجل الدين، الذي تأثر بحركة جمال الدين الافغاني وقاد الثورة ضد الاحتلال البريطاني. وكان من أبرز شعراء تلك الفترة والفترة التي تليها محمد مهدي البصير (الذي كان يلقب بشاعر ثورة العشرين) وعبد المحسن الكاظمي وأحمد الصافي

النجفي وجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وعلي الشرقي ومحمد رضا الشبيبي وغيرهم ولكن الجواهري الذي قد يكون أصغرهم سناً، كان أبرزهم شعراً، فقد بزّ جميع اقرانه ومعاصريه وتقدم عليهم.

كان الجواهري معجباً كثيراً بالحبوبي، ويذكر انه يوم التقاه لأول مرة وهو يزور والده في البيت، سقطت أقداح الشاي من يديه رهبة وخشوعاً للشاعر ومنزلته. ويعتبر الحبوبي والملا كاظم الخراساني علمان من أعلام النهضة الأدبية وهو ما يؤكده الجواهري في مذكراته(٥٥)

وبالمناسبة، فللحبوبي غزليات رقيقة وموشحات شهيرة منها قوله في مصطفى كبّه (عميد أسرة آل كبه):

هزّت الزوراء أعطاف الصبا | وصفت لي رغدة العيش الهني
فارْعَ من عهدك ماقد سلفا | وأعد بافتتنة المفتتن

ويقول الحبوبي في قصيدة ياغزال الكرخ الشهيرة:

ياغزال (الكرخ) وا وجدي عليك | كاد سري فيك أن يُنتهكا
هذه الصهباءُ والكاس لديك | وغرامي في هواك احتنكا
فاسقني كأساً وخذ كأساً إليك | فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جدْتَ بها من شفتيك | فاسقنيها وخذ الاولى لكا

ان الجواهري منذ بدايات تفتحه إنساناً حالماً، وظل حالماً، وهو يعتقد منذ وقت مبكر، ولربما منذ شبابه، انه ولد لدور آخر، فلديه إحساس بأن من يخالطهم كانوا في عالم آخر، في حين كان هو يلتهم الكتب ويحلم ويتأمل، ثم بدأت موهبته الشعرية بالظهور. وكان يعتقد حتى قبل أن يجرؤ على النشر، ان الشعر السائد ليس هو الشعر الحقيقي والمقام العالي والحرف العميق. وكان

---

(٥٥) انظر: الجواهري "ذكرياتي"، مصدر سابق، ص ٧٣ ــ ٧٧ وكذلك حديث خاص مع المؤلف على شريط تسجيل.

شعوره انه ذاهب إلى الضفة الأخرى بمقاييس خاصة مبتكرة للشعر الحقيقي. فالحرف عنده فكرة وبدأت هذه الفكرة تنضج وتتشكل معها الحروف، حتى بدأت مدينته "النجف الأشرف" تضيق به، بأسواقها الصغيرة وحاراتها المتراصة والسور الذي يطوّقها، بما يسبب كل ذلك من حصار للنفس وضيق للمزاج. ويقول في احدى المرات كيف يتسنى لي أن أكتب وأنا بعمامتي الصغيرة وعباءتي الخفيفة، لا أستطيع أن أجلس في مقهى لأتناول قدحاً من الشاي، إذ لم يكن ذلك مألوفاً، فما بالك وأنا في بدايات العمر!؟(٥٦)

ان الشاعر يضيق ذرعاً بالمكان وبالزمان وأحوالهما باستمرار، فتراه يتحالف مع الغائب "المنتظر" ويصبو إلى المحال أحياناً، وإذ يؤول الشاعر ويعيد تركيب مفرداتها على غير سنّة أهلها والقائمين عليها فإنه يلقي بكلماته إلى الأرض، تاركاً للغير تأويلها ثانية، بينما يمضي هو غير معني كثيراً بشرّاح المقاصد ومفسري المعاني، حيث أن التحقق الوحيد له هو قصيدته، كما ذهب المتنبي بالقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويُختصمُ

أما الجواهري فيقول وهو في بدايات شبابه:

هو الدهر قارعه يصاحبك صفوه فما صاحب الأيام إلا المقارع

بمثل هذا النمط من التفكير بدأ الجواهري خطوته الاولى في عالم التحدي المثير، وظل حتى يومنا هذا وهو يدلف نحو عامه المائة.

* بغداد ومفاتيح الشعر:

في بغداد وصلت شهرة الجواهري قبله "فنابغة النجف" كرست له صحافة بغداد الكثير، وقرأ قصائده أدباء ومثقفون ربطتهم به علاقات عميقة، وتدريجياً

(٥٦) حديث خاص مع المؤلف، مصدر سابق.

بدأت مفاتيح الشعر العربي الكلاسيكي تنتقل إلى يديه باعتراف الشاعر معروف الرصافي، الذي أسماه "رب الشعر" في قصيدة حيّاه فيها ومطلعها:

أقول لرب الشعر مهدي الجواهري   إلى كم تناغي بالقوافي السواحر(٥٧)

وذلك رداً على قصيدة الجواهري:

أجب أيها القلب الذي لست ناطقا   إذا لم أشاوره ولست بسامع(٥٨)

وكان الجواهري قد كتب قصيدة أخرى مهداة إلى الرصافي أيضاً في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٤ نشرت في صحيفة "الرأي العام" وقدّم لها الجواهري بالمقدمة التالية: في عزلة موحشة وهو يدلف إلى الثمانين موقرة بأثقال الاحساسات المرهفة يقضي أيامه الأخيرة في غمرة النسيان في عزلته والأهل والشوق في البلد الذي ناغاه وناجاه وأثار في جنباته شعاباً مظلمة يقول في مطلعها:

تمرستَ "بالاولى" فكنتَ المغامِرا   وفكرتَ "بالاخرى" فكنت المهاجرا

وقد أجاب الرصافي عنها بقصيدة مطلعها:

بك اليوم لابي أصبح الشعر زاهياً   وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا

وكان الجواهري قد رثى الرصافي بقصيدة عنوانها "معروف الرصافي" تلاها من دار الاذاعة العراقية ونشرت في صحيفة "الأوقات" البغدادية في ٢٠

---

(٥٧) تصدّى الصحفي نوري ثابت صاحب صحيفة "حبزبوز" الساخرة للجواهري لأنه كما يدعي رشح نفسه لامارة الشعر، في حين كان ثابت يميل إلى الرصافي، لكن الرصافي هو الذي رشح الجواهري لامارة الشعر، بل جعله رباً له (أي للشعر).
انظر: عزيز الحاج ـ أبو هريرة الموصلي: ذو النون أيوب ومسيرته، دار رياض الريس، ط١، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٥٨) نشرت قصيدة الرصافي في شباط (فبراير) ١٩٤١ وذلك بعد أن حركته قصيدة الجواهري "سواكن السجون" والتي نشرت في صحيفة "الرأي العام" في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١.

آذار (مارس) ١٩٥١ بمناسبة الذكرى الخامسة لوفاة الرصافي، ويقول في مطلعها:

لاقيت ربّك بالضمير وأنرتَ داجية القبورِ

وإذا كان الجواهري يميل إلى الرصافي لكنه لم يكن ميّالاً للزهاوي. ومثلما كان يقدّر شوقي، لكنه يفضل عليه حافظ ابراهيم، فبعض هذه الاعتبارات لا علاقة لها بالشعر وإنما لتقديرات شخصية.

ينقل الأستاذ هادي العلوي رأياً عن الشاعر المجدد الكبير بدر شاكر السياب حين يقول: "... ان أحمد شوقي يقف كالقزم إزاء الجواهري العملاق!" ويضيف العلوي متسائلاً: هل هو تقييم إقليمي؟ ثم يجيب: السياب شاعر كبير فهو أعرف من غيره بالشعراء. ويواصل العلوي: ولو ان تقزيم شوقي لا يأتلف مع الانصاف، لكن الجواهري عملاق فعلاً وينتمي إلى مدرسة شوقي كرائد للشعر العمودي الحديث. والكلام مايزال لهادي العلوي " والجواهري يعرف لشوقي مكانته وان كان لا يحبه"(٥٩)

أما الأستاذ حسن العلوي فيذكر ان الجواهري "يحب في الزهاوي شكوكه ونزعته التحررية ويداعبه في غزلياته أو في مسامراته، وكان من مريديه في مجلسه بإحدى مقاهي بغداد"(٦٠)

والمقصود هنا ماورد في قصيدة "جربيني" بخصوص الزهاوي (١٩٢٩) حيث يقول الجواهري مشيراً إلى الزهاوي:

عن يساري أعمى المعرّة و"الشيخ" الزهاوي مقعد عن يميني

ويعلّق الزهاوي بنكتة معروفة حول هذا البيت بقوله: شدّ مايعجبني فيه ان الجواهري لم يكتف بانزالي في جهنم وإنما جعلني مقعداً فيها أيضاً، فقد كان الزهاوي مصاباً بشلل خفيف في رجليه(٦١).

---

(٥٩) انظر: هادي العلوي، مجلة الهدف، مصدر سابق.

(٦٠) انظر: حسن العلوي ـ الجواهري ديوان العصر، مصدر سابق، ص٢٥٦.

(٦١) الجواهري في العيون من أشعاره، مصدر سابق، ص/٩٠/.

ومن الجدير ذكره ان الزهاوي حمل بعض المتناقضات الصارخة، فهو من المتحمسين للسلطان عبد الحميد وبخاصة ابّان حرب الدولة العثمانية مع اليونان ١٨٩٧ والقائل:

لك طأطأت دول الضلال رقابها قدها فسيفك قد أذل صعابها

فاليوم صار الدين فيك مؤيدا ولدولة الاسلام كل هابها(٦٢)

بل الأكثر من ذلك انه أصدر كتاباً عام ١٩٠٤ للدفاع عن السلطان عبد الحميد بعنوان "الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق" ولكنه في الوقت نفسه أحد أبرز المؤمنين بالحضارة الحديثة وبنظرية داروين، حتى ان بعض المعممين أخذوا يدعونه "زنديقاً" بينما أصبح في نظر "الأفندية" فيلسوفاً(٦٣)

وكانت مجلة "المقتطف" قد نشرت مقالات متسلسلة لشبلي شميل في شرح نظرية داروين "أصل الانواع" التي يرجع فيها أصل الإنسان إلى القرد وتحوّله إلى إنسان بسبب العمل والذي يستند إليه انجلز في كتابه "أصل العائلة"

يقول علي الوردي: اثنان من الذين تولعا بالمطبوعات المصرية الأول في بغداد (جميل صدقي الزهاوي) والثاني في النجف (هبة الدين الشهرستاني). وحين وصلت المجلة إلى النجف، انبرى بعض علماء الدين بالرد والتفنيد لنظرية داروين خصوصاً آغا رضا الاصفهاني والشيخ جواد البلاغي، وألفا كما يذكر الوردي "كتباً ضخمة بأسلوبهم الجدلي" وأرسل أحدهم كتابه في

---

(٦٢) انظر: جعفر الحلي - سحر بابل وسجع البلابل؛ صيدا، ١٣٣١هـ، ص ٥٢ – ٥٣ نقلاً عن كتاب الدكتور علي الوردي "لمحات من تاريخ العراق الحديث" ج٣، بغداد، ص٣١.

(٦٣) ظهرت في العراق شريحة اجتماعية جديدة أطلق عليها "الأفندية" ويصفهم المؤرخ لونكريك بأنهم من الذين يعرفون القراءة والكتابة، ويحاولون تقليد الأوربيين والتكلم بالتركية واحتقار العشائر والفلاحين والاكثار من ذكر المصطلحات "الحديثة" وينسب إليهم إضافة إلى التعجرف الرشوة وغيرها.

انظر: S.H. Longrigg - Four Centuries of Modern Iraq; Oxford; 1925; P.26 - 28.

نقد نظرية داروين إلى شبلي شميل في محاولة لاقناعه بسقم هذه النظرية واعلانه تركها، لكن شميل أرسل جواباً مقتضباً هذا نصه: "عذرك جهلك والسلام"(٦٤)

وإذ ذكرت ذلك استطراداً فلأن الجواهري في وقت لاحق كان قد قرأ لشبلي شميل ولفت انتباهه اتجاهه الاشتراكي ورغبته في تحقيق العدالة الاجتماعية، كما سيرد ذكره في الحوارات مع المؤلف في القسم المخصص لذلك من الكتاب.

وبالمناسبة فقد نشأ الزهاوي والجواهري نشأة دينية، وكلاهما كان يعتمر العمامة وقاما بخلعها بعد ذلك (الزهاوي في كهولته والجواهري في بداية شبابه). وكانا يميلان للتجديد الاجتماعي وشديدي الاعجاب بالعلوم الحديثة ويريدان من الدين أن لا يتقاطع معها بل يتكيف معها ويتوافق مع خط التطور. وكلاهما نادى بتحرير المرأة ورفع الحجاب عنها. وكان الزهاوي قد دعا لتحرير المرأة في عام ١٩١٠ وذلك قبل حركة حسين الرحال التجديدية، والذي يعتبر من الرواد الأوائل للفكر الاشتراكي في العراق، بل أبرزهم، وقبل جدالات السفور والحجاب في صحيفة "الصحيفة" وقد حدثت حول الزهاوي ضجة كبرى حين نشر مقالة في صحيفة "المؤيد" المصرية ندد فيها بالحجاب وذكر بعض المظالم التي تتعرض لها المرأة وأعادت نشرها مجلة "تنوير الأفكار" البغدادية، كان قد أججها رجال الدين وعلى رأسهم السيد مصطفى الواعظ، الذي تدخل لدى الوالي ناظم باشا فعزل الزهاوي من وظيفته في كلية الحقوق، التي كانت تسمى "مدرسة الحقوق" عند تأسيسها عام ١٩٠٨ كأول كلية في العراق، تبعتها كلية الطب عام ١٩٢٧، وكان الزهاوي يومها يعمل مدرساً لتدريس مادة "الأحكام العدلية" كما رد عليه الشيخ محمد

---

(٦٤) انظر: علي الوردي ـ لمحات من تاريخ العراق الحديث، ج٣، مصدر سابق، ص٩.

سعيد النقشبندي بكتاب عنوانه "السيف البارق في عنق المارق" وهو بمثابة تحريض على استباحة دم الزهاوي(٦٥)

وإذا كانت ثمة أوجه تشابه كبيرة بين نظرة الزهاوي الفلسفية ونظرة الجواهري، إلا أن الفارق كبير بينهما، إذ أن الجواهري كان شديد الاعتزاز بموقفه الوطني، حساساً من علاقته مع الأجنبي، بعيداً عن الحكام حتى وان كان موظفاً لدى الملك فيصل الأول أو نائباً في البرلمان، في حين ذهب الزهاوي لامتداح البريطانيين بعد الأتراك(٦٦)

ويمكن القول ان الزهاوي كان متحرراً، متنوراً فكرياً واجتماعياً إلا انه محافظ ورجعي في مواقفه السياسية، وهذه هي إحدى مفارقاته وتناقضاته، بينما ظل الجواهري منسجماً في تحرره الاجتماعي والسياسي والفكري وان كانت تناقضاته نابعة من هواجسه وقلقه وإرهاصات روحه.

*** ثلاث سلطات:**

تركت البيئة النجفية الحادة تأثيرها على الجواهري، فكان عنيفاً حد السيف أحياناً، وفي الوقت نفسه أكسبه الشعر وحب الجمال، الرقة حد الوداعة. كان صلباً شديداً من جهة، وليّناً مجاملاً من جهة أخرى، بما يقترب من التناقض بين الخشونة والرقة.

إن مجتمعاً مزدوجاً له مسرح علني وآخر سري، تحكمه قوانين الحجاب ومنع الاختلاط، لابد وانه يحمل هوية مزدوجة ومتناقضة. وكان البعض فيه يسترخي ويستسلم للرقص على إيقاع مفككك الالحان، أما البعض الآخر

---

(٦٥) انظر: علي الوردي ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣ مصدر سابق، ص ١٧٩ - ١٨١.

(٦٦) حاول الزهاوي تبرير موقفه في مدح السلطان عبد الحميد الشديد الاستبداد، وذلك في عام ١٩١٦ في رسالة إلى صديقه هبة الدين الشهرستاني، بالخوف من استبداده وبطشه. انظر: يوسف عز الدين ـ في الأدب العربي الحديث، بغداد، ١٩٦٧، ص٦٢.

فكان يستشرف أفق التغيير ويتطلع إلى عوالم أخرى بعيدة حالمة فيتمرد ويعاني ويشقى، لكنه يحمل بذرة التحديد والأمل، قصيدة للتحدي وأخرى للحب كالجواهري. إذ ان الرقص المجنون في مسرحين متعارضين لا يمكن التوفيق بينهما كان يعني الانفصام، فالمسرح الأول فيه من التقاليد البالية والثقيلة الشيء الكثير، الذي يكاد يكبّل الشاعر ويحجر على أحلامه وعالم آخر يطمح إليه الشاعر، لا يريد له حدوداً، بل يدفع الأفق لينكشف عن سر هذا الكون وتتفجر مكنونات صدره، غضباً وحباً وازدهاراً... انه عالم القصيدة، الحرية، شوق الاحساس الانساني بالوجود، بدون أقنعة وبلا وجوه تنكّرية ، فيه طموح لحرية التعبير والمساواة، وحق اختيار الحكام، لا كجرم يحقر وإنما بمعرفة واجبة ومبررة.

كان الجواهري يتطلع إلى عالم جديد يشبع فيه الانسان ويستطيع فيه، أن يقول رأيه حقاً وفعلاً، لا كما يريده الحكام، بل كما يستطيع هو فيه أن يروي ظمأه إلى المعرفة والثقافة، كحاجة روحية للحرية الموازية لرغيف الخبز.

كان يلاحظ ويرى الكوميديا، حيث يلبس الكبار الأقنعة ويتزينون بما يريده السيد والحاكم، يدورون في الفراغ دون محرك أحياناً.

لقد كان الجواهري يعيش في ظل ثلاث سلطات، سلطة الحكومة وسلطة الثيوقراطية الدينية وسلطة ثالثة هي ساطة التقاليد والقيم الموروثة، وكان عليه الخروج على كل هذه الدوائر الثلاث. التي تظل تلاحقه كظله كما يروي.

فسلطة الدولة أكسبته التحدي وسلطة الثيوقراطية الدينية دفعته للتحرر وسلطة التقاليد وجهته لفكرة الحداثة. ولم يكن مايذهب إليه انزلاقات لسان، وحتى انزلاقات اللسان في عالمنا العربي لا تحمي المرء من قدره، الذي يحدده الحاكم، فما بالك وهي قصف ثقيل، وأعاصير لا تهدأ وبراكين غاضبة لا تعرف لها قراراً، وسيول جارفة تنحدر من جبل شامخ.. طبيعية كانت أم

صناعية، فقوة الكلمات تبقى هي الأمضى ولا مضاء للثانية من دون الاولى وقديماً قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

إن المواطن في بلداننا العربية والعراق على وجه التحديد صار يشعر أن من ضرورات مواصلة حياته المحافظة على لسانه من الانزلاق، والويل له إذا تعرض إلى زلة لسان، فترويض اللسان أمر في غاية الأهمية، قبل التفكير وعمل الدماغ، فما بالك بالشاعر، والمفكر، الذرب اللسان، المتمرس في التحدي والمجبول عليه. ان السماء تحكم بقوانين مختلفة غير الموجودة في الأرض، والأخيرة مليئة بالصراعات والنعرات والأحقاد والحسد والتآمر وهي مثال المجتمع العراقي والنجفي ومن ثم البغدادي. ورغم معرفة الجواهري بنواقص مجتمعه العراقي والعربي، التي لم يكن ليفلت منها، لكنه حاول توظيف إبداعه على نحو مناقض، وبالقدر الذي كانت نقاط الضعف والوهن في المجتمع واضحة وجلية، كان الجواهري يحولها إلى عناصر قوة والهام وتحدٍ، بل المزيد من الرفض وذلك كان جدل حياة وشعر الجواهري. يقول الجواهري:

ولم أرَ في الضدائدِ من نقيضٍ إلى ضد نقيضٍ من ضريبِ

لم يستطع الزمن رغم عاداته، أن يروضه أو يطوعه أو يحتويه، فقد تمكن سلطان الشعر منه، وامتلكه بكل معنى الكلمة، هكذا كان صعباً وظل غير قابل للتدجين، رافضاً، بل تراه أحياناً، يتصدر الصفوف. سلاحه الشعر في الهجوم وحين يتراجع، هو درع وقايته من تقلبات الزمن وغدر الأيام وهجومات الأعادي وكبوات وعثرات الذات.

برحلته الشعرية المديدة، اختزن الجواهري، سيرة رجال ومبدعين وتاريخ كفاح "صاعداً ونازلاً" على حد تعبيره. كان شاهداً وحاضراً في ذاكرة أجيال وفي تفاصيل أحداث وقضايا.

ومن البيئة النجفية، بيئة الدواوين التلقينية، ذات الموروث والتقاليد العريقة والقاسية، حلق الجواهري في الأفق الشاسع، مثل نسر رفرف بجناحيه فوق بغداد، بعد أن عايش فقهاء النجف وزامل وتتلمذ على أيدي نخبة منهم وربطته علاقات صداقة معهم، وكان يتطلع نحو دمشق وبيروت والقاهرة، حيث حركة التنوير التي قادها جمال الدين الافغاني(٦٧) وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده، ثم ليستريح في باريس قليلاً، وليبدأ رحلة طويلة قاربت ثلاثة عقود ونصف كانت محطتها الرئيسية براغ الذهبية وبعدها دمشق الأليفة.

رحيل متقطع لكنه متواصل، ظل مصحوباً بحنينه إلى الوطن، بل حمل حنين الوطن في قلبه حتى صارا متلازمين لبعضهما. فقد كان يجر في ثنايا الأحداث ولا يعرف المرسى إلا على شاطىء الشعر. مسافراً تفيض منه الألوان، كقوس قزح، في سماء من الشرق تتراقص كواكبها في عذوبة ورقة متميزة، وتدور كخبز "تنور" عراقي طازج، لتتدفق مثل دجلة والفرات.

ورغم اغتراب الجواهري، هذه السنوات الطويلة، لكنه لم يكن شاعراً مغترباً، مثل شعراء المهجر مثلاً، الذين أنتجوا أدباً خاصاً، متميزاً، عُرف باسم "أدب المهجر"، بل ظل الجواهري، يعيش، بل يسمع، نبض بيئته، بمجتمعه، بلغته وبنائه الفني وتركيبة قصيدته.

ورغم بعض الجوانب السلبية، التي كانت عنصراً ضاغطاً على الجواهري، سواء في نشأته الاولى، أو في تأثيرات وترسبات البيئة، التي طالما اشتكى منها، إلا ان الجواهري، كغيره من النجفيين، أخذ الكثير من عناصر القوة والمعرفة التي وفرها له

---

(٦٧) رثى الجواهري المفكر الاسلامي جمال الدين الافغاني بقصيدة نشرتها صحيفة "الرأي العام" في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٤ وذلك أثناء مرور رفاته من تركية في طريقه إلى أفغانستان، يقول في مطلعها:

هويت لنُصرة الحق السُهادا   فلولا الموت لم تُطِق الرُقادا

المجتمع النجفي رغم تناقضاته، فخلفه تراث فكري ونظري وفلسفة عميقة وفقه وأدب وشعر، تلقاها ورضعها مع الحليب وهي تشكل جزءاً حياً من البيئة النجفية ذات البُعد العربي والاسلامي، وهي تعكس التناقض والصراع الفكري والاجتماعي، الذي يعيشه المجتمع النجفي. ورغم الطابع المحافظ والمنغلق للنجف في أكثر مظاهره الاجتماعية، لكنها على حد تعبير الراحل السيد الدكتور مصطفى جمال الدين، تجد انفتاحاً في المجتمع الأدبي، فهناك صخب الشعر وانفتاح الفكر، وبهذا المعنى فهي لا تختلف عن غيرها من مراكز الدراسات الأدبية والفكرية.

ويرجع الدكتور جمال الدين ظاهرة "الفكر المنفتح في المجتمع المنغلق" إلى عاملين، أولهما: القراءات المتنوعة، فالنجف حسب تعبيره (مدينة قارئة) تتصل ـ رغم انغلاقها ـ بالعالم الخارجي عن طريق الكتب والصحف والمجلات، التي تردها بانتظام، ومن مختلف البلدان "كالعرفان" و"البرق" من لبنان، و"ألف باء" و"مجلة المجتمع" من دمشق، و"الكاتب المصري" من مصر، وكثير من صحف العالم العربي والاسلامي. "كما صدرت في النجف نفسها صحف ومجلات ليست على الشكل المتحفظ، الذي يعيشه مجتمعها كمجلة (النجف) و(الفجر الصادق) (والراعي) و(الهاتف) و(الاعتدال) و(الغري) و(الرابطة) وغيرها"

وجدير ذكره الاشارة إلى مجلة "العلم" التي أصدرها هبة الدين الشهرستاني أحد أكبر المجددين وجريدة "الفرات" للشيخ باقر الشبيبي، التي كانت لسان حال الثوار ضد الاحتلال البريطاني.

وكان الشيخ علي الشرقي وهو يكبر الجواهري سناً وقريبه، يعتبر من الذين دعوا للتجديد الفلسفي والاجتماعي، بعيداً عما هو سائد من ركود. ويقول في تساؤلاته الفكرية وهواجسه التشكيكية، التي لا تخلو من جرأة في زمانها:

فيا جانب البحر الذي أنا غارقٌ بلجّته هل ثمَّ من جانب ثاني

وفي مناسبة أخرى، وهو يشعر بالتميز والاستقلالية في التفكير:

أقـــول وقـــد ســـألتني الرفـــاقُ   أأنـــت علـــى وضعنـــا خـــارجٌ؟!

وإذا كانت تلك المحاولات التجديديـة في البنـاء الفكـري والفلسـفي فـإن الجواهري، كان يسعى للتجديد والتحديـث في الفكـر والاجتمـاع والسياسـة وفي بناء وتركيبة القصيدة، تلك التي أعطته "شهادة التمرد" باستحقاق.

أما العامل الثاني في الانفتـاح الفكـري في النجـف، فيعتـبره السيد جمـال الدين "ثقافة الوافدين"، أي التفاعل والاختـلاط والحـوار، بـين طلبـة المـدارس الدينية من شتى الأقطار الاسلامية(٦٨).

وتعتـبر النجـف "   ملتقـى العـروق والأجنـاس والقوميـات، ومحكـم الاختلاط والتعايش والمصاهرة... لا تعرف التميز ولا الطائفية..." فقد كـان فيهـا إضافـة إلى العربـي الأصيـل، الايرانـي والافغـاني والـتركي والباكسـتاني والهندي والتبتي وغيرهم من الأقطـار الاسـلامية والعربيـة مثـل سـورية ولبنـان والبحرين والسعودية (الاحسـاء) ودول الخليـج العربـي، ممـن قدمـوا للدراسـة وتلقي العلم في جامعتها الشهيرة، التي مضى على تأسيسها نحـو ألـف عـام... فهي مركز اشعاع فكري وأدبي، وفوق كـل ذلـك فهـي تحتضـن قـبر الامـام علي، وفيها أكبر مقبرة في العالم تعرف باسم مقبرة وادي السلام، كما يؤمهـا سنوياً مئات الآلاف مـن المسـلمين للزيـارة وللاطـلاع علـى معالمهـا التاريخيـة وبنائها الحضاري وانتاجها الثقافي(٦٩).

ظل الجواهري عنيداً أمام السؤال، بل انه ظل يواجه أسئلة بلا إجابات، تشـكل جزءاً مـن حـيرة الشـاعر وشـكوكه وهواجسـه، ضعيفـاً أمـام نـزوة الشـعر وإغـراء القصيدة، وسـيلته في التعبير ليحلّـق فيهـا إلى عـوالم أخرى، يطوّعهـا حيـث يريـد. والجواهري معمر مثل لبيد العامري ومنفي مثل المتنبي ومفكر كـالمعري وهـو القـائل

---

(٦٨) انظر: الدكتور مصطفى جمال الدين، الديوان، مصدر سابق، ص ٢١ ـ ٢٥

(٦٩) انظر: أمسية للمؤلف في ديوان الكوفة بلندن، في شباط (فبراير) ١٩٩٤ بعنـوان "بعيداً عن أعين الرقيب ـ محطات بين الثقافة والسياسة" وقـد نشـرت بكـراس خـاص صـدر عـن دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٥، ص١٩.

في قصيدته في المعري والتي القاها بمناسبة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري بدمشق ونشرت في صحيفة "الرأي العام" في ٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٤

قِفْ بالمعرّةِ وامسح خدَّها التربا | واستوحِ من طوّق الدنيا بما وَهَبا

ثم يقول:

على الحصير... وكوز الماء يرفده | وذهنه... ورفوف تحمل الكتب
أقام بالضجة الدنيا وأقعدها | شيخ أطلّ عليها مشفقاً حَدِبا
بكى لأوجاع ماضيها وحاضرها | وشام مستقبلا منها ومرتقبا
وللكآبة ألوان، وأفجعها | ان تبصر الفيلسوف الحر مكتئباً
لثورة الفكر تاريخ يحدثنا | بان ألف مسيح دونها صُلبا

* خصومات:

في سفره المديد، واجه الجواهري، خصومات كثيرة، وأثيرت حوله وجهات نظر متضاربة.

والواقع فإن شخصية تجمع هذا القدر من التفرد الفني والتمايز الشخصي وخصوصية التحدي والاستقلالية والجرأة والتناقض، لابد وأن تكون عرضة للنقد والحسد والغيرة. فالطائفيون، صنفوه حسب هواهم، بتحدره الشيعي، بحكم النشأة، لدرجة ان البعض اعتبره "شاعراً شيعياً"، حيث صدر أمر بفصله من وظيفة معلم ابتدائي، بعد رفض تعيينه بوظيفة مدرس ثانوي عام (١٩٢٧)، لكن الملك فيصل الأول سارع بتعيينه في تشريفات البلاط الملكي لحفظ التوازن المختل بسبب نهج العزل السياسي الذي اختطته الدولة العراقية منذ تأسيسها. وأفصح ساطع الحصري(٧٠) مدير المعارف آنذاك ان سبب فصل

(٧٠) ينظر البعض من زاوية أخرى عند تقييم الدور الذي لعبه ساطع الحصري، حيث يتم استحسان أفكاره التربوية وأطروحاته القومية. وقد صدر في أواخر الثمانينات كتاب يتحدث عن فلسفة ساطع الحصري عن دار التقدم في موسكو. وفي هذا الصدد يقول الكاتب عزيز

الجواهري، يعود إلى قصيدة كان قد نشرها الشاعر، يتغزل فيها بمصايف ايران الجميلة، قبل تعيينه، مما اعتبر تشكيكاً بالهوية العربية وبالمواطنة العراقية، يستوجب معها "نبش" الوثائق للبحث في جنسيته، وفقاً لقانون شرّع على أساس مختل أصلاً، برقم (٤٣) في عام ١٩٢٤. وحمل معه بذرة التمييز أو جرثومة الطائفية "قانونياً" وذلك قبل تشريع القانون الأساسي (الدستور) في عام ١٩٢٥. وظلت الدولة العراقية تعاني من ظاهرة العزل والتمييز، التي استفحلت على نحو صارخ في السنوات العشرين الأخيرة، وبخاصة خلال الحرب العراقية - الإيرانية(٧١)

ويذكر ان الجواهري كتب خمس قصائد خلال اصطيافه (الأول والثاني) في ايران في العشرينات. القصيدة الاولى كانت صيف ١٩٢٤ وقد أهداها إلى صديقه محمد رضا ذهب (في النجف) ويقول في مطلعها:

أحبابنا بين مَحاني العراقْ كلفتمُ قلبي ما لا يطاقْ

الحاج "كان ساطع الحصري موضع نقد وتجريح بعض القوى المعارضة والتيارات الطائفية، ولكنه استحوذ على اعجاب وحب معظم المتنورين ومنهم ذو النون أيوب إذ صار من مريديه...".

انظر عزيز الحاج: أبو هريرة الموصلي، مصدر سابق.

بينما يذهب كثيرون إلى ان الحصري نفسه متهم بالطائفية وهو امتداد للمدرسة التركية - البريطانية في العراق بعد الاستقلال بل ان البعض يرجع استشراء الطائفية في العراق إلى الدور السلبي الذي لعبه الحصري. انظر: العلوي، حسن - كتابيه "التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي" لندن، ١٩٨٨ و"دولة الاستعارة القومية" دار الزوراء - لندن، ١٩٩٣.

(٧١) حول الدستور العراقي: انظر محاضرتنا في لندن بدعوة من المنتدى العراقي، آذار (مارس) ١٩٩٢ وحول قانون الجنسية وقضية المهجرين العراقيين: انظر كتابنا "عاصفة على بلاد الشمس" دار الكنوز الأدبية، دمشق، ١٩٩٤، ص ٢٢٣ - ٢٣٥ انظر كذلك محاضرتنا في ديوان الكوفة، لندن ١٩٩١/٤/١٧ بعنوان "اشكالية حقوق الانسان وقضية المهجرين العراقيين" كذلك بحثنا المنشور في صحيفة الحياة ١٩٩١/٤/٢٨ بعنوان "المهجرون العراقيون والقانون الدولي"

ويعبّر فيها عن شوقه وحنينه إلى بلده العراق، شاكياً آلام الغربة حين يقول:

يكفيكم من لوعتي أنني في فارس أشتاق قطر العراق
لاسوحَها وهي جنان زَهَت بكل مارقَ جمالا وراق
تنالُ من شوقي وهل سلوةً لمن قضى الله له أن يَشاق؟

أما القصيدة الثانية (في سفرته الاولى)، فهي مفعمة بالشوق أيضاً للعراق ويقول فيها:

أقول وقد شاقتني الريح سحرةً ومن يذكر الأوطانَ والأهلَ يشتقِ

أما القصيدة الثالثة، فهي بعنوان الريف الضاحك، التي نشرتها بمجلة "العرفان" في عام ١٩٢٥ وكانت القصيدة الرابعة قد نظمها خلال سفرته الثانية ١٩٢٦ وأهداها إلى صديقه النجفي، الشيخ جعفر النقدي، وعنوانها "على دربند" يتحدث فيها عن مصايف "شمرانات" الشهيرة شمال طهران (ايران) ومنها مصيف دربند ونشرتها مجلة "العرفان" أيضاً في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٧ ومطلعها:

احبتنا لو أنزل الشوقَ والهوى على قلب صخرٍ جامدٍ لتصدعا

أما القصيدة الخامسة، فقد كتبها وهو عائد إلى العراق وهي بعنوان "الخريف في فارس" ويقول في مطلعها:

ياهائجين لخريف فارسٍ ماتصنعون لو أتى ربيعهُ

وتبيّن الصور الفنية التي استوحاها الجواهري من مصايف ايران مدى الشوق الذي اعتصر قلبه إلى بلده العراق وأهل العراق وهو يصطاف في ايران.

وهو مايفنّد ماذهب إليه الحصري، من محاولة الجواهري التعرض للعراق والنيل منه ويبدو إنه استند في فصل الجواهري من وظيفته على البيتين التاليين اللذين لا يُشمُّ منهما أية إساءة للعراق وشعبه:

لي في العـــراق عصابـــــة لولاهـــم ماكـــــان محبوبـــاً إليّ عـــــراقُ
لا دجلة لولاهم وهـــي الـتي عذبـت تـــــروقُ ولا الفـــــرات يـــــراقُ

ولم تفلح كل دعـوات الجواهـري الوحدوية، وقصـائده وآراؤه ومواقفه القومية العربية منذ ثورة العشرين ولحد الآن، أن تمحو آثار محـاولات الإسـاءة إليـه ذات البعد الطـائفي منـذ أواخـر العشرينات ولغايـة الآن فكـانت تنـام وتستيقظ حسب الظروف والأجواء السياسية ورغبـات ومصـالح الحكـام ودوائرهم، بحيث يصبح التهديد بنزع الجنسية أو التعريـض بالانتمـاء العروبي أو الولاء الوطني القومي شيئاً جاهزاً لمهاجمة شاعر ليس مـن المبالغـة القـول أن فضله لكبير ليس على العراق وحده، بل على الأمة العربية ولغتها الجميلة.

أشير هنا إلى أن الجواهري بُعيـد سـفرته الاولى وقُبيـل سـفرته الثانيـة إلى ايران هو القـائل بحق الشيخ مهـدي الخـالصي الـذي نفـي إلى ايـران في عـام ١٩٢٣، وتوفي فيها عام ١٩٢٥ حسبما يذكر الشيخ محمـد مهـدي كبـة في مذكراته الموسومة "مذكراتي في صميم الأحداث"(٧٢):

ردي إلى أوطانـــــه نعشـــــــه لا تدفـــني في فـــارس يعربـــا
لا تدعـــي فـــارس تختصـــه فـــالولد الـــبرز لمـــن انجبـــا

ولعمري في ذلك وحده الدليل الكـافي علـى مشـاعره الوطنيـة والعروبيـة الجياشة فهو إنمـا يخاطب أولي الأمـر الذيـن نفـوا الخـالصي عقابـاً لـه ولثـورة العشرين بعد الانتداب البريطاني على العراق ويطـالبهم بـأن يـردوا نعشـه إلى العراق وهو يرفض أن يُدفن جثمان هذه الشخصية العربية في ايران.

* آمنت بالحسين:

وربما اعتبر البعض قصيدة الجواهري "آمنت بالحسين" التي ألقاها في كربـلاء في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ في ذكرى استشهاد الحسين (ع)، والمنشورة في

(٧٢) انظر: محمد مهدي كبة، مذكراتي في صميم الأحداث، بيروت، ١٩٦٥

صحيفة "الرأي العام" يوم ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) في العام ذاته استمراراً لتشيّعه ولتمذهبه. في حين لا تخص شخصية الحسين طائفة أو مذهباً، وإنما هي يعدها الملحمي لكل المسلمين، بل ملك للانسانية جمعاء، فكل طالب عدل ورافض ظلم يجد في الحسين مثله الأعلى وهو ماعبّر عنه الجواهري(٧٣) .

ومن الجدير بالذكر الاشارة إلى أن خمسة عشر بيتاً من قصيدة "الحسين" قد كتبت بالذهب الخالص على الباب الرئيسي، الذي يؤدي إلى الرواق الحسيني الشريف(٧٤) ، وجاء في مطلعها:

فداءٌ لمثواك من مضجعِ ... تنوَّر بالأبلج الأروعِ
بأعبق من نفحات الجنا ... ن روحاً، ومن مسكِها أضوعِ
ورعياً ليومك يوم "الطفوف" ... وسقياً لأرضكِ من مصرعِ
وحزناً عليك بحبس النفوس ... على نهجكَ النيِّرِ المهْيعِ

* اليسار:

كانت القوى التقليدية والمحافظة في المجتمع العراقي تنظر إلى الجواهري باعتباره "ممثلاً" للتيار اليساري ـ الشيوعي، بل هو لسانه الفصيح وصوته القوي والحاضر دائماً حين تستكمل ظروف الوثبة أو تنضج شروط الانتفاضة، وبحكم دفاعه عن المظلومين والفقراء. وكانت قصائد الأربعينات، وبوجه خاص قصائد سواستبول وستالينغراد وغيرها الأكثر إفصاحاً ومجاهرة حين اشتدت المعارك الضارية ضد

(٧٣) راجع: الدكتور ابراهيم العاني "دراسة عن قصيدة الجواهري بخصوص الحسين" (ع) مجلة النور، لندن، العدد ٥٠، تموز (يوليو) ١٩٩٥.

(٧٤)يعكف المخرج العراقي الفنان قاسم حول على كتابة سيناريو فيلم سينمائي عن الحسين (ع) تمهيداً لاخراجه وهو أول فيلم يتناول مأساة الشهيد الحسين. ويحاول المخرج بعد تهيئة المستلزمات التوثيقية والفنية والموافقات الضرورية، أن يقدم رؤية عصرية وحضارية عن تلك المأساة الانسانية والبطولة الملحمية. انظر: نشرة الكوفة، العدد الأول، حزيران (يونيو) ١٩٩٦. كذلك: حديث خاص مع المؤلف في لاهاي (هولندا) تموز (يوليو) ١٩٩٦.

القوات الألمانية الغازية واستبسلت المدينة وقاعدتها البحرية استبسالاً هزّ الشاعر من الاعماق. ففي قصيدة سواستبول ١٩٤٢ قال:

يا "سواستبولُ" سلامْ لا ينل مجدَكِ ذام

أو قصيدته عن "ستالينغراد" التي نظمها عام (١٩٤٣) ممتدحاً ستالين في فترة كان مجرد اسمه يعني احتسابك على جبهة اليسار حيث يقول في مطلعها:

نضت الروح وهزتها لواء وكسته واكتست منه دماء

إلى أن يقول في صمود المدينة وزعيم الدولة السوفيتية ستالين:

يا "ستالين" وما أعظمَها في التهجي أحرفاً تأبى الهجاء
أحرفٌ يستمطر الكون بها انعتاقاً وازدهاراً، واخاء

ثم يمضي للقول:

ياعروس "الفلغِ" والفلغا دمٌ ساءت البلوى فأحسنت البلاء
صُبغ "الدون" دماءين هما بُعدُ بين الرجس والطهر التقاء
وجرت أمواجه حاملة فوقها الضدين صُبحاً ومساء
وعلى الجرفين "عظمان" هما رمز عهدين انحطاطا وارتقاء

و لم يكتف الجواهري بتمجيد ستالين وصمود المدينة، بل عرض بطريقته الديالكتيكية التناقض على ضفتي نهر الفولغا، فمن الجهة الاولى، الجيوش النازية الغازية ومن الجهة الثانية، الجيوش "السوفيتية" المدافعة، والعظمان هما هتلر وستالين، أما العهدان فهما النازية والاشتراكية ويقرر الجواهري نهاية الحرب قبل حسمها بأكثر من عامين، حين يؤكد انحطاط العهد النازي وارتقاء العهد الاشتراكي، بنبوءته وانحيازه.

و لم ينس في هذه القصيدة أن يذكر تولستوي و كذلك رواية الام لمكسيم غوركي حين يقول:

"أم غوركي" ليت عندي وحيه لأوفي (نبتك) اليومَ الثناء

يا "تولستوي" ولم تذهب سُدى ثورة الفكر ولا طارت هباء

وإذا كانت مثل تلك الأسماء تنطبع في أذهان الناس، حتى قبل أن يطلعوا على "الأدب السوفيتي"، الذي شاع بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨، فإن أسماء المدن والأماكن السوفيتية قد انتشرت مثل هذه الأسماء في قصائد الجواهري، حتى أصبح اسم سواستبول شهيراً، مثلما هو اسم مدينة خاركوف وروستوف والقفقاس، وكذلك أصبحت كلمات مثل "الأنصار" والسلام ووسام الشهادة، كلمات كثيرة الاستخدام في الوسط السياسي وفي الشوارع والجامعات. لقد كتب الجواهري ١٩٦ قصيدة قبل سواستبول (قصيرة وطويلة) لكن سواستبول القصيدة السابعة والتسعين بعد المائة انفردت بالجو الخاص من خلال التراكم اللغوي والتزاحم الحركي والموسيقى الصاخبة.

*** عروبيات:**

حين استخدم الجواهري خزينه الثوري بطاقته القصوى لحشد مفرداته اللغوية وقد طغت قصائد، مثل سواستبول وستالينغراد أو "ألقت مراسيها الخطوب" التي نشرها في ٨ أيار (مايو) ١٩٤٥ وهي آخر قصائد الحرب على قصائد مثل وادي العرائش في زحلة (١٩٣٤) أو يوم فسطين (١٩٣٨):

يومٌ من العمر في واديك معدودُ مستوحِشاتٌ به أيامي السُودُ

أو شاغور حمّانا أو لبنان (١٩٣٩) التي كتبها في الثلاثينات والتي يقول فيها:

أرجعي مااستطعت لي من شبابي ياسهولاً تدثرت بالهضاب

غسل البحرُ أخمصيْها، ورشّت عبقاتُ الندى جباه الروابي

وكذلك قصائد الأربعينات أو مايسميه الأستاذ حسن العلوي (السدس العبقري) مثل قصيدة "بنت بيروت" التي نشرها الجواهري في عام ١٩٤٢ وهي مهداة إلى عمر فاخوري التي يقول في مطلعها:

ياعذبة الروح يافتانة الجسد   يابنت "بيروت" ياأنشودة البلد

أو قصيدة يافا الجميلة التي ألقاها في الحفل التكريمي الذي أقيم على شرفه في المجمع الثقافي في يافا ونشرتها صحيفة "الرأي العام" في ١٦ آذار (مارس) ١٩٤٥ والتي يقول في مطلعها:

بـ"يافا" يوم حُط بها الركابُ   تَمَطرَ عارضٌ ودجا سحابُ
ولفَّ الغادةَ الحسناء ليلٌ   مريبُ الخطوِ ليس به شهاب

وكذلك على قصيدة وعد بلفور التي ألقاها الشاعر في بهو الأمانة ببغداد، في ذكرى وعد بلفور ١٩٤٥ ويقول في مطلعها:

خذي مسعاك مُثخنةَ الجراح   ونامي فوق دامية الصفاح

إلى أن يقول:

أأم "القدس" والتاريخ دامِ   ويومُكِ مثل أمسكِ في الكفاح
ومهدُك وهو مهبط كل وحي   كنعشك وهو مشتجرُ الرماح
و"وادي التيه" إن لم يأوِ "موسى"   فقد أوى "الصليب" على "صلاح"

أما السبب الآخر في إشكاليات الجواهري، إذا جاز التعبير، فقد أتاه من الوسط الأدبي ذاته. فاتجاهاته التجديدية في القصيدة العربية الكلاسيكية وقدرته الفائقة على التطوير واستلهام المعاني، قد عرضته للحسد والكيد من الوسط المحافظ، الذي ينظم على الطريقة التقليدية، فضلاً عن اقتحاميته الاجتماعية، التي تخطى بها الحدود المألوفة في زمانه وفيما بعد زمانه، مما عرضه للنقد وربما للتجريح، وذلك لمواقفه التقدمية، ونظرته الاجتماعية التحررية وبالتالي فلسفته إزاء الحياة والكون والمجتمع، كانت كلها من أسباب خصوماته على حد تعبير الأستاذ هادي العلوي.

*مناسبات ومفارقات!

ثمة مناسبات لا تخلو من طرافة ناهيكم عن مرارة أيضاً وربما مفارقات مصحوبة بشيء من ألم، خصوصاً ماتركته في نفس الشاعر، من خيبة وانكسار. ففي النصف الأول من السبعينات تعرض الجواهري إلى حملة نقد شديدة بإيحاء وربما بإيعاز من الحكومة العراقية إلى بعض الصحفيين العاملين في الصحافة اللبنانية وذلك إثر زيارته إلى المغرب وإلقائه قصيدة هناك لم يستسغها المسؤولون العراقيون، والقصة وما فيها ان موسى أسد الكريم صديقنا في براغ عرّفه بأحد العراقيين المغتربين الذين يعيشون في المغرب وهو من عائلة الوردي الكاظمية المعروفة ومتزوج من فرنسية، الذي بادر بدعوته إلى الرباط وذلك خلال زيارة كان يقوم بها إلى العاصمة التشيكية وبعد تردد وانتظار حزم الجواهري أمره مستقلاً الطائرة إلى الرباط ليفاجأ باستقبال مهيب حيث اعتبرته وزارة الدولة للشؤون الثقافية ضيفاً عليها وهو الذي كان يرغب بزيارة شخصية وهناك ألقى قصيدته المشهورة:

سماحاً إذ شكا قلمي كلالا	وإن لم يُحسنِ الشعرُ المقالا
وإن راحت تُعاصيني القوافي	بحيث الفضلَ يَرتجلَ ارتجالا

وكأن الجواهري يستبق الحملة التي نُظمت ضده فيما بعد تحت شعارات زائفة ولأغراض محددة، لهذا نجده، يواجه هؤلاء الذين استغلوا زيارته للمغرب وإلقاءه هذه القصيدة بالقول(٧٥):

(٧٥) القصيدة كانت بعنوان: "تحية: ونفثة غاضبة" والقيت بمسرح محمد الخامس في الرباط يوم ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤.

وقلتُ لحاقدين عليَّ غيظاً لأني لا أحبُّ الاحتيالا
هبّوا كلَّ القوافل في حماكم فلا تهزوا بمن يحدو الجمالا
ولا تدعوا الخصام يجوز حدّاً بحيث يعود رخصا وابتذالا
وما أنا طالبٌ مالاً لأني هنالك تاركٌ مالاً والا
ولا جاهاً، فعندي منه إرثٌ تليدٌ لا كجاهِهم انتحالا
ولا أنا من يلوك دمَ الأضاحي يلم جلودها للسحت مالا(٧٦)

وكانت الحكومة المغربية قد اهتمت به اهتماماً خاصاً، من أعلى المقامات السياسية إلى شتى الهيئات الثقافية والاجتماعية والشعبية، مما اثار حفيظة بعض الكتّاب الذين أخذوا يتحرشون بالشاعر ويشون نقدائهم ضده وأتذكر انه كتب رسالة إلى احدى الصحف اللبنانية رداً عليهم وكانت رسالة شديدة اللهجة ضمّنها تعريضاً بهم وبمن أوعز لهم عملية التحريف. وتفسير الجواهري انه قابل المعروف والاحسان والتكريم بالشكر والامتنان وهي إن تأتي على لسان شاعر، تأخذ شكل قصيدة وهو أمر طبيعي، لكن صديقه موسى أسد الكريم قد يكون أحد الذين ثنوه عن نشر رده على بعض الصحفيين ومن يقف وراءهم. إلا أن أجواء غضبة الجواهري ظلت مسيطرة عليه، فنشر في عام ١٩٧٥، قصيدة بعنوان "آليتُ" وهي رداً على تلك الحملة "المأجورة" على حد تعبيره، وجاء في مطلعها:

آليتُ أبردُ حرَّ جمري وأديلُ من أمرٍ بخمر

إلى أن يقول:

ومبارزينَ سلاحهم أن لست ندٌّ ذوات ظفر

---

(٧٦) نظم الشاعر قصيدة بعنوان "طنجة" وذلك خلال زيارته إلى المغرب يقول فيها:

لله درك "طنجُ" من وطن وقف الدلالُ عليه والغنج
الليل عن جفنيك منطلق والصبح عن نهديك منفرج
تتخالف الالوان في شفق ويلمها غسق فتمتزج

أمنـــوا بعصمـــــة صـــافح عـــن كاشـــفي الســـوءات نكـــمر
مثـــل "الفواحـــش" يحتميـــ ـــن بفحشـــهن، بـــأي ســـتر
مســــــتبعدين توارثــــــوا حقـــب التملـــك، والتســـرّي
ومُســـخرين فهـــم لديـــــ ـــك وهـــم عليـــك! لقـــاء أجـــر

ويبدو لي أن الجواهري ضمن تلك الأجواء الاقتحاميـة المتحدية نظم قصيدتـه "أزح عن صدرك الزبدا" التي نشرتها مجلة الرابطة الأدبيـة في النجف تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ تلك القصيـدة التي ينتقد فيها الجواهري عصره المليء بالزيف والخداع ويسمو بنفسه متعالياً بكبرياء الشعر والتي يعتبرها "من أعز قصائده إليه"

أزح عـــن صـــدركَ الزبـــدا ودعـــه يبـــث مـــاوَجَدا
وخـــل "البـــوم" ناعبـــةً تقـــيءُ الحقـــد والحســـدا
مخنثـــة فـــإن ولـــدت علـــى "ســـقطٍ" فلـــن تلـــدا
ســـينهي "الفجـــرُ" وحشـــتها ويُلحقهـــا بمـــن طـــردا

وأعتقد أن قصيدة "رسالة الى محمد علي كلاي من محمد مهدي الجواهري" قد نظمت في تلك الأجواء والانفعالات. ففي مقدمتها قال الشاعر "تلاكم وخصمه فهزمه، فحاز إعجاب العالم وملايينه"

يقول فيها:

ياسـيدَ "اللكمـات" يَسْـحرُها ذهبـاً، بذهـن منـه مشـبوبِ
نحـن الرعيـةَ.. عشـت مـن مَلِـكٍ بمفـاخر "العضـلاتِ" معصـوب
كـن حيـث أنـت تجئـك صـاغرة دُفـعُ اللهّـى، والزهـو والطيـب
تسـعى لـذي يَطـر وقـد زويـتْ عـن نـابغٍ، أسـيانَ مغلـوب

وفي أواسط السبعينات، حيث كان وفد قد وصل إلى براغ، وأتذكر إنه ضم نعيم حداد ود. مهدي الحافظ وعزيز شريف وآخرين. وفي فندق الانتركونتيننتال، بعد الحديث عن مياه الفرات والتوتر بين سورية والعراق، بدا الجواهري مستفزاً وهنا بادر بالحديث معلقاً على عزيز شريف، بالقول "بيني

وبين الجماعة وكان يقصد نعيم حداد (أبو عروبة) ماصنع الحداد، ومع ذلك فالأمر كما ترى، بعد العجاف السبع (الإشارة إلى سنوات الغربة الاولى) فماذا بينك وبين النظام السوري؟ فامتص عزيز شريف غضب الجواهري بابتسامة وصمت. وبتقديري كان الجواهري وربما آخرون قد يكون من بينهم عزيز شريف أيضاً، ممن يريدون تلطيف الأجواء بين سورية والعراق، بينما كان بعض "الحزبيين البعثيين" يرغبون في تصعيد حدة التوتر تزلفاً للقيادة في العراق، التي تعتبر تلك مسألة مركزية وثابتة في التثقيف السياسي.

بدأ الجواهري يكثر من زيارته إلى دمشق منذ أواخر السبعينات، وخلال الميثاق القومي بين سورية والعراق وجهت له الدعوة من قبل وزارتي الثقافة والارشاد القومي والاعلام، واقيمت له حفلة تكريمية كبرى في سينما الحمراء، وألقت فيها الدكتوره نجاح العطار وزيرة الثقافة كلمة قالت فيها عن الجواهري: "حين نقول الجواهري، نقول كل هذا: المعجزة والصحراء. والكلمة والبدع والسر الذي لا نبلغ أن نأتي بمثله، لا بالملك ولا بالمال أو الجبروت.. مهيباً تراه، عملاقاً كالأسطورة وغريباً كالخارق من الأشياء، على وجهه يتشهى ألق موهبة...". وقد القى الجواهري قصيدته "دلفت إليك":

دلفتُ إليك يفضحني كغوبي	ويسخرُ من شبابي والمشيبِ

ويخاطب نجاح العطار بالقول:

أسيدتي "نجاح" إليك أهدي	تحيات الأديب إلى الأديب
إلى ريحانة الأدب المصفى	ترفُّ بواحة الذهن الخصيب
عرفتُ عميم فضلك من بعيد	وزرتُ كريم نبلك من قريب
وطابقت السَّماعَ على عِيان	وجانست الاهابة بالمهيب

ومنذ أواخر السبعينات عاد الجواهري إلى منفاه وزار عدداً من البلدان العربية واستقر حقبة من الزمن في دمشق بضيافة الرئيس حافظ الأسد وبرعاية

مباشرة من الدكتورة العطار وأحمد اسكندر وزير الاعلام وباهتمام خاص من صابر فلحوط مدير وكالة سانا ونقيب الصحفيين السوريين وصديقه الخاص. وأقام بضعةأشهر خلال عامي ٨١ ـ ١٩٨٢ في أوتيل الشيراتون، وخلال لقاء خاص ضم أحمد اسكندر وصابر فلحوط وافق الجواهري وكان عائداً من عدن على ماأتذكر على الإقامة المتصلة في دمشق تلبية لدعوة كريمة من رئاسة الجمهورية العربية السورية، حيث خصص له قصر في الروضة "فيلا الايراني سابقاً" ليقيم فيها مع عائلته منذ أواسط عام ١٩٨٢.

في أوائل الثمانينات اقتنع الجواهري بزيارة "جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية" بعد دعوات كثيرة وجهت إليه. أخيراً لبى الدعوة وصادف ذلك بعد دعوة خاصة كانت قد وجهت إلينا من رئاسة اليمن، لحضور المؤتمر الذي عقده مجلس السلم العالمي، في عدن بخصوص مخاطر الوجود العسكري في الخليج، وذلك في إطار "اللجنة الوطنية العراقية للسلم والتضامن" وضم الوفد عامر عبد الله والدكتورة نزيهة الدليمي وأنا، وكانت هذه اللجنة قد أعادت نشاطها بعد أن أجرت تعديلات جوهرية على طابع القوى والشخصيات التي تمثلها وسعت لاحتلال مكانها في مجلس السلم العالمي، في حين كانت "المنظمة الرسمية" مازالت ممثلة في المجلس في الوقت الذي رُفض طلب تقدمنا به لقبولنا بحجة عدم ازدواجية التمثيل وتهرّب بعدها شاندرا رئيس المجلس من مقابلة وفدنا بعد حضور الوفد الرسمي الذي رأسه د. عصام عبد علي (وزير التعليم العالي السابق) واقتصرت المقابلة القصيرة معنا على المجاملات.

كان الجواهري يسأل عن الجو في عدن، وعن الطبيعة وعن الكتاب والرئاسة وغيرها. ولقي التشجيع منا على زيارته لاعتبارين الأول لموقف اليمن المشرف آنذاك من المعارضين العراقيين، حيث استقبلت المئات منهم وللتسهيلات التي قدمتها للعمل والدراسة والعلاج والجوازات وغيرها، فضلاً عن مساعدات أخرى. أما الثاني لاعتقادنا بأنها كانت تمثل "نموذجاً" يمكن أن

يتحول باتجاه تحقيق العدالة والتقدم. وما كنا ندري أن ثمة رواسب وعقداً وموروثاً لا يمكن تخطيه بسهولة وبهذه السرعة، فتحولت التجربة إلى دورات اقتتال وعنف وغدر راح ضحيتها بشر وكفاءات وموارد أضرت باليمن الجنوبي كثيراً، والتي حاولت الخروج من أزمتها بالالتئام مع الشمال وللتخلص من حالة الذبول التدريجي لتعود إلى التقسيم الجارح ثم إلى اصطفافات جديدة سبب في مضاعفاتها الاحتراب العشائري والمناطقي والجهوي، وكان عاملاً أساسياً من عوامله قوة التقاليد القديمة والبالية والموروث المتأصل، والمصالح الضيقة والمتضاربة حيث لم يمس التغيير سوى القشرة الفوقية لتدخل القبائلية والعشائرية في صلب الانتماء السياسي ولتفعل فعلها.

ذهب الجواهري إلى عدن وهو محمل بانطباعات أقلها إيجابي وإذا كان ثمة سلبيات فهي للجو الطبيعي ولقسوة الحياة، لكن المحذور قد حدث، فلم يكن أحد من المسؤولين باستقباله واكتفى العراقيون (المنظمة الشيوعية) باستقبال بسيط له من المسؤولين هناك. وعندما أجريت الأتصالات، كانت المبررات تتعلق ببعض الاشكالات داخل اليمن وبالتحديد في اتحاد الكتاب آنذاك، ويبدو ان النار كانت تغلي تحت الرماد كما يقال، حتى اندلعت أحداث ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ وراح ضحيتها نحو ١٠ (عشرة) آلاف قتيل. بصراع "القبائل الماركسية" كما أطلق عليه في حينها.

ورغم ان الجواهري خلد عدن بقصيدة رائعة، لكن مرارته وانطباعاته ظهرت فيما بعد!

من مَوْطن الثلج زحّافاً إلى عدن ... خبت بي الريحُ في مهرٍ بلا رسنِ

كأسي على صهوة منه يصفقها ... ماقيّض الله لي من خلقهِ الحسن

من موطن الثلج من خضر العيون به ... لموطن السمرِ من سمراء ذي يزن

مـن كـل ملتفـة الكشـحين ناعمـةٍ ميـادةٍ مثـل غصـن البَانـةِ اللـدن
ياللتصـابي.. الا ينفـكُّ يجذبـني على الثمانين جذب التـوق بـالعَطن(٧٧)

عندما عاد الجواهري من رحلـة عـدن، بـادرني بالسـؤال بطريقتـه: أهـذه عـدن "الجميلـة"! أهـي اليمـن السـعيد! أهـو حلمكـم الثـوري!! كونـوا إذن حالمين.. ربما.بكوابيس أو سعالي قد تطلع من البحـر.. لا أدري فلسـت أريـد مثل هذا الحلم.. أنا حلمي أخضر وليس رمادياً.. انه عشقي في براغ. قلت له في "موطن الثلج" من"خضر العيون" قال نعم فـأكملت "لموطـن السـمر مـن سمراء ذي يزن" قال "خليها إلك" أي انها من حصتك!!.. فهمـت ان الزيـارة لم تكن موفقة، ومن ثم تداعيات الاستقبال الأول وبعدها علمـت أن الرئيـس السابق علي ناصر محمد لم يستقبله، لأنه كـان في زيـارة خـارج اليمـن، لكنـه عاد قبل يومين من عودة الجواهري إلى دمشق، دون أن يحدد موعداً للقاء.

وبغض النظر عن بعض الملابسات، فقد كـان الجواهـري يقـرأ الأحـداث قبل الآخرين.. أهي فراسة شاعر، أم نباهة متوجـس عركتـه التجربـة وصقلتـه الحياة أم شكوك مثقف يريد أن تدقق كلماته وخطواته وقائع وحقـائق وليـس مجرد شعارات. كان الجواهري كلما غضب على بعض إجراءاتنا يبـدأ بـالتندر على "جماهيرنا" و"أوسع الجماهير" و"من أنتم" والطريقـة الوحيـدة للتخلـص من الدخول في مناقشته وهو بمزاج متكدر، هو الاتفاق معه.. وحتـى الاتفـاق معه لا يكفي أحياناً، ليعود ويناقش مـن الموقـع الآخـر (المضـاد).. كـل ذلـك يضفـي عليـه نكهـة خاصـة، أصبحـت جزءاً مـن شـخصيته وخصوصـاً لمـن يعرفه!!.

ومـن المفارقـات الأخـرى أن وجهـت سـفارة كوريـا الديمقراطيـة دعـوة للجواهري، لزيارة كوريا في الثمانينات والتقاه السكرتير الأول في السفارة في

---

(٧٧) نشرت هذه القصيدة في صحيفة "الثوري" العدنية بتاريخ ١٩٨٢/٣/٦.

براغ بعد دمشق، لترتيب برنامج الزيارة والوقت المناسب والأماكن التي يرغب بزيارتها، مع التسهيلات الكبيرة التي تتضمنها الزيارة.. وبعد حرج حسبما علمت أبدى المسؤول الكوري، رغبته متمنياً على الجواهري بأن ينظم قصيدة بحق "الزعيم المحبوب من أربعين مليون نسمة "كيم ايل سونغ" بالتلميح أو بالاشارة.. وهنا تغيرت مشاعر الجواهري، الذي كان يرغب بزيارة كوريا للاكتشاف والمعرفة، بأن وجه سؤاله إلى ابن أخته السيد رواء الجصاني بالقول "كلي وين تصير كورية"؟ أي أين تقع كورية؟. وكأنه يجهلها، وقام من مقعده منهياً الزيارة للسفارة بالشكر وأبلغهم انه سيتصل بهم لاحقاً.. ولم يتصل وذهبت المحاولات والاتصالات سدىً.

إن حساسية شاعر كالجواهري، لا يفهمها السياسيون على طريقة صاحبنا الكوري وللأسف فهم كثيرون. وباعتقادي لو تمت الدعوة وسافر الجواهري فلابد أن تترك هذه الزيارة تأثيرها عليه، ليحولها فنياً إلى قصيدة، وسيلته للتعبير عن الإحساس بالجمال والامتنان والخير والظواهر الطبيعية والمجتمعية الايجابي منها والسلبي. فمثلاً حين زار بلغاريا بدعوة من اتحاد الأدباء البلغار، أمضى يومين في مصيف فارنا الساحلي على البحر وهزه الميناء الجميل، فنظم قصيدة جميلة بعنوان يومان في "فارنا"(٧٨)

أشرق الفجر فوق "فرنا" فأضفت	فوقهُ سحرها الخفي وأضفى
واستطاب الرمل النديُّ بساطاً	فمشى ناعم الخطى يتكفا
ونديمي وجه صبوحٌ وكأسٌ	غودرت في مزاجه الصرف صرفا
ألـف "الفنُّ" صورة منكِ تنا	هت من الحسن لطفاً وعُنفا

وكذا الحال في قصيدته عند زيارة أثينا "سحا البحر" أو قصائده عند زيارة ايران، التي سبقت الإشارة إليها أو وادي العرائش أو يافا الجميلة:

---

(٧٨) نشرتها صحيفة "الثورة" البغدادية، العدد ١٥٢٢ في ٢ آب (أغسطس) ١٩٧٣.

بـ"يافـا" يـوم حُـط بهـا الركـابُ   تمطـر عـارضٌ ودجـا سـحابُ
ولـفُّ الغـادة الحسـناء ليـلٌ   مريـب الخطـو ليـس بـه شـهاب
وعاريـةَ المحاسـن مغريـاتٍ   بكـف الغيـم خيـط لهـا ثيـاب
كـان الجـو بـين الشـمس تزهـي   وبـين الشـمس غطاهـا نقـاب[79]

ومن المفارقات الأخرى علاقة الجواهري بالشاعر مظفر النواب، فقد كانت تمتاز بالمودة والاعجاب. فالنواب يكنّ احتراماً كبيراً وخاصاً للجواهري ولمنزلته الابداعية والثقافية ولموهبته الشعرية الريادية. والجواهري يعتبر النواب أبرز الشعراء الشعبيين المجددين، كما ينظر باعجاب إلى مواقفه النضالية. وظل حبل الود بين الطرفين متيناً طيلة السنوات الماضية وإن اقتصرت اللقاءات على المناسبات أحياناً في براغ وطرابلس.

بعد خروج مظفر النواب من السجن إثر عملية الهروب الشهيرة التي تم تنظيمها في خريف العام ١٩٦٧ من سجن الحلّة، توجه إلى الريف بعد اختفاء وتنقل للمساهمة في عمليات "الكفاح" المسلح" آنذاك.. وبعد ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨ أعيد إلى وظيفته حيث كان قد فُصل منها بعد ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣، لكنه اضطر للهجرة إلى خارج العراق إثر تجدد عمليات الاعتقال والارهاب.

وفي العام ١٩٧٠ زار مظفر النواب براغ لبضعة أيام وخلال وجوده ضمتنا حفلة في مطعم "اوفليكو" (محل البيرة السوداء الذي احتسى فيه نابليون البيرة عندما احتل براغ في أوائل القرن التاسع عشر. والطريف ان الساعة التي تزين واجهة المطعم قد أوقفت عقاربها وظلت واقفة لحد الآن لتحمل توقيت احتلال نابليون للعاصمة الجيكية وهو تاريخ مشوب بالمرارة) وألقى النواب

---

(٧٩) ألقيت هذه القصيدة بدعوة من المجمع الثقافي بيافا ونشرت في صحيفة "الرأي العام" في ١٦ آذار (مارس) ١٩٤٥.

بعضاً من قصائده في جلسات خاصة وغنى ومعه الصديق الصحفي جعفر ياسين.

التقى مظفر النواب بالجواهري، في مقهى سلوفانسكي دوم الشهير الذي كان مقراً للجواهري، يرتاده كل يوم تقريباً. وهناك دارت الكؤس حيث تزدان براها "براغ" وكأنها "حلم العذراء في يقظتها" جامعة كل الفصول والجمال والحسن والفتنة.

أعلى الحسن ازدهاءً وقعت	أم عليها الحسنُ زهواً وقعا؟
يا لصيف مُمتعٍ لو لم يكن	غيره كان الفصولَ الأربعا
ممطرٍ آناً.. وريانَ الضحى	مُزهرٍ آناً.. وذاوٍ سَرِعا

ثم يصف الجواهري فاتنات براغ في قصيدة آهات بقوله:

مرَّتِ الأسرابُ تترى.. مقطعٌ	من نشيد الصيف يتلو المَقطعا
وتفتحن على رأد الضُحى	حُلماً أشهى، وصحواً أمتعا
وتقاسمن الصبّا متّعته	وشَذاهُ والهوى والمُتعا
وتخففنَ فما زدن على	ما ارتدتْ "حواء" إلا إصبعا
رحْمتا "لابن زُريقٍ" لو رأى	فلَكَ الأزرارِ ماذا إطلعا(٨٠)

في مقهى سلوفانسكي دوم علقت فاتنة من اللواتي يعشقهن الجواهري بالشاعر مظفر النواب، الذي كان وسيماً وما يزال رغم شيخوخته، وهنا انتبه الجواهري للحكاية، فسأل النواب.. بأية لغة تتكلم معها فأجابه النواب "بفرشاة الرسم" وبالمناسبة فالشاعر النواب إضافة إلى كونه شاعراً مجدداً من الطراز الأول وخصوصاً في القصيدة الشعبية العراقية، فإنه رسام وله اذن موسيقية وهو مُغن جميل. وفي يوم من الأيام اقتحم الجواهري خلوته، مداعباً

---

(٨٠) يقصد الجواهري ابن زريق الشاعر العباسي والإشارة الواردة هنا إلى البيت التالي:

استودع الله في بغداد لي قمراً	بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

بملحته الشهيرة بعنوان "فاتنة ورسام" مهداة إلى محمد المصباح الذي عُرف في الحال "مظفر النواب" ونشرت القصيدة بعد حين وضمتها "العيون" أيضاً.

وقال "محمد المصباح" يوماً لفاتنة من الغيد الحسان
من "الجيك" السواحر لست تدري بهن المحصنات من الزواني

فقالت

غداة غد وفي المقهى الفلاني

فقال:

بمرسمي حيث استتمت من الرسم المعاني والمباني

فقالت

لا.. ومن أعطاك ذهناً وعلمك التفنن في البيان
أداة الرسم تحملها سلاحا على فخذيك مشحوذ السنان
ولكن كل ماتبغيه مني خفوتَ الضوء في ضنكِ المكان

والتقى الجواهري كما حدثني أيضاً، النواب مرة أخرى بعد سنوات طويلة، وكان ذلك في ليبيا أواخر الثمانينات، حيث زارها الجواهري، بعد دعوة وجهت له وإلحاح شديد خصوصاً بعد نظم قصيدته ياأمي.. ياعصبة الأمم! لمناسبة العدوان الأمريكي ضد الجماهيرية الليبية التي ألقاها في قاعة المحاضرات الكبرى بمكتبة الأسد يوم ١٩٨٦/٤/١٦ وفي "اسبوع الثقافة العراقية" وقد نشرت لأول مرة في "العيون" وهي مؤلفة من ١٥ بيتاً. يقول فيها:

اني لأسألَ "قادة" أذنا يتخارسون بحجة الصمم
فيم الحياة ـ ترى ـ إذا عَرِيَت من أخذ ثار عن دم بدم؟
يتفرجون على مقابحَهم! إذ يدعون محاسن الشيم
فلئن تعابثت الجيوش بهم فلديهم جيشٌ من الكلمِ

*** عبرة واعتبار:**

لقد هجر الجواهري زيّه التقليدي الأول، لكنه كان محافظاً على لغته وبناء قصيدته، التي تحمل عبق التاريخ وزهو الثقافة العربية ـ الاسلامية واتجه الجواهري إلى اليسار فتحدث عن التجديد والثورة وتحرر المرأة ونشر التعليم والعدل الاجتماعي، قبل أن يكون اليسار قد بدأ خطواته الاولى أو لربما بالتوافق معها.

ومع انه عانى من التمييز الطائفي إلا أن رد فعله لم يكن طائفياً طيلة حياته و لم تعرف الطائفية مكاناً إلى قلبه.

ظل الجواهري متمرداً، ومع ذلك ظلت دواوينه تملأ حتى المكتبات التقليدية المحافظة جداً، والتي لا تحمل سوى كتب الانساب ومختار الصحاح وتاريخ الطبري ودواوين طرفة بن العبد والشعراء الجاهليين، مثلما تتصدر في الوقت نفسه مكتبات حديثة وعصرية إلى جانب بوشكين وتشيخوف ورامبو وروفائيل البرتي ولوركا ونيرودا وغيرهم.

ورغم تمرده ومحاولاته التصدي للموروثات البالية فقد وجد طريقه إلى أكثر وأشد الناس محافظة وتقليدية، حيث لا تستغني أوساط كثيرة عن قراءة قصيدة "آمنت بالحسين" المنقوشة فوق الضريح الطاهر.

ومع انه أحد فحول الشعر العربي الكلاسيكي فإن دعاة "الحداثة" وخصوصاً الحداثة الحقيقية، التي جاءت وليدةَ حاجة فعلية وليست مصطنعة، كانوا يقدّرون مكانته ويعترفون له بالسبق، بل حتى الداعون إلى تفجير الماضي والتنكر له بأخضره ويابسه، بمبدعيه وجواريه، بواحاته وصحاريه، كانوا يصفقون له أيضاً، فأية حاجة تدفع بهؤلاء حيث يرفضون تاريخاً بأكله، ويقفون مع هذا الراكب مهرة امرىء القيس والمرتدي حلّة المتنبي والداعي مثل أبي العلاء المعري، غير الشعر والإبداع والقدرة على التعبير عن حاجات

واقعية وفعلية تتساوق مع التطور رغم انتمائه إلى الشعر الكلاسيكي، خصوصاً وانه ظل وفياً لموهبته عاملاً على صقلها وبلورتها.

ومع ان الجواهري كان مع ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ روحاً وإبداعاً لكنه كان مع فيصل الأول ورجاله، ولم يكن مع قاسم وحكمه بعد تبخر أحلام الثورة. وإذا كان مع قاسم ١٩٥٨، فمن الطبيعي أن لا يكون معه ١٩٦١ ومع انه كان عربياً صميمياً، فقد ملأت دواوينه مكتبات الأكراد أيضاً. وظل غطاء الرأس (الطاقية)، الذي يرتديه (العرقجين وهي كلمة فارسية دارجة في العامية العراقية) مطرزاً بكلمة كردستان، كما كان شعره عنوان التواصل والأخوة العربية - الكردية.

وفي كل مرة كنت أزور فيها الأستاذ جلال الطالباني، سواء في دمشق أو كردستان (منطقة نوكان بالقرب من الحدود العراقية – الايرانية في أعالي الجبال) أو في أربيل أو شقلاوة فيما بعد، كنت أرى دواوين الجواهري تزيّن صدر المكتبة العامرة وكذلك لشخصيات كردية كثيرة.

ومع انه قارب على المائة عام، إلا ان روح الشباب ظلت كامنة فيه، وهكذا ظل عنفوان الشباب يغالب شيخوخته.

نـزق الشـباب عبدتـه   وبرئـت مـن حلـم المشـيب

وهو المنشد في جمع طلابي وشبابي:

أزف الموعـد والوعـد يعـنّ   والغـد الحلـو لاهليـه يحـن

البديـع المبـدع أن يلحقكـم   في مضامـير الصبـا عـود مسـن

وما زال لسان حاله يردد عشقه الأبدي للنساء واحتفاءه بهن في كل الأوقات، زينة المجلس التي لا يحلو السمر من دونهن

حبيتهـن بعيـد هنـه   مـن بيضهـن وسـود هنـه

وحمـــــدت شـــعري أن يــــرو   حَ قلائـــــداً لعقـــود هنـــــه[٨١]

ومع كونه عراقياً صميمياً ورائداً من رواد الوطنية الاولى، فهو في الوقـت نفسه شاعر العرب الأكبر، عربي العقل والهوى والمشاعر، تتلقفه العواصم العربية وتفاخر به، غير آبهة بعراقيته المتميزة والمتحسسة.

الجواهري خارج قواعـد التصنيف التقليدية، الوطنية والقومية والدينية والمذهبية والمدينية والعشائرية والجهوية.. انه شاعر تجاوز زمانه ومكانه وتلك ميزته الاولى وخطوته الواثقة في سلم المجد!

---

(٨١) انظر البيت الأول من قصيدة "لبنان ياخمري وطيبي" التي نظمها عام ١٩٦١ تكريماً للشاعر الكبير بشارة الخوري (الأخطل الصغير). أما البيت الثاني فهو من قصيدة "أزف الموعد" التي ألقاها في مؤتمر اتحاد الطلبة العام في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٥٩ في قاعة سينما الخيام ببغداد. أما البيتان التاليان، فهما من قصيدة "حييتهن بعيدهن" التي القاها في براغ بمناسبة يوم المرأة العالمي ٨ آذار (مارس) العام ١٩٦٢.

الفصل الرابع

حوارات ولقاءات

* ولادة القصيدة وهبوط اللحظة الشعرية

* أبا فرات.. كيف تولد القصيدة لديك!؟

** بولادة القصيدة، أشعر إنني أولد من جديد. قد تكون ولادة عسرة، ومع كل قصيدة أشعر انني أكتب الشعر لأول مرة. (أي وا لله) وأتعجب من ذلك، مثلما هو البطل المسرحي حين يواجه الجمهور. ففي كل مرة يشعر بالرهبة. وحين تكتمل القصيدة أشعر بالنشوة. وبالمناسبة فانني أغني وألحن القصيدة. كنت قد اعتدت على ذلك في النجف منذ البدايات. فحين كانت تداهمني القصيدة، أنزل إلى السرداب (القبو)، أحدو ثم أطرب وأدخل بعدها في ملكوت الشعر، في عالمه السحري وعندما يكتمل البناء متحملاً بالشكل أعود إلى نفسي وأضحك معها أحياناً.. أحقاً انني كنت هنا!!.

يخيل لي وأنا أرقص في باحة القصيدة ان شيئاً من الجنون قد مسّني أو ان نوعاً من الخبل قد اعتراني. إن شيئاً ما يحدث لا أعرف كنهه حين تنتابني

الحالة وأدخل مملكة الشعر. أحياناً تراودني حالة هيجان وصراخ حتى تهدأ روحي باكتمال الولادة. في بغداد كان جارنا السيد محمد نجيب الربيعي رئيس مجلس السيادة العراقي بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ يتعجب هو وأهله على الذي يجري في بيتنا أحياناً إذا ماصادف وداهمتني القصيدة. وعندما كانت شياطين الشعر أو ملائكة الفن تنزل علي فلا أريد لأحد أن يقطع سلسلة أفكاري وإلا أنفجر، أريد عالمي الخاص لا أريد لأي كان أن يشاركني فيه، حتى العائلة أدعوها لتذهب لأي مكان.

* لكن كيف تكوّنت شاعريتك؟! وكيف صُقلت؟

** الشاعرية تولد في الارحام مذ كنت جنيناً، كنت أسكن في حضرة الشعر. بيتٌ شعري كان يمسك بقيثارته أكثر من رمز وكاد الشعر يتملكني منذ الصغر ورغم ان العائلة كانت ترغب بأن أدرس الفقه، إلا ان الشعر تمكن مني. كنت حفظت دواوين كثير من الشعراء فقد كان برنامجي اليومي هو "حفظ الشعر" حفظت ديوان أبي العلاء المعري وكنت شديد الاعجاب بالبحتري وقرأت البيان والتبيين وكذلك كتب ابن المقفع وغيرها. ولم يكن عمري يزيد على ١٢ عاماً كان شعوري مذ كنت طفلاً انني أحلّق في فضاءات أخرى وأطير إلى عوالم جديدة.

* أبا فرات... كيف تهبط عليك القصيدة؟ ثم كيف تظهر بعد ذلك!؟

** الأمر مختلف حسب المكان والزمان. لكن الاستلهام الذاتي مهم جداً، كما يفعل الرسام حين يستخدم الألوان ويطوّع الريشة. أو كما يفعل الروائي حين يصف المكان ويبني شخصياته وحبكته الدرامية... الأمر يلاحقني حتى يكاد يهبط علي بدون إرادة. فتراني أغنّي بحرقة وحرارة. وحين تأتيني إشارة (غامضة) أتفجر غضباً ويملأ المكان جنوني. ورغم أنني قريب من السياسيين، إلا انني لست سياسياً بالمعنى المألوف (الاحترافي)، فأنا لا أعرف التكتيك أو

"الدبلوماسية"، أقول قصيدتي وأمشي، وليكن مايكون. أتريدني أن اقول لـك يأتيني "الوحي"؟ لا أدري ماذا أسميه؟ فقد تفجرت "دجلة الخير" بملحميتها المعروفة، كلها في ليلة واحدة في براغ. تصور ليلة واحدة تفجر في داخلي ينبوع لا يرضى بالتوقف، حتى اكتملت... فماذا تسمي ذلك!؟

حَيَّيتُ سفحَكِ عن بعدٍ فحييِّني	يا دجلةَ الخير يا أمَّ البساتين
حييتُ سفحَكِ ضمآناً ألوذُ به	لوذ الحمائم بين الماء والطين
يادجلة الخير يانبعاً أفارقُهُ	على الكراهة بين الحين والحين
انسي وردتُ عُيونَ الماء صافيةً	نبعاً فنبعاً فما كانت لترويني

* المتناقضات الاجتماعية، البيئة النجفية، التقاليد القاسية،. كيف انعكست عليك وأنت تتخطى الحواجز والمحرمات؟

** بالطبع فإن تلك القيود الثقيلة تركت تأثيراتها. لكنني استفدت من الخيال القرآني الذي يفرضه الوسط الديني، فهو يحضرني باستمرار ولا أستطيع الفكاك منه. فهو جميل ومغر في الوقت ذاته. "جنة تجري من تحتها الأنهار" تصورا، "الحور الحسان"، و"طور سنين وهذا البلد الأمين" والتين، والزيتون والعنب وما تشتهي، كان هذا هو الأفق الذي أصبو إليه، حتى إذا ماذهبت إلى ايران للاصطياف لأول مرة في العشرينات كانت الجبال الشاهقة تهزني. أما البيئة النجفية فكانت وراء قصائدي. فالحرمانات والتزمت ولّدت لدي مفهوماً إنسانياً نقيضاً ورغبة في التغيير، وهو مارافق قصائدي. ولابد هنا من الاشارة إلى الفسيفساء الحضاري والثقافي لمدينة النجف، بحكم الاختلاط لأقوام وشعوب وآداب متنوعة.

* ابا فرات.. هل تكون مأزوماً حين تأتيك اللحظة الشعرية؟

** التأزم خاصية الشاعر، خصوصاً المبدع، المتميز. خذ مثلاً دعبل الخزاعي، ابن الرومي، المتنبي، الرصافي. أشعر إن في داخلي غضباً خلاقاً،

نتيجة تأزم عارم وجارف ومضيء. حتى في الغزل تكاد تتلمس حرارتي. وأنا أقول قصيدة غزل، فتراني عاشقاً مولهاً بكل معنى الكلمة.

* التناقض وسمة التحدي!

* أعود إلى التناقض، فهل هي سمة ملازمة للجواهري؟ فمن قصائد الاقتحام الثورية إلى قصائد المديح، أم أن "حب الحياة بحب الموت يغريني" على حد قولك.. كيف تجعل حب الحياة متلازماً بحب الموت!؟ هل هو ديالكتيك الطبيعة، كما نسميه أم ماذا؟

** أنا ابن المتناقضات والتعارضات على كل المستويات. وأرغب في أن يقرأني الناس، ويعرفوني بذلك. لانني ولدت في بيئة متناقضة، ولذلك ترى الصعود والنزول وهي حالة إنسانية، ولكنني رغم ذلك لم أكتب يوماً بهدف الانتفاع، أو المديح لغرض الحصول على الكسب، ولو فعلت ذلك لكنت اعترفت به صراحة دون وجل أو خوف من أحد.

إذا كان "الجواهري" يُعرف بالشاعر الناري، الثوري، الاقتحامي، المتوثب، فأنا قمت بكتابة سبع قصائد بحق الملك فيصل الأول. وفعلت ذلك بإرادتي ودون رغبة في الحصول على طمع أو جاه أو مال. أنا قمت بذلك، لأنني كنت أعتقد بذلك وشعرت إنني أوفي ديناً في عنقي، خصوصاً وانه وقف معي، ضد النعرات العصبية والطائفية، التي حاولت النيل مني ومن انتمائي الوطني. ولهذا رداً للجميل، قلت ماقلت في الملك الجليل، انتصاراً للحق بعد حادثة ساطع الحصري الشهيرة. وهذا الشعور الذي صاحبني كان إحساساً بالجميل وعمل الخير.

وفي الوقت نفسه ضقت ذرعاً بالبلاط الملكي، الذي لم يسعني وتركت النيابة وفرّطت بالوزارة، التي كانت الاشارات تأتيني لدخولها كمرحلة لاحقة، فقد قررت الوقوف في صف الناس مرة واحدة وإلى الأبد. وقررت أن أكون

شاعراً لا وزيراً أو حتى رئيساً للـوزراء. وكـان بعـض مـن لبـس العمامـة قـد وصل إلى الوزارة، في حين انني نزعت العمامة بقناعة ورفضت عوامل الرخـاء والاغراء والسلطة والابهة والمنافع واخترت أن أكون محمد مهدي الجواهـري. اخترت الشعر وكسبت نفسي والعالم، وهكذا سار شلال حياتي.

كان الخروج من الدائرة الصعبة (البلاط) يسبب احراجاً لي. كان بقـائي، يعني اندثاري. وفي خروجي وجدت عوالم فسـيحة، ضاجة بالحياة والحركـة والتناقض أيضاً

عجيـــبٌ أمـــرك الرجـــرا	ج لا جنفـــاً ولا صـــددا
تضيـــقُ بعيشـــة رغـــد	وتهـــوى العيشـــة الرغـــدا
ولا تقـــــوى مصـــــامدة	وتعبُـــدُ. كـــل مـــن صمـــدا

أليس عجيباً هذا التناقض. دخلت المجلس النيابي وأنا بعمر ٢٩ سنة (قبـل السـن القـانوني) وتعرضـت خـلال حيـاتي لحمـلات شـتم لاذع، دنـاءات وأراجيف، لكن ذلك ديدني في الحياة، حيث كنت متحدّياً، معتداً بنفسي:

أزح عـــن صـــدرِكَ الزّبـــدا	ودعـــهُ يبـــث مـــاوجدا

إلى أن أقول:

أأنـــت تخـــاف مـــن أحـــد	أأنـــت مصـــانعٌ أحـــدا
أتخشـــى النـــاس أشـــجعهمْ	يخـــافك مغضبـــاً حَـــردا
ولا يعلـــــوك خـــــيرهمُ	ولســـتَ بخـــيرهم أبـــداً

* تعرض الجواهـري خـلال حياتـه إلى حملتـين كبـيرتين حسـب الكـاتب حسن العلوي الاولى ترافقت مع الأيام الاولى لبدء تدفق النفط للتصدير في بئر باباكركر (كركوك) ١٩٢٧ حين كان شاباً، متمرداً، اسـتهدفوا نـزع هويتـه الوطنية والقومية، والثانية بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، حـين اعتـبر في مقدمـة معسكر اليسار العراقي، لكن التحدي كان ملازماً لأبي فرات؟ هل انك تفكر

في اختيار خصومك؟ وكيف تحدد المعركة؟ وماهي شروطها؟ أم ان المعركة كانت تُفرض عليك!؟

** أنا أعيش في صميم الاحداث. أتأثر بها وأؤثر فيها. فأنا من الناس. وما كانوا يتأثرون به، أتفاعل معهم، وأحاول أن أعبر عن تأثرهم بطريقتين. عندما حدثت وثبة كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، ضد معاهدة بورتسموث، ووقعت معركة الجسر الشهيرة، وسقط أخي جعفر، الذي استشهد كنت أجد نفسي بعد سبعة أيام، وفي جامع الحيدر خانه (١٤ شباط/ فبراير) اقرأ:

أتعلم أم أنت لا تعلمُ — بأن جراح الضحايا فمُ

فمٌ ليس كالمدعي قولةً — وليس كآخر يسترحم

يصيحُ على الموقعين الجياع — أريقوا دماءكمُ تطعموا

ويهتفُ بالنفر المهطعين — أهينوا لئامكم تكرموا

الفترة التي سبقت ثورة ١٤ تموز كانت حامية، حيث فُرضت الأحكام العرفية وأعدم بعض القيادات اليسارية لأول مرة (فهد وصحبه) وتم تأسيس الحلف التركي ـ الباكستاني ومركزه بغداد، والذي عرف باسم "حلف بغداد" بدعم من الغرب. كان التوتر والمواجهة ملازمة لتلك الفترة. وأشهد با لله، أن بعض الهوامش كانت غير قليلة قياساً للعهود التي تلت ذلك.

قصيدة هاشم الوتري "ايه عميد الدار" في حزيران (يونيو) ١٩٤٩ أثارت ضجة كبرى ولها قصة خاصة، فقد ألقيت بمناسبة انتخاب الدكتور هاشم الوتري (وهو عميد الكلية الطبية العراقية) عضواً للشرف في الجمعية الطبية البريطانية. وكان الجو السياسي محتدماً وجاءتني الدعوة للمشاركة، لكنني تظاهرت بعدم القبول، ولكنني كنت أرقص وراء التلفون وكنت أقول جاءت "ياهله بيهه"، فقد كنت قد عزمت على المواجهة. وعلى سطح الدار كنت منبطحاً، وأحدو، كما هي عادتي، وعندما وصلت المورد الذي يبدأ بـ"ايه

عميد الدار شكوى صاحب   طفحت لواعجه، فناجى صاحبا" حتى هتفت زوجتي "أم نجاح" (عوافي أبو فرات.. أكلْه) باللهجة العراقية.أي تلقّاها. ليكن مايكون وأنت تدخل المعركة وتقبل التحدي. حتى أقول:

حشدوا عليّ المغريات مسيلة   صغراً لُعابُ الأرذلينَ رغائبا
بالكأس يقرعها نديمٌ مالئاً   بالوعد منها الحافتين وقاطبا
وبتلكم الخلوات تمسخ عندها   تَلَعُ الرقاب من الضباء ثعالبا
وبأن أروح ضحىً "وزيراً" مثلما   أصبحتُ عن أمر بليل "نائبا"
ظناً بأن يدي تَمَدُّ لتشتري   سقط المتاع، وأن ابيع مواهبا

أو قصيدتي في القاهرة عام ١٩٥١:

"خلي الدم الغالي يسيل   إن المَسيل هو القتيلُ
هذا الدمُ المطلولُ يخـ   ـتصر الطريقُ به الطويلُ"

أو قصيدتي في مؤتمر المحامين العرب، الذي انعقد في بغداد في العام ذاته، والتي أثارت ردود فعل حادة من جانب الحكومة العراقية، حيث أقامت الدعوى على مدير الصحيفة المسؤول المحامي عبد الرزاق الشيخلي، كما أقامتها علي، لكنه تم الافراج عنا. ومنها:

سلامٌ على جاعلينَ الحتو   فَ جسراً إلى الموكب العابرِ
سلامٌ على مُثقلٍ بالحديد   ويشمخُ كالقائدِ الظافرِ
كأن القيودَ على معصميه   مفاتيحُ مستقبلٍ زاهرِ

أو القصيدة التي ألقيتها في دمشق بمناسبة الاحتفال التأبيني للشهيد عدنان المالكي عام ١٩٥٦، واضطررت بعدها إلى البقاء في دمشق، لما أثارته من إشكالات والتي أقول فيها:

خلفتُ غاشية الخنوع ورائي   وأتيتُ أقبسُ جمرة الشهداءِ

إلى أن أقول:

أضحيـة الحلـف الهجـين بشـارة ... لـكَ في تكشـفو سـوءة الهجنـاء

إسطورة "الأحلاف" سوف يمجّها التا ... ريـخ مثـل خرافـة "الحلفـاء"

أعود إلى سؤالك، هـذه العنـاصر كلهـا ميـدان للتحـدي. ولكـل قصيـدة ظروفها ونشأتها. لكنني أنا بطبعي حاد ومتأزم ومتوتر كمـا أخـبرتك، وكمـا تعرفني، وهو ماينعكس على حالتي لرد الفعل. أحياناً يلتقي توتـري الشـخصي مع التوتر السياسي، فـتراني أهلـل في داخلـي، اقـول قصيـدتـي وليأتِ بعدهـا الطوفان. ورغم الإساءات ومحـاولات النيـل مـني، فأنـا القـائل عـن نفسـي أو مخاطباً نفسي، متحدياً:

تسـامي فـانك خـير النفـوس ... إذا قيـس كـل علـى مـاانطوى

وأحسـن مـافيك ان الضمـير ... يصيح مـن القلـب: انـي هنـا!

أنا أبدأ المعركة، أفرضهـا عليهـم، ومـن لا يسـتحق أن يكـون خصمـاً لي أهمله، ماذا تريد أن تقول إنني مغرور، متعالٍ.. نعم فأنـا ارفـض أن أنـزل إلى ساحة معركة لا يتمتع بها الخصم أو العدو، بالمؤهلات، التي تجعله خصمـاً أو عدواً لي. وبحضـور كبـار مسؤولي الدولـة في حفـل تكريـم الدكتـور هاشـم الوتري قلت واصابعي تؤشر إلى المقاعد الأمامية:

أنـا حتفهـم ألج البيـوتَ عليهـم ... أغـري الوليـدَ بشـتمهمْ والحاجبـا

خسـئوا: فلـم تـزلِ الرجولـةَ حُـرة ... تـأبى لهـا غـير الأمـاثلِ خاطبـا

والأمثلـون هـمُ السَّـوادُ: فديتهـمْ ... بـالأرذلين مـن الشُـراةِ مناصبـا

بمملكـين الاجنـبي نفوسـهُمْ ... ومصعدينَ علـى الجمـوعِ مناكبـا

وكانت إيذاناً لمعركة كبرى، خصوصاً وانني كنـت أشـعر بأزمـة نفسـية، فالتقطت الأزمة السياسية، لكي أعبّر عن الأزمتين.

* هل لي ياشاعرنا الكبـير أن اسـأل عـن الأزمـة النفسـية؟ هـل يمكـن أن توضح؟

** كنت قد وصلت إلى حافة الفقر الحقيقي. ولم أكن أجد مايسدّ الرمق مع العائلة. وكنا نستدين، لنأكل، بسبب الحصار، الذي فرضه الحكام عليّ، بسبب مواقفي، فقررت أن ارفع صوتي، لأقرعهم ولأدعو للاجهاز عليهم، والثورة ضدهم. ولا أخفيك سراً إذا قلت لك ان زوجتي "أم نجاح" قالت ربما مسّه شيء من الجنون، وهي تعرف انني قررت الاقتحام. وكنت قد حضّرت نفسي للاعتقال بعد إلقاء تلك القصيدة. ولكنني عندما وصلت استقبلني حاكم التحقيق، وهنا كانت الدهشة، أو المفاجأة، عندما أخبرني، انه معجب بشعري. ليس هذا فحسب، بل انه يحفظ بعض أشعاري. وهنا فتح أدراج مكتبه، وأطلعني على بعض القصائد المحفوظة في ملف خاص، كان قد تم "كبسها" اي وضع اليد عليها، عند مداهمة بيوت الشيوعيين واليساريين، باعتبارها أحد المستمسكات الجرمية. وأتذكر قصيدة "عالم الغد" التي كانوا يتغنون بها، كانت ضمن الملف.

ورغم الضجة التي عملتها قصيدة هاشم الوتري "ايه عميد الدار"، فقد استبقوني في التوقيف "فقط" وذلك من باب "الاحتراز" وبكل احترام وأدب. وأقولها الآن ان وزراء ذلك الزمان وساسته، لم يكونوا من النوع الذي يستمرىء كتابة التقارير أو الظهور بمظهر القبح، الذي نصادفه هذه الأيام، ويكاد يكون إحد المشاهد المفتعلة أو الملفقة، ولكنها المأساوية. واقولها الآن، رغم انني ناصبت الحكام العداء، الا ان الوحيد، الذي تجرأ على وضع القيد في يدي كان "الزعيم" عبد الكريم قاسم.

* قبل أن اسأل عن المماحكة مع عبد الكريم قاسم، هل حدث مايشبه الفجوة أو الفراغ في موقفك خلال قصيدة "التتويج" أيار ١٩٥٣ لنقل بوضوح أكثر، انها خارج السياق، وهو ماحاول الخصوم النفاذ منه. هل لك أن تبين ملابسات الموقف للقراء!؟

** قلت لك، انني تركت "المناصب" واخترت الشعر ومعه الصحافة. وفي كل ماقلت وما كتبت لم أغتصب ضميري، ولم أشعر انني أقول عكس قناعاتي. مع ان هذه القناعات تتغير بالطبع، أستثني من ذلك مرة واحدة، فقد "اغتصبت ضميري" بكتابة قصيدة مدح عند تتويج الملك فيصل الثاني، لكنني بعد أيام عدت فكتبت قصيدة "كفّارة وندم" وهي ملحمة شعرية ذاتية، وكأنني أريد أن اعلن براءتي، بعد مراجعة قاسية للنفس في الخمسينات.

ستبقى - ويَفنى نيزكٌ وشهابُ -   عروقُ أبيّات الدِّماء غضابُ

وبعد نحو عام كتبت:

خبت للشعر أنفاسُ   أم اشتط بك الياسُ

كهذا كان خياري مع الناس، ضد الحاكمين ولم اشأ أن تؤثر تلك الكبوة على مساري المعروف وبجرأة وشجاعة واجهت الموقف.

* ولكنك ياأبا فرات، عدت وكتبت قصيدة لابن البكر (الرئيس العراقي السابق) محمد. وكذلك كتبت قصيدة للبكر وصدام. بم تفسر ذلك؟ وكيف تبرر مايذهب إليه الخصوم؟

** الجماعة كرّموني في حينها، وعوملت بشكل خاص. وقد كتبت بدافع "الوحدة الوطنية" والتئام الشمل، بل ان ظروف المرحلة والواقع السياسي، كان يفرض بعض التوجهات. ولم أكن في حينها خارج مزاجي وطموحي. أما حول الشاب "محمد" نجل الرئيس البكر، فقد قتل في حادث سيارة. وقد ربطتني به علاقة خاصة، ولم أقل كلمة واحدة يشمّ منها رائحة التملق وكتبت رثائية له عام ١٩٧٨.

تعجل بشر طلعتك الافولُ   وغال شبابك الموعود غولُ

***هجائيـــات**

* هجائيات الجواهري نارية، كما هو في حبه أيضاً، هل تعطينا أبا فرات صورة عن تلك الهجومات ضد تهجمات الأعداء والخصوم..؟

** أعتقـد ان القصـائد ذاتها تعطي هـذه الصـورة. ففـي قصيـدة هاشـم الوتري، رأيت كيف اضع الخصوم في زاوية، وأوجـه السـهام عليهـم. وكـان أقطاب الحكم قد أُخذوا أخذ الذين كفـروا. وقـد مضيـت في إلقـاء القصيـدة حتى النهاية. أما لو كنا في هذه الأيام، فقد يكون مـن البيتـين الأولـين، يُـنزل الشاعر أو الخطيـب وقـد يغيـب. بعـد أن أكملـت القصيـدة، مزقـت أوراقـي ورميتها. وغادرت وإذا بي في معتقلي، في مديرية التحقيقـات الجنائيـة، أفاجـأ بوفد من الشباب المتنور ومعه "قصاصات من القصيـدة الممزقـة، بحموعـة مـن حديقة المسبح الذي شهد الاحتفال".

خذ قصيدة "كما يستكلب الذيبُ" بعـد أن أغـرى فريـق مـن الحـاكمين بعض طلاب المجد الكاذب مـن المـأجورين والحاسـدين لشتمي فكتبـت هـذه القصيدة، التي أقول فيها:

عـدا علـيّ كمـا يسـتكلبُ الذيـبُ ... خلـقٌ ببغـدادَ أنمـاطٌ أعـاجيب

وبعد هذا المطلع أقول:

تسعون كلبـاً عـوى خلفـي وفوقهـم ... ضـوء مـن القمـر المنبـوح مسـكوبُ

وقبل ألفٍ عوى ألفٌ فمـا انتقصتْ ... "أبـا محسّـد" بالشـتم الاعـاريب

أو كما قلت في قصيدة ياابن الثمانين:

يا "ابن الثمانين" كم عولجت مـن غصَص ... بالمغريـات فلـم تشـرق، ولم تمِـلِ

كم هزّ دوحـك مـن "قـزم" يطاولـهُ ... فلـم ينلـه، ولم تقصـر، ولم يَطُـلِ

وكم سعت "إمّعـات" أن يكـون لهـا ... ماثار حولـك مـن لغـو، ومـن جَـدلِ

ثبتَ جَنانك للبلوى، فقد نصبت   لك الكمائنُ من غدرٍ، ومن ختَلِ

* جنرال وشاعر:

* أبو فرات، نعود إلى العلاقة مع "الزعيم" عبد الكريم قاسم وقصة المنفى!

** من أكثر القضايا إثارة، هو علاقة شاعر بجنرال قائد ثورة أو انقلاب. تعرفت على عبد الكريم قاسم في لندن. وقد رافقني إلى طبيب الأسنان، لمعالجة أسناني، عندما كان هو في دورة عسكرية. والتقيته في السفارة العراقية آنذاك. ومرت الأيام وسمعت بنبأ "الثورة" وإذا بي أفاجأ بصورة رجل كنت قد نسيت ملامحه، فإذا به "الزعيم" الذي أطلق عليه "الأوحد" فيما بعد، وركبه الغرور حد التعسف.

يمكن أن تتعجب إذا قلت لك ان "الزعيم" كان كثير التهيب في علاقته مع الأدباء وكان أول بيت زاره في العراق، بعد الثورة، هو بيتي وقد تكررت الزيارات. وعندما بدأت الأمور تسوء وبدأ يركب رأسه وينفرد بكل شيء كتبت مقالة في الصحيفة التي كنت أصدرها "الرأي العام" بعنوان: ماذا يجري في الميمونة؟ والميمونة قرية في جنوب العراق تعرضت لهجوم بوليسي، انتهكت فيه الأعراض. وصادف أن قابلنا الزعيم عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع، باسم الهيئة الادارية لاتحاد الأدباء وكان يحضر معي السيد الحبوبي، والدكتور صلاح خالص والفنان يوسف العاني والدكتور المخزومي والدكتور علي جواد الطاهر. وإذا بالزعيم يخاطبني " استاذ الجواهري: ماذا يجري في الميمونة؟..." وقد كنت أخشى مثل هذه المواجهة لأنني كنت أتحاشاها، ولم أحدد المعركة بعد. فأجبت بأدب وقلت له "سيدي الزعيم أنا لا أستطيع أن أدافع عن نفسي كثيراً في هذا الموضوع" أسألك فقط سؤالاً واحداً، هنّ بناتك وأظنهن جئن إليك وعرضن ماتعرضن له..." بمعنى انني لم أكتب ذلك

عبثاً. وقد أحرج "الزعيم" فهو لا يستطيع أن يقول لي نعم ولا يرغب أن يقول لي: لا. وأخذ يتهرب. والغلطة الكبرى التي ارتكبتها حين قلت له "أثورة وبشرطة نوري السعيد؟" فخرج عن حلمه لأول مرة. وبدون تفكير منه حسبما أظن قال لي: أنت من بقايا نوري السعيد! كان يفترض بي أن اقول له، أنا فلان، أول من كنت تحاول مصاحبته في لندن، وأول من زرته في البيت، وقد كنت آنذاك أنا الغالب في هذه المعركة، لكنني لم أقل له ذلك، بل قلت له هل تأذن لي بالخروج ياسيادة الزعيم؟ وأردفت بالقول بما نصّه: "أتحداك وأمام الجالسين... أتحداك وأشرت له باصبعي.. نعم أتحداك مرة أخرى..." وأعتقد انني أرفقتها بيا سيادة الزعيم عبد الكريم.

* وهل كانت هذه الحادثة، هي السبب في مغادرة العراق.. إلى المنفى؟

** رب ضارة نافعة، مثلما يقولون. رحم الله عبد الكريم قاسم، فلو لم تكن له معنا هذه القصة، فقد كنا قبعنا في العراق، والله العالم ماكان سيحدث لنا في السنوات السوداء. لكنه اضطرنا إلى "التشرد" عن الوطن في خريف ١٩٦١، وربما للتشرد الموعود وهي حسنة وربما كفّارة عن كل مافعله معنا، قبل التشرد أنا وزوجتي "أم نجاح" وبنتينا خيال وظلال. وكنت بحكم علاقاتي مع اتحادات الأدباء، ونقابات الصحفيين في الدول الاشتراكية فقد أمّنت مقاعد دراسية لأبنائي في صوفيا وموسكو وباكو وبراغ، جزاهم الله ألف خير. وكهذا كان مصير فرات وفلاح ونجاح وكفاح. رحم الله عبد الكريم قاسم، حين رمانا خلف الحدود وكأننا "يردُّ إلى الأمصار عجلى ترزم".

* زمهرير الغربة أم فردوس الحرية

* إذا كان قاسم زعيم السلطة السياسية، فأنت زعيم السلطة الثقافية في العراق، على حد تعبير حسن العلوي. رئيس اتحاد الأدباء ورئيساً لنقابة

الصحفيين وشاعر العرب الأكبر كما تكنّى! كيف عشت خلف الحدود؟ ماذا كان هناك؟ زمهرير الغربة أم فردوس الحرية؟

** الاثنان معاً.. كان هناك الفردوس المفقود والموعود معاً. كانت براغ الذهبية، مدينة الابراج والجمال. صحيح اننا دفعنا أثماناً باهظة من كراماتنا المهانة، ومن شماتة الشامتين، وتشفّي المتشفين، ولكننا مع جفاف الغربة، كسبنا حريتنا وحلاوة الحياة!

* وهل تفكر بجسد المرأة عند كتابة القصيدة؟

** في براغ كتبت قطعة شعرية أسميتها زوربا، وهي مستوحاة من رواية "زوربا" كان ذلك عام ١٩٦٩. ومما قلته:

وارتمت من شفقٍ دامٍ
على الأرض جراحٌ...
وجراحْ
وتهاوت فوقه..
من مِزَقِ الغيم...
صبيّاتٌ ملاحْ

إن الذي أطمح إليه تحت السطح، هو الأعمق والأغزر والأبهى.. انه النشوة الروحية، وهي حالة الحب، التي تسكن الروح والعقل. ولقاء العقل والروح والجسد، يعطي ملمحاً آخر للنشوة والسعادة والحب. وإذا كان زوربا، يحب الحياة، ويريد الاستمتاع بكل دقيقة فيها، فأنا اريد أن اتنفس بملء رئتيّ كل لحظة وليس كل دقيقة. أريدها لحظة جنونية بكل محتوياتها. والمرأة عندي صورة الفرح الذي يتذهب مثل وهج الشمس. كنت كهذا وقد أعطتنا براغ الكثير وقلت فيها:

أطلتِ الشوطَ من عُمُري أطالَ اللهَ من عُمرك

ولا بُلغـــتُ بالشــرِّ ولا بالســوء مــن خــبيرك

* معشوقات الجواهري:

* هل لنا أن نتحدث عن نساء الجواهري! معشوقاته.. أنيتا الباريسية وبارينا البوهيمية وماروشكا التشيكية!؟، هل ندخل الخصوصيات أبا فرات؟

** أنت ترمي شباكك وتستنطقني، بالطبع بما أحبه. فأنيتا من بنات السين من باريس لها عينان زرقاوان، كزرقة السماء أو البحر، في وجهها شحوب خفيف وعندما كانت تحتسي كأس الكونياك، كانت خدودها تتورد! استهوتني وأنا جالس في مقهى. فأخبرني أحد الطلاب العرب، بأنها كانت تتابعني، وانها سمعت عني الكثير، وهي معجبة. وكانت نظرتي تنم عن ارتياح لا يخفيه شيء. لقد ابدت رغبة في التعرف بي. وصاحبتها مدة من الزمن. وكانت هي سبباً في محاولتي تعلّم الفرنسية. وكان ذلك مدخلاً لما سيأتي. وصل حبي معها إلى الجنون. وكانت هذه المرأة غريبة الأطوار وتحمل المتناقضات.. ليست تماثلني في المتناقضات، بل في الاختلاف والتكامل، الذي يصل حد الشذوذ والغرابة. كانت امرأة كورسيكية (من مقاطعة بين إيطاليا وفرنسا) فيها بعض العادات القديمة. كانت صادقة، وكعادة الاوروبيين في ذلك الزمان، تحاول الايحاء، فإذا لم تستطع تلبية الموعد أو الطلب، تقول "ربما" وعليك أن تفهم، انها لا ترغب في الكذب. كنا نتفاهم ببعض الكلمات الفرنسية، إضافة إلى الانكليزية، التي كان إلمامها بها مثل إلمامي وهو ماساعدنا على الانطلاق، ومحاولة إفهام كل طرف للطرف الآخر. واستمرت العلاقة ثم انقطعت وتواصلت. ورغم انني كنت من جانبي مستمراً في حبي، إلا انها بدأت تخفت تدريجياً. وعندها عرفت أن النسخة الأصلية ضاعت ويمعنى عليك البحث عن بدل ضائع!

* هل كتبت فيها شعراً؟ وهل إن قصيدة أنيتا هي لها؟

** نعم كانت ملحمة آنيتا

انـي وجـدت "انيـتـ" لاحَ يهُزنـي — طيـفٌ لوجهـك رائـع القسـمات
ألق "الجبين" أكاد أمسـح سطحه! — بفمـي، وأنشِق عطـره بشـذاتي

إلى أن أقول:

حسبي وحسـبك شـقوةً وعبـادةً — أن ليس تفرغَ منك كأسُ حياتي

* وبالمناسبة فقد نشر شاعرنا الجواهري هذه القصيدة التي كتبت في أواخر عام ١٩٤٨ وأوائل عـام ١٩٤٩ بالمقدمة التالية "كان حباً عارماً لا يريد ـ ولا يقدر لو أراد ـ ان يقف عند حد. وكان كأنه يتفجر عن "ينبوع" خفي ثجّاج.. وكان سر الخفاء في هذا الينبوع.. رغبات! وآلام! ومطامح!.. ظلت طوال ثلاثين عاماً، هي عصارة العمر الزاحف! يسحق بعضها بعضاً..!. حتى لو وجد هذا الينبوع المختنق منفذاً بديلاً عنه لما اختلف الأمر بكثير!. لقد كان هذا الحب من "الفورة" و"السورة" بدرجة أن صاحبه كان لا يرى في ملامح المرأة التي أحب إلا مايراه العازف المتجرد في أنغام قيثارته من أنها طريق للتعبير وشعار للانطلاق.. على هذا الضوء تلتقط الصورة الصادقة لقصيدة أنيتا"

ابا فرات هل هذه هي القصيدة الاولى؟ أم تبعتها قصائد أخرى؟

** نشرت قصيدة شهرزاد، وهو مرقص باريسي مستوحى من الخيال الشرقي وحكايات "ألف ليلة وليلة" وأقول فيها بخصوص أنيتا:

ان وجه الدجى "أنيتا" تجلى
عن صباح من مُقلتيك أطَلا

أما المقطوعة الثانية من قصيدة انيتا "ذكريات" فقد نظمت بعد فترة القطيعة واقول فيها:

لا تعـرّي "أنيـتُ" طيفـاً ببـالي — مـالِطيفِ يسـمُّ لحمـي ومـالي؟

وكانت المقطوعة الثالثة بعنوان "فراق" وحملت المقطوعة الرابعة اسم "وداع" وقد كتبتها في باريس في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٤٩

"أنيتُ" نزلنا بوادي السباعْ بواد يذيب حديد الصراع
يُعيِّرُ فيه الجبانُ الشُجاع "أنيت" لقد حان يوم الوداع

* ابا فرات، ومن كان بدرجة حب "أنيتا".. هل كانت بارينا أم ماريا "ماروشكا" اسم الدلع والتحبب.!؟

** كانت بارينا.. لها عالم خاص، ساحر ومثير. عشقتها فترة تقارب الثلاث سنوات. كانت "بنت عجيبة مثل أسطورة. وجه مضيء وجسد افعواني رغم الأحزان".. أقرب إلى الخيال.. تجعلك تصدق ماتقرأه في الأساطير. كان إحساسي نحوها، انني أمام شيء مختلف من النساء، تعارفنا في براغ، وهي بوهيمية، وأقرب إلى الحياة البوهيمية (التي تقول ان غرفة كان يتقاسمها عدة أشخاص يعيشون فيها، يأكلون ويجوعون ويحبون بطريقتهم الخاصة).

والدة بارينا، كانت يابانية وجدّتها على ماأعتقد انكليزية، من اصل ياباني، ولم أكن أعرف عن والدها أي شيء.. لم تحدثني عنه. ومن خلال الأحاديث المتأخرة عرفت انه قضى نحبه، اما منتحراً أو مقتولاً، بظروف غامضة. وصادف أن تعرفت عليه قبل يومين من انتحاره أو موته. عند موته ذهبت لتقديم العزاء إلى بارينا، واكتشفت ان الشقة ممتلئة بالتحف الصينية والساعات الذهبية. وقلت مع نفسي كيف احتفظ الرجل بما لديه مع علمي بانه مات معوزاً! وفهمت من بارينا انه لم يمس هذه الأشياء لانها من أم بارينا، حفاظاً على ذكراها. لكن بارينا بددت ذلك بسرعة على حياتها البوهيمية، وعلى أصحابها، دون ندم أو أي أسف.

شعرت فيما بعد ان بارينا، تبددت، طارت، تلاشت.. لا أدري إلى أين؟

* هل عوضت ماريا "ماروشكا" مكان بارينا؟

** كانت "ماريا" شيئاً كهربائياً اجتذبتني نحوها، من أول نظرة، كما يقولون. كنا "أسرى" الحب. جاءت مع صاحبتها، التي ربطتني بها علاقة حب عابرة. وفجأة بعد أن دخلت إلى الشقة، أخذتها بالأحضان، حتى ان المسكينة، التي جاءت لتعرفها بي، وكانت قد تأخرت لدفع أجرة التاكسي، فوجئت بحالة الانسجام التي بيننا. فقد رأت ماروشكا وكأنها حمامة تعود إلى عشها، ويزقزق معها، ذلك الطائر الشريد، الذي ظل يغني حتى عادت معشوقته!

* ماذا فعلت الأولى؟

** اكتفت بنظرة حزن وربما سقطت دمعة هادئة، لكنها حارة، على خدها. لا أدري الآن، كيف أخذت، رغم ان علاقتي مع صديقة ماروشكا كانت بسيطة.. لكنها أصيبت بالدهشة، حين رأت هذا الغرام والانسجام. صحيح انها لم تكن مثالية، لكنها أخذت على حين غرّة، كما يقال.

عندما تعرفت على ماروشكا، لم تكن تتصور هي ومن معها، انني اكتشفت الآن النموذج، "الموديل"، الذي كنت أبحث عنه لسنوات طويلة. كانت تتصور نزوة شاعر. أو هكذا تصور البعض. ماروشكا إنسان مختلف. فهي لا تشبه بارينا وليست مثل أنيتا. هي ببساطة امرأة طبيعية، غير متكلفة، حلوة المعشر، وديعة ودافئة، فيها الكثير من مزاج الشباب وحماسته وعنفوانه ومرحه. ومع ذلك لم تكن صريحة دائماً. كانت مراوغة. انها عالم مختلف. تضحك حين تراوغ وتندم، ثم تمطرك بحب لا مثيل له وتعود وتكرر المراوغة.

* هل كانت قصيدة لّمي هاتيك لّما، لها، فهي توحي بالفترة الذهبية لماروشكا؟

** نعم، فقد نظمت هذه القصيدة في براغ، عام ١٩٧٢ ونشرت في عام ١٩٧٣

لَمّي لهاتيك لَمّا	وقربي الشّفتين
لَمّا على جمرتين	بالموت ملمومتين
ياحلوة المشربين	من أين كان.. وأين
من صنع كذبٍ ومَيْنِ	سَمُّوُهُما زهرتين

* هذه القصائد تذكر، بقصائد "جرّبيني" و"النزغة" عندما كنت لا تزال في البلاط الملكي. هل يمكن أن تحدثنا عن ذلك، خصوصاً وانها شكلت عاصفة من الانتقادات والاحراجات لك لدى الملك فيصل الأول، وكانت بحق جرأة لا مثيل لها وعنصر تحدٍّ لا نظير له!؟

** قبل قصيدة "جربيني" كانت قصيدة "الرجعيون" التي كتبتها بعد معارضة بعض علماء الدين لفتح مدرسة للبنات في النجف، بدعاوى "دينية" وقد نشرت القصيدة في صحيفة "العراق" ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٢٩، والتي أقول في مطلعها:

ستبقى طويلاً هذه الازمات	إذا لم تقصر عمرها الصدمات
إذا لم ينلها مصلحون بواسل	جريئون فيما يدّعون كفاة

وقد أحدثت تلك القصيدة ضجة كبرى، واستدعاني الملك فيصل الأول، الذي سببت له إحراجاً كبيراً. تصور هذا الموقف، ان بعض رجال الدين كانوا مقربين من الملك فيصل الأول وأنا كنت عنده من المقربين. لكني شعرت بمحاولة البعض منع تأسيس مدرسة للبنات في النجف، وكأنني في صميم الغضب والثورة. وا لله كنت في ليلة واحدة أنظم قصيدة "الرجعيون" وقد نشرتها صحيفة العراق، باسمي الصريح. بينما نشرت جربيني، باسم

مستعار، ولكنه لا يختلف بشيء عن اسمي الصريح، لأن بغداد ومثقفيها صاحوا "هذا الجواهري" وحتى الملك فيصل الأول، عارف باسمي المستعار.

* وأي اسم مستعار كنت تختار ياأبا فرات؟

** ابن سهل الأندلسي أو طرفة بن العبد. أما البقية فكانت باسمي الصريح وربما كان ذلك لسوء الحظ أو لحسن الظن، خصوصاً واني من العوائل الدينية الاولى في العراق. ومن يصل إلى درجة الافتاء والاجتهاد، فعليه أن يدرس كتاب "جواهر الكلام"

ومن المفارقات ان صاحب جريدة العراق، صديقي رزوق غنام، وهو من محبي نوري السعيد والمقربين إليه، لكنه كان جريئاً ونظيفاً، تعرض إلى المضايقة بسبب نشر قصائدي. لقد اشتعل الشعر في رأسي. ولم أبالي بأني كنت في البلاط. قال لي الملك فيصل الأول بعد أن دخلت عليه كرب (باللهجة الحجازية) أي اقترب: ابني محمد. فقلت له أنا فاهم منذ أن طلبتني. قال ماهذا؟ قلت والله سيدي هذا الذي حصل. قال الملك، لا تنس ابني محمد (الجواهري) انني مسؤول. فهل تعلم انني تلقيت برقيات من النجف تقول لي، كيف يحصل ذلك، وهو عندك (أي الجواهري). هل تعلم أن ذلك غير محتمل. قلت له نعم، وأدركت وعبّرت عن ذلك بالحرف الواحد، سيدي اسمح لي ألا أثقل عليك بعد الآن. فزّ الملك وقال ماذا تقصد؟ قلت له: أن لا أسيء إليك بعد هذا. فقال لي ارجع مكانك.

لكنني عدت ونشرت بعدها قصيدة جربيني. لا أدري الآن هل يأنس بها الانسان بعد هذه العقود الثقيلة من السنين. وقبل قصيدة جربيني كانت "النزغة" أو ليلة من ليالي الشباب، التي نشرت في صحيفة العراق، هي الأخرى، في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٩. وكانت ثورة على التقاليد حيث قلت فيها:

كـم نفـوس شـريفة حساسـة سحقوهن عن طريق الخساسة
وطبـاع رقيقـة قـابلتهن الليـالي بغلظـةٍ وشراسـة

إلى أن أصل إلى مايلي:

قـال لي صـاحبي الظريـف وفي الكف ارتعاش وفي اللسان انحباسة
أيـن غـادرت "عِمّـة" واحتفاظـاً قلتُ: اني طرحتها في الكُناسة

وبعد أيام نشرت قصيدة جربيني في صحيفة العراق ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٩، وكانت خروجاً على كل ماهو مألوف.

جربيـني مـن قبلِ أن تزدريـني وإذا مـاذممتني فـاهجريني
ويقينـاً سـتندمي علـى أنـك مـن قبلُ كنتِ لم تعرفيـني

ثم أقول:

أنـا ضـد الجمهـور في العيـش والتفكـير طـراً، وضده في الدين
كـل مـافي الحياة مـن مُتعِ العيش ومـن لِـذةٍ بهـا يزدهيـني
التقـاليدُ والداجـاة في النفـوس عـدوٌ لكـل حُـر فطـين

وأواصل القول:

"إلطميـني" إذا مَجُنـتُ فعمـداً أتحـرى المَجـونَ كـي تلطميـني
وإذا مايدي استطالت فمن شعرك لطفـاً بخصلـةٍ قيديـني
ماأشدَّ احتياجةِ الشاعرِ الحسّاس يومـاً لسـاعة مـن جنـون

ولم تكن الثورة ضد قصيدة "عريانة" التي نظمتها عام ١٩٣٢، أقل من الثورة ضد جربيني. لكن الفرق، هو انني كنت في البلاط في الاولى.

أقول في عريانه:

أنـتِ تدريـن انـني ذو لَبانَـةْ الهـوى يسـتثير في المَجانـةْ
وقـوافي مثـل حُسـنك لمـا تتعرّيـن حـّرة عُريانـه

وإذا الحب ثار فيّ فلا تمـ ـنعُ أيَّ احتشامه ثورانه

إلى أن يقول:

والثديين كل رمانة فر عاءَ تهزأ بأختها الرُّمانه

عارياً ظهرك الرشيق تحب الـ ـعين منه اتساقه واتزانه

السيرة والسنوات العشر الاولى:

* هل تحدثنا عن الطفولة والنشأة!؟ وكيف انطبعت صورة ذلك العالم الطفولي في مخيلتك؟

** أنت تعلم ان هذه المقدمة مطلوبة مني ومن العجب أن أشير إلى ان هذه المرحلة عند المؤرخين وأصحاب السير والمذكرات من الكُتّاب والأدباء أسهل ماتكون عندهم. لكن الأمر مختلف معي "العجيب ان هذه المرحلة كانت عندي أصعب مرحلة" أستطيع الحديث عن العشرينات وحتى التسعينات بكل سهولة ويُسر وطبيعية وبأمانة وصدق أقول ان هذا يتكرر معي حين أريد الحديث عن العشرة الاولى من حياتي. أخشى ماأخشاه هو الحديث عن سنوات الطفولة فإليها تعود العُقَد والرواسب واختلاط الايجابيات بالسلبيات والمحاسن بالمساوئ وفيها الكثير من الأضداد.

* الكثير من أصحاب السِيَرْ والمذكرات لم يكتبوا سيرهم ومذكراتهم كما هي، لكنهم كتبوا كما ينبغي أي سير "محسنة" وهذا خلل وقصور بين الواقع والتصور وأنا آمل وأتوقع أيضاً أن يكون الأمر مع أبي فرات مختلفاً، إذ اعتدنا على طريقته التلقائية الواضحة والتي لا تخلو من تعنيف للنفس أحياناً وفيها جرأة كبيرة وهذا مهم جداً. هل لي أن أسمع رأيك ابا فرات!؟

** أنا شريكك في الواقع في هذا الموضوع، وبانصاف وبدون تحامل قرأت كل ماكتب من هذا القبيل وقرأت أحسن مافيها، بعبارة أخرى عن

الشخص الذي في نظري وفي نظر الكثيرين وأنت واحد منهم انه على مستوى من المسؤولية، فما وجدت شيئاً و لم أجد صديقي ـ رحمه الله ـ في مذكراته بل وجدت شيئاً آخر في هذا الكتاب الضخم الذي يشبه سيرته وحياته.. "فتشت، كثيراً فلم أجده، لكني وجدت مايصح أن ينطبق على اشخاص كثيرين"

* من المقصود ياأبا فرات؟

** المقصود هو المرحوم كامل الجادرجي وأنا أحبه ويحبني كثيراً رغم اختلاف الرأي في كثير من الأمور حتى على صفحات الصحف، لكن في الواقع لكل حق حقه ومعياره عندي وهذا ماأعتز به في مذكراتي التي كتبتها وحتى في كتاب "الجمهرة"(٨٢) عندما وصلت إلى المجلد الأخير الذي يتحدث عن المعاصرين أنصفت بصريح العبارة خصماً سبق له أن تعرض لي بتحرشات وتعريضات لأنني مسؤول عما اقول وانني أكتب إلى الناس ولست أتحدث في مجلس خاص بحيث أرد على محاولات الاساءة. أردت أن تعفيني عن ذكر الأسماء ولكن المقصود بذلك الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي(٨٣).

---

(٨٢) صدرت مذكرات الجواهري بعنوان "ذكرياتي" عام ١٩٨٨، مصدر سابق. أما كتاب الجمهرة فقد صدر في دمشق أيضاً، عن وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية بتاريخ ١٩٨٥.

(٨٣) بعد جفاء دام سنوات بين الجواهري والبياتي عادت علاقتهما إلى الصفاء، وحضر البياتي حفلاً تكريمياً للجواهري في دمشق، وتحدث بكلمات رقيقة بحق الجواهري وكتب قصيدة رائعة في ذكرى ميلاد الجواهري:

"في سنوات الضوء والبؤس
رأيت في مرآته نفسي
خرجت من معطفه يافعاً
لأحمل الشمس إلى الشمس
قلت له: يا أبت ماهنا
يعتنق السهمان في القوس
شعرك كان الزادّ والماء فيّ
عراقنا الطاعن في الحبس".

أورد ذلك كشهادة، فالهدف عندي فيما أكتب وفيما أتحدث عن الآخرين، بما يسرك ويسر الكثيرين كما أعتقد، وذلك بالأسلوب المؤتمن، الذي كتبته وبآخر مايمكن أن يكتبه أي أحد عن نفسه. وأنا لا أتفاخر بذلك.. لماذا؟ فكرت في نفسي بأنه لو كان هناك عندنا في المستوى الثقافي والأدبي في المجتمعات العربية، كلها ودون استثناء، من هو جدير بمهمة النقد لكي يتولى هذه الأمور وضمن اعتبارات جمالية لما احتجنا إلى كتابة مذكراتنا.

النقد الذاتي والمعيار الأخلاقي

* هل تعني المعايير الأخلاقية؟

** بالضبط، المعيار الأخلاقي المألوف في العالم الحضاري مفتقد لدينا وفي عالمنا العربي والشعوب النامية (هذه صيغة ملطفة والمقصود هي الشعوب المتخلفة) ونحن يجب أن نعترف بصراحة بذلك، هناك قلة ممن يكونون مسؤولين عن الحرف والأمانة والنزاهة لأن طبيعة مجتمعاتنا فيها الكثير من الافتراءات والكذب، وأنا أقول ذلك بصراحة، فلدي الكثير من السلبيات وهي حصتي من ترسبات مجتمعاتنا. أعود إلى القول لو كان هناك نقاد بالمعيار الأخلاقي والأدبي وهذه أضعها بين قويسات، لكان أغناني وأغنى الكثيرين عن كتابة المذكرات، ولهذا تراني بصراحة أريد تجنب الوقوع في الفخ وتلاحظني أتحرج كثيراً، لكنه الواقع القائم الشاخص فقد كشفت عن نفسي وبنفسي بسبعة مجلدات دون تفخيم للذات، بل كنت كما أنا أحب وأتحدى وأرد الجميل وأذكر المعروف، حتى وان اختلفت أو اختصمت أو أخطأت أو تطرفت. وأشدّد مرة أخرى لو كان هناك الناقد النظيف والأديب النزيه والكفؤ وبالمعيار الأخلاقي الذي تحدثت عنه، لكان قد أعفاني من كتابة المذكرات وكل شيء فيها موجود في المجلدات السبعة.

* النقد الذاتي ومحاسبة النفس سمة الذين يتحلون بالشجاعة والصميمية وهي سمة الكبار الذين يصارحون جمهورهم، وقد يكون تواضعاً حين يتحرج الانسان عند الحديث عن موهبته وكفاءاته... ماذا تثير فيك مثل هذه الارهاصات؟ أو التداعيات؟ أين سلبيات الجواهري؟

** أريدك أن تتذكر شيئاً مشابهاً لما قلته عن المتنبي العظيم فقد انتقد نفسه وكشفها وعنّفها في موارد الغضب قد يكون ذلك غير معروف كثيراً أو لا يتردد على أفواه الناس. لقد ابتلى المتنبي بكافور مثلما ابتلينا أنا وأنت وغيرنا بمن ابتلي بهم بما يضطرنا الواقع أو مجتمعاتنا بأن نبتلي بهذا الموقف أو بهذا الشخص أو بهذه المرحلة "وان نقول مالا يستحق وأن نندم على ذلك وأن نكفّر عنه" فالمتنبي العظيم له غضبات نادرة فحين ترك سيف الدولة وقصد كافور وكيف كان ذاك وكيف كان هذا، ثم كيف ندم على ذلك بالقول:

وغادرتُ خير الناس طراً بشرِّهم	وأصدقهم طرّاً بأكذبهم طرّاً
فعاقبني المخصي بالغدر جزيةً	لان رحيلي كان عن حلب غدرا

أستطيع في هذا الميدان أن أعدد لك الكثير من الشواهد والنقدات والغضبات وأنا فخور بها أيما فخر لأنني واجهت الأمور بشجاعة، عندما كتبت قصيدة "كفارة وندم" في عام ١٩٥٣ كانت القصة معروفة بعد قصيدة التتويج، وقلت بصراحة انني لم أغتصب ضميري في كل ماخاطبت به الناس في المجلدات السبعة، وإنما كتبت ذلك بقناعة سواء كنت مصيباً أم مخطئاً باستثناء هذه الحادثة، وأكرر انها كانت مجرد قناعات رغم ماالحق بي من تشويهات أو تأويلات لهذه القطعة أو تلك القصيدة أو لهذا البيت أو ذاك، فهناك الكثير من الأشياء لاتزال قائمة عندي فيما يعدّه الآخرون مدخلاً للانتقاد والتعريض والشك، لكنني حتى هذه الساعة مازلت مؤمناً بها.

لقد تداركت قصيدة "تهْ ياربيع" التي قلتها بتتويج الملك فيصل الثاني بعد أسابيع، ففزت بقصيدتي "كفاره وندم" وكان هذا موقفاً خطيراً، وقد فهمها الحكام كأوضح رسالة معارضة وصلتهم وبجرأة وشجاعة، و لم أكن أميل إلى الملك فيصل الثاني لانني أعتبره ليس بمستوى المسؤولية وهو طفل مدلل وتربى على يد الانكليز على خلاف الآخرين، كالأمير عبد الاله (الوصي) أو الملك فيصل الأول (جده) الذي كان ذائداً عن العراق وأعلى من شأنه بما يستحق في تلك الأيام، كان مظلوماً في حين كان يتكالب الساسة على المناصب والزعامات والأحزاب وعلى المعارضة الكاذبة المصطنعة، في حين كان الملك فيصل الأول فوق هذا المستوى، وعندما غادر سورية كانت متألمة وتقطر دماً عليه، وهو مايشرّفه أن يكون إخراجه على أيدي الفرنسيين الذين قاومهم رمزياً والحكاية معروفة وقُتِل يوسف العظمة قائد الجيش... اقول انني اغتصبتُ ضميري لكن ذلك لم يدم سوى بضعة أيام (أسبوع أو أكثر) حتى كتبت "كفارة وندم" وأي تكفير وأي ندم، لقد كان الغضب الخلاق، قلت هذه الكفارة ستبقى، هذا عن نفسي أقول هذا كان في الخمسينات وهذا ماكان في السبعينات أيضاً فأنا لا أطيق الكبت، ولطالما دفعت الثمن غالياً، لانه لدي نفس الطفل الغضوب وهي إلى الآن باقية، فيها الحسنات وفيها السيئات وقد خلقت لي هذه المشاكل ومواقف حاسمة قررت مصيري كله وبدلت التاريخ.

أقول: لقد كنت أحب العيشة الرغدا وطمحت لها وحصلت عليها، ثم انتفضت عليها. لقد كنت أرغب في الوصول إلى المجلس النيابي (البرلمان) وقد كنت أشعر ان ذلك مكاني، وربما بعض مطامحي كانت رغبة الناس الذين حولي وكنت أمَنّي النفس بالدفاع عن حقوق الناس ووصلت إلى المجلس إذ كنت مقرباً من الأمير عبد الاله في حين كان الآخرون يتقربون إليه، لكني استقلتُ بعد أسابيع، وعندما عدل البعض عن استقالته لم أعد أنا إلى المجلس،

لا أدري الآن هل كان ذلك موقفاً صحيحاً أم غلطاً؟ إذا أردتُ المراجعة الآن ان موقفي كان خاطئاً، لأن الاستقالة كانت بعد الوثبة عام ١٩٤٨ (بعد ابرام معاهدة بورتسموث)، وفي ظروف الشهداء كنت هناك في صراع ماذا كنت أؤدي من واجبات في المجلس وماذا كانت الناس تسمع وكيف يكون ضميري مرتاح البال، لكن هذا شيء آخر الآن.

* أعتقد انه لم يكن بوسعك إلا الاستقالة خصوصاً وأنت تلمست غضب الناس والجماهير التي كنت تخاطبها آنذاك.

** والله لا أدري! بصراحة أقول لا. هذا شيء يأتي الآن بعد المراجعة، لكن الشيء العجيب الغريب والذي زاد من ندمي عليه، ان الجماهير كانت تريده وأنا عالم ماذا تريد، وكان الحاكم يريدني وليس سراً أن أقول لك ان سفارةً أعتز بها وهي أقرب ماتكون إلى القضايا العربية آنذاك وأعدى ماتكون لكل أعداء العرب(٨٤) كانت تريدني أيضاً. وقد جلبتُ لك هذا المثل لكي تعلم ان الكثير ممن يدَّعون تمثيل الجماهير الكادحة من الطلائع لم تكن تعلم حقيقة بعض المواقف، حتى بالنسبة لاصحابهم وهنا أعني السوفييت أيضاً، وبعد أن أرسلت لي السفارة السكرتير الأول الذي حاول أن يستطلع رأيي بشأن البقاء في المجلس حاملاً لي رسالة من أعلى المراجع مقدِّراً هيجاني وغضبي، لكنني رفضت ذلك، وتصور لو كانت الجماهير تعرف حقيقة الموقف. أقول لك الآن وأنا نادم خصوصاً على تلك المفارقات في الموقف الواحد وما كان بيني وبين الأمير عبد الاله الذي لا يستطيع اي نائب أن يصل إلى المجلس النيابي دون المرور عليه، وتلك من مساوىء النظام الملكي السابق فيقرُّ من يقر ويشطب من يشطب بمافيهم أدعياء المعارضة أو بعض المعارضين الحقيقيين، الذين كان وجودهم رغم كل شيء صمام أمان عند الناس

---

(٨٤) السفارة المقصودة هي السفارة السوفيتية في حينه.

لتخفيف آلامهم كما كان الحكام يريدونهم لامتصاص النقمة قدر مايستطيعون، وظل الأمير عبد الاله يصر على وجودي لكي كنت أعتذر، وأنا عندما أستعرض معك هذه الأمور. فمن باب النقد ومن باب الكشف عن الأخطاء، وأستطيع القول ان ليس هناك أكثر مني من كشف عن نفسه بنفسه.

* النقد الذاتي قوة وشجاعة، ولا يهم بعد ذلك أن يكون في الجبل الشامخ ثمة مغارات أو انحناءات أو انكسارات أو حتى كهوف لكنه يبقى مع ذلك جبلاً شامخاً واضحاً للعيان، يراه المرء من بعيد بعلوّه وكبريائه، فلا يهم أن يكون ثمة نواقص وأخطاء وتناقض في ظاهرة الجواهري، شاعراً وحالة شعرية وإنساناً... لنعُد الآن إلى الذكريات وعن الطفولة بالذات، وعن اسم الجواهري الذي تكوّن فيما بعد.

** قد تكون أخف مرحلة بالنسبة للآخرين هي الطفولة والنشأة، والأب والأم والبيت والبيئة والشارع، والمعتاد ان يكون هذا أسهل مافي المذكرات إلا أن السنوات التي دلفتها من العشرينات أي بعد العشرة الاولى حيث بدأ يتكّون اسم الجواهري ظلت موجلة عندي، ربما هي منقطة مكهربة، لدي عن نفسي الكثير، كيف تصرفت كيف أخطأت، كيف تحملني الآخرون بكل ماصنعت، كيف تشخص الأبصار والعيون نحوي، كيف استقبلت ثورة العشرين، كيف شُتِمت عند الملك فيصل الأول وأنا إلى الآن ذاهل كيف كنت أتصرف إزاء ماكان يترتب علي من اعتبارات والتزامات.!؟

نظرتي الاولى انفتحت على الصحراء فهي ذات أفق شاسع، والصحراء كما نعلم تعطي الانسان الصبر، عندما كان يشتد الحر في الصيف كنا نذهب إلى شواطيء النجف حيث الخورنق والسدير وقصور المناذرة في الحيرة ومنها بساتين الشوافع وبساتين الكوفة أيضاً، وأريد أن ألفت انتباهك إلى ان زهرة

شقائق النعمان تُنسب إلى النعمان بن المنذر الذي قال عنها: انزعوا كف من قطع واحدة منها. فقد كان النعمان يجمع المتناقضات (فهو بشر مثل الكثيرين)، وعلى أطلال تلك القصور وذلك التاريخ الشامخ، حيث كان يقف أمامي شاخصاً النابغة الذبياني، ولدتُ ونشأت بالقرب من الصحن العلوي ذي التداخل الفسيفسائي العجيب الذي يضم الحضرة العلوية والسور المرمري والصحن الشريف. بيني وبين النابغة الذبياني أجيال وأجيال لكن الفرات العظيم كان بيننا، لذلك اخترت التوقيع باسم "نابغة النجف" لتذييل قصائدي الاولى.

المشاهد الأولى من حياتي كانت متناقضة وهو ماانطبع بذهني، فمن جهة كانت النجف تمثل حياة متحركة أدبياً واجتماعياً، فيها العديد من الأقوام إضافة إلى العرب، وفيها العديد من القبائل يختلط فيها الحضرية بالريفية، بالبدوية، وفيها الكثير من الوافدين وطلاب العلم وفيها أكبر مقبرة في العالم، أو "غابة القبور" كما تسمى "مقبرة وادي السلام"، ومن الجهة الأخرى فيها حياة نائمة، بائدة، منسية، وقاسية، وفي تلك الأجواء ولدتُ وعشت وترعرعتُ.

*** تمرد أم مغامرة؟**

* قد يعتقد البعض ان "التمرد" سمة ملازمة لسن الشباب، لكنه في حالة الجواهري موجود معه كل العمر، ودون مبالغة يمكن القول ان روح التحدي ظلت ملازمة لأبي فرات وهو بتقديري بحاجة إلى دراسة سايكولوجية خاصة من هذا الجانب. ماذا تشعر وأنت في حالة من التمرد الدائم إذا جاز التعبير؟

** في نفسي شيء من المغامرة، وأنا كنت وما أزال ميالاً إلى المغامرة خاطئة كانت أم مصيبة؟

ضربت بها التيه ضرب القمار فاما لهذا واما لذا

كما يصف المتنبي نفسه.

وأعود وأقول لك ان العشرة الاولى من حياتي هي التي أثرت علي، طبيعة الحياة التي عشتها، التناقض الاجتماعي، تحدي المألوف الذي رفضته في الأسرة وفي المجتمع، جعلتني ميالاً إلى التمرد والرفض والتحدي.

* لقد تحدرت ياأستاذنا الكريم من أسرة عريقة، تنتسب إلى شيخها الجليل محمد حسن صاحب كتاب "جواهر الكلام" وكانت مجالسها عامرة بالأدب والشعر والفقه فكيف نشأت وكيف تتلمذت؟

** في الواقع تعود بي إلى السنوات العشر الاولى، التي تحدثت عنها وهي أثقل ماتكون عليّ. لكني كنت أتمنى غير هذا السؤال؟

* هذا السوال يستوقف القارىء العربي، لكي يتصور كيف نشأت العبقرية وفي أي بيئة اجتماعية، وعند أية مناخات أسرية تكونت، لانه بدون معرفة الأساس، يظل القارىء في حالة من التخمين... ألا تتفق معي ياأبا فرات؟

** كنت منذ بلغت الخامسة من عمري أو لنقل السادسة أو السابعة، بدأت بتعلم القراءة عند الكتّاب (وهي مدارس غير حكومية). وكنت أتناول دواوين الشعراء لأبدأ بحفظ بعضها، بدأت بحفظ بعض الأبيات، بينما كان أترابي من أبناء عمي في البيوت الفسيحة التي تستوعب اللاعبين. كنت أخط بالفحمة السوداء على الحائط ماكنت أحفظ. وكان موضع الغرابة لدى الكبار، هو كيف انني كنت أكتب أبيات شعر بديعة للقدامى، وأنا اثناء اللعب. في السنوات العشر الاولى توجد أشياء طبيعية وموروثة كالطيبة وقول الشعر، فقد كان والدي رحمه الله شاعراً وله ديوان مخطوط جميل في مكتبة آل كاشف الغطاء، وهو موجود لحد الآن وقد رأيته بنفسي. وهو ديوان ظريف وأذكر منه قصيدة غزلية رائعة.

والدي كان نموذجاً في نظافة الايمان والعبادة. وكان ذا مجلس للمحاضرات الفكرية وعلى يده تخرج كثيرون من آل صادق في جبل عامل، وأنا أذكرهم بأشخاصهم ومع ذلك فلديه مفارقات، وكان من فرط حبه لي انه يريدني أن أكون ظلاً له، جزءاً منه بحيث كدت أفقد شخصية الطفل المألوفة، لكثرة مااصطحبني معه، إذ حتى كاد لا يفارقني إلى أن وصلت إلى الخامسة عشرة وأنا معه كرجل. كان مثلاً يخرج إلى المجالس الأدبية والمجالس الاجتماعية في النجف وأنا مضطر على مرافقته وكنت أشعر أن لا علاقة لي بمثل هذه المجالس بل كنت أنام فيها أحياناً من التعب أو السهر. هذه المرارات وغيرها من الحياة الاجتماعية البائسة أثرت فيّ كثيراً وكذلك العوز والعنعنات وكلها كانت خلفيات لما حملته فيما بعد.

وأود هنا أن أشير إلى مقدمة الدكتور علي جواد الطاهر الاكاديمية إلى أنها لم تكن بمستوى العمق الذي أريده ولا بمستوى المرارة التي كنت أعيشها في السنوات العشر الاولى. وإذا كنت قد تحدثت عن حلاوة تلك الفترة، العلاقة مع الوالد والأسرة وذكرت بعض اللقطات، لكن الشيء الذي أريده أكثر من ذلك بكثير، فبقدر الايجابيات الحلوة كان فيها سلبيات خلفتها عليّ ولا أريد أن أخفيها، فالوالد رحمه الله كان شغوفاً بي إلى الحد الذي كاد يمحي شخصيتي وهو ماأواخذه عليه وكان وعيه وتصوره للحياة يعتقد بأن ذلك هو الصحيح، وكنت ملزماً وأنا في سن الطفولة (قبل العاشرة بقليل) أن أحفظ الكثير من أبيات الشعر والقصائد. وكان هذا مرهقاً لي كثيراً.

صحيح ان التربية الأدبية مصدر اعتزاز لي. وكان أخي عبد العزيز يختار لي القطع التي عليّ أن أحفظها من كتاب الأمالي (لأبي علي القالي) وديوان أبي تمام والمتنبي ويشاركه فيها ابن عمي المرحوم علي الشرقي. وكان هؤلاء مسؤولين إذا جاز التعبير عن ثقافتي وكنت اقرأ وأحفظ إلى جانب ذلك خطباً من نهج البلاغة وجزءاً من الشقشقية وكان علي أن أحاري ماهو سائد باتباع

هذا المنهج الذي كان ثقيلاً علي لدرجة حمّلني هذه التبعات، كان هذا شيئاً والحفظ شيء آخر والعناية بي شيء ومعرفتي به شيء آخر، كأنه يقرأ ماسوف أكون، كان كلما يلتقي بي ويسحبني معه إلى مجلس يتوسم فيّ النبوغ، ربما يعرفني كما أنا الآن لكن هذا لم يكن يكفي بالنسبة لحياتي لأنني كنت أحتاج إلى منهج آخر. كنت أنتهي من حفظ خطبة من نهج البلاغة والأبيات البليغة للشعراء القدامى وحكاية لأبي علي القالي وشيء من أمثالها أؤديه بصدق وأمانة مدهشة، خصوصاً في ذلك السن، لكنه لم يتركني عندما أفرغ من قول مافي جعبتي، بل يأخذني إلى مجالس أخرى وربما حباً وإغراقاً في الحب، لكني بصراحة لم أسمع منه في يوم ما مايسمعه مني ابني وابنتي كفاح وخيال من تسديد خطاهما أو في اتخاذ هذا الموقف أو ذاك والأولاد الآخرون سمعوا مني هذه المواقف أيضاً وهم صغار وفي الواقع فقد كنت أتتبع خطاهم وأقول في يومها هذا صحيح وذاك خاطيء وهذا يتبغي عمله وذاك غير مقبول. كنت أخرج وألعب مع الأطفال بما لا يتناسب مع هذا الذي نشأت عليه، ربما هو تعويض أو رد فعل.

* **ثقل التركة!**

* هل يعني هذا أنك كنت شيخاً وأنت طفل؟ وربما العكس صحيح ايضاً؟

** أحسنت... هذا ماحصل فعلاً وهذا مابقيت رواسبه مدة طويلة وأثّرت علي بشكل جارح.

* توسماً بقول الإمام علي "لا تعلّموا أولادكم عاداتكم لأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم"

** ماتركه والدي كان سلبياً، لم أترك جلسة من جلساته وأنا في حالة يقظة، كنت أنام من شدة التعب ولا أتذكر انه قال لي افعل كذا أو لا تفعل

كذا أو تصرف مع الناس كذا أو كن مع صديقك كذا- ولم يسألني في يوم من الأيام أين كنت البارحة؟ مع من لعبت؟ ومع كل هذا، كان يغمرني حباً لتثقيفه الأدبي والشعري وأنا مدين له. تلك هي المتناقضات التي حدثتك عنها وإلى جانب ذلك أنا أحمّله تبعة أخرى رغم انها لم تكن بمستوى تلك الاولى كان يريدني أن لا أكون شاعراً رغم انه كان شاعراً رقيقاً، كان يضيّق علي بادىء الأمر بحيث انني كنت اضطر إلى النزول إلى السرداب (القبو) لكي أغنّي بصوت عال وأحدو بالشعر تحت الأرض ولا يسمعني والدي لأنه كان يحمّلني قراءة كتب الفقه أو الدراسة الفقهية وكنت أقرأها سطحياً على أصول مايدرس في النجف بالمنهج المألوف، أن تقرأ أولاً الصرف والنحو ثم كتاب البيان والفصاحة وهذا شيء جميل في الواقع، حتى جاء علم المنطق هذا لابأس به ولو كان بعيداً عني في الواقع وهو مناسب للذين خلقوا لكي يكونوا متفقهين، أما من مثلي فعليه أن يطفر هذه المراحل ويتحول إلى شيخ. وبعبارة أخرى حملت كتاب الفقه وكان عليّ أن أحمله بعد عشرين سنة من عمري، لذلك قرأته قراءة سطحية وكنت عندما التقي الأستاذ السيد حسين الحمامي الصادق الأمين والذي كان رجلاً لم أرَ أنظف منه، كان يدق على بطنه ويقول "شوف مهدي وجدّي (اي انه يحلف بحياة جدّه رسول الله) هذه (ويؤشر على بطنه) منفوخة من أكل الفجل" سمعت بعد ذلك أنه صار إماماً ووصل إلى أعلى درجة من درجات الاجتهاد بحق. درست عند هذا العلامة لأنه كان متواضعاً وأريد أن أجلب لك شاهداً على المفارقات!

* كان الوالد يريد أن تختزل المراحل؟

** نعم أختزلها، ثم أصبح فقيهاً ولم يكن يعرف انني بلغت إلى الأعماق في قراءاتي ومعرفتي الشعرية.. ولم يكن يدرك انني خلقت لشيء آخر غير الفقه!.

* نعود الآن إلى مصادر الثقافة الأخرى.. هل لك أن تحدثنا؟

** ربما شيء غير مألوف وقد يكون البوح به غير معتاد أيضاً، لكنني أريد أن أقول لك "بقدر مايحزن الولد على فراق أبيه العزيز عليه، كانت هناك نعمة عليّ بوفاة والدي، لانني انطلقت.. وبدأت تتكون شخصيتي المستقلة والمتناقضة أيضاً حتى الآن والمختلفة كما قلت..لقدا أحسست بأنني شيء آخر، وان الحصار المفروض عليّ انفتحت أبوابه الكبيرة، كما انطلق أخي عبد العزيز، الذي عانى من الحصار هو الآخر، لكنه كان حصاراً خفيفاً قياساً لي..." كان أخي عبد العزيز أكبر مني وأحترمه تماماً، لكنني كنت أرفض أن يتدخل في أمري. ومن باب النكتة أذكر ان أول قطعة شعرية ارسلتها سراً ونشرت في جريدة العراق عام ١٩١٩ وهي بإمضاء مجهول، لكن النجف عرفت من هو المقصود، حتى سألني أخي عبد العزيز: هل هذه القصيدة لك؟ وهل أنت أرسلتها؟ فأجبته بنعم "أودعناكِم - يعني خلصنا" ثم ابتدأت بعدها أرسل قطعة في كل أسبوع وتُنشر.

هذه هي السنوات العشر الثقيلة التي تركت بصماتها علي، فوالدي بحد ذاته وهو النقي العفيف، إلا انه كان يريدني مثل ظله من جهة، ومن جهة أخرى بقايا العنعنات، فهو ابن الشيخ الفلاني وجدّه الشيخ الفلاني، ولهذا يجب أن نتحمل الجوع والفقر، لا أن نتعامل مثلما كان البعض يتعامل به من الذهاب إلى عشائر الفرات الأوسط ويعودون محملين بالذهب. كان يفضّل مهانة الجوع، لأن تبعات الفقر ليس الفقر بحد ذاته. الفقر يجر مهانة، والمهانة تجر انعكاساتها وسلبياتها على الانسان، وتحمله الحاجة وهي ذميمة في حين كان البعض يتوارث المال، بينما آخرون يكسبون قوتهم من العمل الشريف. كنت أشكو من تلك التبعات والتقسيمات الاجتماعية وأساسها البيت ثم البيئة ثم المجتمع.

وأعود الآن إلى سؤالك حول مصادر الثقافة، فقد اختلفت بعد موت والدي رحمه الله، حيث بدأت مرحلة جديدة من التفتح وبشيء من الحرية، وانتهت فترة الالعاب مع أولاد عمي والاختلاط بالمتناقضين. وهذه مرحلة سيئة وإلى جانبها كانت مرحلة ايجابية أيضاً على الصعيد الأدبي والثقافي، فبدأت ألتهم الكتب التهاماً. وكانت النجف المصدر الثاني بعد بغداد ان لم تضاهيها رغم مجتمعها الصغير، حيث كانت الكتب ترد إليها من بغداد ومن الخارج، وكنا ننتظر مجلة "العصور" ذات المسحة التقدمية آنذاك.

* شبلي شميل وماركس وثورة اكتوبر!

* كيف قرأت الكتب التقدمية والماركسية بشكل خاص.. ماذا عن علاقتك بالشيخ عبد الحميد الدجيلي؟

** كان هذا الرجل متواضعاً وبعيداً عن دائرة الضوء. وقد أعارني أول كتاب ماركسي وهو لشبلي شميل، فقد أخذته منه وكان يُضرب المثل بتقواه. وأعتقد ان ذلك كان عام ١٩١٧ أو ١٩١٨ ولم أكن قد بلغت العشرين عاماً. وأخذت أقلّب فيما بعد الكتب التي على هذه الشاكلة لدى مكتبة عبد الحميد زاهدي ومكتبة الشيخ أحمد حلمي أخ محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية، وكان هذا يتنافس مع ذاك على جلب الكتب وكنت أقرأ خيرة مايصل إلى المكتبتين. أستطيع القول انني من الذين قرأوا سلامة موسى حتى قبل أن تصل كتبه إلى بغداد. وقرأت بإمعان أطروحة الدكتور طه حسين المقدمة إلى جامعة السوربون عن (ابو العلاء المعري) وهو من أنفس الكتب. وحين انتقلت بعد سنوات ست أو سبع إلى بغداد، وجدت الكثير من اخواني التقدميين. لم يطلعوا على هذه الكتب ولم يقرأوها مثل حسين الرحال ومحمود أحمد المدرس وعبد القادر اسماعيل وحسين جميل وعبد الوهاب الأمين وعاصم فليح... كنا حلقة أو "شدّة" أي باقة من المهتمين بالفكر التقدمي.

* كيف سمعت يأبا فرات بثورة اكتوبر الروسية عام ١٩١٧؟

** أحكي لك هذه القصة وكيف انتقلت من "الرجعية إلى التقدمية" فأنا لم أقرأ عن ثورة اكتوبر، وإنما قرأت عن حملة الغرب الملعونة والأجهزة البريطانية والامريكية عليها.. إذ جن جنونهم ولا أنسى الأساليب المؤثرة التي حاولوا استخدامها للتأثير على العواطف والمشاعر فقد قرأت كتاباً يروي كيف قتلت الأسرة القيصرية لدرجة انه أبكاني وبشكل مؤثر جداً.

* تعلم أبا فرات ان اكتوبر جاءت على مرحلتين ان جاز التعبير، المرحلة الاولى سميت بـ "الثورة البرجوازية"، التي قام بها كيرنسكي وبعد عدة أشهر حدثت ثورة اكتوبر.

** لقد تكونت وجهة نظري بالاتجاه المعاكس بما جمعته من غربال الصحافة فاقتنعت بنظام جديد فيه شيء من نصرة المظلومين والفقراء والفلاحين. وهو مابدأت أتلمسه من خلال قراءة كتب سلامة موسى ومجلة العصور وشبلي شميل، كأن هذه الكتب هي التي هيأتني لتقبل ثورة اكتوبر مباشرة و لم يصل بعد شيء مفصل عنها حتى أن الكتاب الذي أبكاني عن الملكة زوجة القيصر وأولادها، جعلني أهتم بسماع الأخبار، هكذا بدأت تتكون صورة أخرى لديّ من خلال الصحف والمتابعات.

* **إيجابيات:**

* لقد ذكرت بعض السلبيات عن المرحلة الاولى، فهل لي أن اسمع الايجابيات؟

** إضافة إلى والدي وأخي عبد العزيز وابن عمتي علي الشرقي الذين لهم الدور الأول في اعدادي الأدبي والثقافي فقد علموني أيضاً الاعتياد على الصبر، وكذلك الاعتداد بالنفس والثقة بها، وتحمل الحرمانات وهذه الناحية

لها تأثيرها اللاحق الايجابي رغم سلبياتها على الانسان. فقد صبرت على الشدائد والمكاره والحرمانات والفاقة، رغم ارتقائي سلّم المجد، ويوم كانت الجماهير تحملني على الأكتاف ولا أحد يعلم ماذا كنت أعانيه وما أحتمله، تلك مفارقات ثرية بتناقضها، بسلبياتها وإيجابياتها ولكنه الواقع المرّ أيضاً.

* ألا تعتقد ان المخزون الثقافي الأول هو الذي مكنك من إنجاز مشروعك الكبير "الجمهرة" والذي هو بحق صورة مشرقة عن الأدب العربي وإضافة مهمة للمكتبة العربية؟

** لقد اثر البيت على نشأتي الشعرية الاولى ولازلت تحت تلك التأثيرات وتناقضات البيئة والمجتمع النجفي. وأختلف عن الآخرين بأني أتحدث بصراحة عنها وبوضوح وفيما يخصني قبل غيري.

* كتب السيد جعفر باقر محبوبه كتاب "ماضي النجف وحاضرها" بثلاثة أجزاء تحدث فيها عن طبيعة المجتمع النجفي، بما له وهو كثير وما عليه أيضاً.

** المرحوم محبوبة من أعز أصدقائي. فقد كان يأتيني إلى البيت وأنا أذهب لزيارته في بيته ايضاً. وهو شخص منسجم مع كتابه ومع أمانته فيما كتب، وإلمامه وهو شيء يشرف الكتابة، لأنه كان رجلاً نظيفاً ولطيفاً. وكنت قد تلقيت حب الناس في البيت وحب كل من يحب الناس ولهذا فأنا كنت معجباً بكل من يكتب ويتخطى الحدود، وتلقيت ثورة الغضب أيضاً في البيت.

* ألم تنطبع وجدانياً في الذاكرة؟

** نعم انطبعت وجدانياً بكل معنى الكلمة وزادت عليها وصعّدت منها البيئة النجفية بالذات ومن ثم تعمّق الوعي. فقد كان وعيي بتناقض المجتمع مبكراً وبازدواجية الفرد النجفي بالذات واشدد على النجف لأنها المركز الديني الذي ينبغي أن تقل فيه الازدواجية لكننا نرى العكس فالاشياء السلبية

مقرونة إلى جانب الأشياء الحلوة والحسنة والطيبة. وهذه كانت تختلط بين الجو العشائري والوافدين أو المهاجرين، من أطراف الاتحاد السوفيتي إلى الهند وإلى إيران وتركيا ومن بلدان الخليج ومن لبنان بالذات وجنوب لبنان بشكل خاص مثل آل صادق وآل شرف الدين.

* هناك عبد الحسين شرف الدين صاحب كتاب "المراجعات"

** هؤلاء المثقفون يأتون في طلب العلم. وفي بيتنا تتلمذ قسم منهم على يد والدي. كانوا بتفاعلهم مع المجتمع النجفي يتأثرون به ويؤثرون عليه أيضاً خصوصاً بما هو إيجابي.

* الشعوبية:

* هل كان هناك تعصب من جانب المجتمع النجفي إزاء الوافدين من الشعوب الأخرى؟

** بالعكس كان هناك تعايش وتمازج وتفاعل وكذلك اختلاط وتزاوج، ولا توجد نزعة عنصرية لدى المجتمع النجفي رغم الطابع العربي الواضح للمدينة. أما مفهوم "الشعوبية" الذي تم ترويجه فيما بعد لاعتبارات أخرى، فضيقوا الأفق هم الذين يتنكرون فضل العرب عليهم. أما المطالبة بتحقيق المساواة بينهم وبين العرب فهذا لا علاقة له بالمفهوم الدارج عن الشعوبية. وهذا بتقديري مفهوم مناقض للعروبة الحقيقية، إذ ان شتم "الشعوبية" ووجهها الصحيح هو المدح والفخر له هدف آخر وهو الاستعلاء القومي، خصوصاً وإننا يجب أن نطلق الشعوبية على من يحب الناس ويحب الشعوب. أما إذا كان الأمر عكس ذلك فإنه يقود إلى التشوه والتحريف والتعصب وتفضيل العنصر العربي بشكل شوفيني على الشعوب الأخرى وهذا الشيء يتحمل وزره من يدعو إليه.

* أستاذنا الكبير الجواهري، ان المفهوم المعاصر للشعوبية هو ما أريد له هذا التعصب من قبل الشوفينين والمتعصبين العرب وأحياناً حتى ممن أصوله غير عربية.. هل لك أن تحدد الهدف الحقيقي من ذلك؟

** الغرض من ذلك كان شتم الوطنيين والتقدميين واضرب لك مثلاً على ذلك، الا وهو ساطع الحصري الذي ناهز التسعين لكنه لم يتكلم العربية كما ينبغي وقد توفي في العام ١٩٦٨ ففي حديث تلفزيوني له لم يستطع أن يتلفظ الكلمات العربية خصوصاً حروف الضاد والقاف، لكنه كان يبالغ في تعصبه بل انه نموذج للمتعصبين الذين يكملون من عقدة نقص الانتماء إلى المبالغة في الانتماء والتطرف فيه، وتأتي النتيجة عكسية دائماً ولا ضير أن يكون الإنسان غير عربي ويتشبع بالثقافة العربية والاسلامية، لكن العيب كل العيب في أن يبالغ هؤلاء بانتمائهم القومي العربي وهو انتماء ناقص.

لقد عاش في النجف العديد من العوائل غير العربية وكانوا يعتزون بانتمائهم للعروبة دون مبالغة أو تطرف مثل (بيت البادكوبي) وهم من باكو (وبيت الشيرواني) و(بيت المغمغاني) و(بيت الهندي) الذي نبغ منهم السيد رضا الهندي صاحب القصيدة الجميلة، التي سميت بـ"الكوثرية" والتي مطلعها:

أمفلج ثغرك أم جوهرْ ورحيق رضابك أم سكرْ

قد قال لثغرك صانعه إنا أعطيناك الكوثرْ

وكان هذا الاختلاط العجيب مصدر تفاعل لثقافات وعروق وهو مصدر قوة وليس مصدر ضعف، فكان شقيق جدي (اللّح) الشيخ حسن متزوجاً من روسية، وهي شقيقة القنصل الروسي وأتذكر ان القنصل الروسي كان يأتي لزيارته في النجف وهو موشّى بالذهب ليزور صهره المتدين المثقف ابن الشيخ صاحب الجواهر (ابنه الأصغر) وكان عمري لم يتجاوز الخمسة عشر أو ستة عشر عاماً، وقد زوجت أخته (زوجة شقيق جدي) بنت أختها لابن شيخ جواد أبو سيد

اسماعيل أي جدّة أمه كانت روسية وجدّته،لأمه روسية، هذا مثل على بيت الشبرواني. والمثل الآخر بيت البخاري الذين جاؤوا من مدينة بخارى، فأتذكر ان شيخ باقر ابن الشيخ حسن ابن الشيخ صاحب تزوج من بخارية وهم عائلة مؤتمنة في النجف وكان الناس يرهنون الذهب عندهم، وكانت والدتي من بينهم تفعل ذلك، ومن جهة ثانية كانت العوائل العربية القادمة إلى النجف، مثل آل الخفاجي من خفاجة وأبرزهم الشيخ الخفاجي الشهير وآل البديري من الديوانية وابرزهم شيخ جعفر البديري، وكانت البيئة النجفية تستوعب هذه الازدواجية بحسناتها وسيئاتها فإلى جانب الورع، التقي، المتقيد، النظيف، هناك المتصنع، المزيف، التافه، ولا أستثني من ذلك حتى بيوتنا التي تسمى بالعريقة دينيا، وكانت الامتدادات تاريخية أكثر منها حاضرة.

لقد عانى المجتمع من ازدواجيات مختلفة، هناك ازدواجية شخصية تخص الانسان نفسه وهناك ازدواجية اجتماعية وهناك ازدواجية شريرة بحيث تتجاوز الحدود، قد يكون لدي أو لديك ازدواجية معينة، وهي كيفية التكيف مع المجتمع الذي نرفض جزءاً كبيراً من قيمه، لكن هذه إذا امتدت إلى مايخص الآخرين فإنها تكون قد تخطت الأطر والاعتبارات.

* الازدواجية:

* هل لي أن اسألك أبا فرات كيف يمكن التقدم على أو التكيف مع العادات والتقاليد الاجتماعية لشاعر متمرد مثلك؟

** قسم منها اضطراري وهو أمر لابد منه وهو ماكنت أعيشه وما ترك أثره في حياتي، أما القسم الآخر فهو مايتجاوز الحدود، فتراه إذا احتل منصباً أو أصبح زعيما، أو له كلمة نافذة فإن ازدواجيته تصبح مصدراً للشر، فحين تعج المطابخ بالروائح الطيبة ويكون الجيران بلا عشاء، تدرك ماذا تعني هذه الازدواجية حين يلبس هذا الشيخ (الفراء المبطن بالمخمل في الشتاء، ويلبس الحرير في الصيف) بينما

الكثير من أفراد عشيرته الطيبين الطاهرين لا يملكون شروى نقير، هذه الأمور لا يستطيع الزمن أن يمحوها، ولا يستطيع أن يقضي على العقد والرواسب، سواء عندي أو عند غيري، مثلما لا يستطيع أن يمحو الآثار الطيبة كالثورة على الظلم والغضب على المجتمع المستكين، وهذه بداية الثورة على المجتمع النجفي التي انتقلت معي إلى بغداد ورأيت هناك ماهو أكثر عجباً وأتعس من المجتمع النجفي، فلم تعرف النجف الطائفية ولم ألحظ بوجود عنصرية بالتعصب للعنصر العربي، وكان الجميع يندبون بالإيمان والعقيدة والمجتمع الواحد وكره العنصريات وحب الشعوب، أما في بغداد فقد رأيت اللعبة الطائفية والتنازع على المناصب، وإذا كان هناك من له الغلبة فهو لا يتحمل وحده المسؤولية، بل ان حب الزعامات والرغبة في الحصول على المكاسب قد جعلت الجانبين، وخصوصاً الزعامات شركاء في المسؤولية وان كانت هذه المسؤولية متفاوتة.

عندما جئت إلى بغداد ابتُليت بذلك شخصياً وواجهتني مشاكل كثيرة، إذ كنت وديعاً وذا عمامة صغيرة ووزني لا يزيد عن أربعين كيلو غراماً ودون أن أدري صرت الفتيل للقضية الطائفية، التي أخذت دوراً كثيراً ووصلت إلى حد استقالة وزارة أو كادت، ووصل الأمر إلى الملك فيصل الأول وصرت أنا بين التركي المستعرب ساطع الحصري الذي حمل لواء الطائفية من الجانب السني وبين عبد المهدي المنتفكي من الجانب الشيعي، ولم أدرك ذلك لأنني جئت من بيئة نظيفة وأعني بها مدينة النجف لأجد نفسي وسط معركة طائفية لا ناقة لي فيها ولا جمل "آني وين، وهذي المشاكل وين، والطائفية شنو، سِنّة شنو، شيعة شنو، غير عراقي منو، العثماني عربي وعراقي أيضاً، أما العراقي غير العثماني فهو غير معترف به" وقد جننت لهذا الذي جرى خصوصاً وانه خصني شخصياً، ولم يكن يخطر ببالي حتى مجرد التفكير بمثل هذه القضايا، وإذا بي أنا الضحية الأولى.

* الجمهرة:

* ننتقل الآن إلى السؤال الذي يرتبط "بالجمهرة" كيف جرى الانتقاء ووفق أي المعايير؟

** أولاً أريد أن أقول ان المصدر جذوره قديمة، وأستطيع أن أرجع إلى البدايات، ويمكن أن أحكي لك عن أشياء أصبحت منسية الآن، فأنا بحكم الفطرة والاستقلالية لمزاجي الخاص سمّه إلهامي، جنوني الشخصي، تطرفاتي فقد كنت لا أقرأ ديواناً من دواوين العظماء إلا وأكون قد حفظته بالذاكرة ونسخته نسخاً باليد، وهذه الاختيارات الآن في "الجمهره" هي جزء من المخزون القديم، فقد حفظت ديوان المتنبي رغم انه لم يُجمع مرة واحدة، مايقارب الثلاثة آلاف بيت، وديوان أبي تمام يقترب من هذا أيضاً، وكذلك البحتري وأظن انني تجاوزت حفظاً نحو عشرين ألف بيت، فمثلاً ديوان المعري، وكذلك لزومياته. هذا الشاعر المبدع كنت قد حفظته بالكامل، وكذلك ديوان ابي نؤاس حفظت منه أكثر من مائة قطعة.

كان عبد الرزاق الناصري الأديب المعروف، وهو والد سعود الناصري يتعجب حين أتلو عليه هذه المحفوظات، كما يتلوها تلميذ يؤدي امتحاناً في المدرسة وهذا الأمر يمتد إلى ابن الرومي والكميت وبشار ومهيار الديلمي، لقد حفظت ديوانه حرفاً حرفاً وأنا من أشد المعجبين به، وقد أستطيع القول انه أشعر من الشريف الرضي رغم انه تلميذه، لكنه أعمق منه، ولهذه تأتي "الجمهرة" امتداداً لهذه السيرة التي حدثتك عنها ولا أبالغ في ذلك إلا انني كنت أبلغ حد الهوس بالجو الشعري والأدبي، وكنت أنتقي الدواوين من السيد جعفر الكيشوان وأنا مازلت يافعاً، للبهاء زهير وابن الفارض، إضافة إلى المتنبي والشريف الرضي وأحملها معي ولا أنزل إلى السرداب (القبو) تخلصاً من حر الصيف وفي شهر تموز بالذات (يوليو) حيث كانت الحمامة الجميلة

تقع على الأرض من شدة الحر، لأقضي فترة الظهيرة والقيلولة بصحبة دواوين الشعر هذه، بل أبقى في الطابق الأعلى لأنني إذا نزلت إلى السرداب فقد يأخذني النوم، وبالمناسبة فالسرداب كان جوه ناعماً، بارداً، رملياً وهو امتداد للقنوات القديمة والآبار التي تجري تحتها، وأما في الليل فكنت أقرأ هذه الدواوين على الفوانيس (النفطية)، وفي حين كان الأهل ينامون كنت أنا ولوعاً بالقراءة، وقبل العارض الأليم (وسط الثمانينات) في بصري لم أكن أحتاج لتناول الحبوب للنوم، بل ان حبوبي المنومة حتى ذلك الوقت كانت الكتاب إلى أن يقع من يدي فأنام، وكنت أقول هذه حبة المنوم.

* إذا كان الانتقاء يسيراً بالنسبة للقدماء فكيف تم ذلك بالنسبة للمعاصرين؟

** جذور ذلك كانت قد مرت بي وقرأتها ووجدت الجديد فيها، والذي أنا معجب به أما القسم الذي لم يمر علي فقد قرأت كلمة منصفة عن (الجمهرة). مضمونها يقول: عجباً كيف تمكن نفسه بنفسه من (الجمهرة) بهذا الشكل التي هي نتاج مجموعة وليس شخصاً واحداً، أما فيما يتعلق بالمعاصرين فقد أخذت الشخوص البارزة من كل بلد عربي، وكان ينقصني شيء عن السعودية وأظن أن الذي ذكرني به هو الأخ السيد مصطفى جمال الدين، فقد قرأ لي نموذجاً منه وأنا معجب به، وهو تدارك للأمر، أما من لبنان فقد أخذت من كان له أثر عند الناس وليس مسألة قناعة شخصية، فما دام قد فرض نفسه ونزل إلى الميدان الأدبي والثقافي فبكل نجاح وبتجرد أنصفته، وكتبت عن رواد مثل الأخطل الصغير ونزار قباني والياس أبو شبكة وسعيد عقل.

* أدونيس وسعدي يوسف!

* أبو فرات هل أخذت شيئاً من أدونيس؟

** لا... أنا معجب به لكنني أخالفه في الجذور، مع انني معجب بثقافته واختياره وذوقه في المختارات، ولم أعجب بالكثير من المختارات التي كتبت باستثناء

مختارات أدونيس واستفدت منها كثيراً وأنصفته في هذا، وعلى هذا النمط، من مصر أخذت من شوقي مثلاً، أي الذين فرضوا أنفسهم صاعداً بأكثر مما يستحق أو بقدر مايستحق أو دون مايستحق وهناك من ظلم أيضاً. ابراهيم ناجي، حافظ ابراهيم، علي محمود طه، خليل مطران، وهذا أعده آخر الرعيل ولكن هو ممن صُنعت لهم ضجة أكثر مما يجب مثل الزهاوي عندنا في العراق، ومن سوريا أخذت عن المرحوم بدوي الجبل وعمر أبو ريشة وسليمان العيسى ومن العراق أخذت عن الرعيل الأول، الشبيبي والشرقي وأخي عبد العزيز، كذلك أخذت للرصافي والزهاوي وعبد الوهاب البياتي والسياب وغيرهم.

* هل أستطيع أن أسألك عن سعدي يوسف الذي يُعتبر الآن رائداً من رواد الحداثة الشعرية؟

** سعدي يوسف يتميز عنهم بالنغم، انه قريب من التراث، انه صدى التراث لكن هذا لا تحسه كثيراً في الآخرين، إنه إضافة إلى النغم يتميز بالعمق والرمز فالصور والتلاوين الجمالية التي توجد لديه لا توجد لدى الآخرين كما انني معجب أيضاً بصلاح عبد الصبور، وهو من النمط الأول من رواد المدرسة الحديثة.

* كتاب "الجمهرة" أثار ضجة من الجدل والنقاش وهو دليل على انه لقي اهتماماً لكونه عمل كبير(٨٥) .

** بسبب الآفة الأليمة التي لحقت ببصري تأخر طبع (الجمهرة) وربما كان بحاجة إلى مراجعة أكثر لتدارك الهفوات وأنا أعترف بها، وإذا نسيها الناقد سأدله عليها، مثلاً هناك بعض المطولات وتوجد بعض الأشياء اليابسة، فهناك أطرى منها، لكنه جهد فردي على أية حال، وقد يثير نقاشاً كبيراً وهو بالفعل قد أثار رغم عدم اكتماله بمجرد الاعلان عنه.

---

(٨٥) كان هذا السؤال أو التعليق قبل أن يكتمل انجاز كتاب (الجمهرة) الذي أشرنا إليه.

* ثورة العشرين:

* استاذنا الكبير قبل أن ننتقل إلى جو المجتمع البغدادي الجديد، بعد أن انتهينا من المجتمع النجفي، نتحدث عن ثورة العشرين، ماهو تأثير ثورة العشرين وماهي الأجواء التي كانت سائدة آنذاك؟

** باختصار هناك علاقة وثيقة بالجو الذي عشته، جمرة الغضب الأولى كانت من والدي، وثورة العشرين تلقيتها وجمرة الغضب في داخلي على البيئة وعلى المجتمع، خصوصاً وان النجف كانت عاصمة الفرات الأوسط وملتقى عشائره وكان والدي من المشاركين في الجهاد ضد الانكليز في معركة الكوت، وقد عاد والدي قبل أسبوع من انكسار الحملة التركية الثانية، حيث انتصر الانكليز على الأتراك ودخلوا بغداد في عام ١٩١٧، ثم توفي والدي وانتظمت أنا بعد وفاته للكتابة في صحف بغداد حيث كنت أراسلها اسبوعياً. تعجبت الآن كيف ان مهتماً بشؤون الأدب يريد أن يصبح شاعراً وأن ينظم قصيدة مجاراة للجواهري بأربعين بيتاً أو بخمسين بهدف التطويل، لكن ذلك لن يجعله شاعراً فقد ابتدأتُ بالكتابة بخمسة أبيات أو سبعة، وقد ساعدني في ذلك الجو الأدبي في البيت من جهة، وآل الشبيبي من جهة أخرى. ونمّى ذلك شغفي بالقراءة، وتأثر بيتنا بالموجة الدستورية للدستور العثماني ١٩٠٨ وللحركة المشروطية في ايران ١٩٠٦ وتأثيراتهما.

* سبقت ثورة العشرين، حركات وانتفاضات، من أبرزها "ثورة النجف" ١٩١٨ هل كانت هذه "بروفة" أولى لثورة العشرين..؟

** بالطبع كانت تلك مقدمات وهذه العوامل جميعها لعبت دوراً في التهيئة لانتفاضة النجف أو لثورتها فيما بعد. وكان من طلائع الشباب الذين انخرطوا فيها الشرقي والشبيبي وأخي عبد العزيز، وكان هؤلاء ذوو تأثير قوي، خصوصاً مع وصول مجلات المقتطف والهلال وغيرها. وهي مليئة بالفن

الحديث والشعر الجديد وألوان الكتابة. وكانت تحوي الشعر الوطني المعارض والناقد ليس فقط للاستعمار بل للبيئة والمجتمع العربي، وهذا كله ترك تأثيره علي وكان رشيد الهاشمي صاحب "صحيفة الرافدين" وأخوه محمد الهاشمي رئيس المحاكم في بغداد من الشعراء الذين ينشرون أدباً حديثاً وتعتبر صحيفة الرافدين صحيفة وطنية خالصة وبريئة، وهناك صحف أخرى استغلت هذه الناحية متعكزة على التعصب الطائفي، بعكس صحيفة الرافدين.

بعد أن قرأ الناس قطعتيّ المذيلة باسم "نابغة النجف" كنت مرفوع الرأس منتصب القامة وباللهجة العراقية "أمشي شجخ" مثلما يقولون. (أي باعتداد) وكنت أشعر بالغرور أكثر من الثقة، خصوصاً وان قصيدتي جاءت على الصفحة الاولى، وكنت في سري وفي خلوتي أقول "أنا نابغة النجف" ولم تكن لغيري، وسرعان ماكنت أجاري الكبار، فأخذت أنشر جنباً إلى جنب أولئك الذين سبقوني بعشرين عاماً على الأقل. فالشرقي كان يكبرني بأربعة عشر عاماً وأخي عبد العزيز أكبر مني باثني عشر عاماً والشبيبي ١٥ عاماً أو ١٦ عاماً. وأنا في سن العشرين كانت تنشر لي قصائد في الملحق الأدبي للأدب العصري، التي يصدرها رفائيل بطي وعندما حدثت ثورة العشرين كنت مهيئاً بل مشبعاً بفكرة الثورة، ولم تكن تلك مفاجأة لي.

المفاجأة الكبرى لي كانت شموخ القصيدة وقوتها. كانت بعض القطع والقصائد هي جواز سفري إلى بغداد، التي كانت شهرتي قد سبقتني إليها. حتى أذكر وأنا أزور الشيخ الخالصي لأول مرة بدأ الشيخ الشيرازي بالثناء عليها أمام الخالصي وذلك في حين اندلعت الثورة في الفرات، في النجف وكربلاء.. أما بغداد فكانت حصة الشيخ مهدي الخالصي (في الكاظمية) حيث كانت له الكلمة العليا وكان الدين في المجتمع العراقي له تأثير كبير جداً، وهو امتداد لسنوات الحكم العثماني. وعندما حضرت مجلس الشيخ الخالصي كان أول من تعرفت عليه هو ناجي السويدي الذي ربطتني به صلة

وثيقة. وبعد فشل الثورة بدأ الانكليز تنكيلهم بالثوار بينهم الشيخ الخالصي الذي نُفي إلى ايران رغم انه من مدينة الخالص في محافظة ديالى وقلت آنذاك:

صدقـــتَ يـــابرق بهــــذا النبـــا فمـــن لي اليــــوم بـــأن تكذبـــا

وقد اطّلع الخالصي على قصيدتي بعد فشل الثورة واهتز لها فبُلّغت في النجف على يد السيد محمد رضا الصافي شقيق الشاعر أحمد الصافي النجفي باعجابه بها وذلك بوساطة خاصة، ثم وصلتني رسالة أخرى ومعها هدية وهي كيس من الروبيات الحلوة (نقود ذلك الزمان)، وكانت زياراتي إلى بغداد في تلك الفترة لا تتعدى غير بضعة أيام، ليلة أو ليلتين أو أكثر.

* المجتمع البغدادي:

* ابو فرات هل يمكن أن تعطينا صورة عن المجتمع البغدادي فيما يتعلق بالنخبة المتنورة التي تبنت الاتجاه الاشتراكي، أو التي مثلت البذور الأولى للفكر الاشتراكي في العراق والتي ساهم بعضها فيما بعد بتأسيس جماعة الأهالي، أمثال حسين الرحال وعبد القادر اسماعيل ومحمود أحمد المدرس وحسين جميل، وغيرهم؟

** جئتُ إلى بغداد عام ١٩٢٦ وذلك بعد الفتنة الطائفية كما ذكرت، التي سببها متعصب باسم "الثقافة التائهة" (المقصود ساطع الحصري. ع ش) يقابله من الجانب الثاني، رجل جاء مع الملك فيصل الأول للموازنة عند العشائر (المقصود عبد المهدي المنتفكي. ع ش) الأول لإذكاء نار الطائفية البغيضة والثاني وقيل انه للنهوض بالأكثرية الشيعية المتخلفة التي لم يكن فيها إلا واحد بالمائة أو أقل من المتعلمين، أما الفئة السنية فكانت تمثل النخبة امتداداً للحكم العثماني وكان فيها من تخرج من الاستانة وقد يكون نسبة التعليم بينها ثلاثة أو اربعة بالمائة. رغم الجهل المطبق. أما أنيس النصولي فقد راح ضحية الفتنة أيضاً عندما إرتكب خطأً بل حماقة حين إنتقص من ذكرى

استشهاد الامام الحسين وكان رد الفعل الطائفي لهذه القضية ان تم اختياري هدفاً لكي أكون الضحية المقابلة أو التعويضية، وقد اندفعت عاطفياً وبطريقة مرتجلة وأرجع ذلك إلى إيماني بالحسين وقد يكون لا علاقة له بالتدين، الحسين رمز البطولة وهو مفجر الثورة ضد الظلم وقد يكون منشأي وتربيتي هي التي فجرت فيما بعد المعلقة الرائعة "آمنت بالحسين"، شخصياً لا أعرف الطائفية وليس لي علاقة بها إلا انني كنت الشخص المقصود لكي أسدد فاتورة النصولي والضجة التي أثيرت حولها، لقد كتبت بضعة أبيات وارسلتها إلى من كان يستحق أو ربما لا يستحق، فكان جوابه بل مكافأته أن سُئلت إذا كنت أرغب في العمل كمدرس، وكنت مسؤولاً عن عائلة عليّ إطعامها، ثم جئت إلى بغداد، وكان عليّ أن أثبت انني عراقي، ورغم ان عروبتي أمر مفروغ منه، أي ليس بحاجة إلى إثبات، إلا أن المضحك في الأمر هو أن أثبت نفسي كعراقي رغم أن سلسلتي معروفة في كتاب (الجواهر) الموجود حالياً (في مكتبة الأسد بدمشق) بمقدمة لم أكن قد انتبهت إليها وهي تمتد إلى عدد من الأحداد. ولم يكن أي منهم يحمل الجنسية أو حتى يعرفها، وكان الشيخ المظفر هو الذي كتب المقدمة وقانون الجنسية لم يكن قد مضى على صدوره سوى عامين أو أكثر بعد تأسيس الدولة العراقية(٨٦)

هكذا أنا الشاعر العربي أُقاضى بهذا الشكل الاستفزازي بعروبتي وبعراقيتي اللتين عليّ إثباتهما بدوافع غير نزيهة، عنصرية وطائفية، فضلاً عن أن ساطع الحصري الذي كان قد غلب في قضية أنيس النصولي قد جاءته الضحية ليفترسها خصوصاً وهي قادمة من قبل عبد المهدي المنتفكي، فكان

---

(٨٦) تأسست المملكة العراقية بعد استفتاء أجري في العراق لاختيار ملك مقيد بدستور وذلك في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢١، أما قانون الجنسية فقد تم تشريعه برقم ٤٢ في عام ١٩٢٤ وهو قانون غريب في نوعه.
انظر: كتابنا "عاصفة على بلاد الشمس" دار الكنوز الأدبية، ط١، دمشق، ١٩٩٤.

لابد له من الانتقام ولسوء حظه ان جاءت فعلته اللئيمة هذه مع شخص معروف مثلي، ليس في النجف فحسب، بل حتى قبل وصولي إلى بغداد، فرجال بغداد وصحفها كانوا على اتصال كبير بالنجف ومن فيها. وقصيدتي "سجين قبرص" كانت قد وصلت إلى الملك فيصل الأول وهي تخص والده:

هي الحياةُ بإحلاءٍ وإمراء — تمضي شعاعاً كزند القادح الواري
سجية الدهر والبلوى سجيتهُ — تقلب بين إقبال وإدبار
لم يدر من أحسنوا صُنعاً لغيرهم — بأن عقباهُمُ عُقبى "سنمار"
ود الأباةَ وقد سيموا مناقصةً — في الروح لو أبدلوهم نقص أعمار
من ضامن لك والأيام غادرةً — أن ليس ينشب فيك السهم ياباري
ما للتمدن لا ينفك ذا بدع — في الكون يأنف منها وحشهُ الضاري
كم ذا يُسّمونَ أحراراً وقد شهدت — فعالهم أنها من غير أحرار

ولسوء الحظ فإن هذه المعركة لم تكن رابحة هي الأخرى، وهكذا لم يستمتع الحصري بلذة "الفوز"، بل مُني بالخذلان وبالمثل العراقي "نامت عليه الطابوكه" فابتعد ثم أصبح مدرساً في كلية الحقوق، وإذا عدنا إلى الطائفية فإن المنتصرين من أبناء السنة لي ضد الاحراء الطائفي كانوا أكثر من المنتصرين الشيعة، وكانت ضجة مدوية في الصحافة وبين الأدباء والمثقفين ومن الجهة الأخرى، ورغم خطأ النصولي إلا ان عدداً من الطلبة وقف إلى جانبه ليس في أفكاره بل ضد قضية الفصل، وكان ذلك يعني في الحالتين الوقوف ضد النزعات الطائفية، وتلك كانت تحمل البذور الاولى للموقف العقلاني، التقدمي من قضية الطائفية.

* متمرد وعند الملك فيصل:

* كيف التقيت مع الاتجاه الجديد، التقدمي..؟ كيف تقبلك وكيف تقبلته.. وامتزجت معه..؟

** بعد تعييني عند الملك فيصل الأول، استقرت "الزوبعة" التي أثيرت حولي، فتصور اللطمة التي "آكلها" من أراد أن يشكك بعروبتي وبعراقيتي وإذ به يجدني عند أعلى المراجع للملك فيصل الأول "ملك الملوك" في الديوان الخاص، بدلاً من مدرس أو معلم ومفصول ومعتكف. و لم تكن المعركة في وزارة المعارف فحسب، بل انها شملت إذا جاز القول المملكة العراقية كلها. فبعد أن برمتُ وخرجت من جلدي جزعاً فإذا بالحياة تنفتح أمامي وتنحاز قطاعات كبيرة إلى جانبي وفي المقدمة منهم الملك الجليل. و لم يكن السيد محمد الصدر الشخصية الدينية والسياسية بعيداً عن ذلك، وهو المقرب إلى الملك فيصل والذي يدخل عليه بلا استئذان، بل يكاد يكون الوحيد الذي يستقبله الملك حينما يعرف بوجوده في البلاط ودون موعد مسبق.

لم تمر المؤامرة إذن تلك التي أريد لي أن أكون ضحيتها الباردة والمنسية مثلما حدث مع النصولي الذي لسوء حظه أنه جاء من بلد شقيق، أما أنا فقد كنت ولمدة سبع سنوات قد ملأت المحافل الأدبية والصحافة العراقية لدرجة أن اسمي اصبح مسموعاً ومقروءاً، ناهيك عن امتدادي التاريخي والعائلي والديني، لقد أصبحت من المقربين إلى الملك فيصل الأول، بل من أقرب المقربين فإضافة إلى رئيس الديوان رستم حيدر ورئيس المرافقين تحسين قدري وناظر الخزينة صفوت العوّه، وهؤلاء كانوا قادمين مع الملك من الخارج، كنت أنا الوحيد من بينهم الذي يناديني "ابني محمد" دليلاً على المحبة الخاصة، وبقيت في البلاط من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٠ حين قدمتُ استقالتي، وهي أطول مدة أمكث فيها في مكان واحد (وظيفة). خلال تلك الفترة كنت ألتقي بثلة المثقفين والتقدميين في المقاهي، حيث ائتلفتُ مع الجماعة وكنا نلتقي في بعض المشارب ونتبادل الأحاديث والآراء حول العديد من القضايا الاجتماعية.

* كيف تمت الصلة مع الملك فيصل الأول... هل احتجت إلى وساطة، أم هي لفتة إنصاف بعدما لحقك من إساءة، ورد اعتبار إلى اسمك وعائلتك؟

** حسناً فعلت بتذكيري بهذه اللقطة قبل أن نمر عليها، فقد تلقيت توصية من النجف بزيارة السيد محمد الصدر في بغداد، وهو صديق والدي ورجل واثق من نفسه، وكبير الشأن والمنزلة ودرس في النجف أيضاً، وفعلاً زرته واقترح علي الذهاب معاً إلى الملك فيصل الأول وفوجئت بذلك خصوصاً الرواسب التي لدينا حول الملوك وحياتهم وأنا كنت من الشباب الثائرين على الأوضاع. وبعد توجهنا شاهدت الاستقبال اللائق بالسيد الصدر وأنا تبع له. و لم يجر الحديث خلال الزيارة عما كتبته الصحف بشأن قضية الفتنة الطائفية رغم انني علمت ان الملك فيصل كان قد اطلع عليها يوم جاء إلى النجف. بعدها، وفي صدفة عجيبة وأنا أمشي في سوق الكاظمية وإذا بالسيد الصدر أمامي فسلمت عليه بما يجب فبادرني إلى القول... "هل ذهبتَ إلى الملك فيصل؟ وهل تعلم انه طلبك؟" فقلت أنا لم أذهب، ثم تسرعت بالقول "سيدنا هذا كذاب" فقاطعني يابني إذا كان هو كذلك فهل هناك مانع أن تذهب وتقابله؟ فندمتُ وأجبته على الفور "لا سيدنا لا يوجد مانع أبداً" هذه اللقطة البدائية تدل على السذاجة وعلى قلة التجربة. فلم أكن سوى عمامة صغيرة، وعباءة خفيفة، وجيوب فارغة، وتجربة قليلة ولكن في داخلي ديوان شعر.

ذهبت إلى البلاط ولأول مرة ألتقي جعفر باشا العسكري، الذي اهتموا به كثيراً، حيث كان وزيراً للدفاع جميل الشكل والمحيا، وكان نائب رئيس التشريفات آنذاك السيد ناصر الكيلاني، وكان حديثهم يدور حول بدايات ظهور النازية وحانة ميونيخ وجرهم الحديث من التشريع والمجلس التشريعي أو مجلس النواب وإذا بهذا الشاب النجفي يتطفل ليُعرِّف بالرايخشتاغ، وليعرف بنفسه فيما بعد، ثم خاطبني بعد ذلك نائب رئيس الديوان وقال لي "نبارِكُ لَكَ" أي ان الأمر قد صدر، وهنا قال الملك قولته: "ابني محمد هذا جسر تعبر عليه، أنت هنا عندي تعبر من هذا الجسر إلى غيره..." وكرر الملك القول: ابارك لك. فأجبته شكراً سيدي، وإذا عدتُ إلى تلك السنوات لأجد أنه كان جسرا فعلاً، لكنني لم أحسن عبوره بينما عبره غيري حائزاً على كل المكاسب

ودون الكفاءات والاخلاص المطلوبين، وأتساءل الآن أيضاً كيف تحملني الملك فيصل طيلة ثلاث سنوات على تصرفاتي واندفاعاتي تلك، التي هي ارهاصات بل جنون شاعر، لا علاقة لها بالبروتوكول الملكي.

* البلاط والغزل:

* أنت عند الملك فيصل ونشرت قصيدة "النزغة" ثم "جربيني" وغيرها، كيف كانت تمر القضية؟

** تلك هي تصرفاتي المتناقضة وغير المسؤولة فلكل مقام مقال (كما يقال) والتزامات هذا المكان معروفة، لأنها تتصل بصميم الشخص الأول في البلاد، بالملك، لكنني كنت كما تعرفني: هذا أنا، في الكثير من العناصر المتفجرة، الطيبة، واعتزازي بكرامتي، والثقة بالنفس ولكنها جزء من أخطائي وصلت حد الغرور أحياناً، ودمرتُ جزءاً من حياتي.

كل هذا لأقول كيف تحملني الرجل؟ ومسالة "جربيني" أو غيرها لها قصة تستطيع أن تسميها تمرداً على الواقع "وحب الحياة"

* لكن ياأبا فرات... التمرد وصل إلى المغامرة بكل شيء وقد كنت معرضاً لكل الاحتمالات، سواءً في هذه القصائد أو قصيدة "الرجعيون" كيف استطعتَ اقتحام تلك الميادين في مجتمع يعاني من الركود والتمسك بأهداب العادات القديمة، بل وحتى البالية؟.

** كادت المغامرة التي أنا مفتونٌ بها أن تعرضني حتى للقتل، فقصائد الغزل أهون "شراً" من الثورة الاجتماعية التي كنت أدعو إليها بجرأة، خصوصاً في تحدياتي لمن نصَّب نفسه أن يتكلم باسم الدين ليمنع تأسيس مدرسة للبنات في النجف.

سـتبقى طويـلاً هـذه الأزمـاتُ — إذا لم تقصّر عمرها الصدماتُ
إذا لم ينلها مصلحون بواسلٌ — جريئون فيما يدعون كفاةُ
سيبقى طويلا يحمل الشعب مكرهاً — مساوئ من قد أبقت الفتراتُ

قيوداً من الارهاق في الشرق أحكمت لتســخيرِ أهليــهِ لهــا حلقــاتُ
ألم تــر أن الشــعب جــلٌّ حقوقِــه هــي اليــوم للافــرادِ ممتلكــاتُ

تصور الأمر ماذا سيكون موقف الملك فيصل وأنا أتحدى بعض رجال الدين الذين وقفوا ضد افتتاح مدارس للبنات، ألم تكن تلك ثورة...!؟ بل هي ثورة حقيقية حين يتصدى شاعرٌ من المقربين للملك فيصل لقطاعٍ له تأثيره، رغم أنه على خطأ، لقد شعرتُ بصميم الغضب والثورة لقصة منع افتتاح مدرسة "والله العظيم في ليلة واحدة نظمتُ القصيدة" ووجدتها قد نشِرتْ في جريدة العراق باسمي الصريح، أما "جربيني" فكانت باسمي المستعار، والأكثر من ذلك أنني كنت من عائلة دينية، فإذا بالملك فيصل في الصباح يتلقى سيلاً من البرقيات والاعتراضات من المتعصبين واليابسين وضيّقي الأفق، بل أن بعضهم كان يقاتل كي يعاقبني، لكن شيئاً من ذلك لم يمسني كما تعلم سوى كلماتٍ ناعمةٍ استفسارية، منذ ذلك الوقت ولم يمض على وجودي في الوظيفةِ سوى عام ونيف حتى بدأتُ أتضايق وأضجر، بل شعرتُ أنها تكبلُني، وكأن ضوء الشعر يشتعل في داخلي ويدقُّ ناقوسهُ ليحدني متحفزاً مع نفسي، بل ضد نفسي التي أُريد لها أن تطير عالياً في سماء الشعر.

كان الملك فيصل متواضعاً، طيباً، رؤوفاً، واستطيع القول زاهداً، منضدته بسيطة وكراسيه عادية ينظفها أحياناً بريشته دليلاً على التواضع، وهذه صورة للمقارنة لما وصلت إليه أوضاعُ الزعامات لدينا، العليا منها والدنيا، حتى الصغار منهم يتشبهون بالكبار فيركبهم الجبروت والغرور والعجرفة والاستعلاء، بمجرد زيادة مسؤولياتهم، ويشمل ذلك حتى غير الحاكمين وأودُّ أن أشير إلى أنني عندما نشرتُ "جرِّبيني" لم اقصد امرأة محددة، ولاتجربة محددة وأكاد اقول أنني في ذلك الوقت لم أكن قد ذقت امرأة معينة، رغم سفرتين إلى ايران التي كانت في عزِّها وانطلاقاتها وجمالها، وكنت أنا في ريعان الشباب، جميلاً ومطلوباً من النساء، وجيبي ملآن بالتومانات الايرانية.

الحب الأول:

* أبو فرات... وتلك الامرأة التي لفّتكَ بعباءتها وأنت في الثامنة... ماذا تسمي ذلك...!؟

** تلك قصة عجيبة كان حباً عارماً لم استطع النوم حتى تلفني بعباءتها، كانت من عائلة هويدي البغدادية وكنا نذهب في فصل الصيف إلى الكوفه منطقة "الجسر" قرب النهر، كانت جميلة، وتكبرني بحوالي عشر سنوات كنت قد توهمتُ أن ذلك عشقٌ، كانوا هم يأتون أيضاً لقضاء فصل الصيف بالقرب من البساتين وكنتُ انتهز فرصة نوم أهلي في الظهيرة لأذهبَ إليها، كانت تلك اقرب إلى صبوة من صبوات فتوتي التي بقيت أحلُم بها بعباءتها الحريرية وهي ملتصقةٌ بي على نحو بريء وبصمت مطبق.

* كم بقيتَ في سلك الوظيفة بعد البلاط وفي سِلْكِ التعليم تحديداً؟

** لم يدم عملي في سلك التعليم سوى ثلاث سنوات ونيف، تنقلتُ خلالها بين مدارس بغداد والكاظمية والبصرة والناصرية، وضقتُ ذرعاً وظلت الصحافةُ هاجسي الأول، والشعرُ كينونة حياتي، اصدرتُ وكتبتُ في عدد من الصحف، الفرات والثبات والجهاد والأوقات البغدادية والدستور، وصدى الدستور، والجديد والعصور، وكانت أهمُ المحطات وأكثرها معمرةً هي الرأي العام.

الجواهري والسياسة:

* وماذا عن العمل السياسي؟ فمن المعروف أنك رافقتَ عبد الفتاح ابراهيم في تأسيس حزب الاتحاد الوطني في عام ١٩٤٦، والحزب الجمهوري في عام ١٩٦٠، وكنت أحد أبرز شخصيات منظمة أنصار السلام في بداية الخمسينات ورئيس حركة الدفاع عن الشعب العراقي في براغ بعد انقلاب ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣... أين تضع نفسَك في هذا الإطار؟

** بعد سقوط الفاشية وانتعاش المناخ الديمقراطي والليبرالي الجديد، شكلنا حزباً باسم الاتحاد الوطني وهو ذو منحى تقدمي مستقل، حيث شكّل الوزارة آنذاك توفيق السويدي في ٢٣ شباط عام ١٩٤٦ وكان وزيرُ الداخلية صديقي السيد سعد صالح، الذي أجاز خمسة أحزابٍ سياسية وعدداً من الجمعيات والنقابات، وكانت وزارةُ السويدي تلك اقرب إلى الأجواء الجديدة التي ساعدت على حرية الصحافة، لكنها سرعان ماتعرضت إلى ضغوط واستقالت بعد ثلاثة اشهر ونيف (٣٠ أيار - مايو - ١٩٤٦)، وأعقبها أرشد العمري الذي صادر الحريات وضيَّق على حرية التعبير ونشاطات الاحزاب مستخدماً بعض التظاهرات المعادية لبريطانيا ذريعةً لإجراءاته التعسفية[٨٧].

أما عن الحزب الجمهوري فقد قدَّمنا طلباً للحصولِ على إجازةٍ لممارسةِ العمل السياسي القانوني والشرعي بعد أن شُرِّعَ قانون لاجازة الاحزاب والترخيص لها.

لكن هذا الطلب رُفضَ من قبلِ وزيرِ الداخلية (محمد أحمد يحيى) بناءً على توجيهٍ من عبد الكريم قاسم، وكان الفتورُ قد بدأ في علاقته معي، خصوصاً بعد أن ركبه الغرور.

وكان الأمرُ محلَ استغرابٍ شديد[٨٨]

(٨٧) - دامت وزارة أرشد العمري (الأولى) من ١ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ حتى ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته، اعقبتها وزارة نوري السعيد (التاسعة) التي ابتدأت من ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٦، وقدمت استقالتها بتاريخ ١١ آذار (مارس) ١٩٤٧.

(٨٨) - رُفض طلب ترخيص الحزب الجمهوري في شباط (فبراير) ١٩٦٠ وقدم وزير الداخلية انتقادات للحزب بخصوص برنامجه بشأن الحياة البرلمانية وموقفه من حقوق الأقليات، التي كانت متقدمة على ماورد في الدستور المؤقت ومن الجدير ذكره أن محمد أحمد يحيى تولى وزارة الداخلية في وزارة الزعيم عبد الكريم قاسم الثانية التي شكلت في ٧ شباط (فبراير) ١٩٥٩ بعد استقالة الوزراء القوميين، واحتفظ الوزير بمنصبه هذا في وزارة الزعيم عبد الكريم (الثالثة) التي شكلت في ١٣ تموز (يوليو) ١٩٥٩ وظلت في الحكم حتى انقلاب ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣ مع بعض التعديلات عليها.

أما في الخمسينات فقد اندلعت حركة عالمية للدفاع عن السلام العالمي ضد خطر الحروب، وكنت من الرواد الأوائل الذي دعوا إليها في العراق، ونظمت الحركة في حينها حملة تواقيع بعشرات الآلاف، وكان الاتجاه اليساري هو البارز فيها بامتداداته العالمية، وضمت الحركة على المستوى العالمي من الفنانين والمثقفين شخصيات بارزة أمثال، بيكاسو ونيرودا ومدام كوري الذين التقيتُ بهم في مؤتمر المثقفين في وارشو..

وكانت حركة الدفاع عن الشعب العراقي قد شُكّلتْ في براغ بعد انقلاب رمضان ١٩٦٣ من نخبة من المثقفين اليساريين والأكراد، بينهم عزيز الحاج وذو النون أيوب وجلال الطالباني وفيصل السامر والدكتورة نزيهة الدليمي وغيرهم، وذلك بعد حملة التنكيل التي تعرض لها الشباب التقدمي في العراق، ومع أنني اختلفتُ مع بعض التوجهات في وقت مبكر إلاّ أنني بقيتُ اسمياً رئيسها.

أنا لااعتبرُ نفسي سياسياً محترفاً، مارستُ السياسة وكنتُ في أُتونها، بل من أشد المتضررين منها، لكنني مع ذلك لم أكن سياسياً محترفاً، ولم أعرف الألاعيب والحيل السياسية.

سياستي هي قصائدي، وشعري هو مواقفي وكل شيء فيه مُعلنْ وواضح كنور الشمس.

صمام الأمان:

* ماذا عن قصة القصيدة الدبدية الشهيرة "طرطرا" التي أثارت ضجة في أواسط الاربعينات؟

** كان الجو السياسي مملوءاً بالنفاق والتزلف والخنوع لاصحاب المراتب العليا. وكان الركض وراء المناصب دافعاً كبيراً للبعض. اما المعارضات فلم تكن بمستوى المسؤولية. وكان بعضها يترك مكانه لمجرد التلويح له بمقعد في المجلس أو في

الوزارة. كانت بعض الأشياء أقرب إلى الابتذال، لقد تعاون مصطفى العمري وصالح جبر على اغلاق جريدتي "الرأي العام" مما أثار حزناً عميقاً لدي، وحين زارني عبد الكريم الدجيلي وصديق آخر وجداني أخط بعض الأبيات بصورة ساخرة واستهزائية وبكلمات شعبية "طرطرة" توصيفاً للسياسة وطرطور للسياسيين الملفقين. ونبّهاني إلى اهمية الابيات التي أكملتهاوالتي تسخر من الحكام!

وحين اكتملت القصيدة وكانت الراي العام قد عاودت الصدور أعلنت بان قصيدة "طرطرا" ستنشر غداً. والواقع فانني استثمرت وجود صديقي سعد صالح (جريو) وزيراً للداخلية وهو من السادة آل جريو في النجف، فنشرت القصيدة، وتهافت باعة الصحف على مقر "الرأي العام" تهافتاً اضطر معه حرّاس المطبعة لغلق الابواب. ويقال أن بعض النسخ بيع بدينار واحد (أي الف فلس في حين كان سعر الصحيفة بـ ١٠ فلوس آنذاك).

وجرى الاستعداء علّي بعد القصيدة لدى الأمير عبد الاله الوصي على العرش... لكنه لم يحرك ساكناً واستثمر القضية للمناورة ضد خصومه وذلك لتوافقها مع مايحمله من ازدراء واستخفاف ببعضهم، خصوصاً وقد علمت بأنه شغف بالقصيدة وكان يهدد بها الخصوم بالقول: أتسكتون أم ترغبون في طرطرا وذلك بمحاولة لكشف الأوراق. وعلمت بعض تلك التفاصيل لدى "حفلة أم كلثوم" الخاصة في قصر الزهور، حيث طرحت مسألة عضويتي بالمجلس النيابي.

أيْ طرطرا تطرطري	تقدّمي، تأخري
تشيّعي تسنّني	تهوّدي تنصّري
تكرّدي تعرّبي	تهاتري بالعنصرِ

تعمـــــــي، تـــــبَرنطي   تعقلــــي، تســــدري[٨٩]

إلى أن يقول:

إن قيـــل إنَّ مجدهـــم   مزيـــفٌ فــــأنكري
أوقيــــلَ أن بطشـــهم   مـــن بطشــه المســتعمر
وإن هـــذا المستعيــــــ   ـــر صولــة الغَضَنفَــرَ
أهــونُ مـــن ذبابــــةٍ   في مســتحم قَــذِر
فهـــي تطـــير خُـــرَّةً   جناحهــا لم يُعَــر
وذاك لـــو لم يستـــعِير   جناحهــا لم يطــر
فغـــالطي وكـــابري   وحـــــوِّري وزوِّري

وقبل ذلك كانت القيامة قد قامت عندما ألقيت قصيدة "ابوالتمن" وكانت هذه المناسبات مدخلاً للافصاح عن آرائي وللتعبير عن وجهات نظري ازاء القضايا العامة. وجئت لحفل "أبو التمن" ووجدت في القاعة وجوهاً عديدة من الشخصيات والزعامات والحاكمين وفي المقدمة منهم نوري السعيد.

---

[٨٩] ـ تعممي (نسبة إلى العمامة) وتبرنطي نسبة إلى البرنيطة (غطاء الرأس الاوربي) وتعقلي نسبة إلى (العقال والكوفية). وتسدّري فهي تعود إلى "السدارة" وهو غطاء للرأس هندي الأصل في أغلب الظن والقصيدة جاءت على وزن

أي دبدبـــي تدبدبــــي   أنـــا علـــي المغربـــي

وقد نظم السياسي المعروف عزيز الحاج سكرتير القيادة المركزية للحزب الشيوعي قصيدة على منوالها عندما كان في قصر النهاية بعد القاء القبض عليه أوائل عام ١٩٦٩ ونشرتها مجلة الصيّاد في حينها:

اي بيــتر، تبيـــتري تبيــــتري   وعبري عن حقدك الاسود مالم تقدري
يــالامس كنــت بيننــا شــقاوة كعــنتر

والمقصود هنا رفيقه في القيادة بيتر يوسف.

ومن الجدير بالاشارة إلى ان قصيدة طرطرا للجواهري، كان قد نظمها في عام ١٩٤٥ ونشرت في ٢٤ آذار (مارس) ١٩٤٦.

وهناك تفجّر الغضب والتحدي العنيف.. وأتساءل الآن كيف تحمّلوا ذلك؟ وكيف نشرت عدد من الصحف الوطنية ماقلته آنذاك وهو "ما لم يقله موسى بفرعون"!؟

قسماً بيومك والفرات الجاري والثورةِ الحمراء والثوّار

وهنا تحول حفل التأبين إلى هتاف وتصفيق على غير العادة. وهنا خاطبت الساسة المتفرعنين قائلاً:

شاخ الشبابُ الطيبون وجُددّتْ فيها شبيبةُ شيخةٍ أشرار

وبدا على وجهِ الحفيد وجدّه للناظرين تقارُبُ الأعمار

وعرفت أن نوري السعيد قد إنسحب وأنا أواصل إلقائي:

خمسٌ وعشرون انقضتْ وكأنها بشخوصِها خبرٌ من الأخبارِ

ضقنا بها ضيق السجين بقيدهِ من فَرْطِ ما حملَتْ من الأوزارِ

من كان يحسبُ أنْ تريَد رعيَّةً في ظلِّ دُستورٍ لها وشعارِ

مايَطلبُ المأسورُ من يدِ آسرٍ إسداءَ عارفةٍ وفكُّ إسارِ[٩٠]

وبعد الانتهاء من القاء هذه القصيدة التي أثارت ضجة كبرى، عرض عليَّ صديقي سعد صالح الشخصية المعروفة ورئيس حزب الاحرار، والذي اصبح وزيراً للداخلية بعد اسابيع أن اذهب معه إلى بيته للاستراحة أو القيلولة ادراكاً منه للعواقب المحتملة جرّاء غضب الحكام ونقمتهم، بسبب هذه القصيدة، وفعلا ذهبت معه فافترش لي فراشاً نظيفاً في صالون الزُوّار، لكنني لم اتمكن من

---

[٩٠] ـ لنمعن النظر فيما قاله الجواهري قبل نصف قرن بالتمام والكمال:

نُمِر الجنوب فقيل كيدُ خوارجٍ وشكا الشمال فقيل: صنُع جِوارِ

والقابز الوسط المُدِلُّ فلم يدع بعض لبعضهم فِئَةً لفخارِ

ودعا فريق ان تسود عدالةٌ فرموا بكل شنيعة وشنارِ

النوم فانتفضتُ مرتدياً ملابسي غادرتُ بيتَه الواقع في الصالحية، مشياً على الاقدام الى بيتيَ الواقع في محلة الجعيفر في الكرخ ايضاً، فقلق عليٌّ الرحل وهاتفني مستفسراً وللاطمئنان، فقلت له. "ياأبو لؤي أنا مغامرٌ طيلة حياتي وأتوقع كل شيء واذا اختفيت عندك اليوم أو عند غيرك غداً فماذا سيكون بعد غدا!"

ذهبتُ بعدها الى الصحيفة وعلمت أن أمراً بالقاء القبض قد صدر عليٌ، ولكن الاكثر من هذا أن صحيفة الرأي العام نشَرتها في اليوم التالي كاملةً على صفحتها الأولى(٩١) ، ولكنني عُدت إلى البيت و لم يمسَّني أحَدْ، رغم أن إجراءاتٍ كانت تتخذّ لتحريكِ الدعوى. ولك أن تتصور لوجرى مثل هذا الأمر الآن أو عُشر مِعشارِه ماذا ستكون العواقب...! هذه اسئلةٌ علينا التفكير بها بعد تجربتنا الشاقة والمريرة.

ثمن القصيدة

* استاذنا كيف تتوازن مع نفسك وكيف تتفاعل مع بعضك وانت في هذا التحدي...؟ ماهو ثمن القصيدة الوجداني...؟ وماهو ثمنها الاجتماعي-الواقعي؟ وباية حالة تكون؟ وضمن أي دائرة من المعاناة تتحرك...؟

** أعيشُ أولاً في عالم الشعر، وثمن القصيدة وجدانياً هو تسامي الروح وانسجامي مع نفسي، فليس ثمة أجمل من أن ينسجم الانسان مع نفسه، ولكن ليس بامكان المرء أن يكون هكذا دائماً، أما على المستوى الفعلي أو

(٩١) ـ أُقيم الحفل التأبيني (الأربعيني) للزعيم الوطني محمد جعفر ابو التمن في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ ونشرت القصيدة في صحيفة "الرأي العام" في العدد ١٤٢٢ في ٦ كانون الثاني (يناير) من العام نفسه، وصادف ذلك يوم تأسيس الجيش العراقي، وقامت بعض الصحف بنشر القصيدة في اليوم التالي، كما نشرتها في حينها مجلة "الكاتب المصري" في القاهرة التي كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين.

الواقعي فالثمان قصائدي باهظة أدفعها بالمُعجّل لا بالمؤجل، وكلُّ قصيدة رقيقة أو قطعة تحدٍ رائعة، أربحُ عالماً بكامله هو عالم الفن وأخسرُ الكثير من الامتيازات، بل تضيق عليَّ السبل.

إن كل قصيدة هي ثمرة نكسه أو فاجعه أو نتاج موقف، فمثلاً كانت قصائد المرحلة الاولى من حياتي في النجف قد عكست طبيعة تلك الفترة القلقة، المتمردة، المتناقضة، أما المرحلة الثانية فابتدأتْ بوصولي إلى بغداد والفتنة التي صاحبت مجيئي بين المدير (مدير المعارف ساطع الحصري) والوزير (عبد المهدي المنتفكي) ثم استمرت خلال وجودي في البلاط، وخسرتُ مكاني لكنني توجهتُ بعدها إلى الصحافة وبدأت ملامحي المتميزة تفرض نفسها على الواقع الادبي والثقافي منذ أواسط الثلاثينات، حتى أنني بسبب ذلك دخلت في القائمة السوداء، وانقطع الراتب الذي كنت اتقاضاه من الملك فيصل الاول حتى بعد خروجي من البلاط، وتحول ماكان أولَهُ حب إلى حقد وكراهية، يمكن القول أن حبل الود قد انقطع بين الملك وبيني إذ أنني "لم أطِعْ أمرَهْ ولم اسمعْ كلمتَهْ، ولم أخذ نصيحته وإعتبرتُ هذه القضية، قضية كرامةٍ وليست قضية معيشة" ثم كان ماكان بعد انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦، واصداري جريدة الانقلاب، ثم نقدي لبعض الظواهر فيما بعد.

ولم يبق معنىً للمناصب عندنا سوى أنها مُلكُ القريب المصاهرِ

وكانت طباعٌ للعشائر ترتجى فقد لوّنت حتى طباع العشائرِ

ثم جاءت قصة النيابة ووجدتني اذهبُ ضحية الخديعة ايضاً، مصدّقاً وعوداً كان قد قطعها لي الأمير عبدالاله وعدتُ خائباً، منكسراً، حزيناً، لكنني ربحت مقابل ذاك قصيدة أو ملحمة "المقصورة"

المقصورة التي تزيد على الأربعمائة بيت، لكن أكثر من مائة بيت أطارته الريح، ليختلط مع مياه نهر دجلة اثناء اشتغالي بتنقيح مُسوَّدتها، حيث كنتُ

أسكن داراً مُطلّة على النهر، وضاعَ حوالي خمسين بيتاً عند تدوين خواطري وأوراقي الخاصة[٩٢] في وقت لاحق.

برغم الإباء ورغم العُلى ... ورغمِ أنوفِ كِرام المَلا
ورغم القلوب التي تستفيـ ... ـضُ عطفاً تحوطكَ حَوْطَ الحِمى
وإذ أنت ترعاكَ عين الزمانِ ... وَيهْفو لجرْسِكَ سمْعُ الدُّنى
وتلتفُّ حولك شتى النفوسِ ... تجيشُ بشتى ضروب الأسى
أقولُ لنفسي ــ إذا ضمّها ... وأترابها محفلٌ يُزدهى:
تسامَيْ فإنكِ خيرُ النفوسِ ... إذا قيسَ كلٌّ على ما انطوى
واحسَنُ مافيكِ أنّ "الضمير" ... يصيحُ من القلب إني هنا
تساميْ فإنّ جناحيك لا ... يَقِرَّانِ إلا على مرتقى
سلامٌ على هضباتِ العراقِ ... وشطيهِ والجرفِ والمنحنى
على النخلِ ذي السعفاتِ الطوالِ ... على سيدِ الشجرِ المقتنى
على الرُّطبِ الغضّ اذ يجتلى ... كَوَشْي العروسِ واذ يُجتنى
على الجسرِ ماانفكَّ من جانبيهِ ... يُتيحُ الهوى من عيونِ المها
فياليتَهُنَّ الذي يعتدي ... ويا ليتكَ الرّجُلُ المُعتَدى

لقد نضجت هذه الثمرة، بل بلغتْ ذروتها موحيةً بولادة شي جديد اعتز به، واقول. "لوذهبت دواويني كلها لبقيتْ "المقصورة" فهي ملحمة، سلم منها كماذكرت قرابة مائتين وأربعة وخمسين بيتاً، كنت اتطلع كيف تداعب أمواج دجلة الابيات الطائرة، وكأنني اختلط ودجلة بذات الهم، ولم أسْعَد في بيت بحياتي كلها مثل ذلك البيت في الجعيفر وعلى النهر "يارب ماأجمل هذا البيت، قصائدي الرائعة في الاربعينات كلها كانت في هذا البيت. "المقصورة" ، "المعرّي"، "حيفا"و "دجلة في الخريف"، "ولي الشباب"، "سواستبول"، "ستالينغراد".

---

[٩٢] ـ نظمت "المقصورة" في أواسط عام ١٩٤٧ ونشرت الصحف العراقية مقطوعات منها، كما قامت صحيفة "الرأي العام" بنشرها في عددها الصادر ١١ آب (اغسطس) ١٩٤٨.

لقد كنتُ مثل جمرة من غضب ونار بعد ترشيحي للنيابة وخسارتي لها (عن لواء كربلاء) وبقصة طويلة رُشِّح أمامي عبد الرزاق شمسة رئيس بلدية النجف وهو صديقي، ولكنها كانت خدعة فانتفضتُ وجاءت "المقصورة" التي تساوي عندي "نصف الدنيا" مقابل خسارة زهيدةٍ ورخيصة.

ألا بـن كريـمٍ يَسُـرُّ الكـرامَ	بجيفـةِ جلـفٍ زنيـمٍ عَتـا
فياطالمـا كـان حَـدُّ البَغـيٍّ	يُخفـفُ مِـن فحشِ أهـل البغـا
بمـاذا يخوِّفـني الأرذلـونَ	ومِـمَّ تخـافُ صِـلالُ الفـلا؟!
بلى! إن عندي خوفَ الشُّجاعِ	وطيشَ الحليمِ، وموتَ الـرَّدى
إذا شئتُ انضجتُ نضجَ الشِّواء	جلـوداً تقصَّـتْ فمـا تشـتوى

حركة عام ١٩٤١ ومعيار الجواهري:

* أبا فرات... قبل أن ننتقل الى موضوع آخر، ماهو موقفك من حركة عام ١٩٤١ عند اندلاعها ضد البريطانيين، فكما نعلم انك غادرت العراق بعد فشل الحركة، مع تحفظاتِك وانتقاداتك هنا وهناك...؟!

** بدأت مضايقات رشيد عالي الكيلاني لي بعد الحركة مباشرة، بهدف تطويعي واحتوائي، وهو المحسوب على العائلة المالكة، لكنه اخذ يميل إلى المانيا النازية ونسج أوثق العلاقات مع سفيرها (غروبا)، الذي اخذ يؤثر في السياسة العراقية في أواخر الثلاثينات وحتى الحركة، في حين كان رشيد عالي الكيلاني لمدة عشرين عاما ممالئاً للانكليز، ومتوافقاً مع نوري السعيد رجلهم الاول، وكان عندما يخاطب العائلة المالكة يوقّع "عبدكم المخلص" ولك أن تتاكد من الأمر واظنك قد اطلّعتَ على ذلك في كتاب السيد عبد الرزاق الحسني "تاريخ الوزارات العراقية" فانا راجعتُ الامر بنفسي وقرأت تذيله (خادمكم المطيع) وذلك قبل بضعة ايام فقط من حركته المعروفة.

انا كما هو معروف ضد الانكليز وسياستهم المعادية للشعب العراقي، اتذكر المثال الشهير الذي أثار ضجة عن "العجوز الشمطاء التي تتوكأ على عصاها في طريقها إلى قبرها" وأعني بذلك بريطانيا، وقصتي معروفة بما نلته على ايدي الحكام، كما هي حصة الصحف التي اصدرتها، كما ان موقف الكيلاني من بريطانيا معروف، فاخذ يضغط عليّ بعد حركته[٩٣] فاراد أن يورطني كما ورّط الشاعر الرصافي الجليل، الذي مات وشمس تموز المحرقة على سريره، في منطقة الميدان (المعروفة) ببغداد، وحسب قناعتي ان لرشيد عالي الكيلاني سبب بذلك، اذ أجبرهُ على لقاء مالايشتهي ومع ذلك فهو موقف عابر، فالرصافي في مكانته التي تشفع له وماضيه الكبير وانسجامه مع نفسه، لكنه كان يتألم بسبب ذلك.

يوم كتب الرصافي "طاروا بأجنحه الأجانب" ويقصد العائلة المالكة وهو ما كان يريده لاسباب شخصية رشيد عالي الكيلاني، الذي خدمهم بطاعة. وهذا ماكان يطلبه رشيد عالي مني ايضا، الذي كان مستعداً في سبيل شهوة الحكم أن يهلك كل شيء واذا به يستدعيني ويطلب مني كتابة قصيدة، أو بعض الابيات بحق العائلة المالكة "وكأنني شاعرٌ تحت الطلب" وقال لي بالحرف الواحد "انت قمت بواجبك بأكثر من الواجب في صحيفتك، هذا شيء ولكن المطلوب منك وانت الجواهري، شاعر العراق، وشاعر الوطن قصيدة أو بضعة أبيات...

(٩٣) ـ بدأت حركة رشيد عالي الكيلاني في ٢ أيار (مايو) ١٩٤١ وعُرفت باسم "حركة مايس" حيث تحرك الجيش للمرة الثانية بعد انقلاب بكر صدقي بقيادة العقداء الأربعة "المربع الذهبي" ثم بدات الحرب العراقية البريطانية، وأعيد الأمير عبد الاله بعد هربه وأسر عدد من الضباط العراقيين في قاعدة الشعيبة، واعدم العقداء الاربعة وانزلت الاحكام الثقيلة بالبعض الاخر، واستطاع رشيد عالي الفرار الى تركيا ومنها الى المانيا، ثم تنقل بين مصر وسوريا واستقر في الخمسينات في السعودية حتى عاد الى العراق بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨. انظر: كتابنا "الصراع الايديولوجي في العلاقات الدولية" دار الحوار، اللاذقية ١٩٨٥.

كان الحديث الاول بمثابة رشوة مُقدَّمة سلفاً، وكنت اعرف تجربة الرصافي شاخصة أمامي، فرفضت وحتى لو قال لي اشتم لورنس، فلا اشتمه أو لو طلب مني، شتم الانكليز وانا المعارض لسياساتهم لما فعلتُ ذلك، أخذ يتضايق وألح علي، ثم أشار باصبعه، "ولو بيتين" وهي أقرب الى التوسل مع انها تحمل التهديد. فعدت الى المنزل وقلت لهم "اجمعوا أسبابكم "أي حاجاتكم" وذهبنا الى النجف وتوقفت صحيفة "الرأي العام" وهو ماله علاقة بقصة خروجي من العراق، وحينما عادت الامور بعد الحرب العراقية البريطانية، طلب مني القادمون الى الحكم من جديد اعادة "الرأي العام" باتصال تليفوني بين بغداد وقائمقامية النجف (حيث لم يكن في بيتنا تلفون) فقلت: اغلقتها أيام رشيد عالي الكيلاني ولست مستعداً أن أُعيدَها الآن والجيوش البريطانية داخل بغداد، وفي كل بيت نكبة حيث نُهبت بغداد واستُبيحت، خصوصاً بعد حملة سلب اليهود "الفرهود"، قالوا: اذا كانت الامور المادية غير متيسرة فنحن مستعدون... اجبتهم لو فُرِشت الارضُ ذهباً فلست مستعداً، ثم استدعيت الى بغداد وفيها قابلت مدير الاعلام (نور الدين محمود) فقال: يريد ان يقابلك المدفعي (ابو سعد)، وعندما قابلته كررتُ رأيي، ثم حولني الى الشيخ محمد رضا الشبيبي، باعتباره شاعراً واديباً فقلت له الكلام نفسه، هكذا كما تلاحظ اصبحتُ مطلوباً، ولكني بدأت اشعر أن هذا الرفض شديد الوطأة على الحاكمين، الذين كانو ضدي وضد امثالي، خصوصاً وانهم قادمون مع "الحملة البريطانية"، فقلت للعائلة مرة ثانية "اجمعوا أسبابكم، وهذه المرة ليس الى النجف، بل الهجرة الى ايران، وهذه خلاصتها وبدايتها ونهايتها، ونهايتها معروفة، الى ان جاءت الوثبة والدم، ويوم الشهيد، والمجلس النيابي، وانا أبيع السماور العتيق وأمامي النواب الجُددُ بسياراتهم الجديدة، وكذلك بعض الاحزاب المزعومة والاحكام العرفية...

وانا ابيع السماور العتيق لانني قلت لا، لأريد النيابة، ولاقبل التزييف، واعتقد ان دواويني في الاربعينات تختصر هذه القصص.

استلهامات:

* أبا فرات... بعيداً عن السياسة يلاحظ رُغم المنابع الثقافية، العربية والاسلامية البارزة ان هناك استلهامات من الادب العالمي، هناك مثلا الكاتب الفرنسي "بيير لويس" الذي إستشهدت به، ورائعة افروديت التي هي ملحمة حقيقية، وستبقى خالدة بما تحويه من عناصر ابداعيه وجمالية، كذلك استعارتك من (أميل زولا) وغيرهم كيف اطلعت على الادب العالمي!؟

** يوم كنت في النجف وانا بعِمّةٍ ولحيةٍ خفيفة، وشارب صغير، كنت التهم هذه الكتب حتى عجبت عندما سألتُ في بغداد مثقفين بارزين... هل قرأتم كتاب الأوباش لأميل زولا؟ قسم منهم لم يسمع به... وقسم لم يقرأهُ... هل قرأتم كتاب (جين لويس) عن حرب النجوم أو اللصوص لشيلر فكان الجواب في الاعم الاغلب... لا، رغم ان بعضهم يعرف اللغة الاجنبية.

* أبا الفرات... ألم تقرأ شكسبير!؟

** قرأتُ كتب شكسبير كلها ولم يفتني واحد منها، كما قرأتُ بايرون، وشيلر، وغوته، وهولدرن وآليوت، وكل ماكان يقع بين يدي وانا الى الان معجبٌ بما يترجم عن الحضارة الاوروبية وعن الثقافة والادب الاوروبي.

* وماذا عن آليوت ودوره في الشعر الحديث!؟

** لقد قرأته متأخراً ولكنني معجبٌ به واعود الان الى افروديت التي تمتاز بحرارة الشباب وعرامة الحب.

* بعد اكثر من نصف قرن افروديت مازالت حية وستبقى خالدة[94]

** لن ياتي احد بمثلها!!

ثُمَّ نادت "جالا"
وكانت من الرِّقةِ
كالماء إذ يَهُزُّ الخَيَالا
من بَناتِ "الهنود"
تعرف مايُرضي الغواني..!
ومايَزينُ الجمالا..!
منَ أتى أمس..!
خبرِّيني
ألا تدرينَ..؟
كلاَّ.. فلستُ أُحصي الرِّجالا..!!
أجميلٌ فلم أُمتِّعْهُ
إذ نِمْتُ عميقاً ممَّا لقِيْتُ الكلالا؟
ومتى راحَ..؟
في الصباحِ..؟
ألا يرجع..؟
ماذا أبقى..؟
أغادَرَ شيًا..؟
ناوليني أساوري
فأتتها بصُنَيْدِيَق.. أودعتْهُ حُليًا
دفعتْ عندَها ذراعينِ
سُبْحانَ الذي يخلُقُ الجمالَ السَّويًا!!

وهنا أود أن أنقل لك القصة التالية: تعرفت على اسكندر الرياشي صاحب صحيفة "الصحفي التائه" الواسعة الانتشار آنذاك في سورية ولبنان

(94) ـ الاصل في هذه القصيدة هي قصة للكاتب الفرنسي بيير لويس، الذي ترجمها الى العربية محمد الصاوي، نظم منها الجواهري ست قطع، ثلاثا في عام ١٩٣٢، نشرت في جريدة الاهالي وثلاثا في عام ١٩٤٦ ونشرت في صحيفة "الرأي العام"

والعراق وغيرها من البلدان العربية. وكان الرياشي ملّماً بالادب الفرنسي ومهتماً بالكتابات عن الحب والغزل، بل يعرف هو دروبه وكهوفه ومساراته. وكنت قد سمعت انه قد نقل بعض المقطوعات الشعرية، التي كنت اكتبها في صحيفة "الاهالي" الاولى، التي نشرت افروديت والتي كان يصدرها الشباب التقدمي آنذاك، امثال حسين جميل وجميل عبد الوهاب وغيرهما. وكان هؤلاء يأتون اليّ ويأخذون قطعة للنشر حيث كنت في قلم التحرير في وزارة المعارف آنذاك (١٩٣٢). وقد أثارت القصيدة ضجة في بغداد وكانت الاهالي تنفذ من الاسواق بعد ساعة أو أقل لنشرها تلك "القطع الجريئة"

وحين تصادف وجودي في لبنان، في احدى المرات، زرت الرياشي وكانت مفاجأة له فقد قال لي "...صدّق ان افروديت كانت أجمل من الاصل الفرنسي لبيير لويس... ربما استطعت أن تؤلف ذلك بحرارة الحب الشرقي والعاطفة الساخنة..." ثم ذكر لي أن لديه اكثر من ترجمة، لكنه لم يجد واحدة منها تساوي افروديت. وهي شهادة أعتزبها.

اما "الاوباش" فقد كانت مؤشراً على نضوج الفكر التقدمي لديّ... ربما كان موجوداً أساساً منذ وقت مبكر، لكنه تعمق فوجدت نفسي في قصيدة الاوباش المقتبسة من قِصة الاوباش للكاتب الفرنسي "أميل زولا" والقصة تدور حول إظهار الصفات الكريمة والاصلية لدى الفئات الشعبية، والتي يسمونها "الرعاع" احياناً أو "الاوباش" في بعض الاحيان. وقد نشرتها جريدة العراق في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٣١.

أتصلحُ ماالطبائعُ افسدَته	قوانينٌ مفسَّخةٌ هُراء
وماذا غيَّرت نُظمٌ وهذي	حياتُكَ جُلُّ مافيها شقاءُ
وماعُدِمَ الهناءُ بها ولكن	تنُوزِعَ فيه فاحتُكِرَ الهناء
ولم تتفاوتِ الطبعاتُ الا	لتنحصرَ الرَّفاهةُ والنماءُ

وأعتقد أن مواقفي تلك الواضحة والجريئة قد جلبت لي خصوماً كثيرين وكان ماكان من حقد وحسد تعرضت لهما.

العبقرية والعزل:

* أبا فرات، لقد شهدت الاربعينات ذروة النضج والتكامل فكانت "المقصورة العظيمة" و"أبو التمن الرائعة" و"المعري" و"أجب أيها القلب" و"أخي جعفراً" و"يوم الشهيد" و"سواستبول" و"دجلة في الخريف" و"يافا" و"طرطرا" و"الوتري" وغيرها..! هل كان ذلك بفعل الجو العام وفترة الحرب والحريات النسبية بعدها وإجازة بعض الاحزاب والجمعيات وإنفتاح الصحافة، أم له علاقة بالوضع الخاص وإمتلاكك ناصية الشعر وتمكنك من أدواتك لدرجة اطلق عليك الرصافي "رب الشعر"!؟

** الاثنان معاً. العام والخاص واشدد هنا على المقصورة، التي أعدّها نقلة نوعية مختلفة ومتميزة. وإذا كانت تلك القصائد، كما أشرت في تقديمك ينبغي أن تكون معلقات وتكتب بماء الذهب وتعلق في الساحات العامة، لكن الواقع كان شيئاً مؤسفاً وأليماً، ليس على مستوى الساسة والحكام بل على مستوى الاعلام والنقاد أيضاً. وكانت هناك محاولات لتغييبي وظلّت إلى أيامنا هذه سواء في الاذاعة وفيما بعد في التلفزيون أو في الكتب والمناهج الدراسية في المدارس والجامعات. وقد سمعت أحد الجامعيين يتحدث من دار الاذاعة حين سُئل لمن تقرأ من الشعراء فأجاب: من الشعراء القدامى أقرأ لأبي تمام وحين سُئل من المعاصرين قال أقرأ لاحمد شوقي وحافظ ابراهيم وهكذا كان البعض في كل مكان يتحدث باللغة التي يريدها المعنيون أو القائمون على الأمر.

* بتقديري أبا فرات أن هناك سببين لمحاولات العزل أو التهميش الأول: متعمد وقصدي بلا أدنى شك وهو محاولة للتغييب لسبب يتعلق بالمواقف

والحضور الثقافي والفكري. والثاني: هو الجهل الذي يجلب معه التعصب. وبين هذا وذاك توجد أكثر من وشيجة.

** وأقول لك إن ذلك لم يكن يجري بمعزل عن أجهزة ومخططات لها علاقة بأمور أمنية وأخرى لها علاقة بالثقافة وتخريبها. ربما أعتبروا قصالدي مدافع ثقيلة وبعيدة المدى..؟ لقد إعتدنا على سماع إذاعة لندن "هيئة الاذاعة البريطانية" و"صوت أمريكا" و"مونت كارلو" مؤخراً وهذه تتحدث عن الادباء والشعراء قديمهم وحديثهم، هل سمعت ذكري وهل مرّ إسمي عليك واذا حدث ذلك فهو لايستحق التوقف!

* أليس هذا واجب الجبهة الثقافية الأخرى، وأعني بها التقدمية؟

** هذا ماينبغي أن يكون لكن أين هم؟ وهو مايحزّ بالنفس.. صحيح انهم مظلومون أيضاً والمجالات شحيحة أمامهم. وبصراحة فان المثقفين الذين يعنون بالادب والشعر قليلون وأقل منهم المهتمون بفلان ناهيك عن ملابساتهم ومشاكلهم.

الوثبة:

* الجواهري الكبير، الذي ارتبط اسمه بالوثبة ضد معاهدة بورتسموث عام ١٩٤٨.. ماذا كانت نتائج الوثبة؟ وهل حدث شيء من الانفراج والى أي مدى؟

** كنت قد عدت من لندن وأصبحت نائباً بالتزكية "وأصبحت عن أمر بليل نائبا" كما قلت وكان الشارع يغلي. وقد أعلن محمد فاضل الجمالي بنود معاهدة بورتسموث في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ وهو وزير الخارجية انذاك، أما رئيس الوزراء فقد كان صالح جبر. وكان رد الفعل الاول من الطلاب ثم تحركت الاحزاب والصحافة. ونددت في صحيفتي "الرأي العام" بالمعاهدة التي أرادت أن تكبّل العراق لمدة ٢٥ عاماً

بقواعد عسكرية وإمتيازات لصالح بريطانيا ومعروف لن العراق هو الطرف الاضعف وكانت المفاجأة، أن صدر بيان إلى الجمهور من الوصي عبد الاله، يؤكد فيه بعد اجتماعه بقادة الاحزاب والمسؤولين في البلاط الملكي، ان المعاهدة لاتحقق أماني البلاد وليست صالحة لتوطيد العلاقة بين العراق وبريطانيا ووعد الوصي وولي العهد بعدم ابرامها.

ثم حدث شيء مفاجئ حين إستمرت التظاهرات دون سبب مقنع خصوصاً بعد فشل إبرام المعاهدة وسقوط وزارة صالح جبر. وهنا وقعت الواقعة أو الواقعات حين سقط الشباب مضرجين بدمائهم وفي المقدمة منهم اخي جعفر.

وأنا استعيد تلك الفترة أقول ماكان ينبغي الاستمرار في الحماسة وكان ينبغي الاكتفاء بالمكاسب التي تحققت وهو رفض المعاهدة وإسقاط وزارة جبر.

وحين ابتدأت "معركة الجسر" كنت مازال في المجلس، واخترق الرصاص الشوارع ووقع جعفر صريعاً، بعد مقاومة للموت دامت نحو اسبوع. وحملناه إلى النجف بعد اذاعة النبأ من دار الأذاعة، وهي سابقة غير مألوفة ووجدت نفسي في جامع "الحيدر خانة" أعتلي الصفوف لأنشد:

أتعلمُ أم أنت لاتعلم ... بأن جراح الضحايا فمُ
فمٌ ليس كالمدعي قولةً ... وليس كآخر يسترحم
يصيح على المدقعين الجياع ... أريقو دماءكم تطعموا!
ويهتف بالنفر المهطعين ... أهينوا لئامكم تكرموا!

لقد صدرت الارادة الملكية بعد ذلك بحل المجلس النيابي وقبول استقالة وزارة صالح جبر. ومن الجدير ذكره ان الوصي عبد الاله كان قد ارسل ممثلاً عنه في تشييع جنازة أخي جعفر، فقصدته لاشكره على موقفه واذا به يفاجئني "إن مكانك

محفوظ" وكان يقصد في المجلس النيابي. لكنني دون سابق تخطيط أجبته: أريد أن ينتخبني الشعب، في إشارة مني الى "التزوير" و"التزييف" لإرادة الناخبين.

وأتساءل الآن هل هذا كان مطمحي!؟ ألم يكن ثمة تحدٍ بل غرور!!. وأقول الأن أيضاً، إن الوثبة لووجدت قيادة كفوءة وحازمة لها لما جعلت الأمور تسير على الصورة التي سارت بها. أعود الى سؤالك عن الانفراج، ففي الواقع حدث شيء منه منذ الوثبة الى نيسان (ابريل) مع ان السجون كانت مزدحمة. وأهم حدث في تلك الفترة هو تأسيس "اتحاد الطلبة العراقي العام" وأعتقد إن الدعوة لو تأخرت لمدة اسبوع واحد لما كان قد إنعقد مؤتمر السباع في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٨، وقد جرى اغتنام الفرصة واقتناص الظرف السياسي بصورة جيدة.

ان الوثبة محطة مهمة في حياتي وتاريخي، خصوصاً صلتي بالجماهير بعد ذلك وأصبحت قصيدة "أخي جعفر" و"يوم الشهيد"، وما كانت تكتبه "الرأي العام" بمثابة التوجيه الى الجماهير، سواء بمحاولات التخفيف تارة أو بتصعيد النقد تارة أخرى. وجرت حملة موحى بها من "المقامات العليا" لكي تهدأ الأمور، بحجة ان الاعمال التجارية في سوق الشورجة وغيرها قد توقفت وكانت مقالتان قد نشرتا في جريدة "الاستقلال" و"الاهالي"، لتقديم مثل هذه التبريرات، فكتبت مقالة في "الرأي العام" قلت فيها: هذا إذن ثمن الوثبة ومكافأة الدماء ونتيجة الشهداء بمعنى "ثمن المجد المزيف"، فقصدني صديقي الاستاذ فائق السامرائي وأنا أحبّه شخصياً، فهو رجل طيب وكان لامعاً ومحباً لشعري الذي يحفظ الكثير منه والتمسني بالقول "دخيلك كفاية هذا الذي كتبته.. فقلت له طيب، وانتهى الامر.

هذا الحديث له دلالة على المرحلة الجديدة التي احسدُ عليها وهي العلاقة بالجماهير. والذي صعّد الوثبة هو الشهيد جعفر في يوم الجسر وقد أخبرني سلطان أمين كرماشه وهو نجفي (مدير شرطة بغداد آنذاك ورجل طيب) وهو

صهر بهجت العطية (زوج ابنته) بالقول التالي: "قسماً با لله كنا في الانـذار طيلة فترة رقود جعفر في المستشفى، أي سبعة أيام، الى ان قضى نحبه بجراح بليغة وكان (الحكام) يتمنون لو شفي لانهم يحسبون حساب الجماهير.. مـاذا لو إنفجرت ؟..." وهي قد انفجرت فعلاً من سامراء الى الكاظمية الى محطة السكك الحديدية وفي بغداد والنجف ومناطق اخرى من العراق.

اتحاد الطلبة ومؤتمر السباع:

* أبا فرات نعود الى مؤتمر السباع. كيف كان الحدث؟ من بلّغك بالحضور؟ فثمة حلقات ماتزال بحاجة الى سماع اكثر من شهادة(٩٥)

** هذا تقديره يعود لدى المختصين. أتذكر أنه في اربعينية الشهداء (أي قبل اسبوعين من انعقاد السباع) كنت قد ذهبت الى النجف ثم بعدها عـدت الى بغداد. وفي النجف وبغداد فيما بعد اكتملت قصيدة يوم الشهيد.

يــومَ الشـــهيد: تحيـــة وســـلامُ   بــكَ والنضـــال تـــؤرِّخ الأعـــوامُ
بك والضحايا الغرِّ يزهو شامخاً   علمُ الحســاب وتفخـــر الارقـــام

وقد ألقيت قسماً من هذه القصيدة حول قبر الشهيد في النجف والآخر في مؤتمر السباع ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٨. كانت "النكسة" قد بدأت وأخذ الناس يتفرقون، فعندما تلقيت الدعوة لحضور مؤتمر اتحاد الطلبة قلت هذه فرصة جديدة للرد على الحكام.

* هل تتذكر من قدّم لك الدعوة؟

** لاوا لله لااتذكر، وانت تدري ان الشباب دعوني!

---

(٩٥) ـ أصدر المؤلف كراساً بعنوان "لمحات في تاريخ الحركة الطلابية في العراق" وذلك خلال وجوده في كردستان في عام ١٩٨٣، بناء على حاجة فعلية ولإستمرار التجربة خصوصاً بعد مرحلة التجميد السيئة الصيت ايام الجبهة الوطنية والقومية التقدمية" مع حزب البعث الحاكم ولإنقطاع الكادر. وصدر الكراس عن مطبعة "طريق الشعب" في بشتاشان وسبق لي أن كتبت مقالتين بطلب من مجلة الفكر التي كانت تصدر في براغ ١٩٨١ حول الموضوع ذاته.

* من أوصلك الى ساحة السباع؟ هل تتذكر ذلك؟

** الحق يقال إن الذي رافقني إلى ساحة السباع كان الشخص البارز الطيب المحامي حسين جميل، وأنا اقدره حق تقدير. فقد أخذني الى الساحة ووقف معي واتذكر انه قدمني، وبالمناسبة فله مواقف متميزة قياساً بجماعته. عندما لم تعجبه "وزارة العدلية" إستقال منها وتركها بعد سبعة أيام.

وألقيت هناك يوم الشهيد بصيغتها شبه الكاملة، وكان وقعها كبيراً وتأثيرها عالياً وأثارت ضجة. وبالمناسبة كان الهجوم الحكومي قد بدأ وبدأت "الراي العام" بالتصعيد أيضاً وأكاد أقول بقيت لوحدها، إذ إن اليد لم تمتد اليها لاسباب وخلفيات كثيرة. وعندما علم الناس برفضي قبول عضوية المجلس النيابي تسربت الحماسة الى الكثيرين. وأتذكر هنا قول لبهجت العطية.. لن أنساه أبداً، فبعد مساءلتي أسباب المضايقات، في البيت والصحيفة، قلت له: أنتم تعلمون بانني لست شيوعياً فقال لي: ياأستاذ جواهري وا لله نتمنى لو كنت شيوعياً لكي تمتد أيدينا إليك بسهولة. المصيبة إنك لست شيوعياً. وهذه صورة صادقة للمرحلة آنذاك، التي فيها رغم كل المظالم، الكثير من الاعتبارات.

كان بهجت العطية يحترمني، لانني كنت واضحاً. عندما يستقبلني، يرفض الزيارات الاخرى لحين خروجي. نحن خصمان لكن الاحترام لم يكن مفقوداً، بل الأكثر من ذلك كان يقبل شفاعاتي في اطلاق سراح فلان أو فلان وقسم منها بالتلفون. كان متواضعاً ويقدم الشاي والقهوة بنفسه. أنا أختلف مع أساليبهم العنفية ومع هدر الحريات، لكن الامر إختلف في العهود اللاحقة، الى شيء أسود وخصوصاً في العهد الجمهوري والى الآن.

مؤتمر المثقفين العالمي:

* كيف حضرت الى مؤتمر وارشو العالمي ١٩٤٩ ومن وجّه الدعوة اليك؟

** الرسالة جاءتني من بولونيا من شخص طبيب اسمه "لطيف الشيخلي" الذي سلمني الدعوة الرسمية مع توصية بتدبير أمر التحويل وسيكون الدفع في باريس. ولهذا ذهبت الى باريس ومن هناك إستلمت اجور الطائرة (التي لم أحملّهم سواها). كنت العربي الوحيد وكان من المفترض حضور الدكتور طه حسين الذي التقيت به في باريس عند عودتي، وعلمت منه على جلسة شاي في "أوتيل لوتس" انه كان يحضر مؤتمر للمستشرقين.

أثناء عودتي بالقطار الى باريس أروي لك القصة التالية: وجدت حجزاً لي مع بيكاسو في ذات المقصورة وإستلقيت أنا في الطابق الاسفل وأخذ هو الطابق الاعلى، ثم علمت انه يود المنام في الطابق الاسفل وذلك بواسطة السكرتيرة، لأنه قصير القامة وأنا طويل القامة بامكاني الصعود الى الاعلى وضحكنا لهذا الالتباس والمفارقة من خلال الكلمات القليلة التي تحدثنا بها بالانكليزية البسيطة. وطلب مني بيكاسو أن نأخذ صورة تذكارية، فقلت هذا شرف لي.

* هل كان خروجك من العراق للذهاب الى المؤتمر مسألة سهلة؟ ام إن هناك ثمة عقبات؟

** بمعايير هذه الأيام لم يكن أسهل منها. ومن الإنصاف أن أشير الى انه حتى بمعايير تلك الايام لم تكن القضية صعبة. فقد نشرت في "الراي العام" إفتتاحية تقول بصريح العبارة: انني مدعو لحضور مؤتمر عالمي للمثقفين وانا فخور بذلك. ثم ذهبت الى بهجت العطية وقلت له: لااريد ان اقول لك انني مريض وارغب في العلاج في الخارج.. هذاغير صحيح. انا اقولها بوضوح وصراحة مثلما كتبتها في "الراي العام"، أنا مدعو لمؤتمر عالمي: هل استطيع ان

أحصل على موافقة سفر (جواز)؟ أجابني الرجل بالقول: إن مستواك وأمثالك تصدر موافقاتهم (بسبب الاشكالات) من وزير الداخلية، وهو فوق إختصاصي. وكان وزير الداخلية آنذاك "جلال بابان"، وقال لي هو يحبك وسأرسل معاوني معك واتصل به هاتفياً أيضاً. وبعد الاتصال به قال له: ألف أهلاً وسهلاً. ومرّت المسألة وأخذت جواز السفر. هذا نموذج اما النموذج الاخر فكان نجيب الراوي وزير المعارف، فقد كان يجتمع بمدراء المعارف ومن بينهم السيد جواد الجصّاني (زوج اختي نبيهه) واثناء الحديث أشار إلى أن الوثبة انتهت، وكل شيء استقام الاّ شيء واحد، هو صحيفة "الراي العام" ومقالات الجواهري التي دوختنا. ولم يكن يعلم إنه صهري، وعندما أخبره أحد الجالسين بذلك إحتار بكيفية المعالجة. ولكنه عالج الموضوع فيما بعد خلال وجودي بباريس حيث دعاني لحضور إجتماع لهيئة الامم المتحدة لأول مرّة يعقد في باريس بدلاً من نيويورك، وذلك ضمن الوفد العراقي.

دخلت إجتماع الامم المتحدة ترضية لي، بل ان نجيب الراوي دعا الى حفل خاص على شرفي وذلك تعويضاً لما كان قد تكلم به عني. وهذا فرق كبير بين أخلاق أيام زمان وبين أخلاق هذه الأيام.

بعد أن إلتمسني السيد الراوي ذهبت مع الوفد وبصحبته الى الامم المتحدة، ورايت هناك كيف يستخدم الفيتو Veto باصبعين. نعم باصبعين فقط سقط القرار، ولم يتكلم حرفاً واحداً بعد ذلك. سألت مامعنى ذلك، فحصلت على الاجابة انه الفيتو أي حق النقض وفقاً للميثاق كما عرفته لاحقاً.

وبقيت "الراي العام" لم تغلق رغم ماكانت تثيره من قلق للبعض، وخلال فترة وجودي في باريس ضاقت أمور الصحيفة المالية فتوقفت ولم تمتد اليد

عليها... تستطيع الآن أن تدرك بحكم مهنتك "القانون" المستوى الذي كنّا به والمستوى الذي وصلناه.

* كيف إلتقيت مع الشاعر التشيلي بابلونيرودا الذي ذاع اسمه في السبعينات على نطاق واسع؟

** إلتقيته و لم يكن معروفاً انذاك. كانت تعجبه نفسه ويضعها بين العظماء. اللغة كانت تعوزني و لم يكن هناك مترجمون أو عرب لكي استعين بهم... كان هناك جزائري ومعه رقيب فرنسي لايعرف غير "السلام عليكم" ضمتنا حفلات ولقاءات وأحاديث على قلتها لكنني كنت أشعر انه يمثل مزاج امريكا اللاتينية.

اسماء ودلالات:

* أبا فرات: هل لي أن أسألك عن بعض الاسماء خلال تلك الفترة ومابعدها!؟ ماذا تعني لك و كيف تنظر اليها؟

** مثلاً؟

* عبد الفتاح ابراهيم:

** مثقف كبير وعميق وشخصية لامعة، ديمقراطي وحر ويؤمن بالبرلمانية. كتابه "على طريق الهند" كان متقدماً في حينها (١٩٣٥). نزيه و لم تغره المناصب وظل متوازناً وحافظ على سلوكه بشجاعة. وتربطني معه علاقات وطيدة وانا أحترمه كثيراً.

* كامل الجادرجي:

** صديق منذ الثلاثينات رغم إختلاف وجهات النظر حول الكثير من القضايا ومنها ماهو منشور في الصحافة أيضاً. كنت أزوره باستمرار في أيام

الزيارات التي يستقبل بها الضيوف أو بدونها. إلتقينا في المعتقل أيضاً. كان عنيداً وأبي نفس واحتفظ له بذكريات طيبة.

* فيصل السامر:

** شخصية متميزة وله حضور كبيرة ومرموق. كان استاذاً للتاريخ في جامعة بغداد وعملنا سوية في لجنة الدفاع عن حقوق الشعب العراقي وهو انسان فاضل ونزيه ووفي. رحمه الله فقد ترك أثراً طيباً.

* حسين جميل:

** من عائلة الجميل المشهورة في بغداد. مثقف محترم. شخص ذو كلمة ويتميز بالاخلاص والكفاءة وهو مؤمن بالديمقراطية ويتحسس من الضباط والجيش مثل كامل الجادرجي. نظيف اليد واللسان وعفيف الكلمة والسلوك.

* محمد مهدي كبة:

** من عائلة آل كبة المعروفة. معظمهم من التجار وهو رجل خيّر وطيب. كان وجوده على رأس حزب الاستقلال مهماً جداً رغم ان بعض اعضاء الحزب لم يكونوا على شاكلته. وطني حقيقي وانسان شريف.

* مصطفى البارزاني.

** زعيّم بكل معنى الكلمة فيه من الهيبة والحزم والشجاعة الشيء الكثير، مخلص لشعبه، لكن الظروف عاكسته كثيراً، وكانت أقوى منه فتوفي بعيداً عن الجبال التي أحبها.

* يوسف سلمان يوسف (فهد).

** انا معجبٌ به، رجلٌ صُلْب وغاب بسرعة، ربما ادركوا خطورته، التقيته عام ١٩٤٢ بعد عودتي من ايران حيث ارسل لي عبد الفتاح ابراهيم رسالة وكذلك وصلتني رسالة من ناظم الزهاوي يقولون فيها: الناس بحاجة

الى الرأي العام والعراق بحاجة اليك، فعدتُ وفي الاشهر الاولى بدأت "الـرأي العام" تصدر، حيث كان مكتبُها (إدارتها) في منطقـة الحيـدر خانـه وأظنـه في بيتنا (البيت في الطابق الاسفل، والادارة في الطـابق الاعلـى ففـي أحـد الايـام نزلت لاتناول الشاي عصراً مع العائلة، واذا بهم ينادوني من الادارة ويقولـون لديك ضيوف "فوجدتُ ذو النون أيوب ومعـه شـخص قصير القامـة نسـبياً، جالس في آخر المجلس تلقيته بالترحاب، أمـا الضيـف الـذي لاأعرفـه فسـلمتُ عليه، وسألني ذو النون هـل أنتمـا متعارفـان؟ قلـت لا! فقـالي لي: انـه "فهـد" فإستبدلنا الاماكن واقتربت منه وأدرتُ معه أحاديث مختلفة ثم أعطـاني مقـالاً من اربع أو خمس صفحات مشدِّداً القول: إذا شئت واذا أعجبك واذا وافقك فسأكون فخوراً ومسروراً إذا نشرته، فناديت على أحد العاملين في الصحيفـة واسمه كاظم سلمان وقلت له سيكون إفتتاحيـة ليوم غـدٍ وبـأدب سألني: الا تقرأه؟ قلت له: لا.. طالما جلبته معك، ونُشر إفتتاحيـة باسـم الصحيفـة الـتي تبنته وكان مقالا هزّازاً، المدخل اقتصادي والمخرج سياسـة، ومابينهمـا يعـني كل شيء وأقول: قسماً با لله، الطلائع المثقفـة صـاحت هـذا فـلان أي فهـد، كانت تلك المرّة الاولى، أما الثانية فكـانت بعـد أيـام حيـث كنـت ماشـياً في زقاق "جديد حسن باشا" واذا به يخطف أمامي ويرميني بالسلام وهو متنكـرا عندما حوكم في المرّة الاولى وحكم عليه بالإعدام كنتُ في بـاريس، وحوكـم مرة ثانية وهو في السجن ثـم شـنق مـع حسـين محمـد الشـبيبي وزكـي بسـيم ويهودا صديق، يـوم ١٤ شـباط (فـبراير) ١٩٤٩، قلـت في قصيدتـي "هاشـم الوتري":

حدِّثْ عميدَ الـدارِ كيـفَ تبَدَّلَـتْ ... بُوَراً، قِبـابٌ كُـنَّ أمـسِ مَحاربـا

كيـف استمالَ المجـدُ عـارا يُتقـى ... والمكرُمـاتُ مـن الرِّجـالِ مَعايبـا

ولِمَ إستباحَ (الوغدُ) حُرمةَ من سقى ... هـذي الديـارَ دمـاً ذكيـاً سـاربا

* هل كان لك علاقة مع حسين أحمد الرضي (سلام عادل)؟ كيف تعرفت عليه؟

** التقيت معه بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ لمرة أو مرتين في بعض الاحتفالات، ولكني لاأتذكر لقاءاً خاصاً في بغداد، ثم التقيتُ به وتعرفتُ عليه عن كثبٍ في براغ عام ١٩٦١، شخصية باهرة واثقٌ من نفسه، مهذبٌ الى أبعد الحدود، كانت لقاءاتي به في براغ أقرب الى الوداع لم ألتقهِ بعد ذلك التاريخ، فقد اختارَ حتفَه وذهب ليواصل مشوارهُ لتختطفه يدُ المنون اللئيمة بخبثٍ ودناءة.

* هل سبق وأن جرت بينكم مراسلة؟

** نعم... وسأروي لك هذه القصة الظريفة في عام ١٩٥٢ وبعد انتفاضة تشرين، كنّا في معتقل (أبو غريب) وكانت حملة الاعتقالات كبيرة، لقد عوملنا معاملة حسنة (بعض الوجوه والشخصيات المعروفة)، أما الشباب فكان وضعهم صعباً حيث ينامون على الحصران وفوق أرض رطبة، وكانوا يمازحوننا ويسموننا بالبرجوازيين جماعة (فندق بغداد) لأنه كان كل شيء متوفراً لدينا، بما فيها الحراس المكلفون بالخدمةِ إضافةً الى المأكولات التي كانت تأتينا من البيت، وكان وضع البيت بائساً فأمُّ نجاح مرضع وعمر الطفل لايزيد على السنتين وابني فرات أُلقي القبض عليه، وابني الآخر فلاح اعتقل في معسكر الرشيد وأميرة ابنتي هربت الى النجف و لم يكن أحدٌ يستطيع ان يجلب لي الاكل، ولهذا كنتُ أُشارك عبد الرزاق الشيخلي في طعامه، الذي يُجلب له من منطقته في باب الشيخ، وكانت أكلة "حامض الشلغم" شيئاً مدهشاً أما الفواكه فهي انواع. تصور نحن معتقلون ويسموننا معارضين وكل شي كان متوفراً لدينا، وهو مايحزُّ بالنفس لماوصلت اليه أوضاع البلاد في العهود الجديدة.

كان معنا كامل الجادرجي وحسين جميل من الحزب الوطني الديمقراطي،وفائق السامرائي وإسماعيل غانم وصدّيق شنشل وهم شخصيات

قومية مرموقة من حزب الاستقلال، كنا نتقاسم غرفة ذات السريرين بالشراشف النظيفه انا وعبد الرزاق الشيخلي، وسمعت مرة أحد الضباط يقول: "واي واي" دلالة على التعجب من الوضع المريح الذي كنا نعيشه مقارناً ذلك بوضعية المعتقل البائس الذي يضطر معهُ للنوم بملابسه وحتى دون لقمةٍ أكل على حد تعبيره، وانقضى شهر وكنتُ قد بُلّغت من ادارة المعتقل بأن "حَضِّر نفسَك للطلعه" أي لاطلاق السراح.

هنا بيت القصيد في سؤالك فبعد يومين أو ثلاثة وصلتني رسالةً مطولة من سلام عادل (ابو إيمان) وفيها ملاعبات كقوله "ولايعوزنا شيء الا وجودك معنا" قلت مع نفسي... شكراً لايعوزني ذلك، واذا كان يعوزني فلست بقادرٍ عليه (اي لست بقادر على تحملّ المزيد من المشقّات) فالانتماء ليس لعبة، وحدثت مصادفة ففي اليوم التالي طُرقت الباب بقوة وفي ساعة متأخرة فنهضتُ وطلبت من أم نجاح ان تجلب الرسالة (التهمة) التي تضعها تحت السجاده ورميتها في النهر على الفور فخرجت ووجدت ضابطاً وكان المطلوب إستدعائي وإذا كنت في المرة الاولى، أول الخارجين ففي هذه المرة آخر الخارجين، كنتُ أنا وقاسم حسن حيث بقيت وحيداً بعد خروجه، والتهمة كانت (إشتباه).

وإذا أردتُ أن أضيف عن صفات سلام عادل وسجاياه الشخصية وانطباعاتي عنه، فهو انسان محب للحياة بكل معنى الكلمة بالرغم من مركزه وأهميته ومايُحسبْ له من حساب، كان نموذجاً للتواضع والأدب والوقار، مهاب الجانب الصمت لديه صمت (أي بدلاله) والكلمة كلمة (أي بمضمون) إلتقيته في براغ مع عزيز الحاج وانا قادم الى قصر الادباء الشهير، حيث كنت ضيفا على اتحاد الادباء التشيكوسلوفاكي والقصر يبعد عن براغ حوالي عشرين كيلومترا ومحاط بالغابات الساحرة. واذا بصديقي موسى أسد يأتيني ليبلغني بوصول سلام عادل وجمال الحيدري. يا لله... سلام وجمال فكيف نختار بين الأثنين!؟ (كلاهما قُتِل تحت التعذيب عام ١٩٦٣، وماتا ميتةً تليق بالأبطال.).

بكل صدق أقول لك الآن بعد أبولمان (سلام عادل) لم أرَ مثل جمال الحيدري، الذي يجمع بين الرجولة مملّحة بالبطولة وبحب الحياة، حيث كان مستعداً لتقديم حياته من أجل حياه افضل وضمن قناعات معينه، في المطعم الجميل حيث جلسنا... أول من بادر الى الرقص كان جمال الحيدري مفتتحاً الحلبة، كأنه يرقص رقصة الوداع ليصعد بعدها الى المشنقه، ظلت هذه الصورة ماثلة في ذهني، عنفوانه وتفجره وحبه الشديد للحياة، ولكثرة ماردداتُ

وأركب الهول في ريعان مأمنه   حب الحياة بحب الموت يغريني

مع نفسي، أقول: "ان الذي لايحب الحياة لايصعد المشنقه" وإلتقينا مرّة ثانية عندما دعانا عزيز الحاج الى مطعم ومرقص (لوتسرنا) في قلب العاصمة وبالمناسبة فان والد عزيز الحاج رجل كريم وكان من أصدقائي، كما جمعتني صداقة قوية بعزيز الحاج خلال وجوده في الستينات في براغ.

السخرية وكاريكاتير الشعر:

* الملاحظ أبا فرات... ان هناك درجة عالية من السخرية تختفي وراء قصائدك... أتستهدف إنهاض الجماهير بتقبيح صورة الخصم، أم انك توظّفها وسيلة لاستفزاز هذه الجماهير، مثل قصائد... (نامي جياع الشعب نامي) (وطرطرا) (ومحمد علي كلاي) وغيرها... كيف تستلهم الصورة في هذا الجو الشديد الوقار أحيانا حد الاكتئاب؟

نامي جياع الشعب نامي   حرستك آلهة الطعام
نامي فإن لم تشبعي   من يقظة فمن المنام[96]

---

(96) ــ يصف الكاتب برنار فيشر في كتابه الموسوم "العراق اليوم" L'IRAK D'AUJOURD'Hui الصادر عام ١٩٦٢ في باريس، بؤس سنوات الخمسينات في العراق: حيث البطالة بمافيها خريجو الجامعات العاطلون، والفقر والامية وغياب الكوادر الوسطى وذلك بالاستناد الى قصيدة الجواهري "نامي جياع الشعب نامي" فيقول "ان أفضل وصف

وكانت هذه القصيدة امتداداً لنهاية الاربعينات. اما قصيدة"هاشم الوتري" فكانت من باب الغضب المباشر وليس من باب السخرية كما في قصيدة "نامي جياع الشعب" وتمثل قصيدة هاشم الوتري، التصاعدية عندي حالة التوتر والتحدي. الواقعية أن يتجرد الانسان من العاطفة، فاذا دخلت العاطفة بما يزيد على الحد، لم تعد ثمة واقعية، ولم تعد ثمة موضوعية. فأنا بعد قصيدة "الوتري" مباشرة وبصفاء الفكر الذي يفرض نفسه على الأرض، خصوصاً بوجود الضحايا والقابعين في زوايا السجون والمعتقلات، أخذت القضية عندي لوناً آخر. وببساطة وبدون "فلسفة" أو تعقيد، فالمسألة ذات طرفين، فاما مع هذا وامّا مع ذاك "الحاكم والمحكوم". والمظلومون كانوا والضحايا هم الدائرة التي وجدتها تتسع لتشمل الجماهير التي كانت تتفرج على مايحصل، ولهذا أردت ان أنّبه وأحذّر وانتقد الجانب السلبي للجماهير، ولم أفكر عند كتابتي القصيدة بإستنهاضها، ولكن ذلك كان تحصيل حاصل فيما بعد، أردتُ أن أقرّع الجمهور أيضاً، أن أبصّره بحقيقة ما يجري وان أدفعه للتخلص من السلبية.

* لقد ظلت هذه القضية ملازمة لك أبا فرات بل إزدادت في قصائد السبعينات والثمانينات، مثل قصيدة "محمد علي كلاي" و"قصيدة أبا مهند صابر فلحوط" و"ماذا أغني" إلى جلال الطالباني وغيرها...

** بعد أن خرجت من التوقيف إثر قصيدة الوتري "إيهٍ عميد الدار..." كانت لديَّ الكثير من اللواعج التي تطورت ولست أنكر تأثري بذلك، أي

وتعليق لاوضاع العراق هو مايمكن أن نجده في الشعر العراقي الذي يقدم شهاده احتماعية قيّمة..." للوضع الاقتصادي المجدب، الذي يتجلى من خلال رائعة الجواهري.
انظر: ترجمة خاصة قام بها الصديق الاستاذ ماجد مكي الجميل والاقتباس منقول من مجلة Orient بعنوان انطباعات حول الشعر العراقي impressions sur La Poésie d'Irak للكاتب بير روزي. العدد (١٢) ص ١٩٩.

دور العامل الشخصي في اتجاهي وهذا ينطبق على كل العظام ناهيك عن بني البشر الاعتياديين وأنا من بينهم. اذ لايستطيع الحاكم ان يحكم دون شريكٍ أو طرفٍ آخر وهو المحكومون... فالحكام لايحكمون في فراغ ومنذ عقود وهذا الشيء يشغلني ليس في العراق وحده. وإن كانت الأمور قد طفحت ووصل السيل الزبى، اذ كيف يرتضي المحكومون بحكام ظالمين وكيف يستكينون ويستسلمون...!؟ وكيف يستطيع الحكام أن يحكموا لولا رضوخ المحكومين وخنوعهم!؟ فقد أردتُ من قصيدة "نامي جياع الشعب" ومن غيرها مخاطبة هذا الجانب الحساس نقده وحتى تقريعه.

* أستاذنا الكريم... هذه الصور التي رسمتَها تقترب من حد الكاريكاتير الذي هو لغةُ تعبير فمابالك اذا كانت القصيدة تدل من خلال المباني والمعاني على حالة أقرب الى النحت، أي تجسيد الشيء على نحو مجسّم!

** لفرط الذُّل لابد من طريقة أخرى للاثارة، غير مقصودة أحياناً. أنا لست أهدف الى الاستثارة لكنها كانت ثورة غضبٍ خلاقة فتدفقت القصيدة، بل وإنسابت لترسم تلك الصورة المريرة

نامي على زَبَد الوعود ... يُداف في عسل الكلامِ
نامي تزُرك عرائس الـ ... أحلام في جُنح الظلامِ
تتنوري قرص الرغيـ ... ـف كدورة البدر التمامِ

لست معنياً ببعض التفسيرات المغرِضة التي فسّرت بها بعض قصائدي سواءٌ هذه القصيدة أو قصيدة كلاي أو غيرها، فهذه ردود أفعال لشاعرٍ مرهف الحس.

أم عوف:

* ماهي قصة قصيدة "أم عوف"؟ ماهي ظروف ميلادها؟

** القصيدة وظروفها لاتخلو من المفارقات وخصوصاً بظروفي الجديدة فلأول مرة أملك سقفاً يأوينا (سابقاً ولسنوات طويلة بالايجار وبالرهينه والاقساط) وشعرت ان كرامتي تُحفظ، كما أن أمور "الرأي العام" المالية بدأت تتحسن، فالاعلانات أصبحت فيها كثيره، وهي مورد الصحيفه الاول، وانا متوجّه الى علي الغربي كنت اختزن حالة شعرية احتاجتها عليَّ لحظه ولادةٍ ممزوجةٍ بمعاناةٍ وحرمانات تاريخية، وهكذا تفجرت حالتي النفسية المكبوته سلفاً وانا متوجه الى تلك الارض (الموعودة) في لواء العمارة (محافظه ميسان) وربما كان ذلك تعويضاً عن غلق "الرأي العام"، التي كانت محميةً بحصانةِ الجماهير ولهذا كان الحصول على أراض وحتى مكائن وكأنها مسألة "مبادلة"! تصور الأمر من باب الهزء والسخرية فلست مزارعاً ولاافقهُ في أمور الزراعة أو الاراضي أو الاملاك، فخسرت الارض وبيعت المكائن وعدت من حيث أتيت، ورغم جمال الموقع الذي قال عنه بعض الاطباء انه يصلح مكاناً للمصدورين (المصابون بالسُّل) لكنني لم اكن أحلم سوى بعشٍ صغير، وفي الطريق وانا اقضي تلك الليلة بالحيرة والتفكير فاذا بإمرأه طيبة تستضيفنا بعد برد شديد، هكذا وتحت ضوء القمر تفجر الألم المكبوت

يا "أمَّ عوفٍ" بَلَوْحِ الغيب موعدُنا	هنا، وعندك، أضيافاً، تلاقينا
لم يبرحِ العامُ تِلْوَ العام يَقذِفُنا	في كلِّ يومٍ بمَوماةٍ ويرمينا
يا "أمَّ عوف" وما آهٌ بنافعةٍ	آهٍ على عابثٍ رَخْصٍ لماضينا
على خضيلٍ أعارته طلاقتها	شمسُ الربيع وأهدته الرياحينا

وكانت هذه القصيدة كلُّها ألم وغضب واستنزاف للطاقة المكبوته، فجاءت على هذه الدرجة من الحرارة والوضوح، بل والمرارة

يا "أمَّ عوف" وما كنا صيارفةً	فيما نحبُّ ولاكنا مُرابينا
لم نَدْرِ سُوقَ تِجارٍ في عواطفهم	ومشترينَ مَوَدّاتٍ وشارينا

لانعرفُ السودَ إلا أنه دَنَفٌ	من الصبابةِ يعتاد المحبينا
فما نصابح إلا مَن يُماسينا	ولانراوح إلا من يُغادينا

عدنان المالكي:

* ماهي ظروف قصيدة "عدنان المالكي" التي ألقيتها في دمشق؟

** هذه قصة طويلة. فالمتهم الذي حامت حوله الشبهات كان "الحكومة العراقية" ولهذا كانت الدعوة لحضور المهرجان الذي يقام لتأبين عدنان المالكي، إحراجاً لعدد من الجهات، بمافيه الحكومة العراقية، في الموافقة على حضوري أو عند الرفض.

الفكرة الاولى التي ترسخت في العشرينات هي ضرورة توحيد العراق وسورية والتي أخذت فيما بعد بمشاريع ودعوات وحدوية، كالهلال الخصيب أو غيرها، رغم انها استثمرت من جهات مختلفة وبعضها مغرض وربما غير نزيه. حتى ان تمثال الملك فيصل الاول في الكرخ فسّر على ان وجهه كان متجهاً الى الجهة الغربية، أي الى سورية. وكان لهذه الفكرة جذور عميقة وطبيعية، ثم ركبت عليها فكرة الهلال الخصيب وأمثالها ومعها تداخلات خارجية وتآمرات اقليمية، رغم صدق الفكرة ونظافتها. وفي تلك الظروف وحيث كان بيتي "مراقباً" وقصائدي أخذت تزّين صحيفة الرأي العام وتهز الجماهير... في هذا الوقت بالذات، تلقيت مكالمة تلفونية من السفارة السورية وجاء صوت المتحدث! "ياسيدي، أتلو عليك برقية رئاسة أركان الجيش وهذا نصّها: نرجو التفاهم مع الجواهري للمشاركة.. نلتمسه للموافقة..." لاادري ان كان التلفون مراقباً (مثل هذه الايام)؟ بل ان عدنان المالكي قُتل والتهمة تحوم حول الحكومة العراقية.. وهذا يكفي! ورغم إنني كنت بحالة من الظنون بتورط الحكومة العراقية بقضية عدنان المالكي (وهو ماثبت فيما بعد١٤ تموز - يوليو ١٩٥٨) الاّ انني قلت مع نفسي ان باب الرحمة فتحت لي وجاء الفرج

من الحالة التي كنت أعيشها والضائقة التي أعاني منها. والاهم من ذلك كـان حلمي أن أخرج من العراق. وعندما كلمني السفير السوري تلفونياً، قلت لـه مبدئياً انا موافق على المشاركة "وعلى العين والرأس" ولكن كترتيبات أمهلني يوماً أو يومين. وكان غرضي وتساؤلي: هل أحصل على جواز سفر "لرثاء" عدنان المالكي المقتول بمؤامرة من الحكومة العراقية كماقيل!؟

وهنا فكّرت بالرجل ذاته وليس غيره، ذلك الذي منحني جواز سفر لحضور مؤتمر المثقفين العالمي في وارشو عام ١٩٤٩ أي قبل مايزيد على ست سنوات ونيف وأعني به "بهجت العطية" فقصدته وقلت بصريح العبارة "يا ابو غسان.. القضية بصراحة، انني تلقيت دعوة للسفر الى دمشق للمشاركة في تأبين عدنان المالكي، لانه ينبغي عليّ أن أقولها لك ولواحد مثلي تظل العيون شاخصة نحوه، فلايصح عليّ التذرع كذباً بأني اريد الاستشفاء والراحة ومن هناك اذهب للمشاركة، فتظهر القصة كاذبة... هذا الموقف يمسني ويحرجني..." وبصراحة فقد كان موقفه هو ذات الموقف عام ١٩٤٩ فأجابني بأن سعيد قزاز وزير الداخلية (وكان يحبني جداً وسبق لي وأن توسطت لأناس كثيرين عنده ولبّى جميع طلباتي) هو الذي له حق البت بمثل قضيتك. وقال لي: أمهلني الى اليوم التالي لاتحدث معه. وفي اليوم التالي إتصلت به فقال لي هل تستطيع أن تأتي اليّ، فذهبت فوجدت سلطان أمين كرماشة (صهره) هناك. وأخبرني بأنه إتصل بوزير الداخلية (سعيد قزاز) والاخير أخبره بأن لايمنع سفري ومنحي جواز سفر لأي سبب كان، لكن كصديق وهو رجاء شخصي الاّ تذهب الى دمشق، اما اذا كان مصرّاً فامنحه جواز السفر في الحال.

وأخذت جواز السفر و لم أفِ بوعدي وتحمل سعيد قزاز بسبب سفري ومشاركتي نقداً أو عتاباً من مجلس الوزراء... وعندما عدت الى العراق في عام ١٩٥٧ كان قد غادر الوزاره وبعد عام ١٩٥٨ تم اعدامه بعد محاكمته في

محكمة الشعب. أشعر انني لم اكن موفقاً ودقيقاً حين قلت له نعم سأذهب وان ذهابي في هذه الظروف سيساعد في تلطيف الجو بين العراق وسورية وستكون مشاركتي عن العراق (والحكومة متهمة) عنصراً ايجابياً لتخفيف حدة التوتر... قال لي هذا صحيح لكن ياأبا فرات (فوتانك شلون راح تكون!!) أي ماذا ستكون مشاركتك.. قلت له سأحاول.. قال لي الامر متروك لك. ثم طرق الجرس فجلبوا جواز السفر فحملته الى السفير السوري وقلت له أنا حاضر فقال لي ياسيدي الطائرة غداً... قلت له طائرة، سيارة، شاحنة.. لايهمني وكدت أن أقول له اخشى ماأخشاه أن يتراجعوا عن قرارهم بمنحي جواز سفر. فقال لي اليوم لاتوجد طائره فسألته هل توجد سيارات "نيرن"؟ فذهبت بالسيارة.

ألقيت قصيدتي وكانت بغداد متحفزّة وتستمع من دار الاذاعة ثم بادر صاحب صحيفة "الزمان" بمهارة صحفي متمرس ولديه كادر صحفي جيد الى نشر القصيدة كاملة كما سمعها من دار الاذاعة السورية...؟ (رغم ملاحظاتي الكثيرة على شخصه وسلوكه):

خلفتُ غاشيةَ الخنوعِ ورائي ... وأتيتُ أقبسُ جمرةَ الشهداء
أضحيَّةَ الحلفِ الهجينِ بشارة ... لكَ في تكشفِ سوءةِ الهجناء
اسطورة "الاحلاف" سوف يمجّها التا ... ريخ مثل خرافة "الحلفاء"
قالوا "تعاقدنا" فقلتُ هنئتمُ ... بقرانِ فَرطِ خناً بفرطِ غباء
وا هُزأة الأحلاف بين مسّخرٍ ... ومسخرين وسيد واماء
يامن رأى "حلفاً" عجيباً أمرهُ ... بين الثرى وكواكب الجوزاء
وتعلقت هُزءاً على أضوائه ... بغيوبِ ذؤبانٍ أكارعُ شاء[٩٧]

(٩٧) ـ ألقيت هذه القصيدة في دمشق عام ١٩٥٦ في ذكرى مصرع عدنان المالكي واضطر الجواهري بعدها للاقامة في سورية قرابة عام ونصف ضيفاً على الجيش السوري، بعد غضب

وحينما كنت أقرأ صاحت الجماهير "مايرجع" أي أنه سوف لايعود الى العراق بعد هذه القصيدة. اقيم الاحتفال في الملعب الرياضي وكان يغصّ بحوالي ٦٠ ألف شخص. وكان الوقت شهر رمضان الكريم. ورغم ان مدفع الافطار كان يعلن عن موعد الافطار، لكنني كنت أقرأ والجماهير محتشدة. بعدها استضافني الجيش السوري عام ١٩٥٦ و١٩٥٧ وفي أواسط تموز (يوليو) ١٩٥٧ عدت الى بغداد وقد جرت تغيرات في كل من سورية والعراق. وقضية الوحدة العربية بدأت تستولي على عقول الحكام والجماهير في سورية ومصر. والعراق دخل واندفع في حلف بغداد وامتدت العداوة ليس الى نوري السعيد فحسب، بل أحياناً الى اكثر من ذلك بسبب خصومات الحكومات. ففي أحد الأيام وانا جالس بقلق ومتضايق رغم انهم كانوا يكرمونني بأحسن تكريم وبضيافة رسمية، لكنني سئمت ذلك ففكرت بالعمل. فكلمت هشام العظم الذي قال لي: أبا فرات تعجبني وهذه مجلة الجندي وكنت احرر الشؤون الادبية والثقافية، التي كانت مزدهرة وكان رئيس الجهاز العسكري المسؤول هو عبد الحميد السراج. وكان مجلس المجلة جميلاً، زيارات وأصدقاء وقهوة واحاديث لذيذة.

* لكن لماذا عدت فهل تغيّر شيء على المستوى الشخصي؟

** نعم في عام ١٩٥٧ سمعت بالراديو إن عبد الوهاب مرجان وهو صديقي منذ أيام الشباب، حيث كنّا نجلس في مقهى حسن عجمي وكذلك في الباب الشرقي، يدخل الوزاره. اما عبد الرسول الخالصي صديقي فقد أصبح وزيراً للعدلية. فقلت لأم نجاح (زوجتي) استعدي للرحيل.. الى أين..؟ الى بغداد! بعدها ذهبت الى السفارة العراقية وقابلت هناك عبد الجليل الراوي (القنصل او القائم بالاعمال) الذي طلبت منه تمديد جواز

حكام بغداد عليه بسبب تنديده بالحلف التركي الباكستاني الذي أصبح حلف بغداد عام ١٩٥٥ والذي رافق ابرامه حملة اعتقالات واسعة في العراق والتضييق على الصحافة والحريات.

سفري فرفض لانني كنت ممنوعاً من السفر. لكنني لم اكترث فوضعت جواز سفري القديم في جيبي وسافرت الى بغداد ووصلنا الى الرطبة، حيث كانوا يأخذون جواز السفر في (المركز العراقي) وأخذ قلبي يدق، لانني كنت متوقعاً ان ينادوا عليّ. و لم أصدق عندما مرّت الامور "سلامات" فلم تتم إعادتي الى سورية و لم أرسل مخفوراً الى بغداد، قد يكون ذلك غفلة وربما حسن تصرف من شخص طيب إنتبه الى الموضوع وغضّ النظر عنه.. لا أدري! و لم يكن أحد في بغداد يعلم بعودتي وعائلتي معي. بعد أن وصلت الى الرمادي. وهناك كانت نقطة الجمارك، غادرناها ووصلنا الى بغداد "نقطة المطار" وهي الجمارك الثانية. وهنا إنتبهت الى احتمال انكشاف الامر، خصوصاً وان الشباب حين رأوني فزّوا حيث كانت قضيتي معروفة، بل تعتبر ميئوساً منها. فقلت لماذا أنا جالس بإنتظار جواز سفري فربما حصل المحذورا؟ وقررت بسرعة أن أستقل سيارة أجرة وأترك الجواز (غير النافذ) وأذهب الى البيت. وكانت مفاجأة كبيرة لوالدتي التي أبلغت بالامر تدريجياً خوفاً من الصدمة، ثم مكثت في بيت أختي نبيهة (بيت السيد جواد الحصاني-زوجها) في الكاظمية.

وبعد فترة قصيرة، لم تتعدّ بضع ساعات دق جرس الهاتف، فإذا بصهري يتصنّع الإبتسامة، قلت ماذا حدث ياأبا كاظم فقال لي لايوجد شيء ولاداعي للانزعاج، فهناك شاب من الامن (التحقيقات الجنائية) مؤدب ويرتدي ملابس مدنية وهو من بيت الشكري، يقول انه مكلّف باصطحاب الجواهري معه. وأخبرني بأنه لاينبغي عليه الاستعجال، فليحضر نفسه، ليستحم ويرتدي بدلته، لأنه قادم من السفر وانا سأكون بانتظاره. فهمت الموضوع!! دعوه للجلوس انتظاراً لحين تحضير نفسي.

مع نفسي قلت... لقد وقعت في المصيدة وستحرك عليّ القضايا القديمة والجديدة. وحاولت تدارك الامر، فقلت لهم وعلى نحو سريع وخاطف اتصلوا

بعبد الوهاب مرجان... وفوجئ هو أيضاً مثل الشباب الذين رأوني في جمارك المطار... قال من أين تتكلم... قلت من بغداد فقال "أهلاً ومرحباً"، فقال لي انه قادم لزيارتي فأخبرته "لايا ابو عماد فلديك أشغالك وواجباتك وأنا خارج الآن وسوف آتيك..." وبعد انتهاء المكالمة أخبرت أهل بيتي بأنه بعد ساعة من ذهابي مع الشخص المكلف باصطحابي.. تتصلون بعبد الوهاب مرجان وقولوا له آسفين.. فقد كان فلان قادم إليك، لكن الذي حصل له هو كذا وكذا خصوصاً اذا تأخرّت في التحقيقات الجنائية.

عندما ذهبت الى التحقيقات الجنائية وجدت القضية مثلما تصورتها، بل أوسع بكثير... من بدايتها. واذا بي أمام طاولة مدوّرة وفيها الجلاوزة الوسخين (خمسة أو ستة) وعليها سجل مفتوح. قالوا كيف جئت الى بغداد؟. قلت بالطريقة الاعتيادية والمألوفة (لم أقل تركت جواز سفري في الجمارك).. قالوا كيف دخلت؟ قلت دخلت وظل جواز سفري عندهم، لانني كنت مستعجلاً من أمري. قالوا كانت اجتماعاتك في سورية مع الضباط ومع خالد بكداش!! فضحكت وقلت اما عن الضباط فأنا ضيف الجيش السوري محرراً في مجلة الجندي. ثم ماذا كان المقصود بالاجتماع؟ فقال رئيس المحققين.. المقصود هو اغتيال الملك والامير عبد الاله... ضحكت مرّة ثانية من هذا الكلام السخيف والذي يلقي التهم جزافاً وقلت "أنا وين والاغتيالات وين؟" خاطبت المحقق بالقول: ألا تعرف هذا الرجل الذي يقابلك (مشيراً الى نفسي).. أنا رجل وظيفتي أن أقول الحرف المدوي.. فأنا لااعرف شكل المسدس ولاكيف يرمي.. اما خالد بكداش فهو صديق قبل ٣٠ عاماً.. رأيته عدة مرات، لقاءات عابرة. ثم ماهو الغرض من اغتيال الملك؟ ثم واجهته بأن لدي "وسام الرافدين" فإرتبك وأحرج.. أبقوني عندهم وجاء شخص قائلاً لي بخشونه "الغداء والعشاء" فقلت له أنا لاآكل من هنا.. إتصلوا بالبيت ليرسلوا لي الاكل.. في هذا الوقت وبعد مكالمته، كان الاهل قد اتصلوا بعبد الوهاب مرجان الذي بلّغ بدوره عبد الرسول الخالصي وزير العدلية، ثم أبلغ بهجت العطية. واذا بالذي كلمني

بخشونه يقول استاذ جواهري.. نحن نريد كفاله فقط. فقلت له قبل قليل تريد ان تجلب "الغداء والعشاء" بكل فضاضة وكأنني فريسة فلتت منه. فخاطبني اذا لم يتدخل "الاعلى" بأمرك فيتدخل بأمر من؟ وجاء السيد جواد الجصاني ليكفلني كفالة شخصية، وهي مسأله شكلية.. فخرجت وأودعناكم...! وكأن شيئاً لم يكن!

باعتقادي هذه دلالة ليس على احترام بعض المعايير لدى الحكام، لكن على حصانة الجماهير ومركز الانسان والتجرد. فهم يعرفونني مخالفاً لهم ومعارضاً من الألف الى الياء أحياناً خصوصاً منذ الوثبة لكنهم يعرفونني بأنني واضح ويعرفون أيضاً طريقتي بالحياة والعيش.

تموزيات:

* مالذي حدث ياأبا فرات بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ حين انقلبت بعض المعايير؟ وتدهورت الى ماوصلت اليه الآن حيث بلغت الحضيض؟ فقد جاءت كرد فعل للاوضاع البائسة وانعدام الحريات والتضيق على الصحافة ولفك ارتباط العراق بحلف بغداد وكانت تتويجاً للوثبات والانتفاضات الشعبية ضد الظلم. وكان إعلان جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧ وتحالفها مع الضباط الاحرار خطوة بإتجاه الاجماع الوطني. وخرجت الجماهير الى الشوارع لحماية الثورة.. لكن الثورة أكلت رجالها بل أكلت جمهورها الذي صنعها فيما بعد... كيف تنظر الى ذلك وكيف تقيّم المرحلة!؟

** والله يابو ياسر بصراحة، هذه الاسئلة لاتستدرجني. المسألة شائكة ومعقدة. ربما لم نكن متهيئين للتغيير ولتقبل فكرة الثورة بالنمط المألوف في العالم. قد أختلف معك فأنا لاأسميها "ثورة" والتسمية لاتنطبق عليها. في العالم الحضاري لانستطيع أن نطلق عليها "ثورة" بل "انقلاب عسكري" أطاح بنظام ولكنه لم يأتِ بنظام آخر... لم يكن هناك بديل. الثورة عندي هي من صنع

الجماهير. لكن الجماهير عندنا مسكينة لم تكن مدربة و لم تكن مستعدة بما فيه الكفاية لعملية التغيير. أنا نفسي كتبت مخاطباً الجماهير في الكثير من الموارد. قد تكون تلك من أخطائنا واخطائكم الثورية. فالجماهير لم تكن مهيأة وعياً وحساباً للتوقعات الجديدة و لم تكن مفاهيمها عن الثورة قد بلغت حد النضج. لم تميّز بين الثورة والانقلاب والحكم المدني والحكم العسكري الذي تم التصفيق له، باندفاعات عاطفية بعضها ولكن كان ينبغي كبح جماحها... المسؤولية جماعية بتقديري وتتحمل الحركة السياسية والثقافية أيضاً ومن كل الاتجاهات، نتائج الاوضاع التي وصلنا اليها. لدرجة ان أبناء الشوارع أصبحوا الآن حكاماً وزعماء ويقررون مصائر البلاد.

* هل كانت تموزياتك تحذر من ذلك؟ في أي الموارد؟ كيف رأيت الحدث بعد الانفجار الاول؟ فالحريات الموعودة سلبت في اول الطريق، والارهاب ضوعف بشكل لم يسبق له مثيل، والحرب فيما بعد اندلعت في كردستان، والمثقفون دخلو السجون وتشردوا وضاقت بهم السلطة ذرعاً، والصحافة تقننت والحكم البرلماني أصبح منسياً والحديث عنه محظوراً!

** هذا يؤيد ما أقوله.. فأنا لااسمي الانقلاب ثورة ولست بذلك مغالياً ولكنني اكثر واقعية من "ثوريتكم" أو أقرب الى الواقعية حين أطلق على الانقلاب العسكري، انه كان محاولة لاجهاض عملية التغيير والتطور الحقيقية والمنشودة، وهو ما كنت أريده وأتمناه، لكن الصدمة أخذت تفعل فعلها تدريجياً وما كان من تلاقي بين الاطراف والقوى قبل الانقلاب إنفرط عقده وظهرت الألاعيب السياسية والخدع المعروفة ومحاولات استغلال النفوذ ومحاولات احتكار العمل والتضيق على الآخرين بل الذهاب الى حد تقديس الشخص الذي كان الرأس المدبر لعملية الانقلاب وهو عبد الكريم قاسم.

الزعيم مرافقاً للجواهري:

* زعيم الثورة عبد الكريم قاسم مرافقاً للجواهري في لندن. أليس هذا يأأبا فرات عنواناً مثيراً وجميلاً!؟

** الله يرضى عليك.. كان اسم عبد الكريم قاسم قد بدأ بالانتشار وكذلك صوره بعد ١٤ تموز (يوليو)، وكما تعلم فقد كان بين الرجل وبيني علاقة بدأت في لندن كما ذكرت حيث رافقني لعيادة طب الاسنان لمعالجة اسناني وقد تمسك بصحبتي ومرافقتي، بل انه اسّر لي بان البعثة العسكرية التي كان يدرس على حسابها، لاتغطي نفقات علاج الاسنان له.. فإستأذنت منه أن أبلغ المسؤولين رايه بعد عودتي فسكت.

كنت قماشة وطنية خالصة وكان الجميع يجدون فيّ قاسماً مُشتركاً ويتحلقون من حولي، رغم مزاجي وصعودي ونزولي واندفاعاتي المعروفة ولم أجد لغة مشتركة مع الضباط، الذين كان قسمٌ منهم يحبني ويحترمني ومنهم عبد الكريم قاسم قبل "الثورة" وبعدها. والبيت الوحيد الذي زاره كان بيتي. ورغم نفوري من الضباط في الملحقية العسكرية في لندن، الاّ ان الوحيد الذي احتذبني كان عبد الكريم قاسم بمجاملاته وتهذيبه وكان يقضي السهرات معي، رغم انه لايشرب.

في صبيحة ١٤ تموز (يوليو) وأنا عائد من علي الغربي واذا بي اصادف صورة على زجاج السيارات "للزعيم" الذي أصبح أوحداً للثورة المزعومة.

عندما أقول لك انه مرافق فقد كان الرجل متطوعاً، اذ ان لي مرافقاً خاصاً. وكان يحاول أن يستمع مني وأن يطيل أحاديثي.

تصور الفرق بين أن تزحف الجماهير لتحطم الباستيل الرهيب في باريس، حيث كان السجين يقضي ٢٠سنة أو اكثر ولايعرف شيئاً عن العالم، لتدّك أكبر عرش في اوربا وتقضي على لويس السادس عشر وبين ان يقوم شخص

لاتعرف الجماهير بإسمه ولامن هو وكيف جاء، لتتحرك بعد ذلك أي بعد أن تكون الكتائب العسكرية قد أنهت الامر فالقضية شيء آخر.

كنت قد نسيت من يكون أول "الثورة". فماذا تكون الجماهير البريئة قد عرفت من الامر؟!. أعتقد إننا مسؤولون لحد الحساب العسير فيما يخص نظرتنا الى الجماهير وأقولها حتى في أعلى المستويات التنظيمية عندنا.

أن تزحف الجماهير ضد حكام لاتتقبلهم وليس لها رأي في اختيارهم شيء وان تؤيد "زعيماً" مغموراً، لاتعرف عنه شيئاً، فالمسألة لها بعدٌ آخر وتتكرر اللعبة دائماً سواء في العهد الملكي، عندما جاء بكر صدقي قائد انقلاب الـ ١٩٣٦، زحفت الجماهير رغبة في الجديد الذي لم يأتِ؟ لم اكن أتنبأ بأن الجماهير ستجلب "مغموراً" لتعلّق التاج على رأسه. كنت اعتقد انها ستختار من تريده ومن تعرفه. ومع عبد الكريم قاسم تكرر الامر، وفيما بعد في حكم عبد السلام عارف أيضاً وفي عام ١٩٦٨ حيث الانقلاب الاخير لعب القادمون الجدد بالاوراق، كما لعب غيرهم ولكنهم كانوا بأوراق ملّونه حسب الطلب.

من جاء بعد "الثورة" ضباط أحرار (لم يسمع أحد بهم) وبضعة وزراء كانوا معروفين كسياسيين "حسين جميل" و"محمد حديد" و"فيصل السامر" و"ابراهيم كبه" وغيرهم. ولكن القيادة الحقيقية كانت بيد "العسكر" الذي بدأ الصراع بينهم يتخذ طابعاً سياسياً واقليمياً.

اغتراب في الداخل... اغتراب في الخارج:

* هل بدأ الاغتراب لديك منذ الايام الاولى للثورة؟ هل كنت تتوقع "الاعظم" بمعنى "الأسوأ" كما يقال، أي انتكاسة الحركة السياسية، التي تركت التمسك بالدستور وبخاصة (الدائم) والحكم المدني والمجلس النيابي (البرلمان) وحقوق وحريات المواطنين وانشغلت بصراعاتها السياسية

اللاعقلانية؟ هل كان الافتراق بين الآمال العريضة وبين ما حصل فعلاً فيما بعد هو سبب الفجوة الكبيرة والاغتراب العميق!؟

** انا احمّل نفسي بعضاً من المسؤولية. وأحاسب نفسي بقساوة فكيف لي وانا الشاعر والمثقف وابن التاريخ العريق، أن أويد جنرالاً حتى وان كان طيباً. ففي سوق الشورجة يوجد العشرات من الطبيبن مثلاً وعندهم ضمير ولديهم رحمة وأمانه في البيع والشراء فلايكفي لهؤلاء أن يصبحو "زعماء" "واذا كان عبد الكريم قاسم طيباً ونظيفاً وباغضاً للاستعمار في دمه ولحمه، لكنه وحده لا يمثل طموحات الجماهير" بالعكس قد إنجرف ومال الى اليمين بعد اليسار واختل توازنه و لم يكن تفكيره سوّياً أو مستقيماً، بل كان مريضاً وإزداد مرضه عندما أمسك بناصية الحكم وإعتلى شهوة الإنفراد. وأعتقد ان بعض الأطباء السوفيت كانوا يعالجونه سرّاً. وعلمت ذلك بعد أن جاءوا الى بيتي لمعالجة ام نجاح. وقد يكون تصرفه وسلوكه فيما بعد هو امتداد لوضعه النفسي وانطوائيته وشكوكه بأقرب الناس. أما الجماهير فبطيبتها وبساطتها لاتدرك مثل هذه الامور، فمابالك اذا كانت طلائعها السياسية قد اندفعت قبلها بذلك لحسابات قصيرة النفس وتقديرات خاطئة بل ضارة.

* كيف انقطع حبل الود بينك وبين "الزعيم" وبدأت مرحلة الجفاء فالقطيعة؟

** سبق وان ذكرت لك انني تحديته في وجهه وأمام جمع من الادباء بعد أن تدهورت امور البلاد. فقد بدأت اعاني من الغربة وانا داخل العراق، بينما كانت غربتي ملاذاً لي في الخارج حيث تنفست الصعداء. فالحملان البغيضان "اتحاد الادباء ونقابه الصحفيين" اللذان كنت أترأسهما أصبحا شديدي الوطأة عليّ خصوصاًوان لملوماً (خليطاً رديئاً) من الصحفيين والادباء أريد له اغراق

هاتين الموسميتين المرموقتين[٩٨] والاكثر من ذلك يوم اشتكى عبد الكريم في خطاب له من الصحافة العراقية بقوله "لقد أخفقت الصحافة العراقية في مهمتها وقسمّت صفوف الشعب بدلاً من أن ترصّها[٩٩] " كان اشارة واضحة لعدم إرتياحه، بل محاولة لقطع حبل الودّ مأخوذاً بغروره وعدم سماعه رأي الآخرين.

لقد تحملت بسبب الحملين الكثير من الاشكالات المعنوية والمادية، فلم تكن السلطة ترغب بتقديم التسهيلات لهما، اضافة الى المنغصّات اليومية.

وعندما ذهبت الى "الاتحاد السوفيتي" عام ١٩٥٩ كنت منهاراً لما عانيت وما كابدت. وتم استقبالي بشكل احتفائي كبير وحُجز لي مصّحٌ كان ينزل فيه خروشوف نفسه في سوجي وعالجني طبيب ستالين (للاسنان). والحمد لله كانت صحتي جيده. ولكنه الارهاق فقط وحكيت لهم المتاعب وكيف انني

---

(٩٨) ـ منذ العام الاول للثورة مارست السلطة الجديدة ضغوطاً شديدة على النقابات المهنية ومن بينها نقابة الصحفيين التي كان يرأسها الجواهري. فبعد إلغاء الرقابة على الصحف (بعد الثورة مباشرة) عادت الرقابة باجراءات رجعية وتعرض الجواهري لمحاولات للاساءة بإبطال انتخابه رئيساً لنقابة الصحفيين باستعانة عبد الكريم قاسم بهيئة تحكيم (نيسان-ابريل ١٩٦٠) كما جرت محاولة مماثلة مع الحزب الوطني الديمقراطي لابطال انتخاب كامل الجادرجي بامر من الزعيم قاسم حيث ألغى وزير الداخلية الانتخاب مدعياً "ان اللجنة الادارية للحزب لاتمثل الحزب وان كل القرارات التي تتخذها ستكون غير شرعية" وهو ما اكدّ مخاوف الديمقراطيين بصدد مستقبل الديمقراطية في العراق وزاد من هواجسهم.

(٩٩) ـ القى الزعيم عبد الكريم القاسم خطابه خلال احتفال نقابة الصحفيين بتاريخ ٧ نيسان (أبريل) ١٩٦٠. وكانت تداخلات الحكومة والعسكريين من قادة الجيش بشؤون الصحافة، منعا وتديقاً وإغلاقاً لبعضها، حتى أن السيد حميد الحصونة آمر الفرقة الثانية (التي كان مقرها الديوانية آنذاك)، منع صحيفة "اتحاد الشعب" من التوزيع في المنطقة العسكرية التي تحت نفوذه، وتضم عدداً من محافظات الفرات الأوسط وتصل المنطقة الجنوبية، في حين أنها كانت تصدر بترخيص رسمي من وزارة الداخلية في بغداد. وتلك كانت إحدى مفارقات الحكم القاسمي. وكانت حجته أن هناك "مقالات تلحق الضرر بأمن الجيش والبلاد" كما تم اعتقال العديد من الصحفيين وملاحقة بعضهم قضائياً.

كنت استدين لتمشية امور صحيفتي "الراي العام" وتعرّضها للتوقف بسبب الضائقة عدة مرات وكيف يؤثر ذلك على القراء واستغربوا عندما علموا بانه لم يكن لي "راتب" ولم يكن لي "بيت" ولم تكن لي سيارة خاصة"

ثم كانت المواجهة مع عبد الكريم قاسم بخصوص "الميمونة" كما ذكرت حيث اتصل بي صلاح خالص طالباً مني الذهاب على رأس وفد لمقابلة "الزعيم" ولغرض الحصول على مخصصات للاتحاد..!! ثم حصل ماحصل.

في العهد الملكي، كنت اخرج من العراق، عدة مرات ثم أعود.. الى سوريا ولبنان ولم اكن افكـرّ بالغربة. في عهد "الزعيم" تعرضت الى وضع محرج للغاية. "البيت مطوق.. أسمع الشتائم وانا في السيارة من الأمن.. الصحف السيّاره لم تترك شيئاً قذراً الاّ ونسبته لي.." واذا كنت أريد خوض المعركة والمواجهة في المرات السابقة، ففي هذه المرة فكرت بالخروج، حتى ان إقتضى الامر بدون جواز سفر، عبر كردستان او عبر الجنوب (البصرة) حيث تم إنقاذي بدعوة الى لبنان لحضور مهرجان الاخطل الصغير وتحذيرات وصلتني من جمهورية المانية الديمقراطية بعدم البقاء، فوجدت الفرصة سانحة وحللت ضيفاً على اتحاد الادباء التشيكوسلوفاك كما ذكرت.

* أبا فرات كيف حصل ذلك؟

** تلقيت دعوة من اتحاد الكتاب الالمان عبر السفارة (الممثلية انذاك قبل الاعتراف بها رسمياً عام ١٩٦٩) وطلب سكرتير السفارة اللقاء بي شخصياً فدعوته للاتحاد وأحضرت معي د.مهدي المخزومي ود.علي جواد الطاهر والاستاذ محمود الحبوبي (في حديقة عامة) واعتذرت عن تلبيتي للدعوة لظروفي الخاصة وقلت له اذا رغبتم فأي واحد من الاخوان مؤهل لتمثيل الاتحاد وبالنيابة عني.. لكنه قال ان الدعوة شخصية لك بالذات. وانتهى

اللقاء. وفي اليوم التالي اتصل بي مؤكداً الموضوع وطلب اللقاء. فرجوت الاخوان للحضور مجدداً، لانني كنت أعلم ان الفراش او الحارس (الشغيل الذي يعمل في الاتحاد كان وكيلاً في الامن). فحضروا معي وكان السكرتير متضايقاً لأنه طلب اللقاء بي وحدي وعلى انفراد. فقلت له "هؤلاء نفسي، انا معهم ولاسّر بيننا، وهم أمناء على اسراري وانا واحد منهم" فأوضح لي ان الدعوة قائمة والبطاقة جاهزة والأمر له علاقة بمعلومات عن احتمال تعرضي للتصفية الجسدية. وانتهزت الفرصة كما ذكرت فحملت حقائبي الخفيفة لأتوجه الى لبنان لحضور حفل تكريم بشارة الخوري (الاخطل الصغير) وكانت الدعوة قد نشرت في الصحف.

وهنا إحترت بمن أتصل للحصول على جواز السفر. كنت سابقاً أتصل بالافندي (المقصود عبد الكريم قاسم) او بأحمد صالح العبدي (الحاكم العسكري العام) الذي كان يحيلني عليه وهو رجل طيب ولكن عندما علم بتدهور علاقتي "بالزعيم" "عوج ذيله" أي ادار ظهره وتنكر للامر وكنت قد توسطت لديه سابقاً لاطلاق سراح ثلاثة او اربعة من الصحفيين الذي تم اعتقالهم. فكرت بالامر واتصلت بجلال الأوقاتي (قائد القوة الجوية الذي قتل صبيحة يوم ٨ شباط- فبراير- ١٩٦٣)، وكان مقتله كما أشيع ساعة الصفر الاولى، حيث طرق بابه وعندما فتح الباب، عالجه "حارس قومي" باطلاقات فأردته قتيلاً وقلت له "يا ابا خالد انت تعرف موضوعي" فأجاب نعم فقلت له إنني أرغب في السفر تلبية للدعوة الخاصة بشارة الخوري والبقية لديك خصوصاً وان المهرجان تأخر اسبوعاً. فأجابني... انت تعرف هذا (المقصود الزعيم) وتعرف كل شيء ولكن مع ذلك أرسل لي جواز سفرك... أرسلته بيد فرات (ابني)... وا لله لم أصدق حينما أرسله لي ابو خالد نافذاً..." قلت

"أف يامحمد" فحلب لي فرات الجواز بينما كـان "الجاسـوس" الـذي يوصل أخبار الأوقاتي الى الجهة الاخرى يراقب ذلك وهو موجـود في مكتبـه... ثـم تسلمت البطاقة من ممثلية ألمانيا الديمقراطية وعلى الفور الى بيروت ومنهـا بعد المهرجان الى المانيا عبر براغ، لكن بتوقف الطائرة علمـت بـانني ضيـف اتحاد الادباء التشكوسلوفاكيين، الذيـن ارادوا أن يكرمونـي وذلـك حسـبما أعتقـد تنسيقاً بين الجهات الاشتراكية انذاك:..

الملاحق

مختارات شعرية

يضم قسم الملاحق مختارات شعرية منتقاة بحيث تغطي العمر الإبداعي للشاعر والذي زاد على سبعة عقود ونصف. فقد تم اختيار ٢٥ قصيدة ومقطوعة، كنماذج من عيون شعر الجواهري، يكفي للقارئ أو المتذوق أو المهتم بدراسته الاستعانة بها. وقد اختيرت وفقاً لمعايير ابداعية وجمالية لتغطي تاريخياً كل عشر سنوات وفي موضوعات متنوّعة. وتشكل هذه الاضمامة باقة ملونة حرص المؤلف أن يقدم الجواهري من خلالها استكمالاً للبحث والحوارات واللقاءات.

كما تضم جزءً مستلاً من مقدمة كتاب"الجواهري في العيون من أشعاره" ومقطوعة أهداها الشاعر الكبير للمؤلف وصورة تذكارية للشاعر والمؤلف تعود الى أول الثمانينات.

العشرينات

جربيني

نشرت في جريدة "العراق"، العدد ٢٩٠١ في ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٩

جرِّبيـنـي مـنْ قبـلِ أن تزدَريـنـي ... وإذا مـاذميتني فـاهجريني
وَيقينـا سـتندمينَ علـى أنـكِ ... مـن قبـلُ كنـتِ لم تعرفيـنـي
لاتقيسـي علـى ملامـحِ وجهـي ... وتقاطيعـهِ جميـعَ شـؤوني
أنـا لي في الحيـاة طبـعٌ رقيـقٌ ... يتنـافى ولـونَ وجهـي الحزيـن
قبلـكِ اغْـتر معشـرٌ قرأونـي ... مـن جبـينٍ مكلـلٍ بـالغضون
وفريـقٌ مـن وجنتـين شَحوبيـ ... ـن وقـدْ فـاتَتِ الجميـعَ عُيونـي
اقرئيـني منهـا ففيهـا مطـاوي ... النفس طَـرّاً وكـلُّ سـر دفـين
فيهمـا رغبـةٌ تفيـضُ وإخـلاصٌ ... وشـكٌ مخـامرٌ لليقـين
فيهمـا شـهوةٌ تثـورُ وعقـلٌ ... خـاذِلي تـارةً وطـوراً مُعيـني
فيهمـا دافـعُ الغريـزةِ يُغريـني ... وعـدوى وراثـةٍ تزويـني
إنـا ضـدُّ الجمهـور في العيـش ... والتفكـير طَـرّاً وضـدُّه في الدِّيـن
كـلُّ مـافي الحيـاةِ مـن مُتَـع ... العيش ومـن لـذةٍ بهـا يزدهيـني
التقـاليدُ والمداجـاةَ في النـاسِ ... عـدوٌّ لكـلِّ حُـر فطـين

أنجديني: في عالمٍ تنهشُ "الذئبانُ" لحمي فيه.. ولا تسلِميني
وأنا ابنُ العشرين مَنْ مُرجِعٌ لي إنْ تقضَّتْ لذاذةُ العشرين

إبسِمي لي تَبْسِمْ حياتي، وإنْ كانت حياة مليئةً بالشُّجون
أتصيفيني تكفري عن ذنوبِ الناس طرّاً فإنهمْ ظلموني
إعطِفي ساعةً على شاعرٍ حُر رقيقٍ يعيشُ عيشَ السجين
أخذتني الهمومُ إلا قليلاً أدركيني ومن يديها خذيني

ساعةً ثم أنطوي عنكِ محمولاً بكَرهٍ لظلمةٍ وسكون
حيث لارونقُ الصباح يُحيِّيني ولا الفجرُ باسماً يُغريني
حيث لا "دجلةٌ" تلاعبُ جنبيها ظِلالُ النخيل والزَّيتون
حيث صحبي لايملكونَ مُواساتي بشيءٍ إلا بأنْ يبكوني
مَتعيني قبلَ المماتِ فما يُدريكِ مابعدَه وما يُدريني
وهَبي أنَّ بعدَ يومي يوماً يقتضيني مُخلفاتِ الدَّيون
فمن الضامنونَ أنسكِ في الحشر إذا ماطلبتني تجديني
فستغرينَ بالمحاسن رُضوانا فيُلقيكِ بين حُور وعِين
وأنا في جهنم معَ أشياخٍ غواةٍ بغيِّهم غمروني
أحرجتني طبيعتي وبآرائهم ازدَدْتُ بَلةً في الطين
بالشفيع "العُريان" استملكي خير مكان. وأنتِ خيرُ مكين
ودَعيني مُستعرضاً في جحيمي كلَّ وجهٍ مُذمَّم ملعون
وستشجينَ إذ ترينَ معَ البُزلِ القناعيس حيرة ابن اللبون[1]

---

(١) البزل جمع "بازل" وهو الجمل الذي شق نابه وبزل. و"القناعيس" الابل القوية الشديدة وفي البيت اشارة إلى قول القائل:
و"ابن اللبون" إذا مالز في قرن لم يستطع صولة "البزل القناعيس"

عن يساري أعمى المعرّةِ و"الشيخ" … الزهاويُّ مقعَداً عن يميني[٢]

إئذني لي أن أنزلَ خفيفاً على … صدركِ عذباً كقطرةٍ من معين

وافتحي لي الحديث تستملحي … خفةَ روحي وتستطيبي مجوني

تعرفي أنني ظريفٌ جديرٌ … فوقَ هذي "النهود" أن تعرفيني

مؤنس كابتسامةٍ حولَ ثغركِ … جذوبٌ كسحرِ تلكَ العيون

إسمحي لي بقبلةٍ تمليكيني … ودعي لي الخيارَ في التعيين

قرّبيني من اللذاذةِ ألمسها … أريني بداعة التكوين

إنزليني إلى "الحضيض" إذا … ماشئت أو فوقَ ربوةٍ فضعيني

كلَّ ما في الوجودِ من عقباتٍ … عن وصولي إليكِ لايَثنيني

إحمليني كالطفل بين ذراعيكِ … احتضاناً ومثله دلليني

وإذا ماسئلتِ عني فقولي … ليس بدعاً إغاثةُ المسكين

لست أماً لكن بأمثال "هذا" … شاءتِ الأمهات أن تبتليني

أشتهي أن أراكِ يوماً على ما … ينبغي من تكشفٍ للمصون

غير أني أرجو إذا ازدهتِ … النفس وفاضَ الغرامَ أن تعذريني

"إلطميني" إذا مجنتُ فعمداً … أتحرّى المجونَ كي تلطميني

وإذا ما يدي استطالت فمن … شعركِ لطفاً بخصلةٍ قيّديني

ماأشدّ احتياجةِ الشاعرِ … الحساس يوماً لساعةٍ من جنون

---

[٢] في البيت اشارة إلى الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي. وللزهاوي نكتة معروفة حول هذا البيت هو قوله: شدما يعجبني فيه أن الجواهري لم يكتف بانزالي في جهنم وإنما جعلني مقعداً فيها أيضاً.. وكان الزهاوي مصاباً بشلل خفيف في رجليه.

الثلاثيات

عريانة....

نظمت عام ١٩٣٢

أنـــتِ تدريــن أنــني ذو لُبانَــةْ ... ألهـــوى يســـتثير فيْ المَجَانَــةْ
وقـــوافٍ مثـــل حُســـنك لمـــا ... لتَعَرّيـــنَ حـــرَةً عُريانـــه
وإذا الحـــبُ ثـــارَ فـــلا تَمْـــ ... نَـــعُ أيُ احتشـــامة ثورانـــه
فلمـــاذا تُحـــاولين بـــأنْ أعـــ ... لـــنَ مـــايُنكِرُ الـــورى إعلانـــه
ولمـــاذا تُهيجـــين مـــن الشـــا ... عِـــر أغفـــى إحساسُـــهُ، بركانـــه
لاتقـــولي تجهُـــمٌ وانقبـــاضٌ ... بغَضـــا منـــه وَجهَـــه ولســـانه
فهمـــا ثـــورةٌ علـــى الدهـــر منّـــي ... كجَـــواد لايرتضـــي مَيدانـــه
أنـــا في مجلـــسٍ يضمُـــكِ نشـــوا ... نُ ســـروراً كـــأنني في حانـــه
لـــو تُحسِـــينَ مـــاأُحسُ إذا رجَـــ ... فْـــتِ في الرَقـــص بطنَـــك الخمصانـــة

رجلةٌ لاتمسُ مابين رِفْغَيّكِ | وتُبقي الصدرَ الجميلَ مكانه
والذراعَين كلُّ ريانةٍ فعـ | ـماءَ تَلْقِمي في فَعمةٍ رَيَانه
والثُديين كلُّ رُمانةٍ فسر | عاءَ تَهزا بأُختِها الرُمانه
عارياً ظهرُك الرشيقُ تُحبُ الـ | ـعينُ منه اتساقَهُ واتزانه
مابه من نحافةٍ يُستَشَفُ الـ | ـعظمُ منها ولابه من سَمانه
خُصرَ بالمحض من بلهَنيهِ العَيـ | ـشِ وأعطي من الصبا عنفوانه[٣]
وتراه يجيءُ بين ظُهور الـ | ـخُرَدِ الغيدِ سابقاً أقرانه
إذ تميلين يُمنةً ويَساراً | مثلَما لاعبت صبَاً خيزُرانه
عندما تبسِمين فينا فتفترُ | الشفاهُ اللطافُ عن أقحُوانه
إذ يحار الراؤون في حُسنك | الفتّانِ بل في ثيابِكِ الفَتّانه
رُبَّ جسمٍ تطري الملاحةَ فيه | ثم تعدوه مُطرياً فستانه
مابه من نقيصةٍ وكأنَ الـ | ـثوب أضحى مُتمِماً نُقصانه
إنَ كفاً قاست عليك لباساً | مثل هذا مهارةٌ شيطانه
عرَفَتْ كيف تَبرُزين إلى الجمـ | ـهور فيه لتخلِبي أذهانه
ضيَقت مُلتقى نهودِك والكشْـ | ـحين منه وشمرت أردانه
وأشارت إلى اللعوبَيْن بالأ‍لـ | ـباب منها بوردةٍ مُزدانه
ليت شعري ماالسرُ في أن بدت للـ | ـعَين جَهراً أعضاؤُكِ الحسَانه
واختفى عضْوُك الذي مازَه اللّـ | ـهُ على كل ماليك وزانه
الذي نال حُظوةٌ حُرِم | الإنسانُ منها وخُصت الإنسانه

(٣) ـ البلهنية الرخاء وسعة العيش.

وتمنى على الطبيعة شكلاً ... هو من خير مايكونُ فكانه

وَمَحَلاً خِصباً فحلَّ بوادٍ ... أنبتتَ اللَّهُ حولَهُ ريحانه

لم يُرِد من بَراه مُتعةَ نفسٍ ... أن يُغَطَّى ولم يُرِدْ كِتمانه

ككتابٍ كشَفت عن صفحتيهِ ... ثم غطَيت عَنوةً عُنوانه

أو غَديرِ جمِّ المساربِ عذبٍ ... حَرَموه وحلّأوا شُطآنه

هيكلٌ من هياكِلِ اللهِ سُدَّ ... البابُ منه وكفَّنوا صُلبانه

الأربعينات

بنت بيروت

*نظمت صيف عام ١٩٤٢ عندما كان الشاعر يصطاف في ربوع لبنان..

*نشرت في جريدة "الرأي العام" العدد ٦٥٥ في ١٤تشرين الأول ١٩٤٢، تتصدرها عبارة: "مهداة إلى الأستاذ الجليل عمر الفاخوري ذكرى تلك الساعات على الأبيض المتوسط"

ياعَذبَةَ الرُوح يافتّانَةَ الجسدِ ... يابنتَ "بيروتَ" ياأنشودةَ البَلدِ

ياغَيمَةَ الشَعرِ مُلتاثاً على قَمرٍ ... يابَسمةَ الثغر مفترّاً عن النَضَدِ[4]

يارَوعةَ البَحرِ في العينين صافيةً ... يانشوةَ الجبَلِ الملتفِ في العضُدِ

ياقَطرةً من نِطاف الفجر ساقطَها ... من "أرزَ" لبنانَ خفّاقُ الظلال ندي[5]

يانَبتَةَ اللّهِ في عَليا مَظاهِرِه ... آمنتُ باللّهِ لم يُولَد ولم يَلِدِ

---

(4) ـ النضد: ماتنضد وتراصف.

(5) ـ النطاف: جمع نطفة وهي الماء الصافي.

ياتلعةَ الجيدِ نصّته فما وَقعت | عَينٌ على مِثله يَزدانُ بالجَيَدِ[6]

يُطِلُ منها بوجةٍ أي مُحْتَمِل | ويستريحُ بصدرٍ أيُّ مقتعَد
ياجَوهَرَ اللُطفِ يامعنىً يضيقُ به | لَفظٌ فيقذِفُهُ الشِدقانِ كالزّبَد
أُعيذُ وجهَكِ أن أشقى برقّتِه | وَفَيْضُ حُسنِكِ أن يَعيا برِيٍّ صَدي
ولايليقُ بأجفانٍ أنشُرُها | على جمالكِ أن تُطوى على السُهُد
يَدٌ مَسحتُ بها عَيني لأُغمِضَها | على الهوى، ويدي الأخرى على كبدي
وَرَدتُ عن ظمإٍ ماءً غَصِصتُ به | فليتَ أنّي لم أظمَأْ ولم أرِدِ
قالَ الرِفاقُ ونارُ الحُبِّ آكلةٌ | مِن وَجْنتيّ أهذا وجهُ مُبترِد

لمْ أدرِ أذكُرُ "بيروتاً" بأيّكُما | أأنتِ أم لَوعتي ياليلةَ الأحد
عَجَّ الرصيفُ بأسرابِ المها وهَفا | قلبي بزفرةِ قَنّاصٍ ولم يصِد
فمِن مُوافِيةٍ وعداً، ورِاقبةٍ | وعداً وأينَ التي وفَّت ولم تعِد؟

فُويقَ صدرِكِ من رفقِ الشباب به | أشهى وأعنفُ مايُعطى لمنتهِد[7]
كنزانِ مِن مُتَعِ الدُنيا يُقِلُّهما | جمُّ الندى سرِفٌ في زيِ مُقتَصِد
قالوا تشاغَلَ عن أهلٍ وعن ولدٍ | فقال نهداكِ: لم يَشغَلْه من أحد
سوى رَضيعي لبانٍ توأمٍ حُبِسا | رهنَ الغِلالةِ إشفاقاً من الحسد

---

(٦) ـ تلعة الجيد: وتلعة انتصابه وارتفاعه. والجيد بفتح الجيم والباء: الحسن في الجيد.
(٧) ـ المنتهد: المرأة الناهد.

راجَعْتُ نَفسي بما أبقى الشبابُ وماتخلَّف من أسارِهِ بيدي[8]

فما أمرَ وأقسى ماخَرجتُ به لولا بَقيةُ قلبٍ فيَّ مُتَقِد

أمس مَضى بلُبانات الهوى وأتى يَومي يُمهِّد بادي بَدءِةٍ لِغَدي.

(8) ـ الأسار: جمع سؤر وهو البقية في الإناء.

ستالينغراد

*نظمت عام ١٩٤٣

*نشرت في جريدة "الرأي العام" العدد ٧٠١ في ٢١ شباط ١٩٤٣

نضــت الــروح وهزتهــا لــواء ... وكســته واكتسـت منـه الدمــاءَ

واسـتمدتْ مـن إلـه الحقـلِ والـ ... بيـتِ والمصنـعِ عَزمـاً ومَضَـاءَ

رمَـتِ الـزوعَ بعـين أثلـج الدّمـعُ ... فيهـا ضـرمَ الحِقـد اجتـواء

أعجلـتْ عنـهُ فـآلت قسَـماً ... أن ستسـقيهِ دمَ الأعـداء مـاء

ومشـت في زحمـةِ المـوتِ علـى ... قَـدمٍ لم تخـشَ مَيْـلاً والتـواء

أقسـمتْ باسـم عظيـمٍ كرُمـت ... باسـمِه أنْ لاتُهـين العظمـاء

يــا "سـتالين" ومـاأعظمَهــا ... في التهجّـي أحرُفـاً تـأبى الهجـاء

أحـرفٌ يسـتمطرُ الكـونُ بهـا ... انعتاقـاً وازدهـاراً وإخـاء

خـالقُ الأمـةِ لم يمنُـنْ ولم ... يبـغِ ـ لـولا أرَجُ الزهـرِ ـ ثنـاء

وزعيـــمٌ شـــعٌ فيمـــنْ حولَـــه قبــسٌ منـــه فكمـــانوا الزعمـــاء

زَرُّ بُرْديـــهِ علـــى جـــذي مِـــرَةٍ فـــاض إشـــفاقاً وبأســـاً وعنـــاء[٩]

مسّــه الظُلــمُ فعـــادى أهلَــه وامـترى البـؤس فَحَـبٌ البؤســاء

وانــبرى كـــالغيم في مُضْحِيَـــةٍ فســقى دهــراً، وأحيــا، وأفــاء

بُــوركَ البـــاني وعاشـــت أمـــةٌ وقَّــتِ البـــاني حُقوقــاً والبنــاء

قيـل للعيـــش ففـــاضت أُمنـــاء وإلى المــوتِ ففـــاضتْ شـــهداء

ومشـى التـــاريخُ مـوزونَ الخُطـى مـــاانحنى ذُلاً ولاضـــجّ ادعـــاء

هـــذه التربـــة لاماسُـــمّيت وطنـــاً يُنبِـــتُ جوعـــاً وعـــراء

وهي ذي الحفْـرَةُ إذْ طارت عَجاجـاً ألــفُ نفـسٍ معهــا طـــارت فــداء

وهـو ذا العِـرضُ فهـل تبغـي وُقـاةً مثلَهـم، أو مثــلَ ذا تبغــي وَقــاء

يــاعروسَ "الفُلـــغِ" والفلغـــا دمٌ ســاءت البلــوى فأحسـنت البــلاء

صُبِـغَ "الـــدونُ" دمَـــاءين هُمـــا بُعــدُ بــين الرجــس والطهــرِ النقــاء

وجـــرت أمواجُـــه حاملـــةً فوقهـــا الضدّيـــن صُبحـــاً ومســـاء

وعلـى الجُرفـــين "عظمـــان" همـــا رمـــزُ عهدَيّـــن انحطاطـــاً وارتقـــاء

ياابنــةَ النهريـــن دومـــي شَـــبَحاً لقـــوي وضعيــــفٍ يُـــتراءى

للمُهينـــــينَ عِقابـــــاً وجَـــزاء والمُهــــانين انتفاضـــاً وإبـــاء

حسِـبوا أمـــرَكِ مـــاقد عُـــوِّدُوا صَعـقَ الحــربِ اتقــاداً وانطفــاء

---

(٩) ـ المِرَة: القوة.

وابتـــداءٌ مـــن حديــــدٍ ودمٍ ... يُمهَـرُ الفتـحُ بـه ثـم انتهـاء
واستجاشـوا فيلـقَ المـوتِ علـى ... ظمـأ للـدم منه ارتـواء
ومضـوا فيمـا أرادوا خطـوةً ... أوشك اليـأسُ بهـا يمحـو الرجـاء
أوجـف الغـربُ علـى وطأتهـا ... وأمـالت كلكـل الشـرقِ فنـاء(١٠)

فـإذا العِـزّةُ في عَليائهـا ... تتضـرّى فتـدوسُ الكبريـاء
وإذا الأنقـاضُ في كُربتهـا ... تفغـمُ المكـروبَ كـالرّوض شـذاء
وإذا المُنقمـضُ مـن أحجارهـا ... لمـحُ النجـمِ تعـالى فأضـاء
وإذا الطـاغوتُ في أعراسـه ... يمـلأ الدنيـا نحيبـاً وبكـاء
أنـتِ أمليـتِ علـى تاريخـه ... طافحـاً بالكِـبر ذُلاً واختـذاء
ومحـوتِ العُجْـبَ مـن أسـطاره ... ومـلأتِ الصَّلَـفَ المحـضَ ازدراء
وصفعـتِ الـدنَّ في يافوخِـهِ ... صفعـةً لم تُبـقِ خَمْـراً وانتشـاء
نحـنُ أهـلُ الأرض لـو نقْـوى وفـاء ... لرفعنـاكِ علـى الأرض سمـاء
لجعلنـا كـلَّ عـين ـــ مثلمـا ... كـلُّ قلـبٍ ـــ تتمـلاكِ اجتـلاء

ورأوا في السِـلم دينـاً يُقتَفـى ... ورأوا في الحـربِ للدَّيـن اقتضـاء
أترجـى -أن تنجـي وطنـاً . ... مـن يـد المـوت- جنـوداً فقـراء
إنَّ للحـربِ رجـالاً ليتهُـمْ ... خبَرونـا أنَ للحـرب نسـاء
وغيـوراتٍ أبـى تاريخُهـا ... أن تُـرَى دون الغيوريـنَ غَنـاء

(١٠) ـ وجف: اضطرب

زانهـــــا الطهرُ رُواءً وارتمـــــت
في مُثـــار النقـــعِ فـــازدادت رُواء

ذادتِ الأمُ عـــن البيـــتِ وَقـــاء
وارتمـى الطفـلُ علـى الأمِ افتـداء

وتعـزّت حـين أخلـت طُنفـا
لم تَصُنْـه، أنْهـا صـانت قِنـاء[11]

"أمّ غوركـي" ليـت عنـدي ووحيّـه
لأوفي (بنتـك) اليـوم الثنـاء

لـو يعودا اليـومَ حيّـاً لـرأى
مثلَهـا ألْفـاً تهـزُّ البُلَغـاء

بـل ولـولا أن غوركـي أمُّـهُ
مثـل هـذي لم يُـبزّ النبغـاء

يـا "تولستوي" ولم تذهـبْ سُـدىً
ثـورةُ الفكـر ولا طـارت هَبـاء

ياثريّـاً وهـبَ النـاسَ الـثراء
قُـمْ تـرَ النـاس جميعـاً أثريـاء

قُـمْ تَجِـدْهُ مـالِكي غلّتهـمْ
مـن علـى عهـدِك كـانوا الأُجَـراء

هكـذا (الفكـرةُ) تزكـو ثَمَـراً
إن زكـتْ غرسـاً وإن طـابت نَمـاء

يابنـةَ "النهريـن" هـذا نَسَـبٌ
مـن وَلاءٍ لـو تقبّلـتِ الـولاء

بَعُـدَ الرّمـى بمـا اسـتهدفتهُ
واختـذى السـهمُ فقصـرّتُ عيـاء

وارتمى الحِسُّ علـى الحِسّ فما
يسـتطيعُ اللفـظُ للوعـي أداء

ومـن الظّلـمِ -الـذي تأبَيْنَـه-
أن تسـومي المُعجـزاتِ الشـعراء[12]

عاطفـاتٌ حُـوَّمٌ عـاجت علـى
أبْحُـرِ الشـعر فردَتْهـا ظمـاء

وهـي ماكـانت لتُـدلي سـبباً
لـك لـولا أنهـا كـانت بَـراء

لم تُثِرْهـا نـزوةُ النفـسِ ولم
يَزِهِهـا العُجْـبُ ولم تنبـضْ ريـاء

جُـلُّ مايُسـعِفُني الشـعرُ بـه
أن يلبـي "الفـمُ" للقلـبِ نـداء

---

(11) ـ الطنف: إفريز الحائط أو ماأشرف من البناء خارجاً.

(12) ـ المعجزات: مايعجز.

أبو العلاء المعري

* ألقاها الشاعر في مهرجان "ذكرى أبي العلاء المعري"، الذي أقامه المجمع العلمي العربي بدمشق، ونشرت في جريدة "الرأي العام" العدد ١١٢١ في ٥ تشرين الأول ١٩٤٤

قِفْ بالمعرّةِ وامسح خدّها التَّرِبا ... واستوحِ مَن طوّق الدُّنيا بما وهبا[1]

واستوحِ مِن طبَّبِ الدُّنيا بحكمتِهِ ... ومَن على جُرحها من جرحه سكبا

وسائلِ الحفرةَ المرموقَ جانبُها ... هل تبتغي مطمعاً أو ترتجي طلبا

يابُرجَ مفخرةِ الأجداث لا تهِني ... أن لم تكوني لأبراج السما قُطُبا

وهل تصحّح في عقباكَ مقترحٌ ... مما تفكّرتَ، أو حدثتَ، أو كتبا[2]

نوِّر لنا، إننا في أي مُدَّلجٍ ... مماتشككتَ، إن صدقاً وإن كذبا[3]

"أبا العلاء"، وحتى اليوم مابرحتْ ... صَناجةَ الشعر تهدي المترف الطربا[4]

---

(١) الترب (بكسر الراء): الذي يكسوه التراب.

(٢) تفكرت: بمعنى فكرت.

(٣) المُدلِج: السائر في آخر الليل خاصة.

(٤) الصنج: من آلات الطرب وصناجات الشعر المغنون به والمرقون إياه.

يستنزلُ الفكرَ من عَليا منازلهِ   رأسٌ ليمسحَ من ذي نعمةٍ ذنبا

على الحصير.. وكوزُ الماء يرقدُه   وذِهنُه.. ورفوفٌ تحملُ الكتبا
أقامَ بالضجّةِ الدنيا وأقعدَها   شيخٌ أطلَّ عليها مُشفقاً حَدِبا
بكى لأوجاعِ ماضيها وحاضرِها   وشامَ مستقبَلاً منها ومرتقبا
وللكآبةِ ألوانٌ، وأفجعُها   أن تبصرَ الفيلسوفَ الحرَّ مكتئبا
لثورةِ الفكرِ تاريخٌ يحدثنا   بأنَّ ألفَ مسيحٍ دونها صُلِبا
إن الذي ألهبَ الأفلاكَ مِقوله   والدهر.. لا رَغباً يرجو ولا رَهَبا..
حَنا على كلِّ مغصوبٍ فضمَّده   وشجَّ مَن كان، أيّاً كان، مُغتصِبا
سَلِ المقاديرَ، هل لا زلتِ سادرة   أم أنتِ خجلى لِما أرهقتِه نصَبا؟
"زنجيّةَ الليل" تروي كيف قلدها   في عُرسها غُرَرَ الأشعار.. لا الشُهُبا[5]
لعلَّ بين العمى في ليل غربته   وبين فحمَتِها من ألفةٍ نسبا
و"ساهرُ البرق" والسُمّارُ يُوقِظهم   بالجزع يخفق من ذكراه مُضطربا[6]
و"الفجرُ" لو لم يلذ بالصبح يشربه   من المطايا ظِماءً شُرَّعاً شُربا[7]

---

(٥) البيت إشارة إلى بيت أبي العلاء المشهور:
ليلتي هذه عروس من "الزنج"   عليها قلائد من جمان

(٦) إشارة إلى مطلع قصيدته الرائية المشهورة أيضاً
يا "ساهر البرق" أيقظ راقد السمر   لعل بالجزع أعواناً على السهر

(٧) إشارة إلى بيته وهو أجمل وأرق ماسمع في وصف تبلج الصباح:
يكاد الفجر تشربه المطايا   وتملأ منه أوعية شنان

والصبحُ مازال مُصفراً لمقرنه ... في الحسن بالليل يُزجي نحوه العتبا[8]

ياعارياً من نتاج الحُبِّ تكرمةً ... وناسجاً عَفّةً أبرادَهُ القُشُبا
نعوا عليكَ ـ وأنت النورُ ـ فلسفةً ... سوداءَ لا لذة تبغي ولا طربا
وحمَّلوكَ ـ وأنت النارُ لاهبةً ـ ... وزرَ الذي لا يُحسّ الحبُّ ملتهبا
لا موجةَ الصدر بالنهدين تدفعه ... ولا يشقُّ طريقاً في الهوى سَرَبا
ولا تدغدغ منه لذةٌ حُلُما ... بل لا يُطيقُ حديث اللذةِ العِذبا
حاشاك، إنكَ أذكى في الهوى نفسا ... سَمْحاً، وأسلسُ منهم جانبا رطِبا
لا أكذبنكَ إنَّ الحبَّ متهمٌ ... بالجور يأخذ مِنا فوق ماوهبا
كم شيَّعَ الأدب المفجوعُ مُحتضراً ... لدى العيونِ وعندَ الصدر مُحتسَبا[9]
صرعى نشاوى بأن الخودَ لعبتهم ... حتى إذا استيقظوا كانوا هُمُ اللعُبا

عاني لَظَى الحُبِّ "بشارٌ" وعُصبتهُ ... فهل سوى أنهم كانوا له حَطبا
وهل سوى أنهم راحوا وقد نذروا ... للحبِّ مالم يجب منهم وما وَجَبا
هل كنتَ تخلدُ إذ ذابوا وإذ غبروا ... لولم ترضْ من جماح النفس ماصَعُبا
تأبى انحلالاً رسالاتٌ مقدّسةٌ ... جاءت تقوِّمُ هذا العالَمَ الخربا

---

[8] إشارة إلى بيت له من قصيدته التي مر ذكر البيت السابق منها وهو:
رب ليل كأنه "الصبح" في الحسن ... وان كان أسود الطيلسان

والبيتان من قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها:
"عللاني فإن بيض الأماني ... فنيت والزمان ليس بفان"

[9] المحتضر: من أدركه الموت فأشرف عليه. والمحتسب: المفقود بالموت ويقال ذلك للكبير. فإن كان المفقود صغيراً قيل فيه "مفترط" بفتح الراء.

ياحاقِرَ النبعِ مزهُواً بقوتِهِ ... وناصراً في مجالي ضعفه الغَرَبا[10]
وشاجبَ الموت من هذا بأسهمه ... ومستتبنا لهذا ظِلّه الرّحِبا
ومحرج الموسر الطاغي بنعمته ... أن يُشركَ المعسِرَ الخاوي بما نهبا
والتاج إذ تتحدى رأس حامله ... بأيِّ حقٍ وإجماعٍ به اعتصبا

أجللتُ فيك من الميزات خالدةً ... حريَّةَ الفكرِ والحرمانَ والغضبا
مجموعةً قد وجدناهنَّ مفردةً ... لدى سواكَ فما أغنيننا أرَبا
فربَّ ثاقبِ رأيٍ حط فكرته ... غُنمٌ فسفَّ.. وغطى نورَها فخبا
وأثقلت مُتَعُ الدنيا قوادِمَهُ ... فما ارتقى صُعُداً حتى انْثنى صبَبا

آمنتُ بالله والنور الذي رسمَتْ ... به الشرائعُ غُرّاً منهجاً لَحِبا
وصنتُ كلَّ دُعاةِ الحقِّ عن زَيغٍ ... والصلحين الهداةَ، العُجم والعَرَبا
وقد حَمِدتُ شفيعاً لي على رَشَدي ... أمّاً وجدتُ على الاسلام لي وأبا
لكن بي جَنَفاً عن وعي فلسفةٍ ... تقضي بأنَّ البرايا صُنِّفت رُتَبا[11]
وأنَّ مِن حكمةٍ أن يجتني الرُّطَبا ... فردٌ بجهد ألوفٍ تعلكُ الكَرَبا[12]

---

[10] النبع: شجر يعرف بقوته وتتخذ من السهام والقسي. والغرب: شجر معروف بسهولة انكساره ومعنى البيت الإشارة إلى شجب المعري القوة بكل مظاهرها، واحتضانه الضعفاء من كل جنس.

[11] الجنف: الميل والانحراف.

[12] الكرب: أصول سعف النخل.

طرطرا

*نظمت عام ١٩٤٥

*نشرت أول مرة، في جريدة "الرأي العام" العدد١٤٨٤ في ٢٤آذار ١٩٤٦

هذه القصيدة الساخرة حاكت في الوزن القصيدة الدبدبية المشهورة في العهد العباسي ومطلعها:

أي دبدبـــي تدبدبـــي   أنـــا علـــي "المغربـــي"

أيْ طرطـــرا تطرطـــري   تقدَّمـــي، تـــأخْري

تَشـــيَّعي، تسـَـــنَّني   تَهـــوَّدي،تنصـــرْي

تكـــرَّدي، تَعرَّبـــي   تهـــاتَري بـــالعُنصرِ

تَعمَّمـــي، تَـــبَرنطي   تعقَّلـــي تســـدَّري

كونـــي -إذا رُمـــت العُلـــى   - مـــن قُبُـــلٍ أو دُبُـــرِ

صالِحـــةً "كصـــالحٍ"   عـــامرةً "كـــالعُمري"

وأنـــــتِ إنْ لم تَجـــِـدي أبــــاً حميـــــدَ الأثَـــــر
ومَفخـــــراً مــــنَ الجُـــدو دِ طيــــــبَ الُنحــــــدّر
ولم تَــــرّي في النّفــــس مــــا يُغنيــــكِ أنْ تفتخــــري
شــأنُ عِصـــامٍ قــــد كَفَتْـــــهُ النفــس شــرَّ مَفْخَــرِ
طُــوفي علــى الأعــرابِ مــن بـــادٍ ومـــن مُحتَضِـــر
والتِّيســـي منهـــم جـــدو داً جُـــــــــدُداً وزَوِّري
تَزَيْـــــدِي تزيْـــــدي تعـــــنْزي تشـــــمَّري
في زَمَـــــنِ الـــــذرِّ إلى بَــــــداوةٍ تَقَهْقَــــري

تَقَلَّــــبي تَقَلُّــــبَ الـــــد هـــرِ بشـــتّى الغِـــيَر
تصـــرَّفي كمـــا تشـــا ئـــينَ ولاتعتـــذري
أي طرطـــرا إن كـــانَ شَعـــبٌ جـــاع أو خلـــقٌ عَـــري
أو أجْمَـــع الســـتُّ المـــلا يـــينُ علـــى التذمُّـــر
أو حكَـــمَ النســـاءُ حُكـــمَ الغـــاصبِ المقتـــدِرِ
أو صـــاحَ نَهبـــاً بـــالبلاد بـــائعٌ ومشـــتري
أو نُفِّـــذَ المرســـومُ في محـــايرِ وأســـطُر
أو أخِـــذَ الـــبريءُ بالمــجـرمِ أخـــذَ "طرطـــر"
أو دُفِـــعَ العـــرا قُ للـــذل أو التدهـــور
فـــاحتكمي تُحكّمـــي وتُحمَّـــدي وتوَجّـــري

أي طرطـــــرا تطرطـــــري	وهلِّـــــي وكَـــــبِّري
وطَبِّلـــي لكـــلِّ مـــا	يُخـــزي الفَتـــى وزمِّـــري
وسَـــبِّحي بحمـــدِ مـــا	فـــونِ وشـــكرِ أبـــتَرِ[13]
أعطـــي سمـــاتِ فـــارعٍ	شَـــمَرْدَلٍ لبُحـــترِ[14]
واغتَصِـــبي لضِفـــدعٍ	سمـــاتِ ليـــثٍ قَسْـــوَرِ
وعَطِّـــري قـــانورةً	وبـــالمديحِ بَخِّـــري
وصـــيِّري مـــن جُعَـــلٍ	حديقـــةً مـــن زَهَـــرِ
وشَـــبِّهي الظـــلامَ ظُلـــمـــاً	بالصَّبَـــاحِ المُسـ ـــفِرِ
وألبســـي الغـــبيِّ والأحمـــقَ	ثَـــوبَ "عبقـــرْ"
وأفرِغـــي علـــى المخـــا	نيـــثِ دُروعَ "عنـــتَرْ"
إن قيـــلَ إنَّ مجدَهـــم	مزيَّـــفٌ فـــأنكِري
أوقيـــلَ إن بطشَـــهم	مـــن بَطْشَـــةِ المســـتعيرِ
وإنَّ هـــذا المستعيـــ	ـــرِ صولـــةَ الغَضَنفَـــرِ
أهـــوَنُ مـــن ذبابـــةٍ	في مســـتَحمِ قَـــذِرِ
فهـــي تطـــير حُـــرَّةً	جَناحُهـــا لم يُغَـــرِ
أي طرطـــراً سِـــيري علـــى	نَهجِهِـــمُ والأَثَـــرِ
واســـتَقبلي يومَـــكِ مـــن	يومهـــمُ واســـتدبِري

---

(١٣) ـ الأبتر: الخبيث من الحيّات.

(١٤) ـ الشمردل: الطويل. والبحتر: القصير.

وأجمِعـــي أمـــرَكِ مــــن | أمرِهِـــمُ تَســــتَكثِري
كُونـــي بُغاثــاً واســلَمي | بـالنفسِ ثـم استَنْسِـري[15]

أي طرطــرا لاتُنكــري | نَنْبــاً ولاتَســتَغفِري
ولاتُغطِــي ســوءةً | بــانت ولاتَــتَزري
ولاتُغضِــي الطــرفَ عــن | فَــرط الحيــا والخَفَــر
كُونــي علــى شــاكِلةٍ | مــن أمرهــم تَوَّمَــري
كُونــي علــى شــاكلةِ الــ | ــوزيــرِ بــادي الخَطَـر
أيْ طرطــرا كُونــي | علــى تــاريخِك الُمحتقَــر
احــرَص مــن صاحبــة | النِحيْيــن إنْ تَذكّــري
طــولي علــى "كِســرى" ولا | تُعنَــي بتــاج "قَيصَــر"
كونــي علــى مافيك مــن | مســاوِئ لم تُحصَــرِ
كونــي علــى الأضــداد في | تكوينــك المُبعــثَر
شــامخةً شمــوخَ قَــر | نِ الثَــور بــين البَقَــرِ
أيْ طرطــرا أقســم | بالســويكةِ المشــهَّر
والخَــرزِ المَعقــود في | البطــن فُوَيــق المشــعر
بوجهــكِ المعتكــر | وثَغــرِك المنــوَّرِ
وعينيــكِ: الحمــراءِ تــر | نــي حاســداً بالشَــرَرِ
وصنــوك الثــور يُثــا | رُ غيظُــه بــالأحمر

[15] ـ بغاث الطير: الخامل منه والحقير. واستنسر: صار كالنسر.

أقســـــــم "بالكـــــــافور" لا أقصِـــــدُ شَـــــتم "العَنْــــبر"

لأنـــــتِ فـــــوقَ البشَـــــر فـــــوق القَضَــــــا والقَـــــدَر

أيْ طرطــــــــرا "يـــــــالَكِ مـــــن قُـــــــبُرة بمَعمَــــــر

خـــــلا لـــــكِ الجـــــوُّ" وقـــــد طـــــاب "فبيضـــــي واصفِـــــري""

"ونقِّـــــري" مـــــن بَعدِهـــــم "ماشـــــئت أن تنَقِّـــــري"

قـــــد غفَـــــل الصيَـــــادُ في "لَـــــدُنَ" عنـــــك فأبشِـــــري

ذكرى أبو التمَن

*القيت في الحفل الأربعيني الكبير الذي أُقيم لذكرى الفقيد "محمد جعفر أبو التمن" في ٥ كانون الثاني ١٩٤٦

ولقد كان لإلقاء هذه القصيدة ونشرها في جريدة "الرأي العام" في العدد ١٤٢٢ في ٦ كانون الثاني ١٩٤٦ دويٌّ كبير وصدى شديد؛ وقامت السلطة بتحريك الدعوى على الشاعر..

*نشرت في مجلة "الكاتب المصري"

قَسَماً بيومِكَ والفُراتِ الجاري	والثورةِ الحمراء والثُّوَّار[١٦]
والأرضِ بالدَمِ ترتوي عن دِمْنَةٍ	وتَمُجّهُ عن روضةٍ مِعطار[١٧]
والخيلِ تزحفُ لم تَدَعْ لمُغيرها	جثثٌ تُغَطّى الأرضَ أيَّ مَغار

---

(١٦) ـ إشارة إلى الثورة العراقية في الفرات.

(١٧) ـ الدمنة: ماتجمع من فضلات البقر والأوساخ والمعنى أن دم الثوار سال على أرض مقفرة فأحالها، بما سقاها ومانفحها من كرامة وعزة، روضة معطار.

قسَماً بتلكَ العاطفاتِ ولم تكُنْ ... لي قبلَها من حِلْفةٍ بالنَار

إنَ الذينَ عهدتَهُم حطَبَ الوغى ... لولاهُمُ لم تشتعِل بأُوار

واللاقِحينَ نَتاجَها بأعزِ ما ... مَلَكَتْ يمينٌ من حِمىً ونمار

والداهناتِ دماؤُهم لِمَمَ الثَرى ... والمُؤنساتِ شواطئَ الأنهار[18]

والناحرينَ مِنَ الضَحايا خيرَ ما ... حَمَلَتْ بُطُونُ حرائرٍ أطهار

ما إنْ تَزالُ حقوقُهُمْ كذويهِمُ ... في القَفْرِ سارحةً معَ الأبقار

وأعزُّ ماتبغي "الحلائلُ" مِنْهُم ... أنْ تُسترَ العَوراتُ بالأطمار[19]

خمسٌ وعشرونَ انقَضَتْ وكأنَها ... بشُخوصِها خَبَرٌ مِنَ الأخبار[20]

ضِقنا بها ضِيقَ السجين بقيدِهِ ... من فَرْطِ ماحمَلتْ من الأوزار

وتَجَهَمَتْ فيها السماءُ فلم تَجُدْ ... للخابطين بكوكبٍ سيَّار

شاخَ الشبابُ الطيبون وجُدِّدتْ ... فيها شَبيبةُ شِيخةٍ أشرار

وبدا على وَجهِ الحفيدِ وجدِّه ... للناظرينَ تقارُبُ الأعمار

من كانَ يحسبُ أنْ يُمَدَّ بعُمرِه ... حُكْمٌ أقيمَ على أساسٍ هاري؟!

ومنَ الفَظاعةِ أنْ تُريدَ رَعيَةٌ ... في ظِلِ دُستورٍ لها وشِعار

مايَطلُبُ المأسورُ من يدِ آسرٍ: ... إسداءَ عارفةٍ وفكَ إسار

ذُعِر الجنوبُ فقيلَ: كيدُ خوارجٍ ... وشكا الشَمالُ فقيلَ: صُنْعُ جوار-

---

(18) ـ اللمة: في الأصل ماجاور شحمة الأذن من شعر ويراد بها هنا وجه الأرض.

(19) ـ الحلائل: جمع حليلة وهي الزوجة.

(20) ـ إشارة إلى المدة التي انقضت على ابتداء العهد البائد حتى عام وفاة الفقيد.

وتنابزَ الوسطُ المُدِلُّ فلم يَدَعْ بعضٌ لبعضٍ ظِنَّةً لفَخارِ[21]

ودعا فريقٌ أنْ تسودَ عَدالةٌ فرُموا بكلِ شنيعةٍ وشَنارِ

ومَشى المُغيثُ على الجياعِ - يَقوتُهمْ - وعلى العُراةِ، بجحفلِ جرّارِ

وتساءلَ المُتَعَجبونَ لحالةٍ نكراءَ: مَنْ هُمْ أهلُ هذي الدارِ؟

هِيَ للصحابةِ مِن بَني الأنصارِ من كلِ بَدريٍ، وكلِ حَواري

للحاكمينَ بأمرهم عن غيرهم ولصَفْوةِ الأسباطِ والأصهارِ[22]

من كلِ غازٍ شامخٍ في صدره زاهي الوسامِ، مدوخِ الأمصارِ

هيَ للذينَ لو امتحنتَ بَلاءهُم لعجبتَ من سُخْرِيَةِ الأقدارِ[23]

هي للذي من كلِ مايَصِمُ الفتى كاسٍ، ومن جُهْدٍ يُشرّفُ عاري[24]

إيهِ شبابَ "الرافدين" ومَنْ بهم يرجو العراقُ تَبَلُّجَ الأسحارِ

الحاملينَ مِنَ الفوادحِ ثِقْلَها ليسوا بأنكاسٍ ولا أغمارِ[25]

والذائدينَ عن الحياض إذا انتخت كُرَبٌ، ولاذَ مُكابرٌ بفرارِ

والباذلينَ عن الكرامة -أرخصتْ- أغلَى المُهورِ، وأفدحَ الأسعارِ

الفَقْرَ إذ طُرُقُ الغِنى مفتوحةٌ والبؤسَ إذ غُدَقُ النعيمِ جواري[26]

ومؤججينَ نفوسَهمْ وقلوبَهمْ شُعَلاً يسيرُ على هُداها الساري

---

(21) ـ الوسط المدل: يراد به العاصمة العراقية بغداد.

(22) ـ الأسباط: جمع سبط (بكسر فسكون)، ولد الولد، ويغلب على ولد البنت.

(23) ـ امتحن الشيء: اختبره وأبلى في الأمر بلاء: أظهر فيه قدرته.

(24) ـ كاس: أي مكسوّ.

(25) ـ الأنكاس: جمع نكس الرجل الضعيف. والأغمار: جمع غمر الخامل كالمغمور.

(26) ـ الفقر منصوب على البدلية من "أغلى" و"أفدح" وهما مفعولان لاسم الفاعل "الباذلين" والغدق: محركة: الماء الكثير.

والحابسينَ زئيرَهم بصدورِهم فإذا انفجرنَ بهِ فأيُّ ضواري

والقانعينَ مِن الحياة رخيَّةً بلُماظَةٍ، ومن الكَرَى بغِرار[27]

والمغرِياتُ مُرودِاتٌ ترتجي وتَخيبُ، من عُونٍ ومن أبكار[28]

---

[27] ـ اللماظة: بقية الطعام في الفم. والغرار: القليل من نوم.

[28] ـ العون: جمع عوان وهي (بالفتح) المرأة المتزوجة. والأبكار: جمع بكر، والعون والأبكار كناية عن تنوع المغريات.

المقصورة

*المقصورة من مختارات قصائد الشاعر، وقد نظمها في أواسط عام ١٩٤٧، ونشر قطعاً منها في أمهات الصحف العراقية. وفي العدد ١٩١٠ في ١١آب ١٩٤٨ من جريدة "الرأي العام" نشر هذا النص المثبت هنا.

ومن المؤسف أن يكون جزء كبير منها يزيد على مائة بيت قد أطارته الريح وألقته في دجلة في أثناء اشتغال الشاعر بتنقيحه خلال صيف عام١٩٤٧ حيث كان يسكن داراً مطلة علىالنهر، وأن يكون جزء منها يؤلف حوالي خمسين بيتاً قد فقدت جذوره الأساسية التي يعتمدها الشاعر ساعة تدوين خواطره فيما فقد من أوراقه الخاصة في أثناء انتقال جريدته "الجهاد" خلال عام ١٩٥٢ وعلى هذا تكون "مقصورة الجواهري" مشتملة في الأصل على مايقارب أربعمائة بيت من الشعر.

برغمِ الإباء ورغمِ العُلى	ورغمِ أنوفِ كِرامِ المَلا
ورغمِ القلوبِ التي تستفيـ	ـضُ عطفاً تَحوطُكَ حَوْطَ الحِمى

وإذ أنــتَ ترعــاكَ عــينُ الزمــان | ويَهْفُـو لجَرْسِـكَ سمْـعُ الدُنــى[٢٩]
وتلقــفُ حولَــكَ شــتى النُفــوسِ | تجيـشُ بشــتّى ضــروب الأســى
وتُعــرِبُ عنهــا بمــا لاتُبــين | كــأنَكَ مــن كــلِ نفــسٍ حشــا
فــأنتَ مــع الصبــحِ شَــدْوُ الرعــاةِ | وحلــمُ العــذارى إذا الليــلُ جــا
وأنــت إذا الخطــبُ ألقــى الجِــرانَ | وحــطَ بكلكلــهِ فــارتمى[٣٠]
ألَحْـــتَ بشِــعرِك للبائســين، | بداجــي الخُطــوبِ، بَريــقَ المُنــى
بـ"علقمـةَ الفحــلِ" أزجــي اليمـينَ | أنِــي ألَــذُ بمُــرِ الجنــى[٣١]
وبــ"الشــنفرى" أنَ عيــنيٌ لا | تلَــذانِ في النــومِ طعــمَ الكــرى
وبــ"المتنبــئِ" أنَ البَــلاءَ، | إذا جــدَّ، يَعلـم "أنـي الفتــى"[٣٢]

ألا مِــن كريــمٍ يَسُــرُّ الكــرامَ | بحيفــةِ جلْــفٍ زَنيــمٍ عَتــا[٣٣]
فياطالمــا كــانَ جــدُّ البَغِــيِ | يُخَفَــفُ مِــن فحــشِ أهــلِ البغــا
ويا طالمــا ثُنِــيَ الســائرونَ | بمـا اقتِيـدَ مــن ســادرٍ مــا ارعوى[٣٤]
علــى أنَــه مِــن شِــفاء الصُــدو | رِ لــو أنَ حُمــرًا كريمــاً شــفى

---

(٢٩) ـ الجرس: الصوت الخفيض، والنغم.
(٣٠) ـ جران البعير: رقبته. وكلكله: صدره. وألقى جرانه وحط كلكله: برك وأناخ.
(٣١) ـ علقمة الفحل والشنفرى: شاعران جاهليان عرف عنهما قشوبة العيش وصلابة العود.
(٣٢) ـ إشارة إلى بيت المتني في مقصورته:

لتعلــم مصــر ومــن بــالعراق | ومــن بــالعواصم أنــي الفتــى

(٣٣) ـ الجلف: الرجل الحقم الجافي الطبع. الزنيم: الملحق بالقوم وليس منهم.
(٣٤) ـ السادر: اللاهي العبث، الذي يعيش بلاهدف.

تأصّلَ هذي العروقَ الخباثَ ... فقد ساقَ بالجذمِ منها الثرى(٣٥)

أنبيكَ عن أطيبِ الأخبثينَ ... فقُلْ أنتَ بالأخبثِ المُزدرى

رِقاقٌ من الريحِ منفوخةٌ ... وإن ثقّلَ الزهوُ منها الخطى(٣٦)

وأشباحُ ناسٍ، وإنْ أُوهِمُوا ... بأنّهُمُ: "قادةٌ" في الورى

ألمْ ترَ أنّي حربُ الطغا ... ةِ سلمٌ لكلِ ضعيفِ الدِما(٣٧)

وأنّي تركتُ دهيَّ، السِبال ... كثيرِ الصيالِ، شديدَ القوى(٣٨)

من الخوفِ كالعَيْرِ قبلَ الكوا ... ءِ يَحبقُ مما اصطلى واكتوى(٣٩)

بماذا يخوفِني الأرْذلُونَ ... وممّ تخافُ صِلالُ الفلا؟

أيُسْلَبُ عنها نعيمُ الهجير، ... ونفحُ الرمالِ، وبذْخُ العرا؟

بلى- إنَ عنديَ خوفَ الشُجاعِ ... وطيشَ الحليمِ، وموتَ الرّدى

إذا شئتُ أنضجتُ نَضجَ الشِواء ... جلوداً تعصّتْ فما تُشتوى

وأبقيتُ من مِيسمي في الجِبا ... هِ وشماً كوَشْمِ بناتِ الهوى(٤٠)

فوارقُ لايَمّحي عارُهُنّ ... ولايَلتبسْنَ بوصفِ "سوى"

بحيثُ يُقالُ إذا مامشى الصَلِـ ... ـيُ بها: إنّ وغداً بدا(٤١)

وحيثُ يُعيَّرُ أبناؤهُ ... بأنّ لهُمْ والداً مثلَ ذا

---

(٣٥) ـ جذم الشجرة: جذرها.
(٣٦) ـ زقاق: جمع زق وهو الجراب.
(٣٧) ـ الدماء: بقية الروح.
(٣٨) ـ السبال: اللحى، والواحدة سبلة.
(٣٩) ـ العير: الحمار. الكواء: اسم من كوى يكوي كالشواء من شوى يشوي. يحبق: يضرط.
(٤٠) ـ الميسم: اسم آلة يوسم بها.
(٤١) ـ الصلي: الموسوم بالميسم.

أقولُ لنفسي إذا ضمَّها ... وأترابَها محفِلٌ يُزدهى:

تسامَيْ فإنكِ خيرُ النفوسِ ... إذا قيسَ كلٌ على ما انطوى

وأحسنُ ما فيكِ أنّ "الضميرَ" ... يَصيحُ من القلبِ إنّي هُنا

تسامَيْ فإنّ جناحيكِ لا ... يَقَرّانِ إلا على مُرتقى

كذلكِ كلُّ ذواتِ الطِما ... حِ والهمِّ، مخلوقةٌ للذُرى

شُهدتُ بأنكِ مذخورةٌ ... لأبعدَ ما في المدى من مدى

وأنّكِ سوفَ تدوّي العصورُ ... بما تتركينَ بها من صدى

بآيةِ أنّ يدَ المُغرياتِ ... تهابُكِ إلاّ كلَمسِ النَدى

وأنّكِ إنْ يَلتمعْ مطمعٌ ... يُخافُ على الرُوحِ منه العمى

يموتُ "النبوغُ" بأحضانِه ... ويُنعى به "الأملُ" المرتجى

وتمشي الجموعُ على ضوئه ... لتبكي على عبقريٍ قضى

وكادتْ تلفُّكِ في طيها ... حواشيه.. رَدّتكِ كفُّ القضا(٤٢)

لِشرِ النِهاياتِ هذا "المطافُ" ... وكلُّ مطافٍ إلى مُنتهى

متى ترعَوي أمّةٌ بالعراقِ ... تُساقُ إلى حتفِها بالعصا

تُذرّى على الضَيْمِ ذَرْوَ الهشيمِ ... ويعرقُها الذُلُّ عَرْقَ اللِحا(٤٣)

وتنزو بها شهوةُ المشتهينَ ... كما دُحرِجتْ كُرةٌ تُرتمى

---

(٤٢) ـ ردك: جواب شرط (إن) في قوله وأنك إن يلتمع مطمع.
(٤٣) ـ عرق العظم: أزال ماعليه من لحم. واللحاء: قشر جذع الشجرة.

يُجدُّ بَغيضٌ بها عهدَهُ ... إذا قيلَ عهدٌ بَغيضٌ مضى

وتسمنُ منها عِجافٌ مَشَتْ ... إلى الأجنبيِ تَجُرُّ الخُصى

تراونُها عِزّها كالقُروم ... هَجانٌ عليها غريبُ نَزا[٤٤]

عجبتُ وقد أسلمتْ نفسها ... لعَرْكِ الخُطوبِ وعَصْرِ الشِقا

وقَر على الذُل خيشومُها ... كما خطمَ الصعب جَذبُ البُرى[٤٥]

وأغْفَتْ فلم أدْرِ عن حَيْرةٍ ... بها: كيف إيقاظُها او متى؟

ولم أدرِ من طيبِ إغفائها ... على الذُل، أيَ خيال ترى

أهِنَاً تغشّاهُ بَعْدَ العنا ... كرىً، أمْ صبياً بريئاً غفا؟[٤٦]

متى تستفيقُ وفحمُ الدُجى ... عليها مشتْ فيه نارُ الضُحى؟

وأصنامِ بَغْيِ يصُبُونها ... ويَدْعُونها مَثَلاً يُقتدى

يُثيرونَ من حولها ضَجّةً ... بهنا عن مَخازيهمُ يُلتهى

كما حَجَبَتْ بالغُبارِ العيون ... خِفافٌ مُهَرَّأةٌ تحتذى[٤٧]

فهذا سيمضي، وهذامضى ... وهذا سيأتي، وهذا أتى!!

وهذا "زعيمٌ"، لأنَ "السفيـ ... ـرَ" يرنو إليه بعينِ الرِضا

وفي ذاكَ عن سُخطِ أهلِ البلادِ ... على حُكمِهِ أو رضاهم غِنى

---

(٤٤) ـ القروم: السادة: واحدها قرم. الهجان: جمع هجين وهو الذي ولد من أبوين مختلفين في الجنس.

(٤٥) ـ قرَ على الذل: خضع للذلّ. والخيشوم: أعلى الأنف. البري: جمع برة، وهي الخزامة وحلقة تجعل في أنف البعير الصعب القياد لينقاد. وخطم: ههنا بمعنى أذل وأخضع.

(٤٦) ـ الهم الشيخ الكبير.

(٤٧) ـ خفاف: جمع خف. ومهرأ: ممزقة بالية.

وهـــذا بعِمّتـــه، ســـاحِرٌ، مــن "الجــن" يَرفعُهــا للعلــى
تَطُــقُ المســابحُ مــن حولهــا لتَعلِــنَ أنَ مَلاكــاً أتــى
تجــيءُ المطــامعُ منقــادةً إليــه إذا شــاءَ أولم يَشــا
وليتــك تحسِــبُ أزيــاءَهم فتجمــعَ منهــا زهــورَ الرُبــى
فتلــك اللفــائفُ كــالأُقحُوان بهــا العِلمُ ينفحُ طيــبَ الشــذا!
وتلــكَ الشراشــفُ كالياسميــن تــاهَ "العِقــالُ" بهــا وازدهــى!
تَدلَــتْ عنــاقيدُ مثــلُ الكــرومِ على كتفَــيِّ "يــابس" كــالصُوى[٤٨]
يَــوَدُّ مــن "التيــهِ"! لــو أنَــه يَشُــدُّ بهــا "جَرَســاً"! إنْ مشــى
ليعلَــمَ ســامعُهُ أنَــه "ينــوبُ"! عــن البلــدِ المُبتلــى
إذا رفَــعَ اليــدَ للحــاكمينَ بَــدَتْ "نَعَــمٌ" وهــي في زِيِ"لا"!
وبينهمــا محــدَثٌ ناشــئٌ إذا خــطَ تَعرِفُــه أوحكــى
تعــوِذُه أُمُــه إنْ مَشــى إلى "البرلــانِ" بــأُمِ القُــرى[٤٩]

ومُستســلِمين يَــرونَ الكفــاحَ قَــوراه مدحــوَةٌ تُمتطــى[٥٠]
فتَغــرَزُ في رَخــوةٍ ســمْحَةٍ وتنفِــرُ عــن ذي مِــن قَســا
يَــرَوْنَ السياســةَ أنْ لايُمَــس هــذا، وأن يُتَقَــى شــرُ ذا
وهــذا وذا في صميــمِ البــلا دِ سُــلٌ، وفي العــينِ منهــا قــذى

---

(٤٨) ـ الصوى: العلامات التي توضع في الطريق لتدل السائرين. ويريد بالعنافد ماتدلى من خيوط "العقال"!

(٤٩) ـ أم القرى: مكة.

(٥٠) ـ قوراء: مستديرة.

مســـــاكينُ يقتحمـــــونَ الكفـــــاحَ وقــد شــرعَتْ بابُــه مِــن كُــوى[٥١]

ومنتحلــــينَ سمــــاتِ الأديـــــبِ يظنُونهمـــــا جُبَبـــــاً تُرتـــــدى
كمــا جــاوبتْ "بُومــةٌ"! بُومــةً تقـــــارَضُ مابينهـــــا بالثَنـــــا
ويرغَـــــونَ في هـــــذرٍ يـــــابسٍ مـن القـول، رعـي الجمـال الكـلا[٥٢]
يُـــــرَوْنَ "وُرَيقـــــاتِهم" بُلغـــــةً مـــــن العيـــــش لاغايـــــةً تُبتغـــــى
فَهُـــمْ والضمـــيرُ الـــذي يصنعـــونَ لمـــنْ يعتلـــي، صهـــوةٌ تعتلـــى
ولاهِـــينَ عـــن جدِهِـــم بـــالفراغِ زوايـــا المقـــاهي لهـــم مُنتـــدى

وعـــارٍ تحلّـــى بثـــوب الأديـــب ومَـــا يُزكِـــي أديبـــاً خَـــلا
ومـــن تبعـــات النُفـــوس الكبـــار بسِـــنِ الـــيَراعِ الرخيـــص احتمـــى
ووغـــــدٍ تخـــــيّرَ أمثالَـــــه فوغـــداً أهـــرّ، ووغـــداً شـــلا[٥٣]
يقولـــونَ إنَّ يـــداً في الغُيـــوبِ تُديـــرُ علـــى الأرضِ حُكـــمَ الســـما
ولَمـــا يَـــزَلْ مَثَـــلُ ســـائرٌ علـى النـاس يَجـري: بـأيدي سـبا
وتحريـــقُ "لـــوطٍ" بذنـــبٍ أتـــى وأخـــذُ "ثمـــودٍ" بسِـــقبٍ رغـــا[٥٤]
فمـــا بـــالُ كـــفٌ القضـــا لاتـــدورُ علـــى بلـــدٍ ظـــلٌ حتـــى اخـــتزى؟!
وأضحـــى "ثمـــودٌ" و"لـــوطٌ" بـــه ومَـــن لهمـــا مـــن الشـــرورِ انتمـــى

---

(٥١) ـ الكوى: جمع كوة وهي النافذة الصغيرة.
(٥٢) ـ الكلأ: الحشيش.
(٥٣) ـ أر الكلب وشلاه: أغراه على التحرش والاعتداء.
(٥٤) ـ السقب: ولد الناقة. والرغاء: صوت البعير.

ومَـن عـاش في أُمـمِ المشـرقين | وجـارَ علـى أهلهـا واحتمـى
حَبيّـنَ بـونَ ولاة الأمـورِ | في بلـدٍ ضـاعَ فيـه الحيـا
يُسـائلُ بعـض بـه بَعضهـم | أنحـنُ أُخذنـا وهـذا نجـا؟!
أُخِـذتُ لأنـي ربـتُ الطريـقَ | "شَـذاً" إلى غايـةٍ تُبتغـى
وأنـتَ أُخـذْت علـى ناقـةٍ | بقلّـين أمثالُهـا تُشـترى
وجَدنـا هُنـا كـلّ ذي عَـورةٍ | علـى كـل ذي حُرمـةٍ قـد سـطا
وكـلّ كريـمِ الثَنـا أصيـدٍ | تقلّـص في كِفَـةٍ وانـزوى[55]
وجَدنـا الرِجـالَ هنـا "الرجـا | ل" لاهينَ، في وَضَـحِ مـن سـنا!!
علـى حـينَ تختـصُ نِسـوانُهم | "نساءً"، ومنتصِفٌ مـن جـزى!!
وجَدنـا الزعيـمَ -كمـا يَنْعَتـونَ- | علـى قدَمـيْ غاصبيـهِ ارتمـى

بَـنيَّ إذا الدَهـرُ ألقـى القنـاعَ | وصـرّح مـن حَسـوهِ مـاارتغى
ودالـتْ لهـمْ دولـةٌ كـالّتي | لـدى النـاس في وجههـا والقفـا
فـلا تبخلـوا أنْ تـزوروا أبـاً | جريرتُـه أنّ ذُلاً أبـى
ولاتبخلـوا أنْ تَمُـدوا يـداً | لتحضِـنَ منـه خيـالاً سـرى
وطيفـاً أتـاكمْ يُهنيكـمُ | بـأنْ قـد وُقيتـمْ زمانـاً مضـى
وشـرُّ "السـهام" رُواءُ النعيـمِ | وشـرُ "النصـال" بريـق الغِنـى[56]

---

(٥٥) ـ الأصيد: السيد الكريم.

(٥٦) ـ إذا أحيط الإنسان بالنعيم أو لوحوا له بـالغنى ولم يكن صلباً في النضـال تخـاذل وفتر، فالنعيم والغنى شر السهام وشر النصال.

سلامٌ على هَضَباتِ العراق / وشطِّيهِ والجُرْفِ والمُنحنى

على النَخْلِ ذي السعَفاتِ الطِوال / على سيدِ الشَجَرِ المُقتنى

على الرُطَبِ الغَضِ إذ يُجتلى / كَوَشْيِ العروسِ وإذ يُجتنى

بإيسارهِ يومَ أعذاقُه / ترفُّ، وبالعسرِ عندَ القنى[57]

وبالسَعْفِ والكَرَبِ المُستجدِ / ثوباً "تهسرًا" وثوباً نضا

ودجلةَ إذْ فارَ آذِيُها / كما حُمَّ ذو حَرَدٍ فاغتلى[58]

ودجلةَ تمشي على هَوْنِها / وتمشي رُخاءً عليها الصَبا

ودجلةَ زهوِ الصَبايا المِلاحِ / تُخَوضُ منها بماءٍ صرَى[59]

تُريكَ العراقيَّ في الحالتيـ / ـنِ يُسرِفُ في شُحِهِ والندى!

سلامٌ على قَمَرٍ فوقَها / عليها هَفا وإليها رَنا

تُدغدغُ أضواؤهُ صَدْرَها / وتَمسحُ طيّاتِها والثِنى[60]

كأنَّ يداً طرَّزَتْ فوقَها / من الحُسنِ موشيةً تُجتلى

رِواءُ النميرِ لها لُحمةٌ / وثوبُ الشعاعِ عليها سدى

ونجمٌ تغَوَّرَ من حبِها / ونجمٌ عليها ادنى فادلى

---

(57) ـ أي سلام عله في حالة إيساره بإغداقه الرأفة وفي حالة إعساره إذ قنواته متعثكلة يابسة.

(58) ـ آذى البحر أو النهر: ماؤه الكثير "المواضع العميقة" ذوحرد: صاحب ثأر، يشبه دجلة في تدفق مياهها الفوارة بصاحب ثأر يغلي غضبا؟

(59) ـ ماء صرى: وشل بقية ماء.

(60) ـ الثنى: بالكسر جمع ثنية وهي الطية.

عليى الجسرِ مـاانفكَ مـن جانبيـهِ يُتيحُ الهـوى مِـن عيـون المهـا[٦١]
فيـاليتهنَ الـذي يعتقـدي ويـاليتكَ الرّجـلُ المُعتـدى
ويـاليتَ بلـواكَ قُـبُ الصـدورِ ولعسُ الشـفاهِ، وبيـضُ الطُلـى
سلامٌ علـى جـاعلاتِ النَقيـق، علـى الشَـطئين، يَريـدَ الهـوى
لُعنستنُ مِـن صِبْيـةٍ لاتشـيخُ ومـن شِيْخَةٍ دَهْرَهـا تُصطبـى

سـجا الليـلُ إلا حمامـاً أجـدُ هديـلاً وترجيعَ كلـبٍ عَـوى[٦٣]
وجُندُبـةً طـارحَتْ جُندُبـاً وبُومـاً زقـا وسـحيلاً ثغـا[٦٤]
وديكـاً يـؤذِنُ في جَمعهـم بـأن قـد مضـى الليـلُ إلا إنـى[٦٥]
سـلامٌ علـى عـاطراتِ الحقـول تنـاثرُ مِـن حولهـن القُـرى
وياللّطافـةِ هـذي الدُنـى يُتيمهـا لُطـفُ تلـكَ القُصـى
وحبـلِ ضيـاء تدلّـى بـه علـى أُفـقِ أفـقٌ والتقـى

سـلامٌ علـى بلـدٍ صُنْتُـه وإيـايَ بـن جفـوةٍ أوقِلـى[٦٦]

---

(٦١) ـ يشير بهذا البيت إلى بيت علي بن الجهم:

عيـون المهـا بـين الرصافـة والجسـر جلبن الهوى من حيـث أدري ولاأدري.

(٦٢) ـ قب الصدور: مرتفعات الصدور، والواحدة قباء، وأقب للمذكر، لعس الشفاه: حمرة الشفاه المائلة إلى السمرة والطلى: الرقاب، والواحدة طلية.

(٦٣) ـ سجا الليل: خيم وهدأ.

(٦٤) ـ الجندب: الصرصر. وسحيل: الثعلب.

(٦٥) ـ إنى: بقية قليلة.

(٦٦) ـ القلى: الكره والبغض.

كلانــا يكــابدُ مُــرَّ الفــراقِ   علـى كبدَينــا، ولَــذْعَ النَّـوى

وكــلٌّ يُغِــذُ إلى طِيَــةٍ   لنــا عنــد غايتهــا مُلتقــى[٦٧]

غــداً إذ يَطِــنُّ فضــاءُ العــراقِ   طنــينَ الـثرى مـن هزيـزِ خَـلا[٦٨]

وإذ يسـتقلُّ بِضَبْعِـي فتــىً   يرى الغُنْمَ في العيـش كسـبَ الثنـا[٦٩]

ويقــدُرُ إن ضــمَّ منــه اليديــ   ــنِ أيَّ ثمـين نفيـسٍ حَـوى[٧٠]

غــداً إذ فريــقٌ يحــوزُ الثنــا   يَعَـضُّ فريــقٌ بصــمِّ الصفــا.

---

(٦٧) ـ أغذَّ السير: أسرع إلى طية: إلى نية يقصد إليها.

(٦٨) ـ يطنُّ: يصفر أي يخلو.

(٦٩) ـ الضبع: العضد، ويستقل بضبعي أي يتعلق بها.

(٧٠) ـ يقدّر الشيء: يعرف قدره وفي القرآن: ﴿وماقدروا الله حق قدره﴾.

آمنت بالحسين

*ألقاها الشاعر في الحفل الذي أقيم في كربلاء يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٧، لذكرى استشهاد الحسين.

*نشرت في جريدة "الرأي العام"، العدد ٢٢٩ في ٣٠تشرين الثاني ١٩٤٧.

*كتب خمسة عشر بيتاً منها بالذهب على الباب الرئيسي الذي يؤدي إلى الرواق الحسيني.

فِداءٌ لَمثواكَ مِن مَضْجَعِ	تَنَوَّرَ بالأبلَجِ الأروَعِ[٧١]
بأعبقَ من نَفَحاتِ الجِنا	نِ رَوحاً، ومِن مِسكِها أضوعِ[٧٢]
ورَعياً ليومِكَ يومِ "الطُفُوف"	وسَقياً لأرضِكَ مِن مَصرَعِ[٧٣]

---

(٧١) ـ الأبلج: الوضاء الوجه. والأروع: المعجب بشجاعته أو حسنه.

(٧٢) ـ الروح هنا نسيم الريح. و"ضاع" من ضاع المسك يضوع إذا عبقت رائحته.

(٧٣) ـ الطفوف: هي الأراضي المشرفة من جوانب الشاطئ، وهي تطلق بصورة خاصة على ماأشرف من أراضي "الغاضرية" -وهي مدينة كربلاء الآن- على نهر الفرات وفيها كان مصرع الحسين الشهيد وآله وأبنائه.

وحُزناً عليك بحَبْسِ النُفوس على نهجك النَيِّرِ المَهْيَعِ[٧٤]
وصَوتاً لمجدِك مِنْ أنْ يُذالَ بما أنتَ تأباهُ مِن مبدَعِ[٧٥]
فيا أيُّها الوِتْرُ في الخالدين فَذاً، إلى الآنَ لم يُشْفَعِ
ويا عِظَةَ الطامحينَ العِظامِ لِلاهينَ عن غَدِهِمْ قُنَّعِ
تعاليتَ مِن مُفْزِعٍ للحُتُوفِ وبُورِكَ قبرُكَ مِن مَفْزَعِ
تلوذُ الدُهورُ فمِنْ سُجَّدٍ على جانبيهِ ومِنْ رُكَّعِ
شَممتُ ثَراكَ فهبَّ النسيمُ نسيمُ الكرامةِ مِن بَلقعِ
وعفَّرتُ خدي بحيثُ استرا حَ خدٌّ تفرَّى ولمْ يَضْرَعِ
وحيثُ سنابكُ خيلِ الطغا ةِ جالتْ عليهِ ولم يَخشعِ

وخِلتُ وقد طارت الذكريات بروحي إلى عالم أرفعِ
وطفتُ بقبرِكَ طوفَ الخيال بصومعةِ الملهمِ المبدعِ
كأنَّ يداً من وراء الضريح حمراء مبتورة الأصبع
تمدُّ إلى عالم بالخنوع والضيمِ ذي شَرَقٍ مُترَعِ
تخبَّطَ في غابةٍ أطبقتْ على مُذنبٍ منه أوْ مُسْبعِ
وتدفعَ هذي النفوس الصغار خوفاً إلى حرمٍ أمنعِ

تعاليتَ من صاعِقٍ يلتظي فإنْ تَدْجُ داجيةٌ يَلمعِ

---

(٧٤) ـ المهيع: البين الواضح.
(٧٥) ـ يذال: يهان. المبدع بفتح الدال من "البدعة"

تأرَّمُ حِقداً على الصاعقاتِ ... لم تُنْءِ ضَيراً ولم تَنْفَع(٧٦)

ولم تَبْذُرِ الحبَّ إثر الهشيمِ ... وقد حرَقْتَهُ ولمْ تَزرع

تعاليتَ من "فَلَكٍ" قُطْرُهُ ... يدورُ على المِحوَرِ الأوسع

فيا بنَ "البتولِ" وحَسْبي بها ... ضَماناً على كل ما أدّعي

ويا ابنَ التي لم يَضَعْ مِثلُه ... كمِثلِكَ حَملاً ولم تُرْضِع

ويا ابنَ البطينِ بلا بِطنةٍ ... ويا ابن الفتى الحاسرِ الأنزَع(٧٧)

ويا غُصْنَ "هاشِمَ" لم ينفَتِحْ ... بأزهرَ منكَ ولم يُفْرِع(٧٨)

ويا واصِلاً من نشيدِ "الخُلود" ... ختامَ القصيدة بالمطلع

تمثَّلتُ "يومَكَ" في خاطري ... وردّدت "صوتَكَ" في مَسمعي

ومَحَصتُ أمرَكَ لم "أرتَهِبْ" ... بنقلِ "الرُوَاة" ولم أُخدَع

وقلتُ: لعلَّ دويَّ السنين ... بأصداء حادِثِكَ المُفْجِع

وما رتَّلَ المُخلِصونَ الدُعا ... ةُ من "مُرسِلِينَ" ومن "سُجَّع"

أريد "الحقيقةَ" في ذاتِها ... بغيرِ الطبيعةِ لم تُطْبَع

وجدتُكَ في صُورةٍ لم أُرَعْ ... بأعظمَ منها ولا أروَع

وماذا! أأروعُ مِنْ أن يكو ... نَ لحمُكَ وَقْفاً على المِبْضَع

وخيرَ بني "الأمِّ" مِن هاشمٍ ... وخير بني "الأب" من تُبَّع

---

(٧٦) ـ التأرم: حك الأسنان بعضها ببعض من الغيظ، أي أنك تتحرق إذ ترى الصاعقات لاتدفع ضرا ولاتجلب نفعاً.

(٧٧) ـ البطنة: النهم. الأنزع: من انحسر الشعر عن جانبي جبهته. وكان يقال للإمام علي "الأنزع البطين"

(٧٨) ـ لم تنون "هاشم" للضرورة فجرّت بالفتحة.

وخيرَ الصحابِ بخيرِ الصدو ر، كانوا وقاءك، والأَنْزع

وآمنتُ إيمانَ مَن لا يَرى سوى (العقلِ) في الشكِ مِن مَرْجِع
بأنَ (الإباء)، ووحيَ السماء، وفيضَ النبوةِ، مِن مَنْبَع
تجمّعُ في (جوهرٍ) خالصٍ تَنَزَّهَ عن (عَرَضِ) المَطْمَع

هاشم الوتري

ألقاها الشاعر في الحفل التكريمي الذي أقيم للدكتور هاشم الوتري، وكان عميداً للكلية الطبية بمناسبة انتخابه عضواً شرفاً في الجمعية الطبية البريطانية.. وذلك في شهر حزيران عام ١٩٤٩

* ولنظمها بواعث رواها الشاعر في المقابلة التي نشرت له في العدد الثاني من مجلة "المثقف العربي لشهر حزيران ١٩٧١

قال:

- كان الجو السياسي محتدماً، وكنت أشعر أن الواجب يقضي بأن أحدد موقفي.. كان كل شيء يدفع إلى الحدّية: الجو السياسي.. المناسبة.. شخص نوري السعيد.. شخص الجواهري.. كنت موطِناً نفسي حتى الموت!

- اتّصلوا بي تلفونياً، وطلبوا إليّ بإلحاح أن أشارك بقصيدة في الاحتفال، فتظاهرت بالرفض.. فالحوا، وأصررت على الرفض.. وفي حقيقة الأمر كنت أهلِلُ للطلب، كنت أرقص وراء التلفون، وإنما كان الرفض تظاهراً ودلالاً

لأنني أردت ألا أدع لهم مجالاً للتنصل من الدعوة إذا ماعلموا بما كنت مزمعاً عليه..

ـ قلت لاسماعيل ناجي -سكرتير الوتري- إن القصيدةَ قد توقعهم في مأزق.. قال: لاعليك إن نقابةَ الأطباء ستتحمل المسؤولية. "وبالمناسبة فالدكتور إسماعيل ناجي هذا هو نفسه الذي أذاع بياناً على الصحف يقول فيه: إنهم لم يدعوني إلى المشاركة في الاحتفال، كل ذلك -والبطاقة "المذهّبة" بالدعوة إياها كانت ماتزال معي- ولربما حتى الآن بين أوراقي"

ويمضي:

ـ على هذا النحو تثبّتُّ، ومن فَوري عرضتُ مطبعتي للبيع، ونشرتُ إعلاناً في الصحف بذلك.. أردت أن أدّخر ثمن المطبعة للعائلة ضَماناً لها وتَحسُّباً لما قد يحدث فيما بعد... ولاأكتمك أن العائلة كانت يومئذ تشتري حتى الخبز والحليب بالدين!!.

ـ ومالإن نُشر الإعلان حتى صادفني في مقهى "حسن العجمي" شابٌ ذكر أن اسمه "حسن" كانت الجريدة مغلقة(يقصد جريدة "الرأي العام")، فعرض عليَ حسن ـ و لم أكن أعرفه من قبل ـ أن يقرضني ثمن المطبعة دون أن يطلب مني أية ضمانة.. فقلتُ الأفضل أن نرهنها، فوافق بعد إلحاح مني وأعطاني في اليوم التالي ٥٠٠دينار. وقد وفّيتُها له بعد ذلك بقليل، أي بعد بيع المطبعة نهائياً.

ـ لقد أنعشني هذا أكثر أكثر وزاد من عنفي في القصيدة، بخاصة وأنني قد اطمأننت، لما حصلت عليه من نقود، على مصير العائلة.

ـ وفي الليل.. في سطح الدار.. كنت منبطحاً على حصير، وكنت أحدو كما هي عادتي- بما أنظمه من القصيد.. كان صوتي رقيقاً جداً ومؤثراً.. ومالإن وصلت المورد الذي يبدأ.بـ: "إيه عميد الدار شكوى صاحب"، حتى

سمعت زوجتي وهي خالة فرات تقول: "عواقي أبو فرات" كنت أظنها نائمة، ففوجئت بها تنصت لي، ولاتضنّ عليّ بالتشجيع. مهما كانت العقبى التي تنتظرها ومن معها!

- وقبل الموعد بيوم أعطيتُها النقود وسفَرتهُم جميعاً إلى "النجف" وهيأت مايلزم لما قد يقع..

- وحلَّ اليومُ الموعود.. كانت القصيدة قد اكتملت، فلبست بدلة جديدة خُطتها للمناسبة، وذهبتُ وألقيتُ القصيدة..

- كان المكان يغصُ بالحضور، وقد احتشد الشباب فيه احتشاداً، غير أنَّ أحداً لم يَستعِد بيتاً واحداً من فرط الرهبة.. أما "الوتري" الممتدح المقصود فكان يتلفت حوله مُستغرباً أو كالمُستغرب.. خائفاً أو كالخائف.. متنصلاً أو كالمتنصّل.. وأما أقطابُ الحكم وكل وجوهه البارزة تقريباً فقد أُخِذوا أخذ الذين كفروا!!

"وأما أنا فقد مضيتُ في الإلقاء حتى النهاية.. وبعد أن أكملت مزّقتُ أوراقي وذريتها أمام الجمهور، ثم غادرت المكان سيراً لى الأقدام ومضيتُ إلى المطبعة حيث كان هي مقرّي بعد سفر العائلة"

ويختتم القصة:

- ومر يومان وثالث ولم يأخذني أحدٌ... وفي صباح اليوم الرابع جاؤوني ففتشوا المطبعة بحثاً عن القصيدة فلم يجدوها ثم اعتقلوني ومكثت في الاعتقال شهراً واحداً.. وأطلق سراحي بمناسبة العيد"

"وفي معتقلي -في مديرية التحقيقات الجنائية- جاءني وفدٌ من الشباب ومعه "قصاصات القصيدة" الممزّقة وقد جمعوها من حديقة المسبح حيث أُقيم الاحتفال وذلك لغرض مقابلتها.

إيهٍ "عميدَ الدار"! شكوى صاحبٍ طَفَحَتْ لواعجُهُ فناجى صاحبا

خُبِّرْتُ أنكَ لستَ تبرحُ سائلا عني، تُناشِدُ ذاهباً، أو آيبا

وتقول كيفَ يَظَلُّ "نجمٌ" ساطعٌ ملءُ العيون، عن المحافل غائبا

الآن أُنبيكَ اليقينَ كما جلا وضَحُ "الصَّباح" عن العيون غياهبا

فلقد سكَتُّ مخاطباً إذ لم أجِدْ مَن يستحقُ صَدى الشَكاةِ مُخاطَبا

أنبيكَ عن شرِ الطَغام مَفاجراً ومَفاخراً، ومَساعياً، ومكاسبا

الشاربينَ دمَ الشَبابِ لأنَّهُ لو نالَ من دَمِهِمْ لكانَ الشَاربا

والحاقدين على البلادِ لأنَّها حَقَرَتْهُمُ حَقْرَ السَليبِ السالبا

ولأنَّها أبداً تدوسُ أفاعياً منهمْ تَمُجُّ سمومَها.. وعقاربا

شَلَّتْ يدُ المستعمرينَ وفرضُها هذي العُلوقَ على الدِماء ضرائبا

ألقى إليهم وِزْرَهُ فتحمَّلوا أثقالَهُ حَمْلَ "الثِيابِ" مشاجبا

وأذابَهُم في "المُوبقاتِ" فأصبحوا منها "فُجوراً" في فجورٍ ذائبا

يَتَمَهَّلُ الباغي عواقبَ بَغْيِهِ وتراهُمُ يَستعجلونَ عواقبا

حتى كأنَ مصايراً محتومةً سُوداً تُنيلُهُمُ منى ورَغائبا

قد قلتُ لِلشاكينَ أنَّ "عِصابةً" غَصَبَتْ حقوقَ الأكثرينَ تلاعُبا:

ليتَ "المواليَ" يَغصِبونَ بأمرِهِمْ بل ليتهم يترَسَّمونَ "الغاصبا"

فَيُهادِنونَ شهامةً ورُجولةً ويُحاربونَ "عقائداً"! ومذاهبا

أنبيكَ عن شرِ الطِغام نكايةً بالمؤثرينَ ضميرَهمْ والواجبا

لَقَدِ ابتلَوا بِي صاعقاً مُتَلَهِباً ... وَقَد ابتُليتُ بهمْ جَهاماً كاذباً[٧٩]

حشَدوا عليَّ المُغرياتِ مُسيلةً ... صغراً لُعابُ الأرذلينَ رغائباً

بالكأسِ يَقرَعُها نديمٌ مَائِتٌ ... بالوعدِ منها الحافقَيْن وقاطبا[٨٠]

وبتلكُمُ الخلَواتِ تمسَخُ عندَها ... تَلْعُ الرِقابِ من الظِباء ثعالبا!!!

وبأنْ أروحَ ضُحىً "وزيراً" مثلما ... أصبحتُ عن أمْرِ بليلِ "نائبا"

ظنّاً بأنْ يدي تمدَّ لتشتري ... سقطَ المتاع، وأن أبيعَ مواهبا

وبأنْ يروحَ وراءَ ظهريَ موطنٌ ... أسمنتُ نحراً عندَه وترائبا

حتى إذا عجَموا قناةً مُرَّةً ... شوكاءَ، تُدمي من أتاها حاطبا[٨١]

واستيأسُوا منها، ومن مُتخشِبٍ ... عَنَتاً كصِلِ الرَملِ يَنفُخ غاضبا

حُرٌ يُحاسِبُ نفسهُ أنْ تَرْعَوي ... حتى يروح لِمن سواه مُحاسِبا

ويحوزَ مدحَ الأكثرينَ مَفاخراً ... ويحوزَ ذمْ الأكثرينَ مثالبا!!

حتى إذا الجُنْديُّ شدَّ حِزامَهُ ... ورأى الفضيلةَ أن يظَلَ مُحاربا

حَشَدوا عليه الجُوعَ يَنْشِبُ نابَهُ ... في جدِ "أرقطَ" لايُبالي ناشبا!

وعلى شُبولِ اللَيثِ خرقُ نعالِهم! ... أزكى منَ المُترهِلينَ حقائبا[٨٢]

يتساءلونَ أيُنزلُونَ بلادَهم؟ ... أم يقطعونَ فدافِداً وسباسبا؟

إنْ يعصِرِ المتحكِمونَ دماءَهم؟ ... أو يغتدوا صُفْرَ الوجوه شواحبا

فالأرضُ تشهدُ أنها خَضِبَتْ دماً ... منِي، وكان أخو النعيمِ الخاضبا

---

(٧٩) ـ الجهام الكاذب: هو السحاب الذي لايعقبه مطر.

(٨٠) ـ البيت والتاليان له تعريضٌ بالوصيِّ على عرش العراق آنذاك الأمير عبد الإله.

(٨١) ـ القناة الشوكاء: هي التي يكثر في فروعها وأغصانها الشوك.

(٨٢) ـ يريد الشاعر بـ(شبل) الليث أولاده وأطفاله.

مـاذا يضُـرُّ الجـوعُ؟ مجـدٌ شـامخٌ ... أنِّـي أظَـلُّ مـع الرعيّـة سـاغبا
أنِّـي أظَـلُّ مـع الرعيَـةِ مُرْهَفـاً ... أنِّـي أظَـلُّ مـع الرعيَـةِ لاغبـا
يتبجَحـون بـأنَّ موجـاً طاغيـاً ... سـدُّوا عليـهِ مَنـافذاً ومَسـاربا
كَذِبوا فملءُ فـمِ الزَمـانِ قصـائدي ... أبـداً تجـوبُ مَشـارقاً ومَغاربـا
تستَلُّ مـن أظفـارِهم وتحـطُّ مـن ... أقدارِهِـمْ، وتثُـلُّ مجـداً كاذبـا
أنـا حتفهُـم ألِجُ البيـوتَ عليهِـمُ ... أُغـري الوليـدَ بشـتمِهِمْ والحاجبـا
خسِئوا: فَلَـمْ تَـزَلِ ارُجولـةُ حُـرَةً ... تـأبى لهـا غـيرَ الأمـائِلِ خاطبـا
والأمثلـونَ هـمُ السَـوادُ: فديتُهـمْ ... بـالأرذلينَ مـن الشُـراةِ مَناصِبـا
بمُمَلّكـينَ الأجنـبيْ نفوسـهُمْ ... ومُصَعّديـنَ علـى الجمُـوعِ مَناكِبـا

بغـدادُ كـانَ المجـدُ عنـدَكِ قَيْنَـةً ... تَلهـو، وعُـوداً يَسـتحثُّ الضَارِبـا
ورِقـاقَ خَمـرٍ تسـتَجِدُّ مَسـاحِباً ... وهَشـيمَ رَيْحـانٍ يُـذَرَى جانبـا
و"الجسـرُ" تمنحُـهُ العيونُ مـن المَهـا ... في الناسِـبينَ وشـائجاً ومَناسـبا
الحـدُّ للتـأريخِ حـينَ تحوّلَـت ... تلـكَ المَرافِـهُ فاسـتَحَلْنَ مَتاعبـا
الشّـعْرُ أصبحَ وهـو لُعْبَـةُ لاعـبٍ ... إنْ لم يَسِلْ ضَرَمـاً وجَمْـراً لاهبـا
والكأسُ عـادتْ كـأسَ مـوتٍ ينتشي ... زاهي الشبابِ بهـا، ويمسحُ شـارِبا!
و"الجسـرُ" يفخـرُ أنَ فـوقَ أديمِـهِ، ... جثثَ الضَحايـا قـد ترَكْـنَ مسـاحِبا!
وعلـى بريـقِ المـوتِ رُحْـنَ سـوافِراً ... بيـضٌ كواعـبُ، يندفعـنَ عَصائبـا

حـدِّثْ عميـدَ الـدارِ كيـفَ تبدّلَـتْ ... بُـؤَراً، قِبـابٌ كُـنَّ أمسِ مَحارِبـا

كيفَ استحالَ المجدُ عاراً يُتقى ... والمكرُماتُ من الرجالِ مَعايبا
ولِمَ استباحَ "الوغدُ" حُرمةَ من سَقى ... هذي الديارَ دماً زكيّاً ساربا
إيهٍ "عميدَ الدار" كلُّ لئيمةٍ ... لابُدَّ واجدةٌ لئيماً صاحبا
ولكلِّ "فاحشةٍ" المَتاع دَميمةٍ ... سوقٌ تُتيحُ لها دَميماً راغبا
ولقد رأى المستعمرون فرائساً ... منّا، وألفَوْا كلبَ صيدٍ سائبا!
فتعهّدوهُ، فراحَ طوعَ بَنانِهمْ ... يَبْرُونَ أنياباً لهُ ومَخالبا
أعَرَفتَ مملكةً يُباحُ "شهيدُها" ... للخائنينَ الخادمينَ أجانبا؟
مستأجَرين يُخرّبونَ دِيارَهُم ... ويُكافؤون على الخرابِ رواتبا
مُتنمّرينَ يُنَصِّبونَ صُدورَهُمْ ... مِثلَ السِباعِ ضَراوةً وتكالُبا
حتى إذا جَدّتْ وغى وتضرّمتْ ... نارٌ تلُفُّ أباعِداً وأقاربا
لَزِمُوا "حُجورَهُمُ" وطارَ حليمُهُمْ ... ذُعراً، وبُدّلتِ الأسودُ أرانبا

لابُدَّ "هاشمُ" والزمانُ كما ترى ... يُجري مع الصَفْوِ الزُلالِ شوائبا
والفجرُ ينصُرُ لامحالةَ "ديكَةٌ" ... ويُطيرُ من ليلٍ "غراباً" ناعبا!
والأرضُ تَعْمُرُ بالشُعوبِ فلن ترى ... بُوماً مَشوماً يَستطيبُ خَرائبا
والحالِمونَ سَيفْقَهون إذا انجلَتْ ... هذي الطُيوفُ خوادعاً وكواذبا
لابُدَّ عائدةٌ إلى عُشّاقِها ... تلكَ العهودُ وإنْ حُسِبنَ ذواهبا

الخمسينات

خلّفتَ غاشيةَ الخنوع..

*ألقيت في الحفل المهيب الذي أقيم في دمشق عام١٩٥٦ احتفالاً بذكرى مصرع الشهيد عدنان المالكي. وكان الشاعر ممثلاً للعراق في هذا الحفل بدعوة تلقاها من الجيش السوري. وقد اضطر إلى الإقامة في سورية قرابة عام ونصف العام من جراء تنمر المسؤولين وحنقهم بسبب هذه القصيدة. وكان طوال هذه المدة ضيفاً على الجيش السوري.

خلّفتُ غاشيةَ الخنوعِ ورائي ... وأتيتُ أقبِسُ جمرةَ الشهداءِ

ودرجتُ في دربٍ على عَنَتِ السُّرى ... ألِقٍ بنورِ خطاهُمُ وضَّاءِ

خلّفتها وأتيتُ يعتصرُ الأسى ... قلبي وينتصبُ الكفاحُ إزائي

وحمِدْتُ نفساً حرَّةً لم تنتقص ... شَهْدَ الوفاءِ بعلقمِ الإغراءِ

صِبغانِ يأتلقانِ ماعصفَ الدُّجى ... بالناسِ لونُ سناً ولونُ دماءِ

يلدانِ فجراً صادقاً حلوَ السَّنا ... خضِلَ الظِّلالِ منعَّمَ الأفياءِ

مـن عهـد "قـابيلٍ" وكـلُّ ضحيَـةٍ رمـزُ اصطـراعِ الحـقِ والأهــواء
ومـرارةُ الثكـلِ المقـدَس إرثـة مـن "آدمٍ" جـاءت ومـن "حـوَاء"
وفظاعـةُ التـاريخ بلـوى فكـرةٍ تهـدي السـبيلَ بفكـرة عميـاء
قـد قلـتُ للإلـفِ الخديـن يدُلُني أنّـى تكـون معـالمُ الفيحـاء؟
قف بي على النّسر الخضيب ولُمّ لي منـه تسـيلَ قـوادمٍ حمـراء[83]
وتخـطَّ بـي أرضـاً تعفـر فوقهـا ملـكُ السـماءِ مـدوخُ الأجـواء
قـف بـي فلسـتُ بمـأتمٍ لرثـاء أيُهـان عُـرْسُ رجولـةٍ ببكـاء؟
قـف بـي ألمَ هنـا قـوافيَ جُمّعـت للمجـدِ مـن ألـفٍ بـه أويـاء
أنـا لا أرى العصمـاءَ غـير عقيـدةٍ منسـابةٍ في فكـرةٍ عصمـاء
هـذا أنـا.. عَظْـمُ الضحيَـةِ ريشـتي أبـداً ولفْـحُ دمائهـا أضوائـي
أسـتلهم النغـمَ الخفـي يمـوجُ في جُـرح الشـهيد بثـورةٍ خرسـاء
وأُحِـسُّ أنَّ يـدَ الشـهيدِ تجرُنـي لتلفُـني وضمـيرَهُ بـرداء
هـاتيكَ أبيـاتي يصـوغ خيالَهـا دون "العنـاصر" عنصـرُ الأرزاء

عدنـانُ إنَ دمـاً وهبـتَ رسـالةٌ أنـا مـن صميـمٍ دعاتهـا الأمَنـاء
آمنـتُ بـالحُمر النوافـح في الـثَرى يبسـاً، أريـجَ الواحـة الخضـراء[84]
المهديـاتِ العُمْـيِ أيَـةَ رؤيـة والمسـمعاتِ الصـمِ أيَ دعـاء
والمنزلات على المَدى سُورَ الهـدى ورسـالةَ الآبـاء للأبنـاء

---

(83) ـ التسيل: مايسقط من ريش الطائر.
(84) ـ يريد بـ"الحمر": الدماء.

والجـاعلاتِ "الجيـل" جسـر رديفـه وبنيـــهِ للآتـــينَ رمــزَ فــداء

آمنـتُ لاوحـــي العقيـدةِ وحدَهـا لكـنْ بمـا أُسـلفتُ مـن خُلَصـائي

آمنـتُ إيمــانَ الحجيــج بقصــدهِ فهنـاكَ لي جَـدَثٌ علـى البطحـاء[85]

آمنـتُ إيمـانَ النَهـــار بشمســـه فلقــد غُمــرتُ بنورهـــا الوضـــاء

آمنـتُ إيمــانَ الدمـــاء بنفســـها فأنـا الصبيغُ بهـا صبـاحَ مسـاء

عدنـانُ أنطِقْني فقـد خَنَـقَ الشَـجا بفمـــي البليـــغِ مقالـــةَ البلغـــاء

حاسـبتُ نفســـي والأنـــاة تردُّهـــا في معـــرِضِ التصريـــح للإيمـــاء

بيني لَعنتِ فلسـتُ منـكِ وقـد مشـى فـكِ الخمـولُ ولسـتِ مـن خُلَطـائي

مــاذا يَمــيزكِ والســكوت قسـيمة عــن خــانعٍ، ومهـــادنٍ، ومرائـــي

أبـأضعفِ الإيمـــان يخـــدع نفـــسٌ مــن ســنَّ حُـبَّ المـوت للضعفـــاء؟

أيــزُمُّ مـــن شـــفةٍ علـــى عذباتـــه نضحـــتْ أمـــاني عـــزةٍ وإبـــاء؟

خلّي النِقـاطَ على الحـروف وأوغلـي في الجهـر ماوسعتْ حـروفُ هجـاء

مـــاأنتِ إذ لاتصدَعـــينَ فواحشـــاً إلا كراضيـــةٍ عـــن الفحشـــاء.

أضحيَـةَ الحلـفِ الهجـين بشـارة لـكَ في تكشـيـفِ سـوءةِ الهُجَنـاء[86]

أُسطورة "الأحـلاف" سـوف يمُجُّهـا التـا ريـــخُ مثـــلَ خرافـــة "الحلفـــاء"

سَـــرعان مـــاتنهدُّ بعـــــد أواره تمشـــي العيـــون كفحمـــة الطُرفـــاء

---

(85) - إشارة إلى قبر أخيه "جعفر الجواهري" في النجف.

(86) - المقصود هنا هو ""حلف بغداد" الذي كـان الشـهيد في جملـة الأحـرار الشـجعان الذيـن يناصبونه وعاقديه العداء.

قالوا "تعاقدنا" فقلتُ هنئتُم ... بقران فَرطٍ خَناً بفرطِ غباء

واهُزأة الأحلاف بين مسخرٍ ... ومسخَرين، وسيدٍ وإماء

يامن رأى "حلفاً" عجيباً أمرهُ ... بين الثرى وكواكب الجوزاء

وتعلقت هُزءاً على أضوائه ... بنيوب ذؤبانٍ أكارعَ شاء

هاتيكَ أنعم حلفةٍ وإخماء ... إعصار طاعون وريح وباء

وعصارةٌ للرجس تنسفُ ما ... ابتنى الأجدادُ من أكرومةٍ وحياء

وجيوشُ بغيٍ تستعينُ بمثلها ... من خائني وطنٍ ومن دخلاء

نسجوا نسيجَ العنكبوتِ وهاهُم ... منه بليلةِ حاطبٍ عشواء

واهي الخيوطِ يشِفُّ عمّا تحته ... فكأنهم منه بغيرِ غطاء

واعتاصَ رتقُ فتوقه حتى مشى ... سأمُ الكلال على يدِ الرّفاء

قسماً بقبرك وهي حِلفةُ صادق ... أجلى بياناً من أجلِّ ثناء

ماضيعةُ الشهداء في أسر الردى ... كمتاهةِ الشهداء في الأحياء

في كل يوم ميتةٌ ملحودةٌ ... بالصبرِ آونةً وبالإغضاء

وبكلِ زاويةٍ ضميرٌ يلتوي ... لَيَّ الطعين بحربةٍ عقفاء

أبداً تنزُّ دماً جراحُ كرامةٍ ... هانتْ هوان الجُرحِ في عجماء[٨٧]

حَسْبُ الكريم من الأذى إحجامه ... حتى عن الشكوى من الإيذاء

وكَفى الشجاعَ رويةً وعزيمةً ... ذلاً تُمني عيشة الجبناء

وسُقيتَ من وعي البلاد وعزها ... مايصطفيك بروضةٍ غنّاء

---

(٨٧) ـ العجماء: البهيمة.

ياأمَّ عَوف

*نظمت عام١٩٥٥، وكان الشاعر قد نزل وهو في طريقه إلى مدينة "علي الغربي" ضيفاً على راعية غنم تدعى "أم عوف" في حماد من الأرض.. ولقي منها كرماً وحسن ضيافة..

يا "أمّ عوفٍ" عجيباتٌ ليالينا	يُدنينَ أهواءَنا القصوى ويُقصينا
في كلّ يومٍ بلا وعيٍ ولا سببٍ	يُنزلنَ ناساً على حكمٍ ويُعلينا
يَنِفْنَ شهْدَ ابتسامٍ في مراشفنا	عَذْباً بعلقم دمعٍ في مآقينا
ويقترِحْنَ علينا أنْ نُجرِّعَهُ	كالسمِ يجرعهُ "سُقراطُ" تَوْطينا
يا "أمّ عوفٍ" ومايُدريكِ ماخبأتْ	لنا المقاديرُ من عُقبى ويُدرينا
أنّى وكيف سيُرخي من أعنّتنا	تَطوافُنا.. ومتى تُلقى مَراسينا؟!

أزرى بأبيـــات أشــعارٍ تقاذفُنـــا بيـتٌ مـن "الشَـعْرِ المقتـول" يؤوينـا

عِشـنا لهـا حِقَبـاً جُلَـى ندلِلُهـا فتجتوينـا.. ونُعليهـا فتُدنينـا[٨٨]

تقتاتُ مـن لحمنـا غضّـاً وتُسـغِبُنا وتستقي دَمنـا محضـاً وتُظمينـا[٨٩]

يـا "أمّ عـوفٍ" حُرِمنا كـلُّ جارحـةٍ فينـا لِنُسـرِجَ هـاتيكَ الدواوينـا

لم يـدرِ أنّا دُفِنّـا تحـتَ جاحِمِهـا مطـالعٌ، يتملاّهـا بَراكينـا

يـا "أُمّ عـوفٍ" بِلَوْحِ الغيـب موعدُنـا هنـا، وعنـدك، أضيافـاً، تلاقينـا

لم يـبرحِ العـامُ تِلْـوَ العـامِ يَقذِفُنـا في كـل يـومِ بمَومـاةٍ ويرمينـا[٩٠]

يـا "أُمّ عـوفٍ" ومـا آهٌ بنافعـةٍ آهٍ على عـابثٍ رَخْـصٍ لماضينـا[٩١]

علـى خضيـلٍ أعارتـه طلاقتهـا شمسُ الربيـع وأهدته الرياحينـا[٩٢]

قـالتْ لِطافـاً بـه أصباحُنـا ومشـتْ بـالمنِّ تنطِـفُ والسلوى ليالينـا[٩٣]

سمـحٍ نجـرّ بـه أذيالَنـا مرحـاً حينـاً..ونعـثُرُ في أذيالـه حينـا

آهٍ علـى ملعـبٍ ـ أن نستبدّ بـه ويسـتبدّ بنـا أقصـى أمانينـا

مثـلَ الطيـورِ وماريشَـتْ قوادمُنـا تطير رَهواً بما اسطاعت خَوافينا[٩٤]

من ضِحكة السَحَرِ المشبوب ضحكتُنـا ومـن رفيـفِ الصبـا فيـه أغانينـا

---

(٨٨) ـ تجتوينا: تكرهنا، تدنينا: تنزلنا.

(٨٩) ـ تسغبنا: تجيعنا.

(٩٠) ـ الموماة: الصحراء.

(٩١) ـ الرخص: الناعم.

(٩٢) ـ الخضل: الرطب.

(٩٣) ـ تنطف: تسيل.

(٩٤) ـ ريشت قوادمنا: نبتت وطالت..رهواً: ناشرين أجنحتنا أي نطير في سكون

يا"أُمَّ عوفٍ" وكاد الحِلمُ يَسلُبنا خيرَ الطِباعِ وكاد العقل يُردينا

خمسونَ زُمّتْ مليئاتٍ حقائبُها من التجاريب بغناها بعشرينا[95]

إذ نحنُ مِن هذه الدنيا ضراوتُها وإذ مغاني الصبا فيها مغانينا

يا"أمَّ عوفٍ" بريئاتٌ جرائرُنا كانت، وآمنةٌ العقبى مَهاوينا

نستلهِمُ الأمر عفواً لانخرِّجُهُ من الفحاوي ولاندري المضامينا[96]

ولانُعاني طويّاتٍ معقّدةً كما يَحُلُّ تلاميذُ تمارينا

نأتي المآتيَ من تلقاء أنفُسِنا فيما تصرفنا منها وتُثنينا

يا"أُمَّ عوفٍ" أدالَ الدهرُ دولتَنا وعاد غَمْزاً بنا ماكان يزهونا

خبا من العمرِ نوءٌ كان يَرزُمنا وغابَ نجمُ شبابٍ كان يَهدينا[97]

وغاضَ نبعُ صفا كنّا نلوذ به في الهاجرات فيَروينا ويُصفينا

يا"أُمّ عوفٍ" وقد طالَ العناءُ بنا آهٍ على حِقبةٍ كانت تعانينا

آهٍ على أيمنٍ من ربعِ صبوتنا كنّا نجولُ به غرّاً ميامينا

كانت تُجِدُّ لنا الأحلامُ حاشيةً مذهوبةً كلّما قُصّت حواشينا

كنّا نقول إذا مافاتنا سَحَرٌ: لابُدَّ من سحَرٍ ثانٍ يُواتينا

لابُدَّ من مطلعٍ للشمس يُفرِحنا ومن أصيلٍ على مهلٍ يُحيينا

واليومَ نَرقُبُ في أسحارنا أجلاً تقومُ من بعدهِ عَجلَى نَواعينا

---

[95] ـ زمت: شدت أي مضت

[96] ـ الفحاوي: جمع فحوى.

[97] ـ النوء: المطر. يرزم: يشتد صوته.

يا "أمَّ عوفٍ" كوادٍ أنت نازلهُ ... دَمْثاً، فَسيحاً، ندياً كان وادينا[98]

في مثلِ رملتكِ الحمراءِ زاهيةً ... كانت تخُبُّ "عفاريتاً" مَهارينا[99]

ومثلِ خيمتكِ الدكناءِ فارهةً ... كانت ترفُّ على رملِ صوارينا

يا "أمَّ عوفٍ" ماكنَّا صيارفةً ... فيما نُحبُّ ولاكنَّا مُرابينا

لم نَذرِ سُوقَ تِجارٍ في عواطفهم ... ومُشترينَ مَوداتٍ وشارينا

لانعرِفُ الودَّ إلاّ أنَّهُ دنَفٌ ... من الصبابةِ يعتادُ المُحبينا[100]

فما نصابحُ إلا مَن يماسينا ... ولانُراوحُ إلا مَن يُغادينا

يا "أمَّ عوفٍ" ولاتغرُرْكِ بارقةٌ ... منَّا، ولازائفٌ من قولِ مُطرينا

غُفلاً أتيناكِ لم تعلَقْ بنا غُرَرٌ ... ولاحُجولٌ وإنْ رفَّتْ هوادينا[101]

إنَّا أتيناكِ من أرضٍ ملائكُها ... بالعُهرِ تُرجَمُ أو تُرضي الشياطينا

إنْ لم يَلُحْ شبحٌ للخوفِ يُفزعنا ... فيها يَلُحْ شبحٌ للذلِ يُصمينا

يا "أمَّ عوفٍ" أأوهامٌ مضللةٌ ... أمِ الأساطيرُ يُبدعنَ الأساطينا

من عهدِ "آدمَ" والأقوامُ مزجيةٌ، ... خوفَ الشرورِ، الضحايا والقرابينا

أكلَّما ابتدعَ الإنسانُ آلهةً ... للخيرِ صيَّرها شرٌّ ثعابينا!؟

يا "أمَّ عوفٍ" سئمنا عيشَ حاضرةٍ ... تَرِبُ سِقْطينِ شِرِيراً ومِسكينا[102]

وحشٌ وإنْ روَّضَ الإنسيُّ جامحَها ... قفرٌ، وإنْ مُلئتْ ورداً ونسرينا

---

(98) ـ دمث: لين.

(99) ـ المهاري والمهاري: جمع مهرة

(100) ـ دنف: مرض (لازمة من لوازم الصبابة)

(101) ـ الهوادي: الأوائل.

(102) ـ ترب: تربي. القِط: المولود قبل أوانه.

ضحّاكــةُ الثغــرِ بُهتانــاً وحاملــةٌ / في الصدرِ للشرِ أو للبؤس تنينـا[103]

وخانقــاً مــن "قراميــد" يحوطنــا / حوطَ السجون مناكيداً مساجينا[104]

رانَ الخمــولُ عليــه.. واستبدّ بــه / جذبُ الجواذب مــن هَنَا ومن هينا

ولُقمــةٍ ردَهــا مانســترقٌ بـــه / ومانكــافحُ زَقُومــاً وغِســلينا[105]

يا "أُمَ عـوفٍ" وقـد شيّبنا بمعتركٍ / نرعـى المقـاييس منـه والموازينــا

عُميـاً نـدور علـى مرمـى حوافـره / معقــودةً بتواليــه نَواصينـــا[106]

مــاانفكَ فُحْــشٌ تَظنِيــهِ يُلاحقنــا / حتـى عُدينـا بفُحـش في تظنينــا[107]

فمــا نصــدِقُ أفواهــاً بألســنةٍ / مــالم يُقمْــنَ عليهــنَّ البراهينــا

ولابـــأفئدةٍ حتــــى تُعاهدَنــــا / بـأنَّ أنياطهـا ليسـت ثعابينــا[108]

جئنــا مغــانيكِ نُسّــاكاً يُــبرِّحهمْ / لُقيـا حبيـبٍ أقـاموا حُبّــه دينــا

ولاءمتنــا شِــعابٌ منــكِ طــاهرةٌ / كمــا تضــمُّ المحــاريبُ المصلينــا

لم ألــفِ أحفلَ منهـا وهـي موحشـةٌ / بالمؤنســات.. ولاأزهــى ميادينــا

ولاأدقَ بيانــاً مِــن، مجاهِلِهــا / ولاأرقَ لمــا توحيــه تبيينــا

حتـى كـأنَّ الفِجـاجَ الغُـبرَ تَفهمُنـا / والمبهمـاتِ مـن الـوادي تُناغينـا[109]

---

(103) ـ التنين: ضرب من الحيات.

(104) ـ القراميد: جمع قرميد، وهو نوع من الطابوق

(105) ـ ردها: جعلها وصيرها. الزقوم والغسلين وردتا في القرآن: تعني الأولى شجرة تخرج من أصل الجحيم، وتعني الثانية ماانغسل من لحوم أهل النار ودمائهم.

(106) ـ النواصي: جمع ناصية وهي مقدم الرأس.

(107) ـ التظني: الظن.

(108) ـ النياط: جمع نيط بفتح النون وهو العرق.

(109) ـ الفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين.

تجاوبتْ بصدى الدُّنيا مفاوزُها — واستعرضت من بَني الدنيا الملايينا[110]

وانساب حشدُ الرمال السافياتِ بها — يُحصي الأناسيَ منها والأحايينا[111]

كم لَمّتِ الشمسُ أوراساً وكم قطفتْ — من الأهلّةِ عُرجوناً فعرجونا[112]

وكم حوتْ من ربيع الدهر أخيلةً — فطرْنَ رعباً، وأفراساً فمُرْيِنا[113]

أحالها النور شيئاً غير عالمها — حتى كأنّا بوادٍ غير وادينا

حتى كأنّا -وضوءُ البدر يفرشها- — نمشي على غيمةٍ منه تماشينا.

---

[110] ـ المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء.

[111] ـ السافية: المتحركة. الأحايين: الأزمان.

[112] ـ الأوراس: جمع ورس وهو نبت أصفر. العرجون: عنق التمر إذا يبس.

[113] ـ أخيلة: جمع "خيال"، من التخيل والتظنن والتوهم. والمعنى أنها حوت الكثير من تخيلات الصبا.

كفارة وندم

*نشرت في جريدة "الرأي العام"، العدد٢٤٧٩ في ٢٠حزيران ١٩٥٤

ستبقى – ويَفْنَى نَيزكٌ وشِهابُ – عروقٌ أبيّات الدِماء غضابُ

لطافٌ كأنفاسِ النّسيمِ نوافحٌ كرِيَاه صُمٌّ كالصخورِ صِلاب[114]

هوتْ عَذَباتُ العمرِ إلاّ صوامداً على لَفْحِ إعصارٍ فهنَّ رِطاب[115]

وجفٌّ وريقٌ منه إلا نديّةً تعاصت على الأيامِ فهي شباب

عييتُ بطِبِّ الأحمقينَ وجهلِهمْ بأنّ النفوسَ الخيراتِ عجاب

فهنَّ إذا ما الأمرُ هانَ أباطحٌ وهنَّ إذا ما الجدُّ جَدَّ هِضاب

وهنَّ "منيفاتٌ" لأنّ هُوِيّها بألسُنِهنَّ يُزدَرَى ويُعابُ

وهنّ "عظيماتٌ" لأنَّ صريخَها يئنُّ أنينَ الكلْبِ حين يُشاب

---

(١١٤) ـ النفح: هبوب النسيم.

(١١٥) ـ عذبات: جمع عذبة (بفتحتين) وهي طرف كل شيء. واللفح: هبوب السموم.

يضيق بها كونٌ وهن فسائحٌ وسبعُ سماواتٍ وهنَ رحابُ
يُساقين أحقاباً وهنَّ ظوامئٌ ويُطعِمْنَ أجيالاً وهنَ سِغابُ[116]
وينْحَتْنَ والدنيا لهنَ نموذجٌ ويرسُمْنَ والرؤيا لهنَ خِضاب

أقولُ وقد كلُ الجوادُ فلم تَجُل مسوَّمةً غالوا بهنَّ عِرابُ
ولاح محكُّ للرجال فلم يكنْ هنالك إلاّ زائفون كِذابُ
وصوّحَ قاعُ الطيباتِ وأعولتْ عليها من الضِغْن الخبيثِ ذئاب
وقاءَ اللئيمُ الدونُ مافي ضميره وجفَّ فما عندَ الكريمِ شراب
حنانَيْكِ نفسي لايضيق منك جانبٌ إذا ضاق من رُحْبِ النُفوس جَناب
ولايَتَهَضَّمْكِ انخفاضٌ فطالما تخفَّضَ نَسْرٌ صاعدٌ وعُقاب
وشامخةُ الأدواحِ يُلوى عِنانُها مع الريحِ، والمحضُ الصريحُ يُراب
ومالَكِ من عتبٍ على الدَهرِ إنَّما عليكِ لما هوَّنْتِ منه، عِتاب
تقحَّمْتِهِ حتى كأنكِ فوقَه وإنكِ إذ طَمَ الأُباب عُباب[117]
ورُحْتِ سِماحاً تحضنين صُروفَه كما احتضَنَ السيفَ الجُرازَ قِراب[118]
فلا تهنِ الشكوى عليكِ وإن مَشتْ بمنحسِرِ بادي الضلوعِ حِراب
فإنْ تقتنص منكِ الليالي فريسةً وإنْ يجتمع ظُفْرٌ عليكِ وناب
وإنْ تتشابكْ للحزازاتِ أجمةٌ ويلتفَ للحِقد المبرحِ غاب
فلَلّيثُ أضرى مايُرى إذ تَهيجُهُ وأقتَلُ ماتَخشاه حينَ يُصاب

---

(116) ـ السغاب: جمع ساغب وسغبى بمعنى جائعات.

(117) ـ طم: علا وغمر.

(118) ـ الجراز (بالضم): القاطع.

هبينيَ لم أُسلفْ جميلاً ولم أقلْ جميلاً، ولم تُخضَبْ عليَّ ثياب
ولم أُزجِ تلك التضحياتِ كريمةً بها راح يُجْزي مُدَّعٍ ويُثاب
ولم أدعَ للجُلّى كقيسٍ ورهطهِ وللحَيْس تدعى خثعمٌ وكِلاب[119]
فهل أنا إلاَّ من سوادِ نقائصي إلى نقص أزكاهم حصيٌ وتراب

تعالَيْ فقد أغلى نسيجَكِ حاضرٌ كمثلِكِ فذٍ جِلّته صعاب
وشعبٌ على البلوى يعيش وموطنٌ لكلِ الهمومِ الخانقاتِ مَثاب
ولن يجدَ الآتونَ مثلَكِ عندما يخفُّ قِراعٌ، أويهون طِلاب
فلاتكتُمي عاباً فمجدُكِ كاذبٌ إذا لم يَشُبْهُ للحراجةِ عاب
ولوحي خلالَ الحادثاتِ مُشعَّةً كما لاحَ مابينَ الغيومِ شِهاب
وماهي إلاَّ غمرةٌ ثمَّ تنجلي ومـاأنتِ إلا خمرةٌ وحَباب

دعيها تَسِلْ قَيْحاً "لوحدِك" ثرةً جراحٌ أجِدَت فانتكأن، رَغاب[120]
فهنَّ لنفحِ الطيباتِ مجامرٌ وهنَّ لعِطرِ الذكرياتِ عِياب[121]
وهنَّ ومايَنْزفْنَ كأسٌ وخمرةٌ وثغرُ كَعابٍ رَوْدةٍ ورُضاب[122]
هو الشعرُ موجوعاً ينابيعُ رحمةٍ وخلواً من القلبِ الجريحِ سراب

---

(119) ـ الحيس: تمر يخلط بسمن.
(120) ـ نكأ الجرح: أزال قشرته. والرغاب: اللينة.
(121) ـ المجامر: المباخر. والعياب: الحقائب.
(122) ـ الرود: المرأة الحسنة اللينة.

أللنــاس زادٌ غــيرُ آهــةِ شــاعرٍ؟ وغـيرُ الـدم الـمنزوف منــه شـراب؟

وياوطنــاً رُدّت علـــيَّ ظلالـــهُ مصوَّحـــةً رَوّى ثـــراكَ سَـــحاب

ندى المسك فيما غبّرتني عجاجـةٌ وفيمـا ســيُحثى بالجِمــام تــراب

ولكنـــني آسٍ لنهـــبٍ مقسَّـــمٍ وليــس بــه للصــالحينَ نِصــاب

وبــيتٍ لسُــراقٍ تلــوذُ بركنــه سـباقٌ علــى تهديمــه وغِــلاب

مجافيــةٌ أحكامُــه.. فهــو جنــةٌ لرجــسٍ، ولـلزاكي لظــىً وعــذاب

ومعكوســةٌ حتــى كــأن خيــارَه بــه خطــأٌ.. والأرذلــون صــواب

أطـاحت بأعشـاشِ النُسـورِ بُغاثُـه وحـلَّ بـه خـير الوكـورِ غُـرابٌ[١٢٣]

وجــاعت ملايــينٌ بــه وزروعــهُ، لســبعٍ سمــانٍ يَعتلفــنَ، نِهــاب

---

(١٢٣) ـ بغاث الطير (بفتح الباء وضمها وكسرها): شرارها ومالايقوى على الصيد منها.

لبنان ياخمري وطيبي

*ألقيت في المهرجان الذي أقامه أدباء لبنان وشعراؤه في بيروت تكريماً لشاعر لبنان بشارة الخوري (الأخطل الصغير) وشارك فيه جمع من الشعراء العرب وأدبائهم وكان ذلك صيف ١٩٦١

كان الشاعر في هذه الأثناء مضايقاً في العراق -والسلطة غير راضية عنه حتى أنه أوقف مدة أسبوع- وربما خشي عليه ماهو أكثر من ذلك بكثير وقد كاشفته ممثلية ألمانية الديمقراطية وهي تقدم إليه الدعوة لتمثيل العراق في مؤتمر الأدباء الألمان -وصرحت له بما يبيت له من خطر، وبوجوب مغادرته العراق، فوافق بعد تردد، ولكنه كان يخشى ألا يحصل على جواز سفر... حتى إذا وصلت إله دعوة من لجنة تكريم بشارة الخوري اتخذ ذلك ذريعة للحصول على جواز السفر. وكان أن وصل إلى براغ في طريقه إلى برلين، فإذا بوفد "اتحاد الكتاب" التشيكوسلوفاكيين يستقبله في المطار ويرجو منه قبول دعوة "الاتحاد" ليكون هو وعائلته ضيفاً على تشيكوسلوفاكيا ماطاب له المقام.. وذلك ما كان.

"لُبنـــانُ" يـــاخمري وطيـــبي ||| هـــلاّ لَمستِ حُطـــامَ كوبـــي
هــــــلاّ رَدَدْتِ لسُــــــهدِها ||| عيــني، وقلــبي للوجيــب[١٢٤]
هَـــــلاّ عطفــــتِ لِيَ الصِبَـــا ||| نشـــوانَ يرفــلُ بـــالذُنوب
نـــزَقُ الشــباب عبدتـــه ||| وبَرِئـــتُ مـــن حِلْـــمِ المشيب
لُبنـــان مــــانئبي إذا ||| رقعـــتُ شـــيْبي بالنسـيب
الأخضـرُ الريّـــانُ بيـــ ||| ـن جوانحـي عِرمْ الشُـبوب[١٢٥]
يـامن يقـايضُني صـدى الــ ||| همســاتِ والسَـمَرِ المُريب
وترصُـدُ الأقمــارِ كابــ ||| ـن أبـي ربيعـة في المغيب[١٢٦]
والكـاعبَ الحسْـناءَ تسـ ||| ـترني بمِفْضلِها القشيب[١٢٧]
وتنـــابزَ القبـــلات في ||| نجـوى كمسـترق الدبيب
ويـداً تخبُـطُ في الهـوى ||| ويـداً تُعـابثُ في الجيُوب[١٢٨]
يـامن يُقـايضني ربيــ ||| ـعَ العُمـرِ ذا المَـرْج العشيب
بالعبقريَــــةِ كلُهــــا ||| بخُرافـةِ الذهـن الخصيب
بعُصــارةِ الســتينَ تـــر ||| زح بـــالأديب وبـــالأريب

---

(١٢٤) ـ الوجيب: الاضطراب.

(١٢٥) ـ عرم: شديد، والبيت كناية عن القلب.

(١٢٦) ـ في البيت ومابعده إشارة إلى رائية عمر بن أبي ربيعة الشهيرة:

أمــن آل نعــم أنــت غــاد فمبكــر ||| غــداة غــد أم رائــح فمهجــر

(١٢٧) ـ المفضل: الثوب الواسع.

(١٢٨) ـ الجيوب: جمع جيب وهو فتحة الثوب من جهة الصدر.

شـــيطانَ "غوتـــــة" ياربيــــــ ــب الغـدرِ والـدمِ والحـــروب(١٢٩)

ومُقـــايضَ الســـــبعينَ بالـــــ ـعشـــرينَ عـــن ثمـــن رهيـــب

لـــــو جئتــــني لوجدتـــــني مَحــض السـميعِ المســتجيب

إيــــهِ بشـــــارةُ والليــــا لي متثـــــلاتٌ بـــــالعجيب

متدافعــــــاتٌ بالفُجـــــا ءة لايَنـــينَ مـــن اللُغـــوب(١٣٠)

والدهـــرُ في صَعَـــدٍ ومـــا عـــزَ الطِـلاب علـى طَلـوب(١٣١)

و"الزُهـــرةُ" الشـــقراء طـــو عُ يـدي "ككـــارينَ" الرهيـــب

"الأخطــــلُ" الجبّـــارُ جـــا ء "الكوفتـين" علـى نجيـب(١٣٢)

وأبـــو العــــلاء علــى بنـــا تِ المـاء تحـدّى بـالجَنوب(١٣٣)

ونعـــرتَ صحـــراءَ العـــرا ق بموكـــبِ النـــارِ المهيـــب(١٣٤)

بالآلـــــةِ الخرســـــاء تســـــ ـتوري علـــى وهـــج اللهيـــب

وأتيــــتُ "لبنانـــــاً" بجــــا نحتـــين مـــن ريـــحٍ غضـــوب

مثـــلَ المســـيح إلى الســــما ءوقـــد حُمِلـــتُ علـى صليـب

كأســـي تُصفَـــق بالغَمـــا م بكـــفِ غيـــداء لَعـــوب(١٣٥)

ويـــدي علـــى جَـــرّس تشـــدّ ومقلـــتي لفـــم المجيـــب

---

(١٢٩) ـ إشارة إلى فاوست قصة الأديب الألماني غوتة.

(١٣٠) ـ اللغوب: التعب والإعياء.

(١٣١) ـ صعد: شدة، عذاب صعد: عذاب شديد.

(١٣٢) ـ الأخطل: الشاعر الأموي. النجيب: من الإبل.

(١٣٣) ـ بنات الماء: السفن. الجنوب: الريح.

(١٣٤) ـ يشير إلى مجيء بشارة الخوري إلى العراق بالسيارة.

(١٣٥) ـ تصفق: تمزج. الغيداء: المضيفة.

وتحفَّـــــزَ النهــــــدانِ في أفــقٍ مـــن الصـــدرِ الرحيـــب

هـــل صـــكَ سمعَـــك أنــــني مـــن رافـــدَيَّ بـــلا نصيـــب

في كُربـــةٍ وأنـــا الفتـــى الـــمــمـــراحُ فَـــراجُ الكـــروب

أنـــا "عـــروةُ الـــوردي" رمـــــزُ مـــروءةِ العَـــرَبِ العريـــب

يادجلة الخير

براغ عام١٩٦٢م

حَيَيتُ سفحَكِ عن بُعْدٍ فحييني ... يادجلةَ الخيرِ يا أُمَّ البساتين
حييتُ سفحَكَ ظمآناً ألوذُ به ... لوذَ الحمائمِ بين الماء والطين
يادجلةَ الخيرِ يانبعاً أفارقُهُ ... على الكراهةِ بين الحين والحين
إنِّي وردتُ عُيونَ الماء صافيةً ... نَبْعاً فنبعاً فماكانت لِتَرْويني
وأنتَ ياقارِباً تَلْوي الرياحُ به ... لَيَّ النسائمِ أطرافَ الأفانين
وددتُ ذاك الشِراعَ الرخص لوكفني ... يُحاكُ منه غداةَ البَين يَطويني
يادجلةَ الخيرِ: قد هانت مطامحُنا ... حتى لأدنى طِماحٍ غيرُ مضمون
أتَضْمنين مَقيلاً لي سَواسيةً ... بين الحشائشِ أوبين الرياحين؟
خِلْواً من الهم إلاَّ همَّ خافقةٍ ... بينَ الجوانحِ أعنيها وتَعنيني

تَهُزُّنــــي فأُجاريهـــــا فتدفعُـــــني كــالريح تُعجــل في دفــع الطواحــين

يادجلـةَ الخـير: ياأطيــاف ســاحرةٍ يــاخمر خابيـــةٍ في ظـــلِ عُرْجــون
ياسـكتةَ المـوتِ، ياإعصـارَ زوبعـةٍ يــاخنجر الغــدرِ، ياأغصــانَ زيتــون
ياأُمَّ بغـدادَ، مـن ظَـرفٍ، ومن غَنَجٍ مشــى التبغـدُدُ حتــى في الدهــاقين
يــاأُمَّ تلك الـتي من "ألـفِ ليلتِهــا" لــلآن يعبـــق عِطـــرٌ في التلاحـــين
يامُستَجمَّ "النُّواسـيِ" الـذي لبِسـتْ بــه الحضـارةُ ثوبـاً وشــيَ "هــارونَ"
الغاسـلِ الهـمَّ في ثغـرٍ، وفي حَبَـبٍ والمُلبِـسِ العقـلَ أزيـــاء المجــانين
والسـاحبِ يأبـاه الـرِزقُ ويكرهـهُ والمُنْفِـقِ اليـــوم يُغــدى بـــالثلاثين
والراهِـن السـابريَ الخـزَ في قـدحٍ والملهِـمِ الفــنَ مـــن لهـــوِ أفـــانين
والمُسْمِعِ الدهـرَ، والدنيـا، وسـاكنَها قــرْعَ النواقيــسِ في عيــدِ الشـــعانين

يادجلـةَ الخـير: مـايُغليكِ من حَنَـقٍ يُغلي فؤادي: ومايُشجيكِ يشجيني
مــاإن تـــزالَ سِـياطُ البغــي ناقعــةً في مائِكِ الطُهْرِ بـين الحـين والحـين
يادجلةَ الخير: أدري بالذي طفحـت بـــه مجـــاريكِ مـــن فـــوقٍ إلى دون
أدري علـى أي قيثـارٍ قـد انفجـرت أنغامُكِ السُمر عـن أنّـات محـزون
أدري بـأنكِ من ألـفٍ مضـتْ هَـدَراً لـلآن تَهْزيـنَ مـن حكـم السـلاطين

يادجلــةَ الخـير: والدنيــا مُفارِقَــةٌ وأيُّ شــرٍ بخـــيرٍ غـــيرُ مقـــرون
وأيُّ خـــيرٍ بـــلا شـــرٍ يُلَقِحــــه طهرُ الملائك من رجس الشـياطين

يادجلة الخير: كم مِن كنزِ موهِبةٍ لديكَ في "القُمقُم" المسحورِ مخزون
لعلَّ تلك العفاريتَ التي احتُجِزتْ مُحمَّلاتٌ على أكتاف "دُلفين"
لعلَّ يوماً عصوفاً جارفاً عَرِماً آتٍ فترضيكَ عقباه وترضيني

يادجلةَ الخير: من كل الألى بلوايَ لم ألفِ حتى من يواسيني
يادجلةَ الخيرِ: خلِّي الموج مُرتفعاً طيفاً يمرُّ وإن بعضَ الأحاديين
وحيليه بحيث الثلجُ يغمرني دفء "الكوانين" أو عطر "التشارين"

واهاً لنفسي من جمعِ النقيض بها نقيضه جمْعَ تحريكٍ وتسكين
جنباً إلى جنبِ آلامٍ أُقطفُها قُطْفَ الجياع جَنْي اللذّاتِ يزهوني
وأركبُ الهولَ في ريعانِ مأمنةٍ حبُّ الحياة بحبِّ الموتِ يُغريني
غُولاً تسنمتُ لم أسألْ أكارعَه إلى الهوى، أمْ على الواحات ترميني
ومااالبُطولاتُ إعجازٌ وإنْ قنِعت نفسُ الجبانِ عنِ العلياء بالهُون
وإنّما هي صفوٌ منْ مُمارَسَةٍ للطارئاتِ، وإمعانٍ، وتمرين
لايُولَدُ المرءُ لاهِراً ولاسبعاً لكن عصارةَ تجريبٍ وتلقين

يادجلةَ الخير: شكوى أمْرُها إن الذي جئت أشكو منه يشكوني
ماذا صنعتُ بنفسي قد أحقْتُ بها مالم يُحقْهُ بـ"روما" عسفُ "نيرون"
ألزمتها الجِدَّ حيثُ الناسُ هازلةٌ والهزلَ في موقفٍ بالجدِ مقرون

يادجلةَ الخيرِ: هل في الشكِ منجلياً ... حقيقةٌ دون تلميحٍ وتخمين؟

أم خولطت فيه أوهامٌ وأخيلةٌ ... كما تخالطت الألوانُ في الجُون

أقول: ليت كفافاً والكفافُ به ... رُحبُ الحياةِ، وأقواتُ المساجين

أقولهُنَّ وعندي علمُ ذي ثِقةٍ ... أنْ ليس يُؤْخذَ علمٌ بالأظانين

وانما هي نفسٌ همٌّ صاحبها ... أن لاتَصدِقَ مرحوضَ البراهين

لم يوهب الفكرُ قانوناً يُحصِنه ... من الظنونِ، ومن سُخفِ القوانين

يانازحَ الدارَ ناغِ العُودَ ثانيةً ... وجُس أوتارهُ بالرِفْقِ واللين

لعلَ نجوى تُداوي حرَ أفئدة ... فيها الحزازاتُ تَغلي كالبراكين

وياضجيعي كرىً أعمى يلفُهما ... لفَ الحبيبين في مطمورةٍ دُون

حسبي وحسبكُما من فرقةٍ وجوىً ... بلاعجٍ ضَرمٍ كالجمرِ يكويني

لم أعْدُ أبوابَ ستينٍ، وأحسبني ... هِمّاً وقفتُ على أبواب تسعين

ياصاحبيَّ إذا أبصرت طيفكما ... يمشي اليَّ على مَهلٍ يحييني

أطبقتُ جَفناً على جَفنٍ لأبصُرَه ... حتى كأنَ بريقَ الموتِ يُعشيني

إنّي شَمِمتُ ثرىً عفناً يضمُكما ... وفي لُهائي منه عِطرُ "دارين"

لقد وَددْتُ وأسرابُ المنى خُدع ... لو تَسلمان وأنَ الموت يطويني

قد مِتُّ سبعينَ موتاً بعد يومكما ... ياذلَّ من يشتري موتاً بسبعين

أقول صبراً على شجوٍ يرمِضُني ... حرّانَ في قفص الأضلاع مسجون

تصعدتْ آهِ من تلقاء فطرتها ... وأردفت آهةٌ أخرى بآمين

ودبَّ في القلبِ من تأمورِهِ ضرمٌ ... ماانفكَّ يُثلج صدري حين يُصليني

كردستان ياموطن الأبطال

*نظمت عام ١٩٦٤ وألقيت لأول مرة في مؤتمر جمعية الطلبة الأكراد في أوروبا المنعقد بمدينة ميونيخ الألمانية في آب ١٩٦٤، حيث كان لهيب الثورة في كردستان العراق ضد الطغاة الحاكمين مندلعاً وبالغاً أشده...

وقد أعيد نشر القصيدة عدة مرات في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات في الصحافة العراقية.

قلبي لكردستان يُهدى والفم ... ولقد يجود بأصغريه المُعدمُ

ودمي وإن لم يُبق في جسمي دما ... غرثى جراح من دمائي تطعم

تلكم هدية مستميت مغرم ... وأنا المضحي والضحية مغرم

أنا صورةُ الألم الذبيحِ أصوغه ... كلماً عن القلب الجريح يترجم

ولربَ آهاتِ حيارى شُرَّدٍ ... راحت على فم شاعر تتنظمُ

نوّبت آلامي فكانت قطرةً ... في كأس من بنوا الحياة ورمَموا

ووهمت أني في الصبابة منهم ... ولقد يُعين على اليقين توهُم

غاليتُ في حبِ الشهيد وراعني ... فيما أحدِّث عنه فكر مبهم
أبداً تسددني خطاه وأُلهمُ ... وتعنُّ لي منه الطيوف وأرسم
نفسي الفداءُ لعبقريٍ ثائرِ ... يهبُ الحياة كأنَّه لايفهم

سلِم على الجبل الأشم وأهلِه ... ولأنت تعرف عن بنيه من هم
وتقصُّ كلَّ مدبِّ رجلٍ عنده ... هو بالرجولة والشهامة مفعم
والثم ثرىً بدمِ الشهيد مخضباً ... عبقاً يضوع كما يضوع البرعم
متفتحُ أبدَ الأبيد كأنَّه ... فيما يخلِد عبقريٌ مُلهم
وأهتف تجبك سفوحه وسهوله ... طرباً، وتبسُّم ثاكل، أو أيمُ
باسم "الأمين" المُصطفى من أمةٍ ... بحياته عندالتخاصم تُقسم
سترى الكُماةَ المعلمينَ تحلقوا ... فذاً تهيبهُ الكميُّ المُعلم
صُلب الملامح تتقي نظراتِه ... شهبُ النسور ويدَّريها الضيغم
يابن الشمال وليس تبرح كربة ... بالبشر تؤذن عندما تتأزم
وتناقضُ الأشياء سرُّ وجودها ... وبخيرها وبشرِها يتحكم
صحو السماء يُريك قُبح جهامِها ... وتُريك لطفَ الصحو إذ تتجهم
وكذا الحياةُ فليس يُقدر شَهدُها ... عن خبرةٍ، حتَّى يذاق العلقم
سلِمْ على الجبل الأشم وعنده ... من "أبجديَّات" الضحايا معجم
سِفرٌ يضمُ المجدَ، من أطرافه ... ألقاً كما ضمَّ السبائكَ منجم

ودع الحروفَ تبنْ قرارة نفسها   إنَّ الأشفَّ من الحروف الأفخم

ياموطنَ الأبطال حيثُ تناثرتْ   قصصُ الكفاح حديثها والأقدم

حيث انبرى مجدٌ لمجدٍ والتقى   جيلٌ بآخر زاحفٍ يتسلم

وبحيثُ ينضحُ كلُّ برعم زهرةٍ   بشذى عبير دمٍ بها يُتنسم

وبحيث تلتحم القبور كأنَّها   سورٌ يؤلفها كتابٌ محكم

وبحيث تزدحم العظامُ فطارفٌ   يُنْهي رسالة تالدٍ ويتمِّم

تروي حديث الهام فيها هامةٌ   ويَقصُّ ما أبلتِ السواعد معصم

يابن الشمال ولستَ وحدكَ إنها   الست الملايين التي تُتهضم

ياخيرَ ضلعٍ لسْت وحدك إنَّه   جسدٌ بكل ضلوعه يتألم

عاني وإياكَ الشدائد لم تلِنْ   منه قناةٌ كلَّ يومٍ تُعْجَم

ياموطن الأبطال والدنيا بها   نصف، وإن خيلت تجور وتظلم

تعطي وتأخذ والمغفل عندها   من ظن من عقبى حسابٍ يسلم

من بعد ألفٍ، من سلالة ظالم   من قبل ألفٍ بثأر المتظلم

ياموطن الأبطال بَثٌّ مؤلمٌ   وألذُّ أطراف الحديث المؤلم

ولقد يلذُّك من شكاة أنْ ترى   فيها الضميرَ بنفسه يتكلم

أنا مثلُ دأبك في كفاحك محربٌ   شاكي العزيمةِ أعزلٌ مُتقحِم

ستون راحت في النفوس تقسِم   تُعطي عطاء الأكرمين وتحرم

آبى الهضيمةَ واستباح هضيمتي   فيما استباحك أحمق متجرم

الوى بمن عندي، وعندي صفوةٌ هي من أبيه، ومن نويه أكرم

ورمى بهم خلف الحدود كأنهم بُرُدٌ إلى الأمصار عجلى ترزم

وأشاع لحمي للذئاب ولحمهم وحمى لحوماً بالنتانة تزخم

ودعى الجباةَ إلى حطام حويشة لتباع ملحفةٌ ويُشرى مَحزم

وتفرج المتفيقون فلا دمٌ يغلي، ولاقلمٌ يذود ولافم

لم تنفقئ خجلاً عيون أبصرت وجه الكريم بكفٌ وغد يُلطم

ونجوت منجى المؤمنين حُشاشتي ويدي، وسيف في فمي يتثلم

يابن الشمال: ومثلُ ذنبك أن تُرى متأبياً فيما تساس وتحكم

ماكان ذنبي غير أني لم أطح إذ كل ثبت طائح متهدم

يابن الشمال: وقد رأيت مصيره ومصيرُه عظة لمن يتفهم

بئس الشماتةُ شيمة ولو أنها إذ يغتلي جرحٌ تعفن بلسم

حسب الجريمة ميتةً مرذولةً كفارةً عما أتاه المجرم

يا أيها الجبل الأشمُّ تجلةً ومقالةَ هي والتجلةُ توأم

شعب دعائمه الجماجم والدم تتحطم الدنيا ولايتحطم

أرح ركابك

* ألقاها الشاعر في الحفل التكريمي الذي أقامته له وزارة الإعلام مساء يوم الجمعة الثالث من شهر كانون الثاني عام١٩٦٩، في كازينو "صدر القناة" ببغداد على إثر عودته من مغتربه في تشيكوسلوفاكيا، بعد غياب طال أكثر من سبع سنوات.

* وقد شارك في الحفل على الصعيدين الرسمي والشعبي عدد وفير من الخطباء والشعراء.

أرحْ ركابَكَ من أينٍ ومن عثَرِ — كفاك جيلان محمولاً على خطرِ[١٣٦]

كفاك موحِشُ دربٍ رُحتَ تقطعُهُ — كأنَّ مغبرَه ليلٌ بلا سَحَرِ

ويالخا الطير في وِرْدٍ وفي صَدَرِ — في كل يومٍ له عُشٌّ على شجرِ[١٣٧]

---

(١٣٦) ـ الأين: التعب والإعياء.

(١٣٧) ـ الورْد: هو أن ترد المياه لتشرب منها، والصَدَر: هو أن تصدر عنها -أي ترجع- بعد ذلك.

عُريانَ يحمل مِنقاراً وأجنحةً ... أخفُّ مالمَّ من زادٍ أخو سفَرِ

بحسبِ نفسِكَ ماتعيا النُفوسُ به ... من فرط منطلَقٍ أوفرط منحدرِ[١٣٨]

أناشدٌ أنت حتفاً صنعَ منتحرٍ ... أم شابكٌ أنت، مغتراً، يدَ القدرِ

أم راكبٌ متنَ نكباءِ مطوحةٍ ... ترى بديلاً بها عن ناعم السُررِ[١٣٩]

خفِضْ جَناحيكَ لاتهزأ بعاصفةٍ ... طوى لها النَسرُ كشحيه فلم يَطِرِ[١٤٠]

ألفى له عِبرةً في جؤجؤٍ خضِبٍ ... من غيره، وجَناحٍ منه غيرمنكسرِ[١٤١]

ياسامرَ الحي بي شوقٌ يرمضني ... إلى اللَذات، إلى النجوى، إلى السَمرِ[١٤٢]

ياسامر الحي بي داءٌ من الضجرِ ... عاصاه حتى رنينُ الكأس والوترِ

لاأنْعي سهرَ العشاق يُشبِعُهُمْ ... ياسامرَ الحي بي جوْعٌ إلى السهرِ

ياسامر الحي حتى الهمُّ من دأبٍ ... عليه آبٍ إلى ضربٍ من الخدرِ

خلاف ماابتُدعت للخمر من صُورٍ ... وجدتها زادَ عجلانٍ ومنتظرِ

كأنَ في الحَبَبِ المرتجِّ مفترقاً ... من الطريق على ساهٍ ومدكرِ[١٤٣]

ياسامر الحي إنَ الدهر ذو عجبٍ ... أعيت مذاهبُه الجُلّى على الفِكَرِ

كأَن نُعماه حبلى بأبؤسِهِ ... من ساعةِ الصفو تأتي ساعةُ الكدرِ

---

(١٣٨) ـ بحسبك الشيء: كفايتك منه. تعيا: تتعب أو تضيق.
(١٣٩) ـ النكباء: الريح.
(١٤٠) ـ الكشح: مابين الخاصرة إلى الضلع الخلفي.
(١٤١) ـ الجؤجؤ: الصدر.
(١٤٢) ـ يرمضني: أي يحرقني. اللذات: جمع لدة، وهو قرينك في السن.
(١٤٣) ـ الحبب: الفقاقيع تطفو على سطح الخمر أعلى الكأس.

تندسُ في النَشواتِ والحُمسِ عائذةً هذي فتُدركها الأخرى على الأثر[144]

ينغِصُ العيشَ أنَ الموْتَ يُدركه فنحن من نينِ بين الناب والظُفر

والعمرُ كالليل تحييه مغالطةً يُشكى من الطول أوْ يشكي من القِصر

ويا ملاعبَ أترابي بمنعَطفٍ من الفرات، إلى كوفانَ فالجزُر[145]

فالجسرُ عن جانبيه خفْقُ أشرعةٍ رفَافةٍ في أعالي الجو كالطُرَر[146]

إلى "الخورنق" باقٍ في مساحبه من ابن ماء السما ماجرَ من أُزُر

تلكم "شقائقه" لم تأل ناشرةً نوافج المسك فضَتها يد المطر[147]

بيضاءَ، حمراءَ أسراباً يموج بها ريشُ الطواويس، أو مَوْشيةُ الحَبَر[148]

لالآنَ يُطرب سمعي في شواطئه صدحُ الحمام، وثغيُ الشاء والبقر[149]

---

(144) الحمس: الهائجة والبيت مرتبط بسابقه، والقطعة حتى البيت:

والعمر كالليل تحييه مغالطة يشكى من الطول أو يشكي من القصر

تصور حدة القلق الذي استحوذ على الشاعر وهو في غربته.

(145) ـ هذه القطعة حتى البيت:

قتادهن إلى حرب على الضجر فيصلحن على حربي مع الضجر

استعراض وابتعاث لذكريات الشاعر في طفولته، وفي صباه وفي يفاعه في مدارج "النجف" و"الحيرة" ومنعطفات الفرات وجزره وفي رملة "الكوفة" وملاعبها، وتذكر الصور الشاخصة منها والباهتة على حد سواء. ففيها خفق أشرعة السفن الراسية على ضفاف الفرات حيث كانت الأسر النجفية -ومنها أسرة الشاعر- تنتقل إلى "الجسر" وهي المدينة الجميلة الرابضة على شواطئ الفرات والمسماة بهذاالاسم. وفيها تعريج على شقائق النعمان التي ماتزال حتى اليوم تنتشر بكثرة في وديان الحيرة ومساحبها منسوبة إلى النعمان نفسه.

(146) ـ الطرر: جمع الطرة وهي جانب الثوب وطرفه.

(147) ـ النوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك.

(148) ـ الحبر: نوع من القماش موشى.

(149) ـ الثغي: الثغاء وهو صوت الشاة والبقر.

والرملةُ الدمثُ في ضوءِ من القمر والمدرجُ السمحُ بين السُوحِ والحجر[150]

ياأهنأ الساعِ في دنياي أجمعِها إذا عددتُ الهنيءَ الحلوَ من عُمُري

تصوبي من علٍ حتى إذا انحدرت بي الحتُوفُ لذاك الرمل فانحدري[151]

تُمحى الغضارات في الدنيا سوى شفقٍ من الطفولة ـ عذبٍ مثلِها ـ غضر

وتُستطار طيوفُ الذكريات سوى طيفٍ من المهد ـ حتى اللَحد ـ مدكَر

في "جنَة الخلد" طافت بي على الكبر رؤيا شبابٍ، وأحلامٍ من الصِغَر

مجنَحاتُ أحاسيسٍ وأخيلةٍ مثل الفَراشات في حقل الصِبا النضِر

أصطادهنَ بزعمي وهي لي شَرَكٌ يصطادُني بالسنا واللطفِ والخَفَر

أقتادُهنَ إلى حربٍ على الضجر فيصْطَلحن على حربي مع الضجر

رأيتُم كيف هان الصبرُ عندكمُ وكيف كان على اللأواء مصطَبري[152]

وكيف زُرَتْ على الإيمانِ مِدرعتي وكيف تاه على ديباجكم وَبَري[153]

يا "دجلة الخير" نحنُ المتلين غنى بنا انعطافٌ على ملآنَ مفتقِر

واللّهِ لو أُوهَبُ الدنيا بأجمعِها مابعتُ عزي بسذُك المتْرَفِ البطِر

قالوا يظنُون بي شيئاً من الصِغَر فقلت فيهم وبي شيءٌ من الصَعَر[154]

رثيت للعقرب اللَدغى جبلَتُها لفرط ماحُمِلت سُمَاً على الإبر[155]

---

(150) ـ الدمث: الناعمة.
(151) ـ تصوبي: نقيض "تصعدي"، أي انزلي من عل، ثم "انحدري"
(152) ـ اللأواة: الشدة.
(153) ـ المدرعة: لباس بسيط من الصوف رخيص الثمن.
(154) ـ اصعر :الكبر والزهو.
(155) ـ اللدغى: يريد التي تلدغ وهي من "تنبيهات" الشراح في طبعة بغداد.

لــولا مغبّــةُ مــــاتَجني نُنَابَتُهـــا — لقلت: رفقاً بهذا الزاحيف القَذِر

وياسُقاةَ النــدى مـن كـل منسجم — والأريحيات، معسول النثا عطِر[١٥٦]

يـاصفوةَ البلـدِ الزاهـي بصفوتــه — ويأساريرَ وعـي فيـه منتشِـر

ضممتم المجـدَ مـن أطرافـه زُمـراً — تُضفي عليَّ سناها صفوةُ الزمر

من كلِ لونِ كريم مشرقٍ خَضِل — كما تلَوَّنُ حسناً باقةُ الزهر[١٥٧]

معتّقشين سُلافَ الحرف ناضجةً — نُضجَ ابنةِ الكَرْمِ فيه ابنةُ الغرر[١٥٨]

عـذراً لأكؤسكم كأسـي بهـا وَشَـلٌ — خجلانُ من مُترع الحافات مزدخر

مـاكنت بـالعي لجلاجـاً بمجتمـع — ولابهيّابـةٍ في منطـقٍ حَصِـر

ولم يَـدَعْ ليَ كـرُّ الدهـرِ مـن وطـر — ولاالمحانيرُ قد مارستُ من حـذر

لكـن وجـدتُ جميـلَ الصنـع مبتكَـراً — مـاإن يُوفَّـى بقـولٍ غيـرِ مبتكَـر

وقـد يضيـق بشـكر المفضِلـينَ فـمٌ — حتـى يُغطـي عليـه عـذرُ معتـذر

---

(١٥٦) ـ في هذهالقطعة حتى البيت الأخير منها:

وقـد يضيـق بشـكر المفضلـين فـم — حتـى يغطـي عليـه عـذر معتـذر

تنويه: بفضل المقيمين حفل التكريم، والمساهمين فيه، وبلطف الأدباء والكتاب والشعراء الذين شاركوا فيه كل منهم بدوره، وبما سمحت ب عواطفه الكريمة.

(١٥٧) ـ خضل: مبتل، ندي.

(١٥٨) ـ سلاف: الخمر.

رسالة مملحَة

* أرسلها الشاعر من "براغ" في شهر أيار من عام ١٩٦٩، من مشارف "سلوفانسكي دوم" وتعني بالعربية "البيت السلوفاكي"، إلى الفريق الركن صالح مهدي عماش وزير الداخلية آنذاك، ونشرت في جريدة "النور"، العدد ١٦٩ في ١١ أيار ١٩٦٩

وفّـى لهـا نـذراً فوافـى — وسعى بها سبعاً وطافا(١)

ورمى بها الجمراتِ من — قلبٍ تعلقها شَغافا(٢)

عاد الحجيجُ وقد سعى — وسعى ويأبى الإنصرافا

يتلمسُ الحجُرات يعـ — ـرفهنَّ قربى وازدلافا(٣)

ويرى بكلِّ ثنيّةٍ — بعثاً لذكرى واكتشافا

---

(١) الضمير في "لها" يعود إلى براغ.

(٢) رمي الجمرات: رمي الحصى وهو منسك من مناسك الحج، الشغاف (بفتح الشين): غلاف القلب.

(٣) الازدلاف: التقرب.

عَرِيَـــت فراحـــت بالنديـــــفِ البيضُ يَذْرُ التحافـا(٤)
حتـى المسـارجُ في الكُـوى الـــخفـرات يخفقــنَ ارتجافــا(٥)
وشـتا بهـا وكأنــه لم يشـتُ قبـلُ، ولا أصافـا(٦)
متنظـراً عـرس الربيـع لعلـه يرعـى الزفافـا(٧)

آهٍ علـى "ابـن العبـد" إذ يتـبرّض اللهـوَ اشـتفافا(٨)
يهـوى "الطـرافَ" و"بهكنـاً" بضّـاً، وأن يحمـي المضافـا(٩)
لـو عـاد لاختصـر المسـافا لدنـا، وحيّـا، واسـتضافا(١٠)
لـرأى لـه وسـط الجبـال الخضـر مـن ثلـجٍ طِرافـا
لاعتـاضَ عـن حَلَـبِ العصيـر مشـى بـه عِلـجٌ ودافـا(١١)

---

(٤) النديف: يريد الوفر (من الثلج).
(٥) المسارج: جمع مسرجة. الكوى: جمع كوة وهي منفذ في الجدار.
(٦) شتا: أقام فيها أيام الشتاء. أصاف: أقام أيام الصيف.
(٧) المتنظر: المنتظر.
(٨) "ابن العبد" هو الشاعر الجاهلي طرفة صاحب المعلقة:
لخولـة أطـلال ببرقـة ثهمـد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

والإشارة هنا، في هذه القطعة إلى أبياته فيها:
فلولا ثـلاث هـنّ مـن عيشـة الفتـى وجدك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهـن سـبقي العـاذلات بشـربة كميـت متـى مـا تعل بالماء تزبـد
وكـري إذا نـادى المضـاف محنبـاً كسـيد الغضـا نبهتـه المتـورد
وتقصير يوم الدجن ـ والدجن معجب ـ ببهكنـة تحـت الطـراف المعمـد

وتبرض الروض تبرضا: اشتفه اشتفافاً أي تعاطاه بنزازة وبقلة.
(٩) الطراف: الخيمة والطنب، أو البيت من الأدم، وهو الجلد. البهكنة: المرأة السمينة الجميلة.
(١٠) المساف: المسافة.
(١١) حلب العصير: يراد به الخمر.. المحلوبة من عصارة العنب. العلج: في الأصل السمين الغليظ واستعير لأبناء الأقوام من غير العرب وغير المسلمين منهم بخاصة ويريد به الساقي. داف: مزج وخلط.

حلبــا تقطـــرَ مـــن شـــفا ه الغيـــدِ يُعتصَـــرُ انتزافـــا[١٢]
وعـــن "البهـــاكِن" كـــلُّ رو دٍ تَســـرح الليـــلَ الغدافـــا[١٣]

أ"أبـا هُـــدى" شـــوقٌ يُلـــحُّ ولا عـــجٌ يُذكـــي الشِـــعافا[١٤]
شـــوقَ المَبـــارِحِ لم يغيّـــ ـــيره البعـــادُ، ولا تجـــافى
يـــامنتج الـــدررِ الجيـــا ن مَعانيـــا غـــرًا ظِرافـــا
يقطـــرن إبداعـــاً، وإيـــ ـثـــاراً وحبـــاً، وانتصافـــا[١٥]
ـنبئـــتُ أنـــكَ توســـع الـــ أزيـــاء عَنتـــا، واعتســـافا[١٦]
تقفـــو خطـــى المتأنقـــا تِ كســـالكِ الأثـــرِ اقتيافـــا[١٧]
وتقيـــس بالأفتـــار أر ديـــةَ بحجـــةِ أن تَنـــافى[١٨]
مـــاذا تَنـــافي؟ بـــل ومـــا ذا ثـــمَّ مـــن خلـــقٍ يُنـــافى؟
حوشـــيتَ، أنـــت أرقُّ حـــا شـــيةً، ولطفـــاً، وانعطافـــا[١٩]
وأشـــدُّ لِصقـــاً بـــالحجى وألـــدُّ بـــالعدل اتصافـــا[٢٠]
أتـــرى العفـــاف مقـــاس أقـــ ـمشـــة؟ ظلمـــتَ إذن عفافـــا

---

(١٢) يعتصر انتزافا: يؤخذ كله من "نزف البئر" إذا استخلص ماؤها.

(١٣) الرؤد من النساء: الشابة الحسنة وقد سهل الشاعر الهمزة جرياً على الاستعمال. تسرج: تنير. الغداف: الأسود.

(١٤) أبو هدى: كنية السيد "عماش. الشعاف (بكسر الشين): جمع شعفة (بالتحريك) وهي ملتقى نياط القوب، ويذكي الشعاف: يشعلها.

(١٥) الانتصاف: هو الأخذ بالعدل للحقوق المغصوبة، أي الانصاف.

(١٦) العت: كالعنت أي التشدد والتعنت. الاعتساف: التعسف والظلم.

(١٧) تقفو: تتبع. الاقتياف: هو التعرف على مسالك السالكين من تتبع خطاهم على الأرض. المقتافون: الفئات المتخصصة بذلك.

(١٨) الافتار: جمع فتر (بكسر الفاء) وهو مابين طرفي السبابة والإبهام إذا فتحتهما. تنافى: تتنافى والتقاليد.

(١٩) الانعطاف: العطف.

(٢٠) الحجى: العقل. الد: أشد، يقال: رجل شديد لديد.

فِي الضمـــــائر لا تَخـــــا ... طِ ولا تقـــصٌ، ولا تكـــافى[21]
مـــن لم يخـف عُقبـى الضميـــ ... ـــرِ فمِـن ســواه لـن يخافـا

ياقـــائدَ الجيـــش اقتحامـــاً ... والتحامـــاً، والتفافـــا[22]
طـــوّق جهـــالاتِ الحمـــى ... والعنعنـــاتِ بـــه الجزافـــا[23]
وتقـــصَّ كـــلَّ جذورهـــنَّ فـــلا ... القـــويٌّ، ولا الضعافـــا
أشِبـــعِ الحيـــاةَ ولطفهـــا ... في موطـــن يشـــكو الجفافـــا
أقـــوى فـــلا المـــرحَ اســـتجدْ ... ولا الصُـــداحَ، ولا الهتافـــا[24]
وخـــلا كمـــا تخلـــو الفيـــا ... في غـــيرَ أتربـــةٍ تسّـــافى[25]

يـــامن رأى فلـــك النجـــو ... م مشـــى بـــأكوابٍ وطافـــا[26]
هـــذي الصحـــافُ مـــن الزبـــر ... جـدِ رُحـن يحمِلـن الصِحافـا[27]
ســـاعاً علـــى ســـاعٍ وقـــو ... فـــاً وانتشـــارا، واصطفافـــا
ينعمـــنَ بـــالكدح الشريـــ ... ـــف بوفـــر العيـــشَ الكفافـــا
الســـاحراتُ فمـــن يـــردُّك أن ... يطـــرن بـــك اختطافـــا
والناعســـاتُ فمـــا تحـــسُّ الطـــ ... ـــرفَ أغفـــى، أم تغـــافى
والنـــاهدات يكـــاد مـــا ... في الصـــدر يُختطـــف اقتطافـــا

---

(21) تكافى: تكفَّ أي تطوى ويخاط عليها.

(22) القطعة خطاب للسيد عماش بصفته العسكرية ـ فريق أو ركن ـ بعد أن كانت مخاطبته في القطعة السابقة بصفته الأدبية والشاعرية.

(23) الجزاف: التي لا أساس لها وغير صحيحة.

(24) اقوى: أقفر.

(25) الفيافي: الصحارى. تسافى أي تحمل الرمال وتلقيها.

(26) المراد بـ "فلك النجوم" السقاة في مشرب "سلوفينسكي دوم" في "براغ" ويوضح ذلك بقية البيت.

(27) الصحاف من الزبرجد: كناية عن الساقيات الحسان.

والخـــــيّراتُ النــــــــانرا ... تُ النفــــس للطيـــب اعتكافـــا
هــــديُ المســـيح إلى الســــلا ... م علـــى العيـــون طفـــا وطافـــا
ودمُ الصليـــب علـــى الخــــدو ... د يكـــادُ يُرتشـــف ارتشـــافا
علقــــــن في أوســــــاطهنّ ... مــآزراً بيضــاً، خفافـــا[28]
قــــدر المســـافِ مظنـــة ... أو لا فمـــن يـــدري المســـافا
وردنهـــــنّ إلى الظهـــــو ... ر فكـــن أردفـــةً ردافـــا
ســـاءلتُ نفســـي لا أريـــ ... ـــد لهـــا عـــن "النحـــو" انصرافـــا
أتـــرى "المضـــافَ إليـــه" أحـــ ... ـلـــى أم عَلاقتـــه المضافـــا
أحكمـــن جارحـــةً فجـــا ... رحـــةً رســـوخاً وانعطافـــا
مـــايعلُ يعـــلُ الكائنـــا ... ت ومـــا يحُـــط فقـــد أنافـــا

أ "أبـا هـدى" إن كنـتُ مُتّهمـاً، ... فخـــذ مـــني اعترافـــا
إنـــي وربِ صـــاغهن كمـــا اشــــ ... ـتهـــى، هيفـــاً لطافـــا
وأدقهـــن ومـــا ونـــى ... وأجلهـــن، ومـــا أحافـــا[29]
لأرى الجنـــانَ إذا خلـــت ... منهـــن أولى أن تعافـــا[30]
لـــو قيـــل مـــا سـِفر الحيـــا ... ةِ؟ لقلـــت: مـــاكن الغِلافـــا[31]
أو قيـــل: كيـــف الحـــبُّ قلـــ ... ـــت بـــأن تـــداءَ فمـــا تشـــافى[32]

---

(28) البيت والأبيات الأربعة بعده وصف للزي الموحد الذي يرتديه الجنس اللطيف في المشارب والمقاهي والمطاعم.

(29) الونى: التعب. أحاف: جار وظلم، ويريد حـاف، وهـي من تنبيهـات الشراح في طبعة بغداد.

(30) تعاف: تهجر.

(31) سفر: كتاب.

(32) يداء: أي يصاب بالداء وبالمرض. تشافى: تبرأ من المرض.

السبعينات

لمّي لهاتيك لمّا...

*نظمت عام ١٩٧٢ في براغ.

*نشرت في جريدة "الثورة"، العدد ١٤٠٤ في ٢٢آذار ١٩٧٣.

لُمّي لَهاتَيْكِ لَمّا وقرّبي الشفتين

لُمّا على جمرتين بالوتِ ملومتين

يا حلوةَ الشربينِ من أين كان.. وأينِ

من صنع كِذْبٍ ومَيْنِ سمَوْهُم زهرتين

لمّي لهاتيك لَمّا وقرّبي الجمرتين

وباعدي الخصْلتينِ إمّا نظرتُ بعيني

فـــالموتُ أقـــربُ ممّـــا بـــين الجديـــل وبـــين[159]
يـــاحلوةَ الشـــربين مـــن أيـــنَ كـــانَ.. وأيـــن
أتثـــأرين بذَيْـــن؟ إن أنـــتِ حتفـــي.. وحَيْـــني

لّـــي لهـــاتيك لّـــا وقرّبـــي الزهرتـــين
جمـــراً يُقَطّـــر سُـــمّا ياثـــالث الكوثريـــن
مـــاأطيبَ السُـــمِ طعمـــا شـــربْتُهُ مرتـــين
فزادنـــي "أُقتَـــين" دمـــاً.. ولحمـــاً.. وعظمـــا
لّـــي لهـــاتيك لّـــما وقرّبـــي "المعبَدَيْـــن"

ريّـــين مُستَعبِـــدَين يُجدِفـــان عليـــك[160]
فيمـــا تجنيـــتِ إثمـــا ممّـــا.. وممّـــا.. وممّـــا
يـــاحلوةَ الشـــربين مـــن أيـــن كـــان.. وأيـــن
لاتحـــذري اللعنتـــين فثَـــمَّ طـــوعُ يديـــك
مـــن يُوسِـــعُ الإثْـــم لثمـــا والجمـــرَ ضمّـــا.. ولَـــما

ويَســـتنيبُ إليـــك..!

يـــابنت هـــذا البُدَيْـــن يَـــتيه بـــالأغيدَين
فُوَيقَـــهِ.. والدوَيْـــن أتؤمنـــين بذَيْـــن

---

(159) ـ الجديل: الشعر المضفور.

(160) ـ يجدفان: يختلفان ويتخرصان.

أم تثــــــأرين بدَيْـــــــن	أم أنــــتِ حتفــــي وحَيــــني
لَمْــي لهـــــاتيك لَمـــــا	وقُربـــــي الشّـــــفتين
بـــــابين للجنتـــــين	والمــــوت مـــــابين بـــــين
يــــاحلوةَ الشـــــربين	مـــن أيـــن كــــان.. وأيـــن
بُلّـــي بـــذاك "اللُسّـــيْن"	فمــــا تغشـــته حُمَّـــى[161]
كسِــــنٍّ رُمـــحِ رُدَيْـــفي	لم يُســـــروَ إلا ليظمــــــا
يــــأعذبَ الميتــــين	إن تبــــدُ وَهْنـــا لعيــــني[162]
أســـطورةُ المـــوت وهمـــا	فالســـــر في الخُدْعَتَيْـــن
إنــــي حَبَبْتُـــك جمّـــا	حُـــبَّ الـــثّرى للمُزَيْــن[163]
فمــــا أبـــالي بحـــين	مالامســــت إصبَعَيْــــن

منــــكِ اليــــدان اليديــــن

أقسَـــــمتُ بالشـــــمعتين	مـــن عســـجدٍ.. ولجـــين
بتينِــــكِ الوجنتــــين	نجـــم يضـــاحك نجمـــا
أقســــمتُ بـــالقِبْلتين	بتينـــكِ الإصبَعَيْـــن
زَمّـــا شـــفاهي زمّـــا	أن تلْفِـــظَ "الدُرَتـــين"

---

(١٦١) ـ تغشته: غشيته، أصابته وانتابته.

(١٦٢) ـ وهنا: وقتا.

(١٦٣) ـ المزين: مصغر مزن وهو جمع مزنة.

إنـــي أحبـــك.. علمــا بهُجْنَـــةِ "الكِلْمتـــين"!
أقســـمتُ بـــالكون طُـــرّىً صـــدراً.. ونهـــداً.. ونحـــرا
ومرتقـــي.. ومجـــرى دنيـــا تُعـــاشُ... وأخـــرى
إنـــي عـــن الكـــون أعمـــى وأنـــت لي ألـــفُ عـــين

أزح عن صدرك الزبدا...

*ألقى الشاعر قسماً منها في الحفل الذي أقامته جمعية الرابطة الأدبية في النجف مساء الخميس الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٧٥ على قاعة الاجتماعات، لتكريمه بمناسبه منحه جائزة اللوتس.

*نشر هذا القسم في مجلة "الرابطة" العدد الخامس من السنة الثانية، تشرين الثاني ١٩٧٥.

*أضاف إليها ونشرها في صورتها الأولى في الملحق الأسبوعي لجريدة "الجمهورية"، العدد ٢٤٨٣ السبت ٨تشرين الثاني ١٩٧٥

*ثم نشرت على صورتها الأخيرة في مجلة "الديار" اللبنانية، العدد١٢٨ من١٥-٢١ آذار ١٩٧٦ بالعنوان نفسه.

أزِحْ عــــن صـــــدرِكَ الزَّبَـــــدا ودعْـــــهُ يُبِــــثُّ مـــــاوَجَدا(١٦٤)

وخـــــلِّ حُطـــــامَ مَوْجِـــــدةٍ تنــــاثَرُ فوقَـــــهُ قِصــــدا(١٦٥)

ولاتحفِــــــلْ فشِقشِـــــقةٌ مَشــت لـك أن تَجيــشَ غــدا(١٦٦)

ولاتكبِـــــتْ فمِـــــن حِقَـــبٍ ذممــــتَ الصــــبرَ والجلـــدا

أزِح عـــــن صـــــدرِك الزَّبَـــــدا وقــلْ تُعِــدِ العُصُـــورُ صـــدى

أأنــــت تخـــافُ مـــن أحــدٍ أأنــــت مصــــانِعٌ أحـــــدا

أتخشــــى النـــاس أشــجعُهُمْ يخـــافُكَ مغضبـــاً حَــــرِدا(١٦٧)

ولايعلــــوكَ خـــــيرُهم ولســــتَ بخــــيرهم أبـــــدا

ولكــــنْ كاشـــقٌ نَفَســــاً تُقَيـــم بنفسِــــها الأَوَدا(١٦٨)

كنســــجِ الـــــدرع واثقـــةٌ بكــــون عُيوبهـــا الـــزَرِدا(١٦٩)

ســــيُطرِيها إذا انتقـــــدت مســــاوئها، مــــن انتقـــدا

تركــــــتَ وراءَك الدنيـــــا وزُخرُفَهـــــا ومــــــاوَعَدا

ومامنَّــــــتْكَ مثقلـــــــةً بمــــا يُغرِيـــكَ أن تلـــدا

ورُحــــتَ وأنــــت ذو ســــعةٍ تُجيــــعُ الأهـــلَ والوَلَــدا

---

(١٦٤) ـ وجُد: هنا من الموجدة وهي الغضب.

(١٦٥) ـ القصد: جمع قصيدة (بالكسر)وهي القطعة والكسرة.

(١٦٦) ـ الشقشقة: مايخرج من فم البعير إذا هاج. تجيش: تهيج وتغلي.

(١٦٧) ـ الحرد: الغضبان.

(١٦٨) ـ الأود. العوج.

(١٦٩) ـ الزرد: الحلق التي تتألف منها الدرع.

وتطمـــعُ تجمـــعُ القمريــــ ـــن فخرُهُمـــا أن انفـــردا[170]

ولـــولا ذا لمـــا وُجـــدا ولـــو وجـــدا لمـــا افتُقـــدا

عجيـــب أمـــرك الرجـــرا ج لاجَنَفـــاً ولاصـــدَدا[171]

تَضيـــق بعيشـــةٍ رغـــدٍ وتهـــوى العيشـــةَ الرغـــدا

وترفـــضُ مِنـــةً رَفْهـــاً وتُبغِـــضُ بُلغـــةً صـــردا[172]

وتخشـــى الزُهـــدَ تَعْشَـــقُهُ وتعشـــق كـــلَّ مـــن زهِـــدا

ولاتقـــوى مصـــامَدةً وتعبُـــد كـــلَّ مـــن صَمَـــدا

ويدنـــو مطمـــحٌ عَجَـــبٌ فتطلُـــبُ مَطْمَحـــاً بَعُـــدا

ويدنـــو حيـــثُ ضِقْـــتَ يـــداً وضِعـــتَ سُـــدى وفـــات مـــدى

وهَبْـــكَ أردتَ عودَتَهـــا وهَبْـــكَ جهِـــدتَ أن تجِـــدا

فلســـتَ بواجـــدٍ أبـــداً علـــى "الســـبعين" مَـــافَقِدا

أزِح عـــن صـــدرك الزبـــدا ولاتتنفـــسِ الصُعَـــدا

ولاتحـــزَن لأن قطعـــتْ يـــداك الزنْـــدَ والعَضُـــدا

وأن العيـــشَ منهـــزةٌ وأن التضحيـــاتِ ســـدى

وأنـــك تُطعِـــمُ الأيـــا مَ يـــومَ الأحمقـــين غـــدا

أزِحْ عـــن صـــدرك الزبـــدا وهَلْهِـــلْ مُشـــرِقاً غَـــرِدا

وخـــلِ "البـــومَ" ناعبـــةً تقـــيءُ الحقـــد والحســـدا

---

(170) ـ القمران: الشمس والقمر.

(171) ـ الجنف: الميل والجور. الصدد: الإعراض.

(172) ـ المنة الرفه: العطاء الواسع. البلغة الصرد: مايتبلغ به من زاد قليل.

مخنثـــة فــإن وُلــدت على "سقْط" فلن تلدا
سيُنهي "الفجر" وحشتَها ويُلحِقها بمن طَردا

وصِلْ نيٍ مُبرقٍ خَتَلاً فإن يَرَ نُهزَةً رَغَدا
يزورُك جُنحَ داجيةٍ يُزيرُ الشوقَ والكَمَدا
فإن آدتْكَ جائحة أعان عليك واطَّردا[173]
مشى بلسانهِ شَلَلٌ وران عليه فانعقدا[174]
يمزِّقُ فيك مُجْتَمِعا ويَنْشِنُ منك منفردا
فليت مشاهداً خَرِسا فداهُ مغيبِ شُهدا

وغافين ابْتَنَوا طُنُبا ثووا في ظِلِّه عَمَدا[175]
رضُوا بالعلم مرتفقا وبالآداب مُتَّسدا[176]
وجابوا عالم الفصحى ولمُّوا منه ماشَرَدا[177]
فهم إن عُمِّيَتْ سُبُلٌ يَرَوْن اللاحبَ النَّجَدا[178]
هم لايبسُطونَ يداً تميزُ الغَيَّ والرشدا

---

(173) ـ آد: أثقل. الجائحة: الشدة والنازلة العظيمة.

(174) ـ رانَ: غطى.

(175) ـ الطُّنب (بضمتين): في الأصل الحبل وكني به عن البيت. العَمَد: (بفتحتين): اسم جمع للعمود.

(176) ـ المرفق: مايتكأ عليه بالمرفق. اتسدا: مايتسد عليه.

(177) ـ جابوا: قطعوا ورجل جوّاب إذا كان قطاعاً للبلاد سياراً فيها. وجابوا عالم الفصحى: أي صاروا علماء فيه لطول مصاحبتهم إياها وعكوفهم عليها.

(178) ـ اللاحب: الواضح. النجد: المرتفع من الأرض والواضح لارتفاعها.

وهـم يَرثُـونَ مـن صلَحـوا | وهـم يخشَـونَ مـن فسَـدا
يَـرَوْنَ الحـق مهتضَمـاً | وقـولَ الحـق مضطَهـدا
وأمُّ "الضـاد" قـد هُتِكَـتْ | وربُّ "الضـاد" قـد جُلِـدا
ولايُغنَـونَ ماسـلموا | بأيـةِ طعنـةٍ نَفِـدا[179]
بهـم عَـوَزٌ إلى مَـدَدٍ | وأنـت تُريدهـم مَـدَدا؟

أزِحْ عـن صـدرِك الزَّبَـدا | ودَعْـهُ يَبُـثُّ مـاوَجَدا
وقـل: يـانفسُ لاتَـرِدي | علـى أعقـابِ مـن وَرَدا
ويـاغرراً محجلـةٌ | سـعيتُ بهـا لمـن قَعَـدا[180]
أثـرتِ غبـارَ حَلْبَتهـا | علـى صنـمٍ فمـا عُبِـدا
خُـذي مسـعاكِ واسـتبقي | مسـافَ الشـوطِ والأمَـدا
وعـاثرة إذا عَـثَرت | صواهـلُ تَنشُـدُ الجـدَدا[181]
وحسـبك ركعـةٌ عَرَضَـتْ | وكـم مـن راكـعٍ سـجدا

---
(179) ـ نَفِدَ: اخترق أي طعن.
(180) ـ الغرر المحجلة: هي قصائده.
(181) ـ الجَدَد (بفتحتين): الطريق المستوية المسلوكة.

ذكرى عبد الناصر

*تلقى الشاعر وهو في براغ دعوة من لجنة الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة جمال عبد الناصر فنظم هذه القصيدة وألقاها في الاحتفال (بالقاهرة) سنة ١٩٧١

*نشرتها جريدة "الأهرام" في عددها الخاص.

أكْبَرْتُ يومَك أن يكونَ رثاءَ ... الخالدون عهدتُهم أحياءَ

أوَ يرزقون؟ أجل، وهذا رزقُهم ... صِنوُ الخلودِ وجاهةً وعطاءَ(١٨٢)

قالوا: الحياةُ: فقلتُ دَيْنٌ يُقتضى ... والموتُ قيل فقلت: كان وفاءَ

ياأيُّها النِسرُ المحلِّقُ يتقي ... فيما يميلُ عواصفاً هوجاءَ

ينقضُّ عجلاناً فيفلِتُ صيدُهُ ... ويصيدُه إذ يُحسن الإبطاءَ

أثني عليك وماالثناء عبادة ... كم أفسد المتعبدونَ ثناءَ

دِيَةُ الرجال إساءتان: مقلِلٌ ... وأساء جنبَ مكثِّرٍ وأساءَ

---

(١٨٢) ـ صنو: قرين، مثيل هو والخلودمثلان.

لايعصِمُ المجدُ الرجالَ وإنما | كان العظيمُ المجد والأخطاءَ
لم يخلُ غابٌ لم يحاسبْ عنده | أسدٌ بما يأتي صباحَ مساءَ
تحصَى عليه العاثرات وحسبُه | مافات من وَثَباته الإحصاءَ
قد كنتَ شاخصَ أمّةٍ نسماتِها | وهجيرَها، والصبحَ والإمساءَ(١٨٣)
ألقتْ عليك غياضَها ومروجَها | واستودعتْكَ الرملَ والصحراءَ(١٨٤)
كنتَ ابنَ أرضِكَ من صميم ترابها | تُعطي الثمارَ ولم تكن عنقاءَ(١٨٥)
لتحضَن السرّاء من أطباعها | وتلُمَّ رغم طباعك الضرّاءَ(١٨٦)

قالوا: أبٌ بَرٌّ فكانت أمّةٌ | ألِفاً ووحدك كنت فيها الباءَ(١٨٧)
خَبَطَتْ كعشواء عُصوراً وانثنت | مهزومةً فأثرتَها شعواءَ
وانصعتَ في سُود الخطوب لثيمةً | تُسدي طلائعُهُ يداً بيضاءَ
وبرمتَ بالطبقاتِ يحلُب بعضُها | بعضاً كما حلَب الرعاةُ الشاءَ
ووددتَ لو لم تعترف شرّيهما | لاالأغنياءَ بها ولاالفقراء(١٨٨)
وجهدتَ أن تُمضي قضاءَك فيهما | لتُشيد مجتمعاً يفيضُ هناءَ
أسفاً عليك، فلا الفقير كفيتَه | بؤساً، ولاطُلتَ الغني كفاءَ
قد كان حولَك ألفُ جارٍ يبتغي | هدماً ووحدك من يُريد بناءَ

---

(١٨٣) ـ شاخص الأمة: نصبها ورمزها العالي.
(١٨٤) ـ غياض: جمع غيضة وهي ماء يجتمع فينبت فيه الشجر.
(١٨٥) ـ العنقاء: طائر خرافي معروف الإسم مجهول الجسم.
(١٨٦) ـ أطباعها: أطباع الأرض.
(١٨٧) ـ أي أنت كالباء للألف في كلمة "أب"
(١٨٨) ـ تعترف: تعرف.

لَلّـــهِ صــدرُك ماأشـــدَّ ضُلوعَـــه في شــــدّةٍ وأرقَهـــــن رُخـــاء

تلـج السياســةَ في تنــاقض حالهـــا فتُطــابقُ العزمــــاتِ والآراءْ(189)

كــرّاً وإحجامـــاً ورقَـــةً جــانب وصلابـــةً وسلاســـةً ودهـــاءً

ورأيــتَ في "أســوان" قــدرة ســاحر يســـعى ليوســـع ميتـــاً أحيـــاءً

وبعثتَـــه حيـــاً ونُسْـــتَ مشـــكِكاً وصَفَعْـــتَ همَـــازاً بـــه مشّــاءً(190)

وقَمــرتَ شــرّ مقــامرٍ وكســبته وســلبته أوراقـــه الســـوداءَ(191)

وَرَدَدْتَ كيـــدَ مكـــايدٍ في نحـــره واصطدتـــه بشـــباكِهِ إغـــراءً

ولففــتَ رأسَ الأفْعُــوانِ بذيلـــه وقطَعْتَـــهُ وخطبتَهـــا بَـــتْراءْ(192)

وصنعتَ معجــزة "القنـاة" ورُعتَهـم وســقيتَهمْ حمَــمَ الجحيــم المــاءَ

وعصرتَ طاقـاتِ الجمـوعِ ورُزْتَهـا فوجدتَهـــا ولاّدةً عُشَـــراءْ(193)

وجَسَسْـتَ أوتـار النفـوس فوقّعـت لـكَ طُوّعـاً أنغامَهـــا الســمراءْ(194)

ألقـتْ إليـك قُلوبَهـا وعُروقهـــا سمحـــاءَ ماشـــاء النـــدى معطـــاءً

فإذا نَطَقْتَ ملكـتَ مهجـةَ ســامعٍ وخشـــوعها والســمع والإصغـــاءَ

وإذا سـكتَّ أشـاع صمتُـك رهبـةً حتــى يُخــالَ كتيبــةٌ خرســاءَ(195)

يــامصرُ يـاحُلْم المشـــارق كلّهـــا مُـــذ عـــانت الأحــــلام والأهـــواءَ

---

(189) ـ تطابق: تساوي.
(190) ـ هماز مشاء: نمام.
(191) ـ قمرت: غلبت.
(192) ـ وخطبتها بتراء: شديدة.
(193) ـ العشراء: الحامل لعشرة أشهر أي مكتملة الحمل منتظرة النتاج، كناية عن النضج.
(194) ـ طوع: جمع طائع.
(195) ـ الكتيبة الخرساء: الكتيبة: الجيش، الخرساء: الداهية.

يابنتَ "نيلكَ" من عذوبة جرسِهِ نغماتُ جرِّ رقَّةً وصفاءُ

وربيبةَ "الهرمين" شامخاً إذ هما يتبنّيانِكِ صبوةً وفَتاءُ

تلْقِينَ في السراء سحرَكِ كلَّه وتموعين بصبرك الضرَّاءَ

وتمونين الدهر سبعاً خصيبةً يُكفى بها سبعاً له جدباءَ

مشت القرونُ، وخلَّفت أسحارها ترمي عليك الطلَّ والأنداءَ

والصبحُ يصبغُ وجنةً مشبوبةً والليلُ يكحُل مقلةً وطفاء(١٩٦)

والشمس تلفحُ سُمرةً عربيةً والنجم يُرقِص قامةً هيفاءَ

ودَرَجتِ في حقْلِ "الحضارة" غضّةً وبدأتِه تفّاحةً خضراءَ

يامصرُ أحرفُك الثلاثةُ كنَّ لي لولا الغلوُ الوجدَ والإغماءَ

عشرين عاماً لم أزرْكِ وساعةً منهنَّ كانت منيةً ورجاءَ

لِمْ؟ لستُ أدري غير أنَّ قصائداً عشرين لم تشفعْ لديكِ لقاءَ

وظللتُ أحسُدُ زائريك وخِلْتني رتعاءَ تحسُدُ أختها العجفاء(١٩٧)

في كلِ حدْبٍ ينسلون ولم أكنْ ـ وهواكِ ـ فيهم نسلةً نكراءَ

وَهَبي ثقيلَ الظل كنتُ فلم أُطقْ فما أطقْتِ ـ فديتكِ ـ الثقلاءَ

يامصرُ لي وطنٌ أجلُ عطاءَه ويُحِبُّ فيَّ سماحةً وعطاءَ

يغشى الدُّروبَ عليَّ حتى إنني لأكاد أفقِدُ في الزحام رداءَ

وبمصرَ لي وطنٌ أطار بجوِّهِ مالا أطار بغيره أجواءَ

أجِدُ العوالمَ كلَّها في سَفْحه سبحانَ خالقِ كونِهِ أجزاءَ

---

(١٩٦) ـ المقلة الوطفاء: طويلة الهدب.

(١٩٧) ـ الرتعاء: الشبعانة السمينة. العجفاء: الجائعة المهزولة.

ياسِدرةً في المنتهى لم تعترف إلا الظلالَ الخضر والأفياءَ[198]

عاطي ظلالَك "ناصراً" فلطالما عاطى الجموع ظلالَه وأفاءَ

وعليكَ يافخر الكفاح تحيَةٌ في مثل روحك طيبةً ونقاءَ

إن تقضِ في سُوح الجهاد فبعدَما سعَّرْت فيها الرمل والرمضاءَ

ولقد حملتَ من الأمانةِ ثِقْلَها لم تلْقِها بَرَماً ولا إعياءَ

نمْ آمناً، ستُعِدُ روحُك حرَّةً وسْط الكفاحِ رفاقَك الأمناءَ

(198) ـ تعترف: تعرف.

الثمانينات

ماذا أغنّي؟

أرسلها الجواهري الكبير إلى صديقه السيد جلال الطالباني رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني في ١٠/١٢/١٩٨٠ جواباً على رسالته التي يستثيره فيها على أن "يغني" من جديد بعد صمت غير قصير. وهذه القطعة لم تحوِها الطبعات السابقة من دواوينه. وقد نشرت لأول مرة في كتاب الجواهري في العيون من أشعاره.

شوقاً "جلال" كشوق العين للوسن ... كشوق ناء غريب الدار للوطن

شوقاً إليك وأنت النور من بصري ... وأنت مني محل الروح في البدن

وأنت من قلة يسخو الزمان بها ... تستلُّ من كثرة عبء على الزمن

شوقاً إليك وإن ألوَتْ بنا مِحَنٌ ... لم تدرِ أنا كفاء الضُّرِّ والمحن

لم تدر أن فراق الصامدينَ لهما ... هو اللقاءُ على نهج من السنن

مستوثَقٍ ينتهي سَعيُ الحجيج به ... حيثُ ابتدت صَيْحةُ الغادين بالوثن

يا ابن الذُرى من عُقابٍ غيرِ مُصعدةٍ ... شُمّ النسور به إلا على وهن

يَرقى السماواتِ عملاقاً، وتحضنُه ... غُرُّ النجوم، ويلقاها بمحتضن

حتى إذا هزّ عطفيهِ، وعاودهُ ... رعيُ السفوح بمنجاةٍ من الفتن

تلقفتهُ ينابيعٌ، وأوديةٌ ... خضرٌ تجلبهنّ مَوشياً من اليمن

من لطفها وتساميه مشى بشر ... فيها بأحسن من خلقيهما الحسن

من كل أبيض صهّال بها حرد ... آب عَضاض لجامٍ منه أو رسن

صعب الشكيمة مرداةٌ مقحَمة ... مستبسل، مستراب المتطى حزن

طابت ألوكتك الغراء تنفحني ... بعطر عهد كريعان الشباب جني

وذكريات كأنّ البعد يصبغها ... بكل مفتتنٍ فيها لمُفتَتَن

حسبي غناءٌ بما فجّرت من ألمٍ ... مبرّح في حنايا الصدر مُختزن

وحسبُ شعري فخراً أن يحوز على ... راوٍ كمثلك ندب، مُلهَم فَطِنْ

عفُّ النقيبة، حيث العَفُّ نادرة ... وطاهر النفس لم تطرق على درن

يا صفوةَ الصفو من صحبي وأقربهم ... مني، وأصدقهم في السر والعلن

ناشدتني ولبَعضِ النشد معتبةٌ ... وربَّ مَعتبة من سيء الظِنن

أن لا أزمَ - كما عُودتُ - من شفةٍ ... لم تلف مزمومة يوماً، ولم تكن

وأن أغنِي، وأن أحدو - تريدُهما ... للثائر الحرِ لا للطير في الفنن

صفحاً جلالٍ، فقد أفرزت هاجعة ... من الرؤى، وأطرت النوم عن شجني

فوالدي صاغ تمثالاً لصورته ... من الضمائر لم تُجحدْ ولم تبن

إني -كعهدك- تلك النار تعرفها
وذلك الصُلب، لم تخمُدْ، ولم يكن

لم تُلف من مصطلٍ شهمٍ يؤججُها
أومحرب بمدوي وقعة قمن

فما التغني؟ ولاموحٍ، ولاسمر
ولاسميع وكلٌ لفٌ في كفن

ماذا أغني، وبي جمرٌ على شفتي
ومن أُغنِّي؟ ومامن معشر أذن

لم يبق في "الحيّ" من يحمي ظعينتهُ
ولا على الدار من يرمي عن السكن

لايُصرخ الجارَ منهم عرضُ جارته
ولايُغنّي طليقاً موت مرتهن

أم أنت تقرُن من أمس وعزّته
وذلّةِ اليوم، أمر غير مقترن

شتّان أيّامَ تبكي روضةٌ أنَفاً
ويوم تُدعى لكي تبكي على دمن

من ذا أغنّي أشتاتاً موزّعةً
على التمزّق والثارات، والإحن

أم صابرين على ضيم ومسكنة
صبر الحمار على مرأى من الأُتن

أم "الطلائع" مزعومين شفّهمُ
وجدُ التجار بسوق الربح والغَبن

أم "الربيط" كعير الحيِّ في وتدٍ
من المهانة لايرضى لمتهن

ماكان أبعدَ يوميه.. على طنفٍ
من "الإمارة" مِلء العين والأذن

لايرفع الطرْفَ تيهاً في مخاطبةٍ
ولايَنمُ بوجهٍ غير مُحتقن

ويوم لاخبرٌ عنه سوى نتفٍ
من التناثر في جِلدٍ وفي ظعن

داري فحكّمَ فاستوصى على همل
مضيّعين ضياع الماء في اللبن

مُستوزرين، وملومين عن شعثٍ
مثل الجحاش وملزوزين في قرن

وسلّطَ المُهركي يحمي مقاتلةً
ويقذفُ الطهر في مستوبئٍ عفن

حتى إذا عصف الدولابُ، وارتطمت
هو العواصف بالسقّار والسفن

مالنت "فحولةُ" أيامِ الرخاء به ... واليوم يدفعُ عنه العارَ بالعَنن

وقلتَ لي أنَّ "ناساً" شفهم نغمي ... به بمنون في السرّاء والحزن

فهل تراني "مزماراً" يُثار به ... لهو الخلائف من أعقاب "ذي يزن"

تباً لهم، أفلا ثاروا ليطربهم ... شدو الرصاص ولحن الصارم اللدن

فمن يَطُح منهُم في غير معترك ... فلا سقت قبره صبّابةُ المزن

ومنِ يَعِشْ ليناغي سمعه نغمٌ ... فليُصغِ سمعاً الى مستنقعٍ نتن

نقُّ "الضفادع" يغنيه ويؤنسه ... وانه عن هُتاف الثائرين غني

إيه "جلال" وماعُودي بمحتطبٍ ... ولست من نفرٍ مخضوضرٍ مرن

فإن يُسئك مقال غير مُدّهن ... فعذره أنه من غير مُدّهن

ماأسخف الناس مسبوكين من ذهبٍ ... ومُوحِلين، ومنغوشين من عهن

وضائعين أباديدا كصارحة ... لم تغن من أمرها شيئاً ولم تُعن

خامرتْهمْ غير مامستنغل بهم ... لكن كمن خين في عهدٍ ولم يخن

وكنت "وعداً" لهم في كل مرتقبٍ ... ماحان منه، ومااستأنى فلم يَحِن

فما مشت بهمُ الأيامُ، وانتبذوا ... بالمركب السهل ظهر المركب الخشن

إلاّ وقد أدبروا عن أي مؤتمنٍ ... واستقبلوا أيّ غدّار بهم أفِن

وغادروني بموهاةٍ مصوّحةٍ ... وعنده غرف الجنّات من عدن

حتى كأني -وأشبالي- بعبدهم ... عُفْرُ الأضاحي من المنحورة البُدُن

وكنت منهم كمصلوب على "وثنٍ" ... صحا على ربه يوما فلم يدن

ياصاحبي – ويموت الزمنون غداً ... وخالدٌ صِدقُ قول ناطقٍ زَمِن

لئن ندمتُ على مافات من زمنِ فلست آيسُ إن يمتدّ بي زمني
كيما أروحَ أُصالي كل ذي دَخلِ من أمرهم، وأعري كل ذي دَخَنِ
وكي أنشّر من عوراتهم مِزَقاً مشهرات على الأرياف والمُدنِ
انّ سيدرون معنى "الزّمَ" من شفةٍ لم تُعطَ يوماً، ولن تعطي لذي لَسَن
فلن أغني بأعراسٍ مُهلهَلةٍ ولن أنوح على موتي بلاثمن
ولن أطوح نشواناً بليلتهم حُبلى بمُفتَعل الثوراتِ والفتَن
ولن أطار بمرجويين في غدهم من البدائل في الأصباغ والسِحَن

"جلال" صُنتُ عهوداً بيننا وثقت فما توثقتَ من عهدٍ بها فصُن
لاتبغني بوق "حرب" غير طاحنةٍ بها تزيّا كذوب زيَ مُطحَن
ولا تردني لحال لست صاحبها وماتردني لحال غيرها أكن
شوقاً "جلال" كشوق العين للوسن كشوق ناءٍ غريب الدار للوطن

ياابن الثمانين

*نشرت في جريدة "الشرق الأوسط" ١٩٨٢/٢/١٩

حسب "الثمانين" من فخر، ومن غِشيانُها بجَنانٍ يافعٍ، خضِلِ

طلقٍ كما انبلج الأصباح عن سَحَر نَدٍ، وزهرُ الربى عن عارض هَطِلِ

وناعِمِ البال، نشوانٍ بما نَضِجت كأسُ الحياةِ، ومأبقتْ من الوَشَلِ

وحاضنٍ لبنات الدهر، مضْطلِعٍ بما تصرّف من بُرءٍ ومن عِلَلِ

"ياللثمانين" ماملّت مطاوحَها لكي يُعاودها خوف من المَلَلِ

لم تَألُ تنهلُ عَبَا من مرارتها وتستجمُّ على معسولة عَلَلِ

نفسٌ تجيشُ بإعصار، وخافقةٌ تحن للكأس، والأسمار، والغَزَلِ

كأن صحوَ الرُّؤى في كل نازلة يشدّني بطيوفِ الشارب الثمِلِ

وأنت ياابن "الثمانين" استرحتَ بها كما تظنّنتَ من لومٍ، ومِنْ عَذَلِ

جاءت تحييك في أعيادها قِذَعٌ ... نكراءُ، لقنها الساداتُ للخَوَل

وقتْكَ نُذراً لها عما وفيتَ به ... من الفنور لَدُن أيامِكَ الأُوَل

ياابن "الثمانين" صبراً أنت صاحبُه ... فيما تضيقُ به أضلاعُ مُحتمِل

لاتأس إنْ عضّت البلوى بناجذة ... ماإنّ بها من عُضاضِ الناس من كلل

فلست باغي مَثوباتٍ وماخُلِقتْ ... كفُّ الكريم لتستعدي على بدل

وقد تَمَرّسْتَ بالدنيا تُمحِصُها ... في كل مُستدبَرٍ منها ومُقْتَبَلِ

وقد تشككتَ حتى لستَ ذا ثقةٍ ... بالنُّجْح إلا على هَذْي من الفَشَل

صبراً على فلذات الحر داميةٍ ... تُهْدى عل كفِ "حشّاش" إلى "ثَمِل"

وكن كعهدك "سحّاراً" بمعجزةٍ ... تحول الصّابَ مسموماً إلى عَسَل

يَشفي ضَميرَك مايُدْرِيكَ من حَزَنٍ ... ويَسحقُ اليأسَ ماتجترُّ من أمل

يا"ابن الثمانين" كم عُولجت عن ... بالمُغريات فلم تُشْرَقْ، ولم تمِل

كم هزَّ دَوحَك من "قَزَمٍ" يُطاولُه ... فلم ينلْهُ، ولم تقصر، ولم يَطُل

وكم سمعت "إمّعاتٌ" أن يكون لها ... ماثار حَولك من لغو، ومن جَدل

ثبتْ جَنانك للبلوى فقد نُصبَتْ ... لك الكمائنُ من غدرٍ، ومن خَتَل

وَدَعْ ضميرَكَ يَحذرْ من براءته ... ففي البراءاتِ مَدعاةٌ إلى الزلل

لئن تخلّصت من أنياب مهلكة ... فكم تلوّيت في أشراكِ مُحتبِل

لاتنسَ أنكَ من أشلاء مُجتمع ... يَدينُ بالحقدِ، والثارات، والدَّجَل

يستنفرُ اليوم عن "أمس" إلى "غدِهِ" ... على "المذاهب" ، والأنساب

حربٍ على كل "موهوبٍ" وموهبة ... لديه مُسرَجة الأضواء والشُعَل

لو استطاع لغطّى الشمسَ عن حَنَق ... وَسَامَ رأدَ الضحى ذلاً من الطَّفَل
طبائعٌ، عَنجَهيّاتٌ يغلّفها ... من الحضارة مصبوغٌ من الحلَل
وموكبٌ موحش الأرجاء مُصحِرُها ... يمشي "الحفُاةُ" به في ظِل مُنتعِل
كنتَ الغريب به لاأنت تألفه ... فتستريحَ، ولاعَنْه بمنعَزل
ومازال على رثِ الحبال به ... تلقى الحياة بحبلِ منه مُتّصل
لم تُبقِ في الصُلب من أعرافه "وثناً" ... إلا وعَرّيت، من "غوثٍ" ومن "هُبَل"
فكيف تطمع أن تُعفيك ثاكلةٌ ... وأنت النذير لها بالويل والثكَل
عصرتهم فتحمّل وضرة الثقل ... ودُستهم فتوقع غضبة الخَوَل

نبِّئت "شيرنمةُ الأذناب" تنهشني ... بمشهد من "رُمَاةِ الحي" من "ثُعَل"
ياللحفيظَةِ لم تظفَرْ بذي شَممٍ ... وللشهامة ملقاةٌ على طلل
أيستثير دمي "وغْدٌ" و"صاحبُه" ... بما يثير رمال السَهْل، والجبل
ولايندُّ فمٌ لابَعْده خَرَسٌ ... ولاتُمدُّ يد لاتشْفَ من شلل
لمن إذن خِلَقٌ مزعومة خُلقت ... للسريّ؟ أم الأستار وَالكُلَل؟
قد كان شوطُ رجولاتٍ مشرفةٍ ... لو كان تحت سِبال القَوم مِنْ رجُل
وكان للنُبلِ ميدانٌ يُصال به ... فلم يجُلْ مُدّعٍ منهم ولم يَصُل

مَنْ مُبْلغٌ القوم لم تَعرف دماؤهُمْ ... طعم "المَهاداةِ" عند الحادثِ الجلل
الخانعين بمنجاةٍ تسومُهمُ ... جدعُ الأنوف، وذلّ العاجزِ الوكِل
والمسلمين أخاهم في بليّتهم ... والهاربين من العدوى على عجل

والفـاكثين بعهـدِ الحـرْفِ منتفضـا ... على الضغائن، والبهتـان، والدجـل
والمبصريـن فـإن عنَّـتْ مُجَلِّحَـةٌ ... ففي العيون غِشاوات من "السُّبل"
إن الحيـاة معانـاة وتضحيـة ... حب السلامة فيها أرذل السبل
وللبطولات جـولات، وكم شـهدت ... سوح الوغى لحماة "الحرف" من بطل
وثَـمَ مـن لعْنةِ الأجيـال جازيـةٌ ... تقتص من قولـةِ حـق ولم تُقَـل
ومستَفز لخـوّانٍ بمـن حفظـوا ... عهد "المروءات" في حلٍ ومرتحَـل
ويلَ "الكذوبين" من يوم يُسَلُّ بـه ... مخضوضرُ القول من مستوبئِ العمل
ماأقرب الشوطَ من "مرذولةٍ" سَفِلٍ ... و"ساكتين" على "مرذولةٍ" سفَل

أقول "للخِدن" ماحـالت مَودَتُـه ... فطـنٌ أن عهـود النـاس لم تَحُـلِ
سلني أُجبْكَ بما يعيا "الجواب" به ... وإن ينـل منـك إشـفاقٌ فلاتَسَـلِ
فقد تقرحتُ حتى العظمِ من شجن ... دامي الشَكاةِ بلوحِ الصـدر معتمِـل
أُجبْكَ عن نُصُبٍ أعـلامِ "مقلمَـة" ... قُفْـلِ شـتاتٍ إذا كشَّـفتهم هُمُـل
و"للتماثيلُ" يُستوحى بهـا "مُثُـلُ" ... خيرٌ من البشر لاخالين من "مُثُل"
"خُرْسٍ" وإن خَرقوا الأسماع في هَذَر ... يُغْشَى النفوسَ، وفي مرصوفة "الجمَل"
وعن "كروشٍ" "زعاماتٍ" كأنَّ بها ... من فُرطِ ماأعتلفتْ مَسَّاً من الحبَل
الضاحكين "بنصف السن" كاشرةٌ ... وينطِف "النصفُ" مطوياً على "كَحَل"
يستأسدون إذا مُـدَّ العنـانُ لهـم ... فإن يُشَدُّ ترنَّوا بـِرِزَّة "الحَمَـل"
"ستين عاماً" أساقيهمْ مشعشعَةً ... من خالص الودِ، والأشواق، والقُبَل
ماساءهم قَرحةٌ تُشوى بها كبدي ... ومايسرّهم كحل على المُقَـل

حتى إذا مسني ضُرٌّ، وأسلمني ... غدر "الجبان" لجرح غير مندمل

وكنت أن ألتقي "وغداً" يجشمني ... "عار النزال" بلا حَول ولاقِبَل

مروا "لئاماً" على الظامي وغلته ... وعندهم كلٌ مايَشفي من الغلل

وغادروه "بمُوماةٍ" كأنهم ... ليسوا ذوي ناقةٍ منه ولاجَمَل

يا"صاحبي" وحتوفُ القوم طَوْع يدي ... وكم أتتهم "رياح الموت" من قِبَلي

أجلْ يراعَك في آجالهم مِزقاً ... فليس عندك بعد اليوم من أجل

واضرب بهم أسوأ "الأمثال" سائرةً ... حتى تثلِمَ فيهم مضربَ المَثَل!

أأبا مهند

أهدى الجواهري قصيدته "أأبا مهند" إلى الدكتور صابر فلحوط نقيب الصحفيين في القطر السوري ومدير الوكالة العربية السورية للأنباء (سانا) جواباً على قصيدة أرسلها فلحوط إلى الجواهري في براغ بتاريخ ١٩٨٣/٧/٥ وقد نشرتها مجلة "المجلة" التي تصدر في لندن في ٢٢ كانون الثاني "يناير" ١٩٨٥

أأبا مُهَنَّدَ والجِراحُ فَمُ ... وَعَلَى الشِفَاهِ مِنَ الجِراحِ دَمُ

وَعلى الشِفاهِ تَمُورُ طَاغِيَةٌ ... حُرَقٌ تُصَعَّدُ ثُمَّ تَنْهَزِمُ

أأبا مُهَنَّدَ يَاأَخَا خَلَصَتْ ... مِنْهُ الطِبَاعُ وَطَابَتِ الشِّيَمُ

تُغْلِي الفَصَاحَةَ مِنْ صَبَاحَتِهِ ... وَيَزِينُ رِقَّةَ لَطْفِهِ الشَمَمُ

أشْكُو إِلَيْكَ وإِنْ زَوَى أَلَمِي ... غَضَبٌ تَقَاصَرَ دُونَهُ الأَلَمُ

أرْضاً تَنَاسَخَتِ الشُرُورَ بِها ... وَتَهَاوَتِ الأَقْدَارُ والقِيَمُ

غَطَّتْ عَلَى رَأسٍ بِهِ قَدَمٌ ... وَتَسَاوتِ الأَسْفَالُ والقِيَمُ

يَاصَـائِغَ البِـدَعِ الحِسَـانِ بِهـا ... يَتَجَـاوَبُ الإحْسَـاسُ والنَغَـمُ
بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ فِي الهَـوَى صِلَـةٌ ... مَـا إنْ يَجِـيءُ بِهَـا رَحِـمُ
حِجَـجٌ تَخُـبُّ بِنَـا وَنَحْـنُ فَـمٌ ... لِفَـمٍ بِحَبْـلِ الصَّبْـرِ نَعْتَصِـمُ
نَتَقَاسَـمُ الآهَـاتِ يَجْمَعُنَـا ... فِـي النَّائِبَـاتِ الهَـمُّ والْهِمَـمُ
نَشْـدُو فَيَنْسَـجِمُ الهَـوَى شَـرَقاً ... بِـالحُبِّ والنَّجْـوَى وَنَنْسَـجِمُ
وَتُضِـيءُ شَـمْعَتُنَا فَيُطْفِئُهـا ... مُغْـبَرُّ دَرْبٍ كُلُّـهُ ظُلَـمُ
أَأَبَـا مُهَنَّـدَ والجِـرَاحُ فَـمٌ ... وَفَمِـي بِـهِ مِـنْ جُرْحِـهِ وَرَمُ
مَـاذَا سَـيَبْقَى لامْـرِئٍ حُجِبَـتْ ... عَنْـهُ الـرُّؤَى ــ والـرَّأْيُ ــ والكَلِمُ
أَأَبَـا مُهَنَّـدَ رُبَّ عَافِيَـةٍ ... خَرْسَـاءَ يُحْمَـدُ عِنْدَهَـا السَّـقَمُ
لا أَظْلِـمُ التِّسْـعِينَ يَعْوِزُهَـا ... سِـتٌّ وَيُطْبِـقُ بَعْدَهَـا العَـدَمُ
فَلَطَالَمَـا شُـدَّتْ نَوَابِضُهـا ... بِـالأَرْبَعِينَ وَكُلُّهَـا ضَـرَمُ
لَكِـنْ بِمَـا اخْمَـدْتَ جَمْرَتَهَـا ... فِيمَـا يَشِـيعُ اليَـأْسُ والسَّـأَمُ
دَاءَانِ إِمَّـا اسْـتَحْكَمَا صَنَعَـا ... بِـالنَّفْسِ مَـا لا يَصْنَـعُ الهَـرَمُ
بَـلْ لَـوْ كَفَـرْتُ لَهَزَّنِـي نَدَمِـي ... لَـوْ جَـازَ عَـنْ خَـيْرٍ مَضَـى نَـدَمُ
أَأَبَـا مُهَنَّـد مَسَّـنِي بَـرَمٌ ... وَرَدِيـفُ كُـلِّ فَجِيعَـةٍ بَـرَمُ
عِنْـدِي لَوَاعِـجُ تَسْـتَفِزُّ دَمِـي ... وَتَحُـزُّ مِـنْ جِلْـدِي وَتَقْتَحِـمُ
أَبَـداً تُعَـاوِدُنِي وَسَاوِسُـهَا ... وَيَـرُجُّ فِيهَـا اليَقْظَـةَ الحُلُـمُ
حَتَّـى إذَا حَـاوَلْتُ أَلْفِظُهَـا ... عَـاصَى بِهَـا القِرْطَـاسُ والقَلَـمُ
وَتَيَبَّسَـتْ والشَّـجْوُ يَخْنُقُـنِي ... كَالسَّـيْفِ يَـوْمَ الـرَّوْعِ يَنْثَلِـمُ
مَـا نَحْنُ مَادُنْيَـا مُصَعَّـدَةٌ ... غُـرُّ النُّجُـومِ لأَرْضِهَـا خَـدَمُ

مَاالنَّـاسُ. مَاالإنسـانُ. مَـاكتَلٌ   مَرْفُوضَـةٌ. مَـاهَذِهِ النُظُـمُ

مَاحُرْمَـةُ القَـانُونُ دَنَّسَـهَا   مَـنْ سَـنَّهُ مَـاالْحِلُّ. مَـاالْحَرَمُ

أبـلادُ مِلْـحٍ تَحْـت رَمْلَتِهَـا   بَحْـرٌ مِـنَ الإبْرِيـزِ يَلْتَطِـمُ

وَعَلَـى الـثَّرَى الْنَّهَـار أعْمِـدَةٌ   سَـبْعٌ وَهُـنَ لِعِـبْرَةٍ حكَـمُ

يُغْـرِي بِهَـا السُّـلْطَانُ واعِظَـهُ   إنَ الحُظُـوظَ عَلَـى الـوَرَى قِسَـمُ

قِسَـمٌ عَلَـى خِـرَق بِمـا غَنِمُـوا   وَعَلَـى عَبَـاقِرَةٍ بِمَـاحُرِمُوا

أفَأُمَّـةٍ هَـذِي الـتي هَزُلَـتْ   وَتَنَـاثَرَتْ فَكَأنَهَـا أُمَـمُ

يَسْـطُو عَلَـى صَنَـمٍ بِهَـا صَنَـمٌ   وَيَغَـارُ مَـنْ عَلَـمٍ بِهَـا عَلَـمُ

وَيُسَـاوِمُونَ عَلَـى شُـعُوبِهِمُ   أعْـدَى الخُصُـوم كَـأنَهُمْ حكَـمُ

أمُشَـرَدُونَ وَأرْضُهُـمْ ذَهَـبٌ   ومُجَوَعُـونَ وَنَبْتُهَـا عَمِـمُ

أفَـألْف مِلْيُـون وَقِبْلَتُهُـمْ   بِيَـدِ اليَهُـودِ الصُفْـرِ تُقْتَسَـمُ

خَـوَتِ النُفُـوسُ فَمَـا بِهَـا نَفَـسٌ   وَعَفَـا الجـوَاءُ فمـا بِـهِ نَسَـمُ

وَمَشَـى يَلُـفُ النَـافِحينَ بِهَـا   أحْضَـانُهُمْ وَرُؤُوسُـهُمْ رِمَـمُ

عَـنْ كُـلِ مَـايُقْذِي العُيُـونَ عَمَـى   وَعَـنِ الَـذِي يَلِـدُ الصـدَى صَمَـمُ

وَغَفَـا الشَـبَابُ فَمَـا لَـهُ أرَبٌ   فِـي "سَدِ مَـارِبَ" سَـيْلُهُ العَـرِمُ

أأبَـا مُهَنَـد شَـرُ مَـنْ حَكَمُـوا   مَاكَـانَ لَـولا ذُلُ مَـنْ حُكِمُـوا

مَـاذَا عَلَـى الرَاعِـي إذَا اغْتُصِبَـتْ   عَـنْزٌ وَلَـمْ تَتَمَـرَدِ الغَنَـمُ

يَاأيُهـا "الطَـاعُونُ" حُـلَّ بِنَـا   وَبِمِثْـلِ وَجْهِـكَ تُكْشَفُ الغُمَمُ

أأخي أبا سعد...

*مهداة إلى الدكتور صلاح خالص. نظمها الشاعر في براغ ١٩٨٤/١٢/٣٠

*تنشر لأول مرة في كتاب الجواهري في العيون من أشعاره ١٩٨٦.

أأخي "أبا سعد" ومن قبل — أهدي سـتقبس جمرتي قبسا
يا صفو إخوان الصفاء إذا — ما جفّ نبع مروءة وجسا
شوقاً إليك يشدّ نابضه — حبٌ ترعرع بيننا ورسا
والذكريات ترف ناعمة — رف النسيم بحسرة همسا.

أصلاح لم تبرح صفيّ هوى — صدق إذا ما الكاذب انتكسا
ما انفك يومك مثل أمسك عن غد — كلفا بحب الخير منغمسا

تشـــتّتْ ضـــوء الفجـــر ترقبـــه ... وتمـــيز خيطيـــه إذا التبســـا

عـــوت "الذئـــاب" علـــي نـــاهزة ... فرصـــا تثـــير الذئـــب مفترســـا

ينهشـــن مـــن لحمـــي وكـــل دم ... فيـــه لخـــير النـــاس قـــد حُبسـا

مـــن كـــل داج لايحـــب ســـني ... للصبـــح يطمـــس ليلـــه التعسـا

ودفعـــت جمـــع يـــد ومـــلء فـــم ... ومداهـــن أصغـــى فمـــا نبســـا

"أصـــلاح" إنـــي والـــذي قـــدرت ... يـــده النفـــوس وقـــدر النفســـا

لأكـــفّ نفســـي وهـــي جامحـــة ... عـــن أن تـــروح لغيظهـــا فرســـا

وأصونهـــا ماســـطعت عـــن شـــرس ... وإن ابتليـــت الحـــاقد الشرســـا

"أصـــلاح" أنّـــا رهـــن مجتمـــع ... يخشـــى اللصـــوص فينبـــح العسســـا

خلســـاً يســـر الصـــالحين بـــه ... والطـــالحون يســـوءهم خلســـا

يزهـــى بفارســـه إذا افترســـا ... وبضـــوء نجـــم ســـاطع طمســـا

ونتـــاج زرع لايـــداس بـــه ... إلا علـــى الزهـــر الـــذي غرســـا

"أصـــلاح" لاجزعـــا كمـــن يئســـا ... لكـــن تفكّـــرُ مُلهـــم حدســـا

فـــالموت يـــدرك كـــل ذي رمـــق ... كـــالنوم يـــدرك كـــل مـــن نعســـا

والمـــرء مرتطـــم بحفرتـــه ... مـــن قبـــل أن يهـــوى فيرتكســـا

مـــاأوحش الدنيـــا تفرقنـــا ... وكأننـــا مـــن هـــاجس هجســـا

يبـــتز حاضرنـــا وقابلنـــا ... شـــفق يجـــر وراءه غلســـا

والعمـــر كـــنز يســـتفض بـــه ... فـــإذا بـــه يومـــا قـــد اختلســـا

فضفاض ثوب تحته رصد ... بالمرء ينزع عنه مالبسا

جَهِمٌ يقيم على مدارجنا ... وعلى صدى أنفاسنا حرسا

تعيا أزاهير الربا نطفت ... بعبير بسمتها إذا عبسا

"أصلاح" "ماجدوى مني" أنفِ ... عد السنين يردها يبسا

درجت "ثمانون وأربعة" ... وتحجّر النبع الذي انبجسا

ورميت بالقرطاس يثقلني ... وكفرت بالقلم الذي انغمسا

وصحوت عن نفس مضت عبثا ... تغري بـ"ليت" و"ربما" و"عسى"

وصحت فلا بالطهر يبطرها ... عجبا ولاهي تجحد الدنسا

"أصلاح" ظل كأنت ذا ثقة ... بالنفس يقظاناً، ومحترسا

سلمت عبرة خائف كنسا ... وشجى بحلق مفوه خرسا

من العيون!

ويسرني في الختام أن أخص بالشكر الجزيل والامتنان العميق أخي وصديقي الأديب والمؤلف "الدكتور عبد الحسين شعبان" على أتعابه وفرط عنايته وجهوده الحميدة سواء بما تقابل به معي في اختيار هذه "العيون" وفيما يختص بضم هذه اللقطة المختارة إلى جانب تلك أو في تصويرها، أو في الإشراف على طبعها وتصحيحها وكما قيل.

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

الجواهري

من كتاب "في العيون من أشعاره"

١٩٨٦



أخي العزيز عبد الحسين شعبان

أبا "ياسر" أنت نعمَ الصحيب   وقلّ الصحّابُ ونعمَ الخدين

لقد كنت في محضرٍ والمغيب   ذاك الوفي وذاك الأمين

وفي ذكرياتي كنت الصميم   سمير المعنى وسلوى الحزين

محمد مهدي الجواهري

براغ 2\7\1990

أخي العزيز عبد الحسين شعبان

أبا ياسر أنت نعم الصحب

- ذو الصحابة ونعم الخلان

لقد كنت في معشر واللعب

ذاك الوفي وذلك الأمين

وفي ذكرياتي كنت النسيم

مسير المعنّى وسلوى الحزين

المخلص

محمد مهدي الجواهري

براغ ٢ - ٧ - ١٩٩٠

المحتويات

صدر للمؤلف

النزاع العراقي ـ الايراني . بيروت. ١٩٨١.

الصراع الايديولوجي في العلاقات الدولية . اللاذقية. ١٩٨٥.

الصهيونية المعاصرة والقانون الدولي (طبعتان). دمشق ١٩٨٥.

قرطاجة يجب أن تدمّر. دمشق. ١٩٨٥

مذكرات صهيوني: ترجمة وتقديم . نيقوسيا. ١٩٨٦.

سيناريو محكمة القدس الدولية العليا. نيقوسيا. ١٩٨٧.

امريكا والاسلام. نيقوسيا ـ دمشق ١٩٨٧.

الانتفاضة الفلسطينية وحقوق الانسان. دمشق . ١٩٩١.

المحاكمة ـ المشهد المحذوف من دراما الخليج. لندن. ١٩٩٢.

عاصفة على بلاد الشمس. بيروت. ١٩٩٤.

بانوراما حرب الخليج. دمشق ـ لندن ١٩٩٤.

بعيداً عن أعين الرقيب. بيروت ١٩٩٥.

A. HUSSAIN SHABAN

AL JAWAHIRI

A DIALECTIC PEOTRY AND LIFE

DAR AL-KÚNOUZ AL-ADABIYA

BEIRUT 1997



المؤلف في سطور

* ولد في مدينة النجف الاشرف في ٢١ آذار (مارس) ١٩٤٥

* أكمل دراسته الجامعية في بغداد وحصل على درجة بكالوريوس من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

* درس القانون وأكمل دراسته العليا في براغ وحاز على شهادتي الماجستير والدكتوراه. وتخصص بالقانون الدولي.

* عمل باحثاً علمياً ونشر العديد من الابحاث والدراسات الأكاديمية وصدر له عدد من الكتب والمؤلفات في مواضيع فكرية وسياسية ودولية وثقافية مختلفة. وزاول الصحافة لسنوات.

* عضو اتحاد الصحافيين العالمي وجمعية المحامين العرب في بريطانيا ورابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين.

* ساهم في تأسيس اللجنة العربية لدعم قرار الامم المتحدة ٣٣٧٩ (اللجنة العربية لمناهضة الصهيونية والعنصرية) وشغل منصب أمينها العام وما يزال عضواً في أمانتها العامة.

* يعمل حالياً مستشاراً قانونياً الى كونه رئيساً للمنظمة العربية لحقوق الانسان في بريطانيا.

هذا الكتاب

لعل من أبرز مزايا هذا الكتاب الممتع إن المؤلف، الذي عُرف بدراساته وبحوثه الفكرية ذات النزعة التحديدية والانسانية، خرج في تأليفه عن الطرق التقليدية المتبعة في كتابة الدراسات الأدبية والسير الذاتية، التي اعتادت أن تتبع منهجاً معيّناً من مناهج البحث العلمي أو تلزم نفسها بنظرية مدرسة معينة... وانما تخطّاها الى فضاء أرحب، يتسع لرحابة شعر الجواهري وحياته العريضة... فترك البحث يسلك مجراه الطبيعي في تدفق الاحداث وتحرك أجواء الشعر وانسيابه بتلقائية مع جريان نهر الذكريات في ذاكرة الشاعر، وكأنه ليس نوعاً من كتب "الأوتوبايوغرافي" وانما هو فصول رواية شائقة تتعدد فيها المشاهد وتتصارع داخلها الاحداث الدرامية عبر حركة دائبة للشخوص والابطال.

ان الدكتور عبدالحسين شعبان هو أحد الأدباء القلائل الذين نجحوا في اختراق الاسوار العالية ليصلوا الى الجواهري، ويكتشفوا عالمه الغامض الآسر، ليستخرجوا مادة غنية ونادرة هذا الكتاب المميز. لقد كتب هذا الكتاب السسيوثقافي باسلوب مشرق ولغة شفافة مع تحليل عميق للاحداث والشخصيات، التي عاصر المؤلف بعضاً منها معايشة أو متابعة، مما يعطي للقاريء متعة جمالية فريدة الى جانب غزارة المعلومات التاريخية والادبية.

ان غنى المادة وجدّتها (حول خصوصيات الجواهري) ناهيكم عن متابعة مساراته المتنوعة من خلال النص الشعري، جعلت الكتاب ليس فقط كتاباً أدبياً شاملاً حول شعر الجواهري وحياته وانما جعلته مصدراً تاريخياً لاغنى عنه... سيكتشف فيه القراء عالماً جديداً ساحراً لايختلّه بجدارة الا الجواهري الخالد

الدكتور عبداللطيف اطيمش

الغلاف من تصميم الفنان العراقي ضياء العزاوي. واللوحة من مجموعة كتابه "تحية إلى الجواهري" للفنان نفسه وهي موقعه من الشاعر الجواهري والرسام العزاوي مع مقدمة للشاعر ادونيس